

الأمم المتحدة

بواسطة

باسم الحكيم



0014499

Bibliotheca Alexandrina

منشورات دار ومكتبة الهلال بيروت

أَصْلُكَ لَأَسْأَلَنَّكَ وَسْطَ الْوَجْهِ

فلسفة الروح

١

أَصْلُكَ الْإِنْسَانُ وَسِرُّهُ جَوْدُكَ

تأليف
بازمته كمال

منشورات

دار ومكتبة الهلال

طبعة ١٤٠٣/٥ هـ بيروت

جميع حقوق الطبع محفوظة
لدار مكتبة الهلال

الطبعة الأولى ١٩٨١

الطبعة الثانية ١٩٨٢

الادارة العامة - بيروت وشايع المقداد - نهاية فرحات ومجازي

ص. ٣٠٤ : ٣٠٥ / ١٥

كلمة لا بد منها

الروح والجسد هذا الموضوع العرفاني الخطير الذي تعالجه السيدة ياسمة كيال بأسلوب موضوعي عقلاني مبني على مرتكزات علمية ناضجة قد حير عقول العلماء والفلاسفة ، والحكماء ، منذ وجود الانسان على هذا الكوكب . وهم لا يزالون حتى عصرنا الحاضر فيه بين أخذ ورد ونقاش وجدل . وربما لن تنسجم الأفكار ، وتتفق الآراء حتى نهاية الوجود والموجودات .

والروح التي تسللت الى الجسد الانساني فواكبت سلوكه ، وانفعالاته ، واستجاباته خلال فترة وجوده في عالم الكون والفساد ليست سوى جزء من الروح الكلية التي أوجدت الموجودات ، وأبدعت كافة المبدعات العلوية والسفلية ، تشتاق الى العودة الى الكل الذي انبثقت منه لتبلغ كمالها ومثاليته . ولن يتحقق لها هذا الانصهار في البوتقة الكلية الا اذا عرفت ذاتها ، وتيسر لها الانتقال من القوة الى الفعل عن طريق الافادة والتعليم ، واكتساب الأخلاق الفاضلة، التي تتجهر مع جوهرها الروحاني السرمدي .
وليس الجسد الانساني الذي يعمل بين جنبه الروح سوى

لم يمس بال عفن يخلعه الانسان عندما يرتقي في معارفه العقلية ،
وعلموه الحقانية الى مصاف الحكماء ، والأنبياء ، والأولياء ،
والزهاد والمتصوفين • والجسد يراء الحكماء الربانيون ليس
سوى المظهر الخارجي الذي به يتعارف الناس الى حين ، ولا صلة
له بالروح وتمريفها ، ولا هو ملك لها ، بل هو ملك للتراب
والهواء والماء والنار ، كونه من هذه العناصر تكوّن وتشكل ،
واليها يعود بعد الفترة المحددة التي يقضيها في عالم الكون
والفساد •

وما دنا وصلنا الى هذا الحد لا بد لنا من القول ان الروح
هي التي تهب الانسان طابعه العقلي ، ومنابعه الخلقية ،
باعتبارها جوهرية قدسية تشع يقواها الفروحية فتضيء للجسد
الفان دروب السعادة ، والهناء ، والسؤدد ، والمجد ، اذا ما كان
ذلك الانسان واعيا مدركا قد توصل الى معرفة ماهية ذاته •

وربما تسأل المرء عن ماهية هذه الذات الواجب الفوص في
اصنافها لمعرفة كنهها وجوهرها الحقاني الذي ينير الطريق الى
الأسس المرفانية ، والمركبات العقلانية ، ليرتشف من رحيقها
ومضات الكمال والثالبية •

والذات عندما تبلغ كمالها وتصبح صورة تعامية يكون بها
انتقالها الى رتبة محاوية ، اذا استكملت قواها ، وصحت أدواتها ،
واعتمدت أقسامها ، واستوى نظامها وبلغت ما أعد لها ، وان
كانت بخلاف ذلك وبالعكس منه ، بقيت مقارئة للكون تارة ،
وللفساد أخرى ، حتى يكون الغالب عليها أحد الأمرين ، اما
السعادة الكاملة ، واما الشقاوة الشاملة لها ، اذا تغطي عنها
نورها ، وأظلم جوهرها ، وخفيت عنها مناقبها الخيرة ، واشتغلت

بلذاتها . وانهكت في تناول نهماتها ، من أكلها وشربها ، وما يكون به صلاح جسدها ، وقوام قالبها ، وعمارة مسكنها الفاني ، وغفلتها من عالمها الروحاني ، ومحلها النوراني ، فتصير بأعمالها الرديئة ، وأخلاقها السيئة من أهل النار ، وسكان دار البوار ، بما كسبت ، وتحيط بها سينات ما عملت ، وما ربك بظلام للعبيد .

وليس بقاء النفس في الجسم المدة المقدرة لها الا لكي تعمل وتفعل لتتم لها صورة تنتفع بها ، اذا فارقت هذا العالم الفاني ، والمحل الجسماني ، فان فاتها ذلك انعكست في المنقلب ، وعادت الى سوء الطلب ، وقالت : « يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله ، وقالوا : يا ريتنا نرد » فنعمل غير الذي كنا نعمل .
وهيات ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، ولا يمكن النفس من الوصول الى العالم الروحاني ، والمحل النوراني الا بعد مفارقة هذا المكان الدنيوي والقالب الجسماني ، والنفس الطائفة اذا اكملت طاعتها ، وبلغت نهايتها وانتهت الى غايتها في الصورة الانسانية ، واستحقت بأعمالها الزكية ، وما كسبت من أعمالها صورة ملكية ، والنقلة الى رتبة مساوية ، لانتقائهم العلوم والمعارف في جهرها ، واكتساب الفضائل المحمودة ، واقتنت العلوم الفاضلة من المحسومة والمعقولة من اصناف العلوم في الأعلى والاسفل والادق ، والاجل ، والأدون ، والاكمل وعرفت الطرفين ، وبانت لها المترلنان ، وأعربت عن الاشياء بقوة النطق ، وطرحتها في طرق التعاليم ، فيتصل بها الوحي والالهام بحسب قوتها ، وما في وسعها ومطاقها ، فتستخرج بعلمها آراء وتستنبط بذهنها مذاهب .

ان المواضيع الماورائية التي أوردتها المؤلفة ليست سوى أفكار عقلانية تدعو للتخلي بمكادرم الأخلاق ، وتعزز الايمان بقدرته :
الباري سبحانه وتعالى وحكمته ، كونه المبدع الخالق الموجد لكافة الموجودات ، فمن الضرورة يمكن توحيد هذا المبدع وتجريده من كافة الصفات التي تتصف بها موجوداته ومبدعاته ، باعتباره أسمى وأرفع منها لأنه موجدها ، ومنظمها ، ومرتبها .

ومتى كان البرهان على بدم الخليفة ، والتكوين البشري ، مستعدا من الايمان المطلق بالله وبعدالة ناموسه الخلقي ، فان البرهان اذا كان عقليا منطلقا مما يحسن به المزم ويعقته بنفسه يكون أحرص على التمسك بايمانه بالله وبقدرته العجيبة .

واذا كان الحكماء والفلاسفة يعتمدون في حكمتهم وفلسفتهم على المنطق الفلسفي ، فان البرهان الايماني التسليمي ينسجم مع متطلبات كل مؤمن يحاول أن يدعم ايمانه ويعززه بالمحبة والاخاء بين جميع الاجناس والمذاهب والأديان .

وفي عر في أن انسان هذا القرن الذي راح يربط بين أفكاره الموروثة والمكتسبة وبين الاكتشافات الحديثة من اختراعات وعلوم وفلسفة ، قد يحاول أن يفرض في أصفاق المعتقدات الدينية الماورائية ، عسى أن يجد فيها الخلاص من دوامة القلق التي يدور في فلكها ، فلا أقل من أن يستمد معرفته ، ليتمكن من سلوك طريقه العرفاني الذي يقوده الى السعادة والهناء في العالم الروحاني المؤثر في عالمنا المادي الزائل . وللمعرفة دورها الفعال في تقدير قيمة الانسان ، واحترام مشاعره البقاء ،

وعقله الناهد الى الوصول الى جوهر الحقيقة ، والارتقاء بذاته
القاعلة الى الكل الذي انبثق منه .

والتطور نحو الأسمى والأكمل مرتبط بقوة الايمان ومعرفة
النفوس التي تقود الى معرفة الله ، والعمل بموجب ارشاداته
وتعاليمه الخيرة الكفيلة بنجاح الحياة ذاتها .

في كتاب السيدة باسمه كيال آراء وأفكار قيمة تساعد
القارئ على فهم بعض المراكز الفلسفية المتعلقة ببدء
الخليقة وتطور الجنس البشري ، يستحق الدراسة بدقة وتأمل
لاعتداده على آراء كثيرة ومتنوعة حملت في طياتها العديد من
المعتقدات لدى كافة الفرق ، والمذاهب ، والأديان .

بيروت ٢٠/١٢/١٩٧٩

الدكتور مصطفى غالب

مقدمة

قصتي مع الروح قصة ، تمتد في جذورها الى اليوم الذي عرفت به نفسي بعد أن انجرفت في تيار الالحاد وغصت في الأوحال حتى فمة رأسي ، لسنوات عديدة كنت خلالها واقعة تحت سيطرة عوامل عديدة تنطلق برمتها من انفعالات جسدية دنيوية لا تمت بأية صلة الى واقعي الروحاني .

فالروح هذه الجوهرية الحقائية الخالدة قد عرفتها ، وسيرت أعماقها بعد أن تأكدت أن الجسد ليس سوى قميصا ممزقا يجب طرحه وابعاده لتتعلق الروح متفاعلة مع عالمها الأبدي . وطالما أن تلك الجوهرية السماوية تتحكم بكافة انفعالاتنا واستجاباتنا الجسدية ، فلماذا لا نحاول بتدبر ما يهبنا الباري سبحانه وتعالى من تأييد علوي ، وقوى فاعلة ، البحث بدقة وتروى عن ماهية تلك الجوهرية في ضوء امكاناتنا العقلية ، وتجاربنا الروحية الناهدة الى الكمال والمثالية ؟

فالتفص عندما تدخل في الجسد المخصص لها بأمر الكل الذي انبثقت منه ، تكون كالورقة البيضاء المعدة للكتابة لم يكتب في

حتاياتها أي سطر ، لذلك لا بد لنا ما دمننا على استعداد لتلقي الافادة والتعليم ، من قبول الافادة عن طريق معلم عارف لنستطيع نقل أنفسنا من حد القيام بالقوة الى حد القيام بالفعل ، حيث نبلغ الكمال والمثالية ، ونقطع عن كل ما يسود معالم تلك الورقة بالشهوات الدنيوية ، والافعال السيئة التي تجعلنا دائما واهدا ندور في دوامة من الخوف والقلق وعدم الاستقرار .

وما دامت الحالة على ما هي عليه من عدم الاستقرار لا بد لنا من البحث عن الدلالات الواجب اتباعها لتلقي ضوء مشع على المسائل الروحية الواجب اتباعها في الأفاق والأنفس ، والفرض المقصود اليه فيها ، والمطلوب منها ، هو سير المماني الكامنة خلف الايمان بالحقيقة ، والتسليم بقول اصحاب التأييد عن الله ، كما قال سبحانه : آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وليست المعرفة الروحانية سوى فائدة علوية ، ودرجة ايمانية ، والهام ابداهي يتسلل بخفة الى النفس العارفة لينور مطلقاتها العقلانية ، ويصهرها في بورتقة اليقين الكامل الذي لا يتزعزع ، وبدافع وجداني ينطلق من الاعماق ، تسيطر على النفس انفعالات الصفا ، وتجنب الخيانة ، وادام الأمانة ، والبعد عن المعصية ، وقول الحق ولزوم الصدق ، ومعرفة الله حق معرفته ، وطاعته ، وعبادته ، والتقرب اليه بما يرضيه من الاعمال الزكية ، والاخلاق الرضية ، والأوامر الحميدة ، والاعتقادات الجيدة .

ومعرفة القضايا الماورائية ، والرموزات العكمية ، المكننة للأمور الظاهرة ، ليست سوى موضوعات تنبعث من أعماق

حقائق موجبات الحكمة الالهية ، والقدرة الابدائية ، لا بد لنا من الاعتماد عليها ، ومبرر أعماقها لتتوصل الى معرفتها بأوضح دلالة ، وأعمق عبارة ، مبرهنين عن شوقنا العنيف الى ما يطرق وجداننا ، وينبعث في ضمائرنا ، من صلاح يجب أن ينبعث في عقولنا ، لنعرف ذواتنا ، وما في هذه الذات من علوم ومعارف ، كلها خير وجود علوي مرصدي يمدنا الله به لتواصل سيرنا التصاعدي في طريق الحق - وبعد أن عرفت ذاتي ، وأدركت ماعية هذا الكائن العاقل الذي يتفاعل في وجداني وضميري ، قررت أن أحب جسدي ونفسي الى العلم والمعرفة والايمان بالمبدع الحق الذي أبدعنا وصورنا لنكون عناصر فاعلة في المجتمع الانساني ، نمطيه ما يستحقه من خير ، ونعمده بقدر الامكان عن الشرور ، والظلم ، والاضطهاد ، مدفوعين الى ذلك بوجودنا نقي نكيفه حسب صلتنا الوثيقة بالله وبأخوتنا في الانسانية - وما دما نفكر بما يحيط بنا من موجودات علوية وسفلية ، لا بد لنا من التقصي بروية واتزان عن العلل والاسباب التي تبعث في أعماقنا الاطمئنان والاعتناع بأن لكل موجود من هذه الموجودات علة فاعلة كانت السبب في وجوده وترتيبه وتنظيمه بهذه الدقة المتناهية -

ومتى وفقنا الى معرفة العلة الأولى وجدنا الطريق الى تغيير اتجاهنا العقلي ، وتفكيرنا المنطقي ، ونجونا من الكثير مما نعانى من متاعب وويلات ، تجعلنا على الدوام نتخبط في أتون المادية والالحاد ، وتقودنا الى التردى في هاوية الجمود الفكري ، والبوار العقلي -

ولعل اختياري لهذا الموضوع الشائك الخطر يوفر لي الربط

بين حقائق العقلانيات ، وحقائق العلوم الأخرى ، ويضيء لنا الجوانب الخفية من جوهر المعرفة الروحية التي لا غنى للإنسان عنها لتتكون لديه فكرة الاقتناع الكامل السليم ، الذي يؤهله للصعود الوجداني حيث سيتبوا المكان اللائق به في خضم المسالك التوحيدية والتجريدية .

والنتيجة التي خرجت منها من خلال بحوثي في إطار الروح قد أوصلتني إلى أن الإنسان هذا الكائن الحي الذي ملا الدنيا وشغل العالم باكتشافاته واختراعاته وابتكاراته التي فاقت حد التصور ، ليس سوى روح تشع بأنوارها القدسية ، وملكانها العقلانية على الكون فتضيء بعالمه ، وتنور ظلماته ، غارقة بفاعليتها وقدرتها جميع السجف والأستار . أما الجسد الترابي فليس سوى ردام بال تحبس فيه الروح إلى فترة معينة قدرها الله ، فلا يجوز لنا والحالة هذه أن نسمي الشخص بالردام الذي يرتديه ولو كان هذا الردام من أفخر الأنواع ، وكيف يكون موقفنا وهذا الردام من التراب ؟

ونحن نذكر أن القول بأن الإنسان روح لا جسد ، لا جسد له روح ، أقرب إلى الحقيقة والواقع ، لأن الروح هي التي تكون الطابع العقلي والوجداني للشخصية الانسانية ، كونها صانعة الجسد وجوهره ، كما هي صانعة مصيرها في حدود نواحيس الوجود .

ولما كنت قد اقتنعت عقليا معتمدة على الأدلة والبراهين بأن الروح ليست من نفس المعدن الذي تتركب منه الجسد المادي المعرض للفناء والبوار بعد مفارقة الروح ، فقد صممت على

الفوضى في أعماق هذه الجوهرة السماوية لدراسة معالمها ،
ومعرفة صلتها بالحقائق العرفانية الثابتة التي عالجها العلماء
الربانيون والحكماء الحقانيون ، وأكدوا بأن على الإنسان أن
يتطلع بشوق ونهم الى الروح الكلية والعلة الأولى التي كانت
السبب في وجود الأرواح الجزئية التي انبثقت منها نتيجة الخطأ
أو السهو الذي ارتكب في العالم الروحاني .

وفي اعتقادي أن الروح إذا كانت غير مؤمنة عارفة غير قابلة
للغناء كما يفنى الجسد الذي ارتبط فيها لفترة ما حسب إرادة
الباري سبحانه وتعالى ، وليس اعتقادي هذا مبني على التسليم
بصحة الخلود فقط ، إنما يعتمد على أسس ما يربط الإنسان
بربه ويوجدانه وبمقله ، ويفهم لهذه الأمور نتيجة دراسة عميقة
هادئة مرتبطة بين حقائق الخلود والمقل والاعتقاد ، وبين حقائق
العلوم الماورائية التي تكشف عن دقائق العلوم الكونية .

ولعل الوصول الى جوهر العلوم الماورائية ، ومعرفة ظواهرها
ودلالاتها ، يصور لنا الاطار الحقاني الموضوعي النفسي من
شوائب الجمود والتعصب ، بل الفقي من كل ما يشين تقدير
فاعلية المبدع الحق الذي أوجد هذه العوالم العلوية والسفلية
بقدرته الخارقة المعجبة .

ومن حق العقل الحكيم إذا ما حاول التردد في الاقتناع أن
يبحث وينتقب عن أسانيد في بحوث جادة مثابرة ، وأن يدقق
في مدى صلة نتائج هذه البحوث بحقائق الآراء الماورائية التي
يبحث عنها لتحقيق جوهرية مرتبطة بالإنسان وسماعته أو شتائه
وعدايه .

وإذا كانت أزلية الوجود من المعطيات الحكمية الفلسفية ،
 حتى ولو كانت مرتبطة بالأمور المادية على نحو ما ، فإن أزلية
 الروح الانسانية ليست على نفس الدرجة من الثبوت ومن
 الوضوح - فالشخصية الانسانية غير الذات الانسانية من ناحية
 أن الشخصية خاضعة لتأثير التطور . فهي تتطور يوما بعد
 يوم ، وفي التطور فناؤها وبقاؤها معا . فهي تغني عن طريق
 التطور عندما تتغلب تدريجيا عن بعض أوجه ضعفها وقصورها ،
 وتكتسب تدريجيا ملكات وفضائل متجددة على الدوام اذا عرفت
 كيف تستخدم حريتها في الاختيار ، وكيف تشق طريقها في
 الاتجاه الصحيح للتطور ، وهو اتجاه نحو انكار الذات - وهذا
 الاتجاه في التطور نحو الأحسن والأكمل هو الذي يكفل للذات
 بقاءها . وهو الذي يتحقق عن طريق حياة المادة كما يتحقق
 أيضا بعد التغلب على المادة بعد الموت ، وهي في حقيقتها تحول
 الحياة من صيغة معينة الى صيغة أخرى أرق منها وأرقى . وهذا
 التحول هو الذي نسميه الخلود . ولا يتأتى الاقتران بالخلود
 عن طريق الإيمان المطلق فحسب بل عن طريق التجريب
 والاطلاع ومعرفة حقائق ما يتفاعل في أعماق العقل الانساني .
 ومما لا شك فيه أن كلمة خلود تعني الأزلية والسرمد ، والاعتماد
 تماما على المكان والزمان ، والارتقاء بالنفس الى عالمها العلوي
 لتستجم في خضم الحياة الروحية الأزلية ، التي تمدها بالتأييد
 وتنقلها من الكثافة الى اللطافة ، حيث المثالية والكمال المطلق .
 ومن الملاحظ أن الاعتقاد بسرمدية الروح ليس من الأمور
 المحدثه ، بل هو قديم قدم الانسان ، الذي تصارعت أفكاره منذ
 وجوده ناهضة الى الكشف عن ما يحيط به من وجود وموجودات

علوية وسفلية ، تارة من طريق الاعتقاد ، والتقليد ، وأخرى
عن طريق الإلهام والفلسفة والتحليل . لكن قلما كان وصوله
إليها من طريق البحث الخاضع لاسلوب النقد والاستنتاج الذي
يتعلق بالأشياء المادية وما وراء المادة .

ولقد اعتمدت في تأليف هذا الكتاب الروحاني على جميع
الآراء والأفكار التي عالجتها بدم الخليفة والتكوين النوعي لأبناء
البشرية ، وحاولت بقدر الطاقة أن أناقش بعض الآراء التي
لا تتفق مع عقيدتي الواضحة الصريحة بوجود الخالق الصانع
الذي كوّن هذا الكون الفسيح بما فيه من مخلوقات وكواكب
وأفلاك .

وكان من الطبيعي أن اعتمد على آراء الحكماء والفلاسفة
الذين عالجوا في مصنفاتهم القضايا الماورائية على أسس فلسفية
عميقة منبثقة من الكتب السماوية والآراء العقلانية التي أطلقها
الرسول والأنبياء ، ضاربة بعرض الحائط ببعض الأفكار الفلسفية
الالحادية كونها لا تنسجم مع مذهبي وعقيدتي الإسلامية الخالصة
في الأمور الماورائية .

ومما دعاني إلى التأمل والحذر الشديد شعوري بأن بعض
المتزمتون الذين ينبهوا في كل مناسبة للدفاع عن القضايا
الماورائية باسم الفجرة على الدين ، بدون أن يفكروا بأن أمثال
هذه البحوث هي التي تنور الأذهان ، وتقوي دعائم الإيمان
المطلق بوجود خالق له الفضل الأول والآخر على كافة المخلوقات
التي أبدعها وكونها بقدرته الخارقة . وإذا كنت قد أخذت بآراء
بعض الفلاسفة والحكماء من جماعة أهل الحق ، لكون أفكارهم

العقلانية تنسجم مع واقع الايمان والحقيقة ، وفي ضوء شعاعها
المرفاني يمكننا أن نصل الى الطريق القويم ، الموصل الى الباري
سبحانه وتعالى ، وأن ننقل أنفسنا القائمة بالقوة الى القيام
بالفعل ، حيث السعادة والهناء والخلود في جنات الله الواسعة .

ولا يسعني في هذه المناسبة الا أن أقدم جزيل الشكر
والامتنان لفضيحة الدكتور مصطفى غالب معلبي ومنيدي ومنور
طريقي الحقاني ، جزاء الله عني كل خير ، وسدد خطاه لما فيه
الخير والفلاح ، وأضيفه شكرا خاصا للأستاذ أحمد مغنية
صاحب « دار الهلال » لما يقدمه من خدمات أدبية وعلمية لرفع
المستوى الفكري في البلاد العربية والإسلامية .

بيروت في ١٠/١/١٩٨٠

باسمة كيال

ماهية الروح والجسد

منذ البدء - - ومنذ وجود الانسان الأول على ظهر البسيطة تتصارع أفكاره وتتكوب معارفه ناهدة الى كشف ما يحيط به من وجود وموجودات علوية وسفلية تشمخ بغيلاء ، وتضفي على الكون آية من الروعة والجمال -

أقول : منذ البدء يبحث الانسان بشوق ونهم عن الحقائق الكونية لمعرفة الأسرار والخفايا الكامنة وراء الأمور الغامضة ، والمشاكل المبهمة لأشباع غريزة التساؤل ، وحجب المعرفة ، والطموح الفكري ، على ضرورة وجود مبدع عظيم ، ومنظم كبير ، قد أبدع بقدرته السامية كل ما يحيط بالانسان من مصنوعات توفر له السعادة والرخاء والعيش الكريم في أجواء تعبق بالايمان الذي يقرب نفسه ووجوده من المبدع المصور ، والموجد لموجوداته الذي عجز العقل البشري عن ادراك ماهية انفعالاتها ، وثفاعلاتها مع بعضها البعض - ولم يخفف من غلوائه مجهول مطلسم ، أو لفن مسحور ، فكان شعاره أن يحترق في ذاته ليستمد منها وقودا أزليا يدفع به صعدا الى الأعلى ،

فيتمثل الامثل من خلال المثل ، ويتجسد المعنى من خلال التعبير بالشكل !!

إذا لا بد لهذا الانسان مهما بلغ من التقدم والرقى من الاعتراف بفضل هذا المبدع والمصور عليه ، كونه علة لوجوده ، ومسببا لرقيه وشموخته ، يتطلع دائما وأبدا نحو موجدته ومبدعه - أخذ العقل منذ ذاك ، يفلسف ويناقش ، عندها كان على الانسان أن يتمثل خلقا جديدا ! ولن يكون هذا الاعتراف بمفهومي كائناتية يتعامل في أعماقها الايمان المنقطع النظير بوجود الخالق المبدع التي تدل عليه موجوداته ومبدعاته ، تلك المبدعات والموجودات التي يقف الانسان عاجزا عن ادراك ماهيتها وعللها ومطلولاتها ... لقد أدركت ادراكا حثاثيا إن مفتاح الكنوز المرصودة ، ومفينة المعرفة الحقة ، هي النفوس الانسانية عندما تلتقي بالضياء العقلي ، والنور السرمدي ، مما تستلهمه في كل أمورها ، وتعبد له الانسان في شغف ووله شديدين ، وتجاوزت تعطلاته الأسباب الى المسببات ، وتخطى عقله المعلوم الى الملة - وقاسى حربا مريرة لم تنته بعد ، وهو كلما أحرز انتصارا ، أو تقدم خطوة شعر بالحاجة الملحة الى المزيد ، الى حيث لا تنتهي الحياة ، وتبقى الحرب مستمرة بين الانسان والحقيقة ، ويظل الانسان جنديا مفوارا لا يعرف التراجع ، وملاحا لا يعرف الهزيمة -

وما عثم أن أخذ الانسان يعد نشاطاته عبر الأكوان والموجودات ، ويحكم ربط الحلقات بعضها مع بعض في سلسلة روحانية علمانية ، لتكون سلما لعقله المتوثب الطموح الى الماورائيات - فخاص في أعماق عالم النفس ، فتشبهت دروبه ،

وتعددت وسائله بتمده احتياجاته ، فإذا الطرق عديدة كثيرة ،
وتبقى الغاية واحدة ، وهي الوصول الى جوهر الحقيقة -
وهيهات أن تهب الحقيقة رأسها هدية على طبق من فضة !! -

ومع دوامة الفكر الوشاب المتضائل تشع شموس ، وتتلألأ
كواكب ونجوم ، فمن كان اشعاعه اكتسايًا غيبه الظلام الحالك ،
ومن كان ذاتيًا في أنواره ملفت عليه الشموس الالهية السرمدية ،
ويبقى له فضل الاكتشاف والاقدام تطلعا الى الملا ؟ والشموس
كثيرة ، بمقدوره أن يصير شمسا لا تغيب ، فمن أي هذه الشموس
انطلق يا ترى وقلبي يغمره الوميض الحثاني الناهد الى الكمال
والسرم - ٢ -

سر الانسان :

الانسان هذا الكائن العجيب الذي يجسد سرا خفيا من أعقد
الأسرار المحيطة في الوجود والموجودات ، والتي تشغل تفكيرنا
العقلاني منذ وجود الخليقة ، وقف وجوده وتفكيره على معرفة
نفسه وما تنطوي عليه من انفعالات ذاتية ، يتطلع اليها بشغف
عقله العامر يشقى صور الفكر والشعور والاستجابات المعرفائية
وما قد يحققه في حياته من شتى أنواع الفشل أو النجاح - فإن
هذا الانسان قد يفشل في حياته المادية ، ولكن قد يكون هذا
الفشل الظاهر هو بعينه أروع صور النجاح الروحي وانعاشها
للاعتزاز وللتقدير - وعلى العكس من ذلك قد ينجح في حياته
المادية فيجمع الى السلطان الكثير والثراء الوفير ، ومع ذلك قد
يكون هذا النجاح هو بعينه فشله الذريع في حياة الروح ، وفشل
حياة الروح فيه - وهي حياة لا تأبه بسلطان ولا ثراء فيه -

ومع ذلك فلا ينبغي أن يفوتنا أن حكم الانسان على الانسان مشوب دائماً بالقرائن المضللة - ولا شيء يفسد العقل في تقديره للناس أو للأعمال مثل القرائن ، أيا كان مصدرها - فكلهما شراك تضلل الانسان في حكمه على نفسه وعلى الآخرين - بما في ذلك الانتماء الى أي جنس أو وطن أو أسرة أو دين ... أو حتى الانتماء الى مؤهلات علمية معينة ! فمواهب الانسان وقدراته الحقيقية شيء أعمق بكثير من ذلك كله - ولذا كثيراً ما نجد الانسان القليل الحظ من التعليم أصدق تقديراً للأمور ممن قد تصور أنه من أعلم العلماء ، أو من أذكى الأذكياء ، وعندها تعجز عن التعليل فنقول : بل هي الفطرة السليمة أساس كل تقدير سليم ، ولكن ما هي هذه الفطرة ؟ وكيف تجيء ؟ ولماذا قد تصيب عند الجاهل وتخيب عند العالم ؟ أليس في ذلك كله لغز ضخم يثير الانتباه ؟

وأيا كان حكم هذا الانسان على نفسه ، أو حكم الناس عليه ، وأيا كان موضعه من النجاح أو الفشل ، ومن نضج الفكرة أو سلامة الفطرة ، فإن العلم عاجز في النهاية عجزاً تاماً عن أن يتفهم فهماً صحيحاً كيف جاء الى هذا الوجود ، وكيف نما ، وكيف يتطور ، ومن أين جاء ، وإلى أين يعود ، وكيف يفكر ، وكيف يتخبط في فكره وفي شعوره الى آخر الحدود ، ومع ذلك تحنو الطبيعة عليه حنواً عجباً حيناً وتقسو أحياناً - كيما يصبح في نهاية المطاف هو السيد الأمر فيها لا العبد المسود - فهل هذا الانسان ابن للبيئة أم للميراث ؟ ان أية دراجة موضوعية تكشف أنه ابن للبيئة وللميراث الى حد ما ، ولكنه قبل ذلك كله هو ابن للطبيعة الخالدة لأنه يخفي بين جوانحه تاريخاً حافلاً عريقاً ،

ويبرز من بين خصائصه الغائرا لا عداه لها، وأحداثا رهيبة تعرض لها في ماضيه السحيق تركت أثار بصماتها في كل ملامحه ومقومات فكره وشعوره . وأن أي محلل نفسياني مدقق يتحرى تاريخ أي انسان منذ ولادته يجد أن هذا التاريخ القصير لا يكاد يفسر شيئا على الإطلاق مما يلحسه فيه من مقومات الفكر أو الشعور التي فطر عليها هذا الانسان . وأن أي دارس لتاريخ الشخصيات التي « صنعت التاريخ » كما يقال أحيانا يأخذ به العجب مما في الانسان من متناقضات قد تجمع بين العبقريّة والتفاهة ، وبين الحكمة والحماقة ، وبين الحق والغرابة ، وبين المجد والهوان ، في وقت واحد في شخصية واحدة ، بحيث يمكن القول بأن أية شخصية قد صنع لها التاريخ كل شيء ، وما صنعت هي للتاريخ شيئا على الإطلاق ، وأن بني البشر كلهم من صنع هذا التاريخ العريق العاقل بالأضداد ، والذي تعد محاولة استكشافه ضربا من المحال ، لأنه يمتد للوراء إلى ما لا نهاية يحكم قانون ارتباط النتائج بأسبابها الأولى ارتباطا ليست له بداءة معرفة ولا نهاية ، هذا القانون المتيد الذي لا يفلت من سلطانة شيء في الوجود ، ولو كان عصفورا ، أو فراشة ، أو سمكة في قاع البحار ، أو ذرة من جماد لا تدركها الابصار . ووراء لغز الانسان يتخفى في مهارة بالغة عقله ، وهو مستودع الفكر فيه والشعور ، هذا العقل الذي عجز أي عقل أن يعرف كنهه ، أو يتصدىقه ، لأن عقل الانسان أسمى منه بكثير ، وصنع بكيفية تتعالى بغير ما ريب عن مستوى ادراكه للأمور ، ولا عجب لأن هذا العقل هو جوهر الانسان ، أو هو الانسان الحقيقي المفكر ، الشاعر ، المؤمل ، الباحث في الغاز الحياة .

المتطلع الى امتدادها ، المعاني لتأصيلها ومخاوفها ، المقتنعم لاهوالها
الجسام ، وكأن كل المطلوب من الانسان في النهاية هو أن يعرف
كيف يعيش الانسان في نطاق فكره المحدود محاولا أن يتسامى
به عن عالم القيود والحدود الى عالم آخر أسمى منه عن طريق
تعددي ما قد يكتنفه من أحراش وأجسام ، وتجرع ما يحيط به
آثام وآلام .

ومع ذلك يظهر هذا الانسان في الطبيعة كما لو كان هو وحده
مستودع الفكر والشعور ، والحياء كلها ليست أكثر من فكر
وشعور اذا ما عرفا كيف يتكاملان ويتجاوبان معا كاتا علة هذا
الوجود وأصل الحياة فيه فهل هذا الانسان أعظم من كل
منايع الوجود الذي يحيط به ؟ وهل هذا الانسان نفسه الكائن
التافه الذي يتعلق بالمادة في كل صورها الى أقصى حدود التعلق ،
فلا تتعلق به المادة أبدا بل تنبذه نبد النواة ، فينهار في طرفة
عين أو في ومضة برق كما ينهار عصفور أو فراشة ، ويذهب
هباء منشورا كما تذهب سائر أوهام الحياة وأحلامها ويقال
فيه مات رحمه الله ولم تبق منه الا ذكرى الأوهام التي
عاش فيها والأحلام التي عاشت فيه !

أم هذا الانسان هو على النقيض من ذلك روحه الخائنة
المتطورة التي تسمو على المادة ، وتتأبى عليها راضية أو مكروهة ،
فلا تبدو المادة الا وهما من أوهامها وطيفا عابرا بين أطياف
أحلامها ؟ !

ومع ذلك فهي تتعلق بالمادة - في شتى صورها - كل التعلق
حتى الموت ، ومع انها في غنى عنها في أية صورة من صورها

بسبب هذا الموت نفسه !! وهذه هي الروح التي يقول الروحانيون انها حية خالدة ، بل هي أم الحياة وبنات الخلود ، وانها هي التي تنتقل بفكر الانسان وشعوره عبر الفضاء من حياة الى حياة ، وعبر الموت من فناء الى فناء ، كأن الكون كله ملك يمينه ما شامت له ارادة الله في التردد بين الأرض والسما ، وبين الحياة والمداقة وما قد يبدو لنا كأنه النهاية والفناء !!

وهذا الانسان لا يعرفه علم الروح ملاكا ولا شيطانا ، بل مجرد قلب له بعض مشاعر الانسان النسيطة ، وله في نفس الوقت كل نزواته . بل قد يكون أقرب الى الوصولي التزق الذي امتلأت مشاعره آناما ، ومع ذلك فان علم الروح يتقبله على علاته ، وعن فهم مستنير لطبيعة الضعف في الانسان ، ناظرا اليه نظرة الطبيب المتفاني الى المريض المعاني يريد أن يتحسس مواطن الداء حتى يحسن وصف الدواء . فهو يريد أن يداوي في حنان لا يعاقب في ضمنية ، كما يريد أن يأخذ بيد كل نفس قلقة الى حيث ترتاح تدريجيا من أسباب القلق المدمر والشقاء .

وهذه النفس القلقة ، المثقلة بالنزوات والاختطام ، هي نفس كل انسان ! فهي تنتمي الى كل جنس ولون ، وإلى كل مذهب ودين ، وإلى كل عصر وجيل ، وإلى كل مستوى في الفكر والشعور ، ومع ذلك يتقبلها علم الروح على علاتها ، بلا ادعاء ، لأنه يتقبلها أملا في معونة يقدمها بسخاء لا جريا ورام دينونة يدينها في غيابه . . . وهذا هو شان المحبة العظمى التي يتمناها كل راجي أصيل ناموسا للحياة بين بني البشر أجمعين ، وادعين ومتعابين . ولكن الفرد في النهاية هو موضع مناية كل قانون طبيعي ، ومن

طريق الحفاظ على الجزء ، تحافظ الطبيعة على الكل ، وتنمية
وشرعاً •

علة وجود الانسان - والتولد الذاتي :

إذا ما أردنا أن نبحث في علة وجود الانسان هذا الكائن الحي
لا بد لنا من تقصي ملل كافة المخلوقات المحيطة به ومعلوماتها ،
باعتبار أن معرفة الملل والمعلومات من أصعب العلوم العرفانية
التي لا يصل إليها الانسان ، ولا يضطلع عليها الا اذا كان
مرتاضاً بالعلوم الالهية ، والحكمة الربانية ، المأخوذة عن الحكماء
الالهيين ، وخلفاء الأنبياء ، والمرسلين تقليداً ، وإيماناً ،
وتسليماً •

وقبل أن نستعرض كافة الآراء العلمية والدينية ، والعرفانية
المتعلقة بهذا الموضوع نرى من واجبنا أن نقدم بعض الآراء
التي قالها الماديون حول التولد الذاتي فتتبسها من مقدمة
الدكتور اسماعيل مظهر الذي عقدها في ترجمته لكتاب أصل
الأنواع • لداروين • (١) قال : « بأن الحياة هي الحياة » بأقل
مما ملأوا به بطون المجلدات من بحث صناعات مقدماته في
نتائجه ، وضاعت نتائجه أزاء هذه الحقيقة الغامضة ! قالوا
منشؤها الماء ثم الهواء ، ومن غاب عنهم أنها نشأت من التراب ،
فقالوا أصل الحياة من التراب وتدرجوا الى القول بأنها نتيجة
اختلاط العناصر : وأي عناصر تلك التي تبتدع الحياة ؟ لا جرم
تكون سرا أبعد عن متناول العقل من الحياة ذاتها • قالوا بالتولد

(١) تشارلز داروين : أصل الأنواع ص ٢٦ .

الذاتي ، ولم يثبتوه بتجربة ، اللهم الا فروضا ما أنزل الله بها من سلطان . وما زالت هذه الفكرة تنتقل من جيل الى جيل حتى أراد « وليم طمس » أن يخرج بالعالم من ظلمات الجهل ، فقال بأن الحياة هبطت الى الأرض من السماء ، حملتها النيازك والشهب ، ومن ثم تكاثرت فيها . خرج بنا اذ ذاك من ظلمات جهل بسيط الى حلقة جهل وتركيب ، لأن الحياة سواء أنشأت في السماء أم في الأرض ، فذلك لا يوصلنا الى معرفة أصلها ونشأتها . تلك شاكلة البحث في أصل الحياة . والظن الغالب أن الفكر الانساني سيقف عند هذا الحد بن البحث أجيالا طويلا .

أمعن كثيرا من العلماء في القول بالتولد الذاتي ، وعقد للاستاذين « شيفر وباستيان » لواء الرعاة عليهم حتى قالوا بأن الانسان اذا استطاع أن يبرهن على التولد الذاتي في الاجسام التي لا حياة فيها تيسر له أن يبرهن على في الاجسام الحية ، ولبنوا على قولهم حينئذ من الدهر حتى قام « روسيل وولاس » وهو من زعماء النشوء والارتقاء ، ونقض لهم ذلك الرأي اذ قال بأن نواة الخلية الحية ليست شيئا كيميوا عويص التركيب ، ومن المستطاع تركيبها ثانية اذا خلطت ، ولكنها لا تكون نواة حية ، اذ تكون قد فقدت بين التحليل والتركيب ، سرا هو سر الحياة . فما هو ذلك السر ؟ لا جرم أن الانسان سائر من طريق العلم الى الاعتراف بالمعجز . فكلما كشفت لنا عن سر من أسرار هذا الكون الفسيح وجده محوطا بكثير من الأسرار الأخر التي يعجز الفكر الانساني أزمانا طويلا دون معرفة كنهها ، وتدرج الانسانية في كشف المغمضات حتى تنتهي الى حد تتكاثف عنده ظلمات تلك الأسرار ، واذا ذاك يقف الفكر معتوقا بالمعجز . .

و « التوالد الذاتي » رأي ظهر في أواسط القرن الماضي نتيجة لسلسلة بحوث منظومة قام بها فحول من العلماء في القرن الثامن عشر ، أو « قرن المادية » كما يقولون - وقد يتبادر الى أذهان الناس أن التولد الذاتي لزام للنشوء والارتقاء متابعة لرأي بعض الكاثبيين ! ولكن الحقيقة على تقيض ذلك - فإن التطور لا يبحث الا فيما بعد أصل الحياة من ذلك نشوء بعض الصور من بعض على مر الزمان ، ويتأثر نواحيس طبيعية قد نعرف بعضها وقد يغيب عنا البعض الآخر - أما القول بالتولد الذاتي فقد أتى من رأي شاع في القرن الثامن عشر هو القول بقدم العالم - واليك لمحة من ذلك نتابع بعدها المبحث في أصل الحياة -

القول بقدم العالم تدرج الباحثون منه الى انكار علة أولى واجبة الوجود بذاتها - ولأجل أن يؤيدوا مذهبهم أرادوا أن يطبقوه على عالم الحياة فقالوا بالتولد الذاتي اعتباطا ، ولا تقطع بأن التولد الذاتي قد يظل حلوال الدهور رأيا غير مثبت ، اذ من الجائز أن يكون رأيا صريحا ، تنيب عنا في الزمان الحاضر مهيئات اثباته ، ولكن ما يحقق لنا القطع به هو أن اثبات التولد الذاتي أو تغيبه لا يترتب عليه مطلقا القول بانكار « علة أولى » لأننا لو فرضنا أن الحياة قد نشأت من اختلاط بعض العناصر الأولية مدروسة بمهيئات آخر ، فذلك لا يستوجب نفى تلك القوة المدبرة التي استطاعت بوساطتها تلك العناصر من الدوران في سلسلة من التغيرات والتطورات حتى بلغت حدا عنده ، اثبتت فيها الحياة ، تلك السلسلة الدورية التي لا يمكن ايضاحها بأية طريقة كيميوية أو آلية - - ولئنا الآن على بعض الاخطاء التي تدرج فيها العقل المبشري الى القول بقدم العالم وانكار العلة

الأولى - وكان « لا فوازييه » أول من نبه الأفكار الى البحث في خصائص المادة اذ صرح باعتقاده في قدمها سنة ١٧٨٩ متبعا في ذلك من سبقه من قدماء ومحدثين ، وكان رأيه أن المادة التي تملأ هذا الكون غير قابلة للتخير - رأي صريح لا سبيل الى التورط الى المشك أو التريب فيه بحال وسواء أكانت المادة التي نحسها بحواسنا مادة مركبة من جواهر فردة ، أم كانت قوة تشكلت في جواهر فردة تكوئت من تيارات كهربائية متعددة يدعونها « الكترولونات » على رأي الباحثين في أوائل هذا القرن ، فذلك لا ينافي القول بيقاسم الكمية المحددة في العالم على كلتا الحالتين - - - تبع ذلك القول بأن الأجسام لا تتغير الا بالصورة ، لأن انحلال جسم الى سائل أو كلاهما الى غاز ، اذا طرا عليه تغيير في حال من هذه الحالات الى غيرها بتأثير السنن الطبيعية فذلك التغيرات لا ينقص من كمها شيئا ، ولا يلحق الا صورتها دون جوهرها ، ولا يدل من جهة أخرى على خلقها من المدم المطلق ، ثم قال بأن هذه السنن ذاتها هي علة التكوين ، كما أنها علة التحليل ، فهو في ذلك على رأي كثير من القدماء القائلين بأن المادة قديمة بالنوع ، حادثة بالصورة ، لأن تغيير المركبات ليس دليلا على حدوث التغيير في الجوهر ذاته بالفعل ، وإن لحق التغيير الشكل الظاهر - فتغير قطعة الفحم عند احتراقها ليس الا تحولا الى موادها الأصلية التي منها تكونت ، لأن مادة الكربون التي يتكون منها الفحم ، اذ تعزج بأوكسجين الهواء ، لا يقوم تحليلها أو تمازجها دليلا على تغيير أو ازدياد كميتها أو نقصانها - - - نشط الباحثون بعد ذلك الى الفحص عن أثر القوة ، فأبانوا أن مقدار القوة التي تحدث الظواهر الطبيعية

محدودة ، وكما أن المركبات في المادة قد تستحيل بالتركيب والتحليل الى عدة صور بعضها يبين بعض ، كذلك القوى بعضها يستحيل الى بعض . فالحرارة مثلا قد تستحيل الى قوة جرمية أي خاصة بحركة الأجرام - وهذه تستحيل الى ضوم أو صوت ، ومن ثم تتحول الى كهرباء .

من هنا تدرج الباحثون الى اثبات بقاء القوة وقدمها وعدم تغير مقدارها : فاستبان أن مقدار الكهرباء التي تتولد من قوة من القوى ، تكون مناسبة دائما لمقدار تلك القوة - وكان « روبر ماير » أول من كشف عن هذه الحقيقة سنة ١٨٤٢ ومن ثم طبعتها « هيرمان هلهولتز » وهو من أكبر الباحثين في علم وظائف الاعضاء سنة ١٨٤٧ ، على كل فرع من فروع العلوم الطبيعية التي كانت ذائعة لذلك العهد ، ومن ثم حاول فلاسفة القرن التاسع عشر تطبيقها على حالات الحياة ، ليتدرجوا منها الى القول بأن الحياة « قوة » أو مجموع قوى تؤثر في المادة الصامتة تأثير بقية القوى الأخرى ، لينفوا القول بأن الحياة قوة من وراثة الطبيعة ، أو أن لها علة مديرة صدرت عنها . والعلامة « ارثست هيكل » على هذا الاعتقاد ، فهو مقتنع تمام الاقتناع بما للقول بارتباط المبدأين من الشأن والخطر . وهو على ما يثول به الكيمويون من أن يحوث « لا فوازييه » في قدم المادة وأزليتها ، قد أصبحت العمدة في علم الكيمياء الحديث . وكان « سبينوزا » يقطع بهذا المبدأ عينه - فهو القائل بأن كل الموجودات التي تقع عليها حواسنا ، وكل الصور المادية التي نراها ، تطورات طبيعية تتطورها المادة بتأثير القوة المنبثقة فيها . كذلك الكيفيات التي تتكيف بها الموجودات ، ليست في الحقيقة

الا صوراً مادية باعتبارها ذات حجم تشغل من الفراغ مكاناً ،
 وأنها ليست من خصائص الموجودات ذاتها * من هنا يتعين القول
 أيضاً بأن القوة المتحركة والقابلية ، مبدآن طبيعيان غير
 منفصلين ، وأنهما والمادة صفوان لا يفترقان ، فإذا سألهم عن
 ماهية تلك القابلية وحقيقة ذلك الاستعداد ، أو عن القوة التي
 يشتها في الطبيعة بنسب متكافئة لا يسودها الخل ولا ينالها
 الضلال ، كان للطبيعة حينئذ تنظر بها ، أعادوا على سمعك قولهم
 بتحوير في الألفاظ وبعد عن الحقيقة ، لئلا يتورطوا إلى القول
 بأن هناك قوة ترجع إليها كل القوى — تلك هي العلة الأولى *

لقد اختلفت المذاهب وتباينت المبادئ وطلأت على هذا
 المبدأ تغيرات شتى في أواخر القرن الماضي ، كانت مشاراً
 للمناقشات العلمية الحارة التي لم ير تاريخ العلم أمثالها إلا
 قليلاً ، وما نشأت بين الماديين والعلميين — الذين يقولون بـ
 أولى — إلا لأن الفئة الأولى قد أنكرت تلك القوة التي تعود إليها
 كل القوى ، رغم اتفاقهم حينذاك على أن لكل من القوى المفردة
 خصائص تنفرد بها ، كالجاذبية وقوتي الجذب والدفع ،
 والكهرباء والحرارة والضوء ، وما إليها من القوى الأخرى ،
 وإن هذه ليست إلا كـيفيات تتكيف بها قوى أصلية ، وعلى هذه
 القوة الأصلية التي لم يعرف لها الماديون أصلاً ، ويدعوها
 المليون العلة الأولى ، قام الاختلاف بينهم قبيل أواخر القرن
 التاسع عشر ، واشتد بهم الحرج ، وضاق الباحثون بما وسمت
 معارفهم ذرواً ***

قالت الفئة الأولى بأن هذه القوة الأصلية هي حركة الجواهر
 المفردة في النضام حركة مستمرة بشكل خاص * ومن هنا كانت

الجواهر الفردة ذاتها ليست إلا ذرات صفارا من المادة تتحرك في الفضاء حركة زوهمية في مكان معين وعلى بعد معلوم ، وكان أول من قال بهذا الرأي الفيلسوف الأشهر « اسحاق نيوتن » . مستكشف قانون الجاذبية ، فقد ذكر في كتابه (الفلسفة الطبيعية والمبادئ الرياضية) سنة ١٦٨٧ أن الجاذبية العامة التي تتجاذب بها الاجسام هي التي تتسلط على جاذبية الثقل دائما ، وأن مقدار الجاذبية التي تكون بين دقيقتين من دقائق المادة هي بنسبة جرميها ، وبمعكس نسبة مرجع البعد بينهما - رغم كل ما وصفه هذا الفيلسوف الكبير من المبادئ القيمة ، وما المبادئ القيمة ، وما أيدها به من البراهين الدامغة ، لم يات عمله تاما . فان كل ما أتى به « نيوتن » من المبادئ لم يوضح لنا خصائص هذه القوى ، ولا مصادرهما ولا أوصافها ، وان كانت قد أوضحت لنا مقدار نتائجها ، ومبلغ تأثيراتها ... وظلت هذه الآراء متعلقة من جيل الى جيل ، وسيظل الرأي على خلاف بين هاتين الفئتين أجيالا عديدة لا تقدرها ، رغم ما أتى به « كارل فريش » سنة ١٨٩١ من الآراء ، وما تقلبت فيه الافكار منذ ذلك الحين حتى هذا الزمان -

وينحصر الرأي في أصل الحياة الآن في ثلاثة آراء كبرى أولها : ما وصفه « آغاسيز » في كتابه (تصنيف المضويات) سنة ١٨٥٨ اذ قال بأن محل نوع من الأنواع خلق بفعل خاص من أفعال القوة الخالقة . وكان العلامة « باستور » مستكشف جراثيم الأمراض ، على ذلك الرأي ، وقر رأيهم على « أن كل حي لا بد أن يتولد من حي مثله » وثانيهما : ما وصفه « هيرمان أوبرهارد ريختر » قال بأن الفراغ الذي نراه ملؤا بجراثيم الصور

الحية ، كالجواهر الفردة التي تتكون منها المادة المصام ، كلاهما في تجدد مستمر ولا يتولاهما العدم - وبني قاعدته في أصل الحياة على « أن كل حي أبدي ولا يتولد الا من خلية » .

وثالثهما : رأي القائلين بالتولد الذاتي - الذي يقول به الدكتور « يامتيان » في انكلترا ، والاستاذ « هيكلم » في ألمانيا ، ولقد خص الاستاذ « هيكلم » القول بالتولد الذاتي في سبع مسائل نوردتها اتماما لغائدة البحث قال :

اولا : الحياة المعضوية محصورة في المادة الحية الأولى : أي البروتو بلازم وهي تركيب كيمياوي غرواتي ، الزلال والماء اكبر العناصر التي تتركب منها شأننا .

ثانيا : مركبات هذه المادة الحية التي نطلق عليها اسم « الحياة المعضوية » طبيعية كيميوية صرفة لا اثر لقوى أخرى فيها ، ولا وجود لها الا في حيز محدود الحرارة ينحصر بين حدي الجليد والفليان .

ثالثا : اذا فاقت درجة الحرارة هذين الحدين ، فقد تبقي الصور المعضوية حافظة لحياتها الطبيعية واذ ذلك تسمى حياتها ، « الحياة الكامنة » أو « الحياة بالقوة » ولكنها لا تستطيع البقاء على ذلك زمنا طويلا .

رابعا : اذا كانت الارض كبقية الاجرام الأخرى قد انفصلت عن الشمس ولبثت في حالة الانصهار أزمانا طويلة محتفظة بدرجة من الحرارة تعد درجاتها بالآلاف ، فان المادة الحية - البروتو بلازم - لا يمكن أن تكون قد لبثت كل هذه المصور

محتفظة بصورتها ، فالحياة إذن ليست أزلية كما هو الرأي
الصائد -

خامسا : المادة الزلالية التي تولدت منها الحياة لم تحدث في
الأرض الا بعد أن نزلت حرارتها عن درجة الغليان -

سادسا : التراكيب الكيموية التي تكونت منها المادة الزلالية
التي حدثت منها الحياة ، تدرجت في النشوء والتركيب بحسب
الحالة التي كانت الأرض عليها خلال الأزمان الأولى ، حتى بلغت
مرتبة البروتو بلازم -

سابعا : « الموتيرة » أول المضويات الحية تكوينا ، فكانت
مختلطة الصور والتركيب ، ومن ثم أخذت بالارتقاء -

هذا هو مثال الرأي المادي ، والقائلون بعلّة أولى ، يقولون
بأن بذرة الحياة الأولى لا تتكون من تلك العناصر الصماء ،
والماديون القائلون بالتولد الذاتي لم يشبهوه بتجربة تحقق
نظريتهم -

داروين وأصل الأنواع :

من المفروض قبل أن تقدم بعض الآراء الدينية والعقائنية
المتعلقة بالنشوء ، نرى لزما علينا وحتى يكون البحث مستفيضا
كاملا من كافة جوانبه أن نتعرض لأفكار داروين الذي يزعم
بأنه قد عثر على مفتاح ذلك السر بعد مطالعات ودراسات عديدة
استمرت فترة طويلة من الوقت لما كتبه « مالتوس » عن التعداد
وتكاثر السكان ، وكان ذلك في خريف سنة ١٨٣٦ حيث ظهر له

من هذه الكتابات أن تزايد الأفراد غير المحدود يقتضي حدوث التنافس على وسائل البقاء ، وأن نجاح جانب المتنافسين يعني خيبة الآخرين ، وهذا يعني الانقراض .

ويلاحظ « داروين » (أن الانتخاب) أي انتخاب المتفوقين في معركة التنافس يعود الى كونهم أكثر تكيفا مع الوسائل التي يفرضها التنافس ، ويسأل داروين اذا كان التحول العضوي قد يحدث في ظل الطبيعة الصرفة حدوثه في ظل الايلاف .

اذا فالتكاثر غير المحدود كما يرى داروين يقتضي تنافس الضروب المختلفة ، وإن ذلك التنافس لا بد أن ينتهي بانتخاب الأكثر تكيفا مع مختلف حالات الحياة (١) .

ومن هذا المنطلق طلع داروين بنظرية انتخاب التحولات النافعة التي تولدها الاسباب الطبيعية عن طريق علل به ظاهرة التكيف التي أظهر مجزء سابقا عن تحليلها .

ويذهب داروين الى أن الانتخاب الطبيعي إنما يقوم أساسا على مقومة التكيف - إذ لا فرق عنده مطلقا بين قولنا أن الفرد الناجح في معركة التنافس هو الأصلح للبقاء ... أو قولنا هو الأكثر تكيفا مع البيئة . ومن الملاحظ أن داروين يعترف في

(١) إذا كان داروين قد اعتمد في افكاره على انتخاب الأكثر انسجاما أو تكيفا مع مختلف حالات الحياة ، يكون قد خالف عتيا وصرفانيا ما تقول به الآراء والمذاهب السلوية من ناحية ، ومن ناحية أخرى آراء الفلاسفة والحكماء الذين ردوا كلفة الأمور الابداعية الى قدرة الخالق المبدع ، المسور ، طة العلل ، واسباب وجود كلفة الموجودات العلوية والسفلية.

مذكراته الأولى التي صور منها نظريته أنه أغفل النظر في مشكلة من أدق المشكلات الهامة ، لم يوفق إلى تحليل ظواهرها إلا بعد فترة طويلة من الزمن ، ولستمع إليه ماذا يقول : « ان هذه المشكلة هي نزوع الكائنات الحية المنحدرة في سلالة معينة أن تنحرف صفاتها اذا ما بدأت بالتكيف ، أما تحليل ذلك على ما أعتقد فهو أن أتساءل الصور المتغيرة الأخذة في التزايد والتي تكيفت فعلا ، تنزع أن تنهيا وتكيف مع كثير من الأقاليم الشديدة التباين في نظام الطبيعة » .

يستدل من هذا الاهتمام الدارويني بتحليل هذه الظاهرة التي يعتقد على تحليلها وأهميتها الكبرى الى جانب تلك السنة الاحيائية سنة الانتخاب الطبيعي انما يدل على ما تكوّن في عقلية داروين من نزعة علمية شميل يكتفي بها الى الابد . كونه جعلها مفتاحا لأبواب النشوء التي فتحتها على مصراعيها . ومهما يكن من أمر ، فإن نظرية أصل الأنواع بالانتخاب الطبيعي تتضمن بالضرورة ظاهرة انحراف الصورة المنتخبة عن صفات أصولها لأن الفرد الذي ينحرف في التحول ، لا بد من أن ينحرف عن جوهر نوعه ، وأثبتت نظرية داروين التي نوه بها عن تكيف الأحياء للبيئة ولم يثبت كيف تأصلت ، أي أصل الأنواع في الواقع والحقيقة لا تعطيتنا الدليل الواقعي عن أصل الإنسان ووجوده ، لذلك نكتفي بهذا القدر خشية التطويل والوقوع في أخطاء كثيرا ما تفضل الباحثين . وننتقل الى آراء بعض المذاهب القديمة حول النشوء تنميما للبحث .

يبدو من خلال تصفحنا لما كتب حول المذاهب القديمة في النشوء أن الأفكار النشوئية المتعلقة بالارتقاء ، قديمة يعود

تاريخها الى آلاف من السنين ، ونلاحظ أثر تلك الافكار في بعض الآراء الدينية التي صنفها حكماء بابل ، واشور ، ومصر ، حيث ذهبوا الى أن الكواكب واشتراك بعضها مع بعض كان السبب في نشوء الكائنات الحية على الارض . وأن هذه الكائنات قد وجدت بالتدريج بتأثير الكواكب السيارة في عناصر الارض حيث تعاقبت الأحياء منها .

والجدير بالملاحظة أنهم يرون في خلق الانسان معجزة من المعجز اذ يقولون بأنه في التكوين لم يكن الا كتلة لزجة من المادة لا شكل لها ولا صورة ، انما كانت نفخة من الحياة نفخها المخلوق فيها . ومن ثم أثرت الطبيعة في تلك المادة فتخلبت في أطوار من النشوء بلغت في نهايتها الصورة البشرية . ويعتقدون بأن الدور الكامل يتراوح ما بين سبعة آلاف سنة يختص كل كوكب من الكواكب السيارة في التأثير ألف سنة منها بنفسه ، ثم يشترك معه في ستة آلاف التي يكمل بها الدور الستة الكواكب السيارة الباقية الأخرى ، لكل منها ألف سنة وهكذا على مر العصور وتتالي الأجيال . وأن اشتراك كل كوكب من الكواكب صاحب الدور ينتج تأثيرا خاصا بهما وأن ذلك هو السبب في اختلاف صور الأحياء وتباين الانواع . هذه هي المعتقدات القديمة وتلك صورتها التي ظلت طوال العصور مؤثرة في عقل الانسان وأحاسيسه ، ولا تزال روايتها حتى عصرنا الحالي تلعب دورا فعالا في عقول بعض أبناء البشرية الذين لا يزالون يعيشون حسب الطرق البدائية المعروفة .

أما حكماء اليونان فكانوا أول من سبر غور حقيقة الاكوان بأفكارهم الفلسفية وحكمتهم الروحية ، ولقد قدم هؤلاء الحكماء

من مبادئ التحول الشيء الكثير ، ولكن مع مزيد الأسف ما ضاع من أفكارهم العقلانية قد أفقدهم الكثير من الأراء العرفانية . ومع هذا ظلت أفكارهم حول نشوء الحياة في الارض وتطورها آية في الروعة ، ولا بد من الاستماع الى ما قاله أحد حكمائهم « ألكسندر ماندر » الذي ولد سنة ١٦٠٠ ق م : « إن نشأة المخلوقات الحية منسوب الى تأثير الشمس في الارض ، وتميز العناصر المتجانسة بالحركة الدائمة ، وان كانت في البدء طينية ورطبة أكثر ما هي الآن ، فلما وقع فعل الشمس فارت العناصر الرطبة في جوفها ، وخرجت منها على شكل فقائيع فتولدت الحيوانات الأولى ، غير أنها كانت كثيفة ذات صور قبيحة غير منتظمة . وكانت منطاة بقشرة غليظة تمنعها عن التحرك والتناسل وحفظ الذات ، فكان لا بد من نشوء مخلوقات جديدة ، أو ازدياد فعل الشمس في الارض لتوليد حيوانات منتظمة يمكنها أن تحفظ نفسها وتزيد نوعها . اما الانسان فظهر بعد الحيوانات كلها ، ولم يخل من التقلبات التي عرأت عليها ، فخلق أول الامر شنيع الصورة ، ناقص التركيب ، وأخذ يتقلب الى أن حصل على صورته الحاضرة » .

ولما ظهرت الأديان السماوية بأفكارها المتعلقة بالتكوين ، جاءت بعيدة عما ذهب اليه الفلاسفة والحكماء بهذا الشأن ، فإذا ما تصفحنا الأراء اليهودية في هذا المجال حيث نراها تذهب الى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق في البدء السماوات والارض ، وكانت الارض خربة وخالية - وعلى وجه النمر ظلمة ، وروح الله يرف على وجه المياه ، وقال الله ليكون نور فكان نور . ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ،

ودعا الله النور نهارا ، والظلمة دعاهما ليلا • وكان صباح وكان مساء يوما واحدا • وقال الله ليكن جلد في وسط المياه • وليكون فاصلا بين مياه ومياه ، فحمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد ، وكان كذلك ودعا الله الجلد مساء • وكان مساء وكان صباح يوما ثانيا • وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء الى مكان واحد وتظهر اليابسة وكان كذلك ، ودعا الله اليابسة أرضا • ومجتمع المياه دعاه يعارا ورأى الله ذلك أنه حسن • وقال الله لتنبث الأرض عشباً وبقلاً يبرز بزرًا وشجراً ذا ثمر يعمل ثمرا كجنته بذر فيه على الأرض • وكان كذلك فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبرز كجنته وشجراً يعمل ثمرا بذر فيه كجنته • ورأى الله ذلك أنه حسن • وكان مساء وكان صباح يوما ثالثا • وقال الله لتكن أنورا في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل ، وتكون آيات وأوقات وأيام وسنين • وتكون أنوارا في جلد السماء لتدبر على الأرض ، فعمل الله النورين العظيمين • النور الأكبر لحكم النهار ، والنور الأصغر لحكم الليل • والنجوم جعلها الله في جلد السماء لتدبر على الأرض ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة • ورأى الله ذلك بأنه حسن وكان مساء وكان صباح يوما رابعا • وقال الله لتنفسي المياه زخافات ذات نفس حية وليطير الطير فوق الأرض على وجه جلد السماء ، فخلق الله الثنائين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي قاضت بها المياه كأجناسها • وكل طائر ذي جناح كجنته ورأى الله ذلك أنه حسن • وباركها الله قائلا اثمري واكثري واملأي المياه في البحار • وليكثر الطير على الأرض وكان مساء وكان

صباح يوما خامسا • وقال الله لتخرج الارض ذوات أنفُس حية كجنسها ، بهائم ودبابات ووحوش أرض كاجناسها وكان كذلك ، فعمل الله وحوش الارض كاجناسها والبهائم كاجناسها وجميع دبابات الارض كاجناسها ، ورأى الله ذلك أنه حسن • وقال الله فعمل الانسان على صورتنا كشبهنا - فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الارض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الارض ، فخلق الله الانسان على صورته • على صورة الله خلقه • ذكرا وانثى خلقهم • وباركهم الله وقال لهم اثمروا واكثروا واملاوا الارض واخضعوها • هذا هو التكوين عند اليهودية استيقناء من كتابهم المقدس (١) ، •

أما ما تقول به المسيحية فهو يتفق مع ما تذهب اليه اليهودية ، ولكن ترد تشوم الجنس البشري الى الخطيئة وهبوط آدم وحواء الى العالم الارضي حيث تم تزواجهما وأنجبا البنين والبنات •

يدم الخليقة عند الاسلام :

لا ترغب في التوسع بالآراء الاسلامية حول يدم الخليقة خشية التطويل ، بل نكتفي بتقديم لمحة خاطفة لنظرتهم المنبعثة من صميم القرآن الكريم • فهم يرون كما يرى أصحاب الأديان السماوية الأخرى ، بأن الله سبحانه وتعالى قد خلق آدم وأسكنه الجنة وعهد اليه أن لا يقرب شجرة عرفة بها ونهاه عن أكلها ، ثم خلق من ضلعه زوجته حواء • فعاشا في الجنة حتى سول لهما

(١) التوراة - التكوين عند اليهودية من ٢ - ٥ .

الشیطان أن يأكل من ثمار تلك الشجرة التي نهاها عن أكلها .
فهبطا إلى العالم الأرضي جزاء ما اقترفت أيديهما من مخالفة
صریحة لأوامره تعالى ، فتزوجا وأنجبا البنین والبناات ،
ويعتدلون على هذه الرواية ببعض الآيات الکریمة ، كقوله
تعالى « قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا » - أما
تفسيرهم لكيفية وجود الإنسان الأول فيعتمد أيضا على قوله
سبحانه وتعالى « أنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج » وقوله
تعالى « فلينظر الإنسان مما خلق ، خلق من ماء دافق » -

وسنستعرض في القصول القادمة الآراء الفلسفية الإسلامية
تعمیما للفائدة وتبیانا لما تضمنته الأفكار العقلانية الإسلامية من
أراء غاية في الدقة والعرفان .

خلق العالم المتنوع من الروح الواحدة عند الهنود :

نلاحظ ونحن نفوس في أعماق الأفكار الهندية (١) المتعلقة
بخلق العالم المتنوع من الروح الواحدة أنهم يرون أنه في البدء
كان هذا العالم هو الروح لوحدها في شكل الشخص . وإذا
التفتت حولها لم تجد شيئا آخر سواها - قال أولا : « أنا أكون »
وعندئذ وجد اسم « أنا » وحتى اليوم ، عندما يتكلم الشخص
يقول أولا « هو أنا » .

كان الشخص خائفا - ومن يكن لوحده يخاف ، عندئذ فكر
هذا الواحد لنفسه ، إذ لا يوجد شيء سواي مما أخاف ؟ -

(١) الفكر الفلسفي الهندي : الدكتور مرغلي رادكريشنا ص ١٢٧-١٢٨

وهكذا انقضى خوفه ، أن الخوف لا ينشأ الا من وجود شخص آخر . لكنه لم يكن مبتهجا ، ولا يبتهج من يكون لوحده - ورغب في شخص آخر ، فأراد أن تنقسم ذاته الى قسمين ، ومن ذلك الحين وجد الزوج والزوجة . ان ما أقوله لكم هو الحقيقة ، المرة لوحده تصف ، هكذا يملأ الفراغ بزوجته تزوج بها - ومن ذلك الحين نتجت الكائنات البشرية - هي حولت نفسها الى أشكال الحيوانات المختلفة ، وفعل فعلها ... هكذا خلق الكل - أنا ، حقا ، هذه الخليقة لأنني بعثتها من نفسي ، لقد عرف هذا ، ومن ذلك الحين وجدت الخليقة - كان هذا العالم عندئذ غير معيز ، فأصبح مميزا بالاسم وبالشكل وكما يقول المثل « له اسم كذا ، وشكل كذا » -

دخل الى العالم واختبأ فيه كما يختبئ السيف في غمده او النار في الوعاء - لا أحد يراه ، واذا رُئي فيكون ناقصا - عندما يتنفس يصبح نفسا بالاسم ، وعندما يتكلم يصبح صوتا وعندما يرى يصبح عينا ، وعندما يسمع يصبح أذنا ، وعندما يتكلم يصبح عقلا ، وهذه هي مجرد أسماء لأعماله - ومن بعد واحدة من هذه - لا يعرف شيئا لأنه يكون ناقصا بواحدة أو بأخرى -

يلزم أن يعبد الانسان بفكره وبإيمانه أنه روح واحدة ، لأن كل هذه الاعمال تصبح واحدة ، وهذا الشيء وذاته ، هذه الروح ، هي أثر لهذا كله ، لأنه يعرف الكل بها .

ان من يعرف هذا يجد الشهرة والمجد -

في البدء كان هذا العالم براهمان - عرف ذاته فقط : « أنا

هو براهمان * - هكذا أصبح الكل - من كان من الآلهة عالما بهذا ، يصبح هو ، وهكذا يصبح الرؤي والناس -

وكل من يعرف « أنا أكون براهمان » يصير هذا الكل ، حتى الآلهة ذاتها ليس لها القوة أن تمنع سيرورته وذلك لأنه يصبح روحها - في البدء كان هذا العالم براهمان - - واحد فقط ، لم يتطور - ومع ذلك خلق شكلا ساميا لحكام السماء ، اندرا ، فارونا ، سوما ، الخ - - لم يكن قد تطور بعد خلق (فيس) العامة - أي تلك الأجناس من الآلهة الذين يذكرون بالاعداد الى فاسوس ، الى رود راسا ، الى آديتيساس ، الى تشيفنداس ، الى ماروتس - لم يكن قد تطور بعد ، خلق طبقة سودام ، بوشان - هذه الارض هي بوشان لأنها تعلم كل شيء ، لم يكن قد تطور بعد - خلق شكلا أفضل هو القانون (أهارما) لا شيء أعلى من القانون -

في البدء كان هذا العالم الروح - - واحد فقط - تمنى : « لو كان لي زوجة ، اذن لولدت - لو كانت لي ثروة ، لقدست الأضاحي » - واذا لم يحصل على إحدى هاتين الافتتين ، اعتقد أنه غير كامل - وأما كماله فيعتبر كما يلي : عقله هو ذاته ، صوته هو زوجته ، نفسه هو نسله ، ميثه هي ثروته الأرضية - لأنه بعينه يجد ، اذن هي ثروته السماوية لأنه بأذنه يسمعها جسده هو عمله ، لأنه بجسده يتم العمل - -

استمرار وصف براهمان بأنه مصدر العالم :

جارجيا (صاحب رؤي) قال : « الشخص الذي يوجد هناك

بميدا في الشمس . . . في القمر . في البرق . . . ويوجد هنا في
الفراغ . . في الريح . . في النار . . في الماء . . في المرأة .

الصوت هنا هو الذي يستمر بعد أن يذهب الواحد . . .
الشخص الذي هو في كل أنحاء الارض . . . الذي يشمل الظل . .
الذي يوجد في الجسد . . هو من أمبده . . هو براهمان . . .
قال أبحاثا شاترو : « كما يمكن أن تخرج المنكبوت يخطيها ،
وكما تلتصع الشرارات الصغيرة من النار ، هكذا تنطلق من هذه
الروح الطاقات الحيوية ، وكل الموالم، وكل الآلهة والكائنات » .

شكل براهمان :

براهمان شكلان . له شكل ولا شكل له . الفاني والخالد .
الثابت والمتحرك . القريب والبعيد .

الهندوس والروح :

ولما كان أتباع الديانة الهندوسية يعلمون أكثر من غيرهم
عن الروح وعالم الروح (١) ، وعن إمكان اللقاء بين عالمي
الروح والمادة لا بد لنا من إيراد بعض آراء علماء الهندوس
حول الروح باعتبارهم من أقدم المفكرين الذين تحدثوا عن هذه
المشكلة . تعتبر الديانة الفيدية من أقدم الديانات في العالم
باعتبارها الصورة الفطرية الأولى للدين الهندوسي المأخوذ عن
كتب الآله (فيدا) الأربعة المكتوبة باللغة السنسكريتية
والمنسوبة إلى وحي نزل من السماء على براهما . وهذه هي

(١) مفصل الاتساق روح لا جسد : الدكتور رؤوف عبيد ج ١ صفحة ٦٥

ساماورج وياجور وإتارخا . وتشرح الفيدات طبيعة براهما
 الاله الخالق الذي هو « اثما » أو النفس الخالدة في الانسان ،
 وتصور الكون كنسيج متطور من كيان الله ، كما تجعل امتزاج
 الفرد مع الله صورة لامتزاج النفس مع الروح والفيدات
 تلخص الفيدات الاربعة ، وقد أعجبت كثيرا من مفكري الغرب
 وفلاسفته . وقد وصفها المؤرخ فكتور كوسان قائلا : « اثما
 حينما نطالع بامان فلسفة الشرق - وخصوصا الهندية منها -
 فاثنا نقف على كثير من الحقائق المويسة التي تكررنا على أن
 ننحني اجلالا للفلسفة الشرقية » . كما يقول فيها فريدريك
 شلجل الفيلسوف الرومانتيكي الالماني : « أن أسمى فلسفة
 أوروبية وهي مثالية التفكير كما وصفها فلاسفة الاغريق تبدو
 - حتى فورنت بالحياة والنشاط الزاخرين للفلسفة الشرقية
 المثالية - كصبص ضوء ضئيل مقابل فيض كامل من ضوء
 الشمس » .

وهي مؤسسة على عقيدة خلود الروح ، والعودة الى التجسد
 أو رجعة الروح ، والايمان بالله واحد ، وبالسماوات التي تصعد
 اليها الارواح الصالحة فيتلقاها « ياما » الذي يرفعها الى الجنة
 حيث تنعم بكل اللذائذ الارضية التي تكون قد اكتملت وأصبحت
 أبدية . وقد وصف أحد ، هذه الكتب السماوية الفيدية بأنها
 « المقام المقدس والمقر النهائي للآلهة الخالدة ، وموطن الضوء
 الخالد الذي هو الاصل والقاعدة في كل ما هو كائن : وحيث
 تتعنى الرغبات بمجرد أن تنشأ » . وهذا الوصف هو تقريبا
 ما تصف به الكتب الروحية الحديثة عالم الأثير . مع أن كتب
 قيدا هذه تتجاوز في قدمها حتى تاريخ القراعة الاقدمين ، مما

يحمل على الاعتقاد بأن وسطاء الهندوس قد تلقوها بدورهم عن طريق الالهام من أرواح راقية تقيم في عالم الأثير بحسب الوصف الحديث -

والديانة البرهمية خاصة بالعقائد الصحيحة الكثيرة عن الروح في حياتها الارضية والسماوية وبالنصائح الخلقية التي يؤدي اتباعها الى خلاص الروح في حياتيها معا ، والى استحقاق النعيم في عالم الملكوت . كما تؤمن بأن الروح الانسانية نعمة الهية ، وأن الموت يعطي الروح جسدا شفافا ثوريا ينتقل الى الملا الأعلى ، وأن هذا الجسد وان كان ماديا في مظهره الا أنه من طبيعة غير ترابية ، بل أرقى من أجسادنا القانية ، وفي علم الروح الحديث ما يتفق مع هذه المعاني أيضا . وتؤمن المذاهب السائدة في البوذية بوجود جنات حول جبل « ميرو » الذي منحه من المذهب المصنع بالأحجار الكريمة ، ومقسم الى عدة طبقات ، في كل طبقة أهلها من الصالحين على حسب درجاتهم ، وفوقها جنات أخرى كثيرة حتى تنتهي الى جنة علوية في السماء يحيا فيها الأبرار في سعادة مطلقة -

وفي هذا المقام كتب المشرع الهندي الكبير مانو يقول : « ان أرواح آبائنا الاقدمين تصبح على حالة لا تراها أعين الناس ، فبما خلا بعض البراهمة الذين يدعون للاحتفال بعيد الاموات ، وهذه الارواح لا تتبعهم أينما ذهبوا ، وهي على حالة هوائية وتجلس بجانبهم اذا جلسوا »

وقال مؤلف هندي آخر وهو من الاقدمين أيضا : « ان الأرواح التي لم تات من الاعمال الا الخير والبر ، مثل أرواح

العباد الأملهار ، والزهاد الاخيار تكشف خاصية مكاملة الأرواح التي سبقتها الى العالم الآخر . وهذا دليل لظك الارواح على أن دورهم في العودة للتعسد قد تم وانقضى .

واعتماد كهنة الأديان الهندية على اعداد أشخاص يسمونهم الفقراء ليتصلوا بواسطتهم بأرواح الموتى ، ويحدثوا بهم أكبر المشاهدات في التنويم المغناطيسي . نقل لويج جاكوي في كتابه عن الاتصال بالروح في العالم كله ، نظرية الهنود عن الارواح السائحة في الفضاء بعد موت أجسادها ، « وينتج من مطالعة أبحاث ذلك المؤلف أن أسرار مسألة الاتصال بالأرواح ما كانت لتودع إلا أن يقضي أربعين سنة في بيوت العبادة تحت الأنظمة القاسية والاختبارات الدقيقة . وتلك الأسرار كانت موزعة على ثلاث فرق من أولئك الرجال كما يلي :

الفرقة الأولى : كلها من البراهمة أصحاب العبادات العامة ، وكهنة الهياكل للكلمين بقيادة العامة . وتعليم هذه الفرقة مقصور على شرح الثلاثة كتب الأولى للفيديا ، وكيفية رئاسة الطقوس الدينية وأداء القرابين . وبراومة هذه الفرقة يخالطون الأمة ويعاشرون أفرادها ، فهم قادتهم الاقربون ورؤساؤهم الأدنى .

الفرقة الثانية : تحتوي على طردة الشياطين من الأجسام ، والمرافين للمستقبل ، وأصحاب النبوءات ، والمتصلين بالأرواح . وهؤلاء عليهم أحداث بعض خوارق الطبيعة ، ويسمح لهم بقراءة وشرح « الآثار فايفيدا » وهي مجموعة رقيات سحرية .

الفرقة الثالثة : من البراهمة ليس لها اختلاط بهذا العالم

الإنساني ، وليس لها شغل في هذه الحياة الا درس قوى هذا العالم المادي كله ، واذا ظهر أفرادها للناس ، فلا يكون ذلك الا لأمر جليل ، وخطب فادح ، ولا يتراؤن لهم الا من بعد .

الافريق والرومان والروح :

طالما استمرضنا بعض الآراء الهندوسية حول الروح نرى لزما علينا أن نستعرض الأفكار الاغريقية والرومانية حول الروح . كون هؤلاء قد اهتموا اهتماما خاصا بالقضايا الروحية وتحدث اكبر فلاسفتهم وشعرائهم ومؤرخيهم عن الأرواح كحقيقة واقعة لا غموض فيها ، وخاصة سقراط وأرسطو كليس وأفلاطون وسوفوكليس وهيرودوت وبطليموس وهوراس ويوسفوس وماكرسيموس أوف ثيروتاليس وغيرهم .

ومن الملاحظ أن مذهب الأورفية والفيثاغورية كانتا في طليعة المؤمنين بخلود النفس ، وتريا أنها جوهر إلهي يسكن في الجسد ، أي أن النفس قد سجنّت في الجسد ، لذا لا بد لها أن تقضي العقوبة قبل أن تفادى الجسد . وكان سقراط يعتقد بخلود النفس لذا فانه عندما حكم عليه بالموت ، صرح لبعض أتباعه قائلا : نعم اني اعترف لولا اعتقادي أنني سوف أذهب أولا صوب آلهة أخرى حليلة ورحيمة ، ثم بعد ذلك نحو رجال ماتوا هم أفضل من رجال هذه الحياة الدنيا . فكان من الخطأ الفاحش أن لا تثق نفسي ضد الموت . وما يروى عن سقراط أنه يعتقد بأن الفيلسوف الحق هو ذلك الذي لا يشغله عن التفكير في الموت شاغل ، إذ أن الموت هو وسيلة تحرير الفكر وأن النفس لن

تستطيع أن تدرك شيئاً على حقيقته إلا إذا قطعت كل سلسلة تصلها بالجسد فهو عائقها عن المعرفة الحقة وهو عاجز عن تفهم معاني العدل والخير والجمال . إذ طالما بقيت لنا أجسادنا ، وظلت نفوسنا مختلطة بشديد الاختلاط بذلك الشيء الرديهم فائنا لن ندرك موضوع رغبتنا ادراكاً كافياً وأن هذا الموضوع هو الحقيقة . وكان سقراط يعتقد أن لكل روح روحاً تحفظها وتلهمها ما قد يتغير في دنياها ، وعليه فمن الجائز أن يخاطب الأحياء الأرواح أثناء وجودهم في هذا العالم ، ولم يكن سقراط الفيلسوف اليوناني الوحيد الذي تحدث عن الروح وانفعالاتها وماعيتها بالنسبة إلى الجسد ، إنما تحدث أيضاً هيرودث ، فوصف ما يحدث للروح بعد مفارقتها للجسد ، ثم تحدث عن وحي الآلهة الأخرى . وجاء بعد سقراط أفلاطون ، فوقف تفكيره الفلسفي لاثبات نظريات سقراط حول خلود النفس ، ولتستمع إليه كيف يبرهن عن الضدين فيقول : أن صلة الحياة بالموت لشديدة الشبه بثلث العلاقة التي توجد بين اليقظة والنوم ، فكما أن المرء ينتقل من اليقظة إلى النوم ، ومن النوم إلى اليقظة ، كذلك ينتقل من الحياة إلى الموت ، ومن الموت إلى الحياة . والانتقال من أحد الضدين إلى الآخر أمر لا بد منه إذ لو كان الانتقال في اتجاه واحد فقط لاختل التوازن في الطبيعة . ويترتب على ذلك أنه من الواجب أن تظل نفوس الموت حية في مكان خاص حتى تكون متبعا ومبدا لكل حياة جديدة . ولو لم يكن هناك انتقال من الموت إلى الحياة لانتهى كل ما في الوجود إلى العدم ، كما هي الحال تماما لو استقر المرء في نومه إلى ما لا نهاية .

وكذلك تحدث أرسطو عن العقل وذهب إلى أن في العقل شيئاً

خالدا مستقلا عن الجسد وبالإضافة الى هذا الرأي كان يؤكد على وجود عالم عقلي مغاير لعالم الحس والمادة . وقد تحدث في هذا الموضوع أيضا الفيلسوف اسكندر الأفروديسي فذهب الى أن العقل الفعال ليس من أجزاء النفس ولا من وظائفها ، بل هو الاله الذي يتمثل في نفوس البشر ويحل محلهم في تفهم معاني الأمور ووضع المعقولات - وهو غير قابل للفساد ، بل هو كائن الهى خالد ، بل هو الذي يخلق العقل بصفة خاصة -

أما الفيلسوف « ثعشويس » فقد سخر من أرسطو كونه كان يرى أن العقل الفعال هو الله الذي يفكر في نفوس البشر ، لأن هذا العقل جزء منا ، والعقل المادي بحسب رأيه غير قابل للفساد -

إن هذه المفاهيم الاغريقية العميقة لخلود الروح ووجود عالم عقلي متغاير لعالم المادة قد وصفها كبار فلاسفة الاغريق بالفطرة والالهام المثالي .

والجدير بالملاحظة أن هذه الافكار المرفائية قد انتقلت كلها الى الرومان حيث كانت الأبحاث الروحانية منتشرة لديهم انتشارا كبيرا - فتحدث عن الروح بعض فلاسفتهم مثل « شيشرون » الذي قال أليست غالبية السماوات مملوءة بالبشر هؤلاء الآلهة أنفسهم نشأوا هنا في الأسفل ثم صعدوا الى السماء ، ويرى « شيشرون » أن الارواح موجودة وستظل محافظة على وجودها في هذا الكون حتى بعد أن تنادر جسدتها .

الفراغنة والروح :

يستدل من استقرار التاريخ أن الفراغنة منذ القدم قد

تعمقوا في معرفة الكثير عن الروح في بعثها ونشورها وثوابها ومقابها وحياتها ، وذلك يبدو واضحا من خلال ما رسم على قبورهم ومعابدهم . ومن البديهي أن هؤلاء كانوا يؤمنون بأن الروح عندما تغادر جسدها المادي تكتسي بجسد جديد أرقى من الجسد المادي وأرق ، ولا يقبل الفناء وكانوا يطلقون عليه وصف (كا) .

ومن الملاحظ أن المأمهم بالأمور الروحانية قد أهاب ببعض الباحثين في العلوم الروحية إلى التأكيد على أن الفراعنة كانوا على صلة مستمرة بالأرواح وكانوا يفضلون كهنتهم عندما يختارونهم لتولي هذا المنصب أن يكونوا من علماء الروح .

وتؤكد الكتابات التي وجدت في مقابر الفراعنة ومعابدهم أنه كانت لديهم (محاكم للموتى) تحاكم ذكري الأموات فتسمح بدفنهم في المقابر الدينية ، أو لا تسمح بذلك وفقا لما تراه في شأن حياتهم الخلقية . ويرى بعض المؤرخين أن محاكم الموتى هذه ليست حقيقة أرضية في حياة الفراعنة ، بل هي أسطورة نبئت في ذهن المؤرخ الاغريقي هيرودوث من اعتقاد المصريين بمحاكمة الميت بعد وفاته بمعرفة اثنين وأربعين قاضيا سماويا .

وهذه العقيدة تشير إلى الفكرة التي كانت راسخة في أذهانهم عن أن هذه المحاكمة السماوية كانت صادقة صارمة لا تفرط في شيء ، وكان يلزم لها هذا العدد الضخم من القضاة السماويين . ويكفي للدلالة على اعتقاد الفراعنة بخلود الروح ما يروونه بأن الموت عبارة عن رقاد في القبر إلى أن تعود الروح فترتدي جسدها الفاني من جديد كي ما يبعث به في عالم الخلود وعلى هذا الأساس

كانوا يعتقدون أن الذات الانسانية تتكون من اقائيم ثلاثة تجمع في وحدة (كلا من الكا) الذي يرى فيه البعض صورة غير مادية في الجسم ، (والنو) أي الروح (والخات) أي الجسم وهي تتكون في مرة أخرى في ثلاثي آخر يجمع (الخايث) أي الظل مع (البا) أي الروح (والسو) أي المومياء .

ويعتقد بعض العلماء أن اختلاف المفاهيم المتعلقة بالروح عند المصريين يعود الى امتزاج العقائد الذي كان من أهم عوامله اختلاط الشعوب - ويرجع أيضا الى ميل المصريين الى التصكك بأية عقيدة ، أو بأية صورة عن عقيدة تنبعث بمرور الوقت في المجتمع . ومما لا شك فيه فقد اعتقد المصريون القدماء بأن الموت عبارة عن انفصال العنصر الجسماني عن العناصر الروحية . ولا تكون الحياة الثانية بالضرورة مشابهة تماما للحياة على وجه الأرض ، ولكنها حياة مقارنة للأصل . ومن الواضح أن الفراعنة قد آمنوا بالخلود وبالروح وبالصلة بين الأحياء والأموات ، وبما يمكن أن يفعله الأموات للأحياء من خير أو شر .

ومن الطريف أيضا أن الفراعنة كانوا يعرفون الأرواح المرشدة والتي تلازم الإنسان خلال حياته الأرضية فتحويه من بعض أخطار الحياة وترشده سواء السبيل . وكانوا يعرفون أيضا الأرواح الحارسة للجلسات التي تقوم بوظيفة إبعاد الأرواح الشريرة واستدعاء الأرواح النيرة امتنادا على هذه الأفكار الفرعونية المتعلقة بالروح وتقديسها ، يمكننا أن نقول بأنهم كانوا يؤلهون الأرواح الراقية ويقدمونها باعتبارها ذات قوى تسيطر على عقول أبناء البشر .

الزواج عند الفلاسفة :

إذا كانت الأديان السماوية وبعض المذاهب الهندية والفارسية والافريقية والرومانية والفرعونية قد تحدثوا عن ماهية الروح بأساليب متنوعة تختلف تارة وتتفق أخرى ، لا بد لنا من استعراض بعض الآراء الفلسفية العرفانية المتعلقة بالروح ، وبدء التكوين البشري . لنرى ما ينهجون اليه من معارف عقلانية تختلف في صورتها وماهيتها عن ما ذهبت اليه الأديان السماوية - ولما كانت الفلسفة الهندية قد خصصت الكثير من أفكارها في معالجة هذا الموضوع وشرح علله وأسبابه ، فلا بد من الاستماع إليها خاصة ما يتعلق منها في الله باعتباره تجسيدا للحكمة العرفانية الهندية ، فهؤلاء يذهبون إلى أن الله تعالى أراد من وراء تعدد الأديان حكمة سامية لحكمته من تعدد الأجناس والأوطان والألوان ، بقصد دفع ناموس التطور والارتقاء إلى الامام .

فالفلسفة الهندية ترى أن التطور ليس سوى التحرك إلى الامام من خطوة إلى أخرى ، حيث يكون في هذا التحرك تغيير وتبديل ، وهما أصل الاختلاف - فإذا ضربنا صفعاً عن الاختلاف وجعلنا التطابق يعم الخليقة ، نكون قد محونا التطور ، وقضينا على التطور لأن الكون كما أبدعه الخالق آلة هائلة منسجمة الأغراض متوجهة بكليتها نحو التطور من كافة جوانبها ، لكن يشد بين أواصرها نظام واحد في العمل ، وتجمعها وحدة شاملة في الغرض .

فلو فرضنا أننا نحاول أن نقضي على الاختلافات الدينية

ونجعل كافة أبناء البشرية في دين واحد وأن يتجه تفكيرهم في
مجرى واحد لا يتغير لوجدنا أنفسنا في النهاية وقد قضينا على
الدين نفسه ، ولظلت أفكار البشرية متفرقة .

ولقد لمس الانسان أن مجرد الوقوف عند الاجتهاد في الدين
يؤدي الى ضعف الايمان والفتور في العبادة ، وبدلاً من التطلع
الى الأفضل ينساق العقل الى الأباطيل لذلك فهم يرون أن تعدد
الاديان واجب ما دامت الحياة أبدية - وكذلك سنة التطور وهي
قانون من قوانين الخالق سبحانه وتعالى - ويضيفون الى ذلك
قولهم : ولا تعتبر أنفسنا متسامحين مع الاديان الاخرى الا اذا
عاملناها بمثل ما نحب أن تعامل به - واذا كانت الاديان كلها
ذات مصدر واحد ، وتبشر بالحق ، وتسمى بالانسانية الى
الكمال ، فمن الطبيعي أن توكل هذه المهمة الى فرد بذاته أو الى
جماعة بذاتها ، فإن معرفة الحق مشاع بين الجميع كما أراد الله
لكل نفس أن تتمتع بالشمس والهواء والماء - وما يقوله
غاندي : إني أملك ثقة صميم بالله ووجوده ، وميلاً للحق ،
والحب لا ينضب نعيمه ، ولكن أليس هذا كامناً في نفس كل
انسان ؟ اننا وصلنا الى اكتشافات واختراعات جديدة في العالم
الخارجي ، فهل ينبغي أن يكون الانسان ضارياً في مبدأ الامر ،
ثم انساناً بعد ذلك اذا قدر له أن يكون ؟

ويضيفه رأياً آخر الى أفكاره العديدة التي بشر فيها خلال
حياته فيقول : إن للديانات طرق مختلفة تلتقي عند نقطة
واحدة ، فماذا يهم إن اختلفت طرقنا ما دامت ترشدنا كلها الى
نفس الهدف ؟ بل في الحق هناك من الديانات قدر ما هناك من
المراد -

وفي هذا المعنى يتحدث الفيلسوف الهندي سيلغر بيرش قائلا:
ينبغي أن نتذكروا أننا لا نفكر بالروحانية كشيء يمكن مقارنته
بالديانات الأخرى ، ان الروحانية بالنسبة لنا قانون الكون
الطبيعي - وكل ديانة كانت وسيلة للتعبير عن القانون
الطبيعي -

لكل زعيم ملهم ، جاءت الرؤيا والالهام ومنهمم القانون
الطبيعي يتصرف فيها على حسب العصر الذي عاش فيه ، من
نمو وتقدم وتطور عادات وتجربة وفهم ، وكما تطلقها النبي
فهو قد نقلها لمن كان لديهم استعداد ، ولم يستطع الحق البسيط
أن يبقى على فطرته جميلا - لقد غدا مزيجا من الالهام الذي
أضيفت اليه المعتقدات السائدة ، والأساطير اللاهوتية .
والتجارب الدينية ، والتقاليد الموروثة ، وفي وقت ما اندثر كل
ما يتعلق بالروح العظيم ، وظهرت الحاجة من جديد لبعث ما
دفن الانسان وحياته .

لقد استقر الفهم على أن الحق الروحي قد جاء هذه المرة
لأجل أن يبقى ، ولا توجد قوة على الارض في استطاعتها أن
تمنعه ، والخطوة أخذة في النجاح ، فالحقائق الروحية أصبحت
محسوسة الآن في كل الاقطار في عالمكم ، وهذه الحقائق الروحية
يجب أن تعيش لأنها هي أساس الامر الجديد الذي يقام بينكم -
اننا نستعين بنفوس لا عداد لها من عالم الروح * والذين
يصطوفون بجانبنا يسعون للعمل مع كسل الناس من أي جنس
ولون ، ومن أي مذهب وشعب ، فمن يرغبون في امرار الامر
واستعمال هذا العصر الجديد ، ونحن نتكلم عن علم عندما
تقول أن عالمكم القديم المؤسس على المادية الأنانية يموت ، وأن

دنياكم الجديدة قد ولدت بين ظهرانيكم ، • كما يقول أيضا :
 « الدين هو أن تخدم الروح الأعظم بخدمتك أطفاله ، الدين
 هو ذلك الذي يساعد الروح الأعظم الذي فيكم على أن يبرز
 في حياتكم ، الدين هو الذي يزيد من الرباط بينكم وبين الروح
 الأعظم ، وبين أطفاله الآخرين ، الدين هو ذلك الذي يجعلكم
 تنتشرون في الارض لتقدموا الخدمات أينما تقدررون ، الدين
 هو الخدمة ، والخدمة هي الدين ، انما يزداد نمو النفس بالخدمة
 لا غير ، لأنك عندما تنسى ذاتك في خدمة الآخرين تنمو نفسك
 في التركيب والقوة - الاشياء التي من أجلها تسبب في الماضي
 ميل الدماء والتعذيب والتحريري لا تزيد من روح الانسان ذرة
 واحدة ، لقد قسمت البشر الى معسكرات متضادة ، خلقت
 الحواجز ، سببت فروقا لا لزوم لها بين الشعوب والعائلات -
 خلقت المنازعات وعملت كل شيء ديدنه المهاترة وعدم التألف -
 لقد فشلت في تألف أطفال الروح الأعظم • هذا هو السبب في
 أننا لا نعيش كثيرا بالمباني •• لا نهتم بما يسميه الانسان بنفسه
 ان ما يهمنا هو ما يعلمه من أعمال » •

ومن المؤكد أن الحكيم سيلفر بيرش ، قد تحدث في مصنفاته
 عن الأرواح وخلود الانسان ، لذلك لا يد من الاستماع اليه حيث
 يقول : « ان خلود الانسان مادة من مواد الايمان • ولا بدنا من
 البفود المعقدة ، وانما هو جزء من المعرفة الذاتية والتجربة
 الفردية • علينا أن نبحث الصدق الروحي من القبر الذي دفنه
 الانسان فيه • علينا أن نقول للنفوس البشرية الضائعة أنها
 سوف تستمر في الحياة وتخبرنا عن الحقيقة العظمى وهي في
 نفس الوقت الحقيقة البسيطة ، وهي المصير المنظور عن عناية

الله التي لا تتوقف وعن رعاية الروح الدائمة للنفوس
المتجسدة . *

كما يقول في مناسبة أخرى واصفا انتقال الناس متتابعين
ببلاغته الماثورة : « واحد اثر واحد ، القاطف الاعظم يجمعهم
حتى يتمكن زيت الحياة من الاضاءة في عالم أكمل ، انما الدروع
لدنياكم فقط ، لأنهم ينتقلون الى ما وراء علمكم ، أما نحن
فنفرح في عالمنا عندما نحبي النفوس الجديدة التحرر التي ستبدأ
في تذوق مباهج الحياة التي لا يمكن وصفها باللغة الارضية .
أنا أجاهد دائما لأعلم الدرس : ان الموت ينطق بالعربية ، وانكم
حين تندبون الافراد الذين اختفوا من عالمكم ، نحن نسر لأننا
نعلم أنهم بدأوا حياة حرة جديدة ، وسعادة جديدة ، وأن لديهم
فرصا أكبر لاطهار ما في دخیلتهم ، وما عجز عن أن يتحقق في
عالم المادة - لو عرفتكم أنهم لم يفقدوا فيكم ، لهبطت الرحمة
عليكم ، وأنا أثبتكم بأنه كلما ازدادت قدرتهم باطراد نعوهم في
عالمنا فهم يعودون دائما اليكم ليساعدوكم في المعركة العظمى
التي نشترك جميعنا فيها » *

من المؤكد أن الأمور الروحانية وخاصة ما يتعلق
منها بالخلود أو السرمد ليست سهلة بالنسبة لمن يرغب
في خوض خضم هذا البحر الزاخر من المعارف الماورائية
التي يعجز عن سبر أعماقها العقل البشري ، ولكن بعض الحكماء
والفلاسفة الذين أوتوا مقدرة على التأمل والتفكير قد توصلوا
بدقة أعماق الى اظهار بعض الخفايا والأسرار المتعلقة بهذا
الموضوع ، لأن الفلسفة الحقّة كما نفهمها ليست سوى خادمة
أمانة للحقائق ، لا تعرف الجمود أو الكسل لأن أفكارها العقلانية

تنهد دائما وأبدا الى الوصول الى جوهر الحقيقة الكلية للوجود
والموجودات العلوية والسفلية من طريق التمهيد والتدقيق
لكل ما قد يظهر من العلل والمعلولات ، لذلك لا بد للفيلسوف من
أن تتمتع بحريتها الكاملة لتصبح أداة وصول الى عين الحقيقة
الكاملة المثالية -

لذا فدور الفلسفة يجب أن يتجاوز دور العلم لأنها قد
لا تعرف الشيء الكثير من ارتباطات العلم ولا من تراث العلماء
في كل خطوة يخطونها الى الامام ، وفي كل حقيقة يزعمون أنها
خطأ أو صوابا - وأن عبقريتهم العلمية قد أمسكت من تلايبيها
هذا ما يجعل الفلسفة انطلاقا من حقيقتها العقلانية أكثر
استباقا واقداما من أسلوب العلم الوصفي -

فلسفة باسكال :

لاحظ الفيلسوف باسكال أن حركات الكواكب والطيور في
الهمام قد تشهد بعناؤه وأصراره على ذكام الآلهة وعنايته في نظر
انسان يؤمن فعلا بوجود الله ، ولكنها عاجزة في حد ذاتها عن
ازالة الانكار الأساسي لوجود الله -

وفضلا عن ذلك فإن ما يجعل الملحد متصليا في الحاد ليس
ضعف الشواهد الموجودة في العالم المنظور ، بل قرارا اتخذته
الارادة والمواظف ، والميب الرئيسي في مذهب الألوهية مبني
على الاعتبار الرياضية والفيزيائية وحدها ، هو أنه لا يلتفت
الى المشكلات والدوافع الانسانية التي تشكل في نهاية الأمر
موقف الانسان من الله - فاذا كانت الاعتبارات الرياضية
والفيزيائية - مهما كانت قوتها لا تكفي عند الملحد المتعصب

للتغلب على الحاده ، فان التحقيقات الروحية كثيرا ما تقوم بدورها عاجزة مكتوفة اليدين - مهما كانت قوتها ومهما بلغت وفرتها - وضماداتها ودلالاتها ، في زعزعة هذا الالحاد حتى عند العالم أو الفيلسوف المطلع عليها . وذلك لأن الدوافع النفسية لها هي الأخرى دورها الفعال - وإذا كان هذا الاعتبار صحيحا بالنسبة للعالم أو الفيلسوف المطلع اطلاعا كافيا على هذه التحقيقات ، فما بالك به عند غير المطلع ، أو عند ذلك الذي يرفض كل اطلاع سواء أكان من رجال العلم أم الفلسفة أم الاعتقاد ١٩ .

ولذا حاول باسكال عن طريق الفلسفة اقتناع الملتحد والمبتعد عن الدين بحقيقة الدين وقدرته على حل المشكلات الانسانية وقدرته بنوع خاص على ارضاء أسى نزعات الانسان وأعظمها .

وان صح لا اكراه في الدين وجب أن يكون الدفاع عن الدين متفقا تعام الاتفاق مع محاولات الانسان لبلوغ سعادته القصوى ، ومع بعثه المستمر عن ذلك الكائن الأسمى الذي تؤدي به معرفته الى بلوغ تلك السعادة .

وهذه علامة على أنه لا دفاع عن الدين بدون معرفة الانسان حق المعرفة ، وقد رأينا أن معرفة الانسان قائمة على ملاحظته في الوجود . . . يتلخص المنهج اذن من ناحية في وصف الانسان في حركته ونزعاته ورغباته ، ومن ناحية أخرى في تفسير تلك الحركة وتلك النزعات والرغبات .

آراء فيشته :

يرى الفيلسوف « جوهان فيشته » أن كل حي لا يد وأن
يجوز تعقله فالكائن الذي فيه قلب ، فيه عقل أيضا والفرق
بينهما ليس شاسعا بحيث يتعذر على الكائن أن يتعقل ما سبق
له أن وقع عليه بالقلب ، أو جاءه بطريق السمع .

ويعتقد فيشته أن الفرق بين الايمان والعلم ليس اختلافا
لفظيا بل هو تمايز حقيقي واقعي ، باعتبار أن كل اعتقادي
ما هو الا ايمان ، والايمان قائم على القلب لا العقل . وأن كل
حقيقة نرى أنها من صنع الذهن أو العقل ، دون أن نعرف أنها
تستند الى الايمان أيضا ، فهي غير صحيحة ومختلفة ، بما أن
العلم الخالص ينتهي بنا فقط الى الاعتراف بأننا لا نستطيع أن
نعرف شيئا . وأن الحقيقة تنبثق فقط من الضمير الاخلاقي ،
وكل ما يتعارض مع هذا الضمير ، ومع امكان طاعته ، وتقرير
هذه الطاعة ، هو بكل تأكيد خطأ . وليس في مقدوره أن ينتهي
بنا الى أي اعتقاد ، ولو أنني لا أستطيع أن أكشف الآن عن
دواعي هذا الخطأ .

أراء سبنسر :

ولما كان الفيلسوف « هيربرت سبنسر » من كبار أصحاب
المذهب الوصفي الذي ظهر في انكلترا ، فقد اهتم اهتماما جديا
بمشكلة التوفيق بين العلم والدين ، فأدلى بأفكاره القيمة التي
كانت تتفاعل في أعماقه وهو يسعى للتوفيق بين هذين الاتجاهين
قال : عندما نمتدح بأن الحقيقة تقع عادة في تنسيق الآراء

المتخاصمة المتخالفة • فليعترف العلم بأن قوانينه تنطبق على الظواهر والأمور النسبية فقط •

وليُعترف الدين أن لاهوته خرافة لتبرير أيما يتنافى مع العقل • وليتوقف الدين عن تصوير الله بشكل إنسان عظيم ، والا سواء في تصويره بالقسوة والقسوة والغدر ، والتعطش لسفك الدماء ، ومحبة النفاق والرياء من الناس • وليتوقف العلم عن إنكار وجود الله أو التسليم بالمادية على أساس أنها قضية مسلمة • أن كلا من العقل والمادة ظواهر نسبية ، وهما معلول مزدوج لعلة نهائية ينبغي أن تظل طبيعتها مجهولة • • • أن الاعتراف بهذه القوة الغامضة هو جوهر الحقيقة في كل دين ، وبداية الفلسفة • • وهل يتأتى أن يتحقق أي أمر من هذه الأمور كلها إلا عن طريق التطور المزدوج : التطور في أوليات العلم بعقدار التطور في أوليات الاعتقاد ؟ وهذا التطور خضع له سبشر نفسه عندما اعتدل في أخريات أيامه من موقفه في الدين ، وبدأ يتحقق من أن العقائد الدينية والحركات السياسية تقوم على احتياجات وبواعث حصينة من هجوم العقل عليها ، وراح يعود نفسه على رؤية العالم يتدحرج في طريقه بغير التفات إلى أكوام المكبت التي قدتها في اتجاهه •

ماذا يقول سانتيانا :

يلاحظ الفيلسوف جورج سانتيانا أن العلم يشمل جميع أنواع المعرفة التي يوثق بها ويركن إليها كونه يعلم ما في العقل من ثقل وعدم استقرار ، وما في العلم من قابلية للخطأ والصواب ، ولكنه على الرغم من ذلك يرى وجوب الاعتماد على

المعلم وحده ، معتمدا على ما قاله سقراط بأن الحياة بغير بحث ليست جديرة بالإنسان ، وأن تخضع للعقل كل نواحي التقدم الانساني وكل ما يتصل بالإنسان من مصالح وتاريخ - ويتساءل سانتيانا : « لماذا ثار الضمير الانساني أخيرا على مذهب الطبيعيين وعاد الى الايمان بالغيب الخفي ؟ » - قد يكون السبب في هذا هو أن النفس الانسانية قريبة لما هو خالد ومثالي ، فهي لا تنزع بما هو موجود أمامها ، وتتوق الى حياة أفضل وتحزنها فكرة الموت ، وتعلق أملها على قوة تمكنها من الدوام والخلود وسط ما يحيط بها من تغير ومرور . . .

ومع ذلك ففلسفة سانتيانا طافحة بعناصر الشك الكثير والتردد بين الايمان والانكار لكنه راح في بعض أقواله يبكي ضياع ايمانه ، ويعتقد في نفس الوقت « أن الايمان غلطة جميلة تلائم نوازع النفس الانسانية أكثر من الحياة نفسها » .

لكن سانتيانا راح في الوقت ذاته يزدري المصلحامين الذين يتوهمون أنهم قد أثبتوا بطلان الدين بالمعلم ، من غير أن يبحثوا عن أصل الافكار والحادات التي نبعت عنها العقائد الدينية من غير أن يعرفوا معنى هذه العقائد الدينية الأصلي وعمقها الحقيقي . . . فلسفة سانتيانا تعكس بوضوح صورة الصراع المتجدد بين العلم والاعتقاد ، والتطور الملازم في أوليات هذا وذاك حتى تتراجع بعض عناصر هذا الصراع المتجدد تراجعا قويا أو ضعيفا .

وأي راسل :

يبدو أن الفيلسوف الاتكليزي « برتراند راسل » قد رفض :

العجيج التي كان يعتمد عليها زميله الفيلسوف « كارولين »
لأثبات الدين ، لذلك تراء يقول : اذ أن رأي الذي ثبت عليه
منذ ذلك الوقت ، هو أن القضية الدينية يجب ألا تقبل إلا إذا
كان لها سند كالسند المطلوب في القضية العلمية » .

ولعل القارئ قد لاحظ بنفسه كيف أن « القضية الدينية »
وهي مؤسسة بدورها على عشرات ، بل على مئات من القضايا
الفرعية ، لم تجد لها سنداً كالسند المطلوب في أية قضية علمية
إلا في نطاق البحث الحديث في الروح ، وهو السند الذي أَرْضَى
في الشرق والغرب عدداً غفيراً من أكبر الفلاسفة وعلماء المادة
الذين طاموا بحثوا ونقبوا من قبل دون جدوى عن هذا السند
العلمي العاسم لأخطر قضايا الاعتقاد وهو اثبات دوام الحياة
بعد موت الجسد ، وما يرتبط به ، وما يتفرع عنه من قضايا
لا تحصى .

وأسلوب برتراند راسل في هذا الشأن مستمد من نظريته إلى
دور الفلسفة بوجه عام « ومن الحاجة في أن تكون الفلسفة علمية
المنهج ، بحيث تقام صما تعودته من ضرب في التأملات التي تطير
إلى أجواء السماء على جناحي خيال طامح لكنه جامح » والمقصود
بعلمية المنهج الفلسفي نقطتان رئيسيتان :

أولاهما - أن يتناول الفيلسوف مشكلة جزئية واحدة ،
ولكن هذه المشكلة مثلاً عبارة واحدة من عبارات الكلام ينتهي
في تحليلها إلى نتيجة إيجابية ، يصح أن يأتي بعده سواء فيبني
عليها عمله ونتائجه . وبهذا تصبح الفلسفة كالعلم عملاً يتعاون
عليه المتحقيقون ، فيزداد بناؤها طابقاً فوق طابق . وبذلك

لا تعود الفلسفة — كما هي حالها على مر القرون السابقة — عملا فرديا ، بمعنى أن يبني كل فيلسوف لنفسه بناء كاملا شامخا ، ليأتي من بعده فيقوضه تقويضاً ليعيد لنفسه بناء جديدا وهكذا دواليك حتى لا نرى فرقا ملحوسا من حيث التقدم والرقى يبني بناء فلسفي يقيمه فيلسوف القرن العشرين ، وبناء فلسفي قديم أقامه يوناني في القرن الخامس قبل الميلاد .

بل كثيرا ما يرجع القديم الجديد عظمة وشموخا * ان هذا العمل الفردي ان جاز في الآداب والفنون فهو لا يجوز في نتائج العقل من فلسفة وعلم .

نعم يجوز للشاعر أو الفنان أن يعبر عن ذات نفسه كما شاء ، يفض النظر عن سابقه ، لكن مثل هذا الاستقلال الفردي لا يجوز أبدا في المجال العقلي . وأما النقطة الثانية — التي يقصدها * راسل * من علمية المنهج في التفكير الفلسفي فهي الأداة المستخدمة في تحليل المشكلة الجزئية التي يختارها الفيلسوف . وأداة المعاصرين جميعا ممن يهتمون بالفلسفة التحليلية ، وعلى رأسهم راسل ، هي المنطق الرياضي الذي ينصب على العيارة الموضوعية تحت البحث ، فإذا هي أقرب ما تكون الى مسألة في الجبر أو الحساب . ولو كملت هذه الأداة لاستطعنا أن نحقق الأمل الذي كان يحلم به وهو أن نتناول مشكلاتنا من هذه الزاوية الرياضية ، بحيث يعود الاختلاف في الرأي ينسجم بالحساب ، لا نقاشا حول ألفاظ غامضة المدلول لا ينتهي الى نتيجة ، ولو امتد خلال قرون ، * .

وهذا القول كما يصح في علاقة أية فلسفة عصرية بغيرها

يصبح أيضا في تحديد العلاقة بين الفلسفة والعلم ، وأيضا بين العلم والاعتقاد ، حيث ينبغي أيضا أن يتجدا في الكليات ، وأن يلتقيا عند معطيات لا تقبل المنازعة فيها - وتكون هذه المعطيات نامية يدورها بمقدار نمو الفلسفة والعلم والاعتقاد معا في الاتجاه الصحيح القائم على أسلوب النظرة الثاقبة الواقعية للأمور .

هذه النظرة التي عرفت بوجه خاص من أساطين جامعة كامبريدج التي ارتبطت بهم بمقدار ارتباطهم بها ، والتي تعلل وحدها اهتمام أساتذة كامبريدج الكبار ببحوث هذا الناشئ - اهتماما شديدا ، وبوجه خاص منهم « ريتشارد هودجسون » و « هنري سيدجويك » و « فريدريك مايرز » و « آدموند جبرني » و « وليام ماكندوجال » وغيرهم - قد أقبل هؤلاء العلماء على التحقيق الروحي المتواصل الناقد الحذر ، ولم يكن السؤال الذي يشغل بالهم هو بحث ما هو ، ما إذا كان هذا التحقيق متفعا مع العلم أو الاعتقاد ، أو معارضا لهما ، ويرضي الشعور العام أم يخالفه ، ويشير الرضا أم الغضب ، إذ إن كل هذه الاعتبارات لا ينبغي أن يقف عندها الضمير العلمي المشبع بحسب البحث عن الحقيقة ، وحب الارتباط بالمعطيات الصحيحة للحياة ، حيثما جاءت وكيفما كانت .

وفعلا لم يخيب التحقيق المتواصل الناقد الحذر رجاءهم المشروع ، بل جاءهم بأكثر مما كانوا يتوقعون ، فوضعوا أيديهم عن طريقه ، على معطيات جمة خطيرة عن الموت ، وعن الخلود ، وعن النواميس الخلقية والروحية التي توجه دفء الحياة ، والتي

تتجاوز في عمقها وفي خطورة دورها كل صور القياس ، والتي تتجاوز في حيادها وموضوعيتها كل التوقعات .

وهذه هي نفس المحطيات التي أفلت أمرها من برتراند راسل نفسه ، الذي هو فيلسوف رياضي أو بالأدق هو منطقي ذري قبل أن يكون عالما في الطببيات ، أو في حقائق النفس أو الروح . وقد أغرم بالتحليل المنطقي أو اللفظي ، فارتدت فلسفته في كثير من الأحيان طابع الفلسفة اللفظية التي ينفذها الروحيون كما ينفذون كل فلسفة تعتمد على إيهام المصوغ والعبارات مهما كان فيها من براعة أو من قدرة نادرة كثيرا ما تقود الى الضلال ، ولكن أصحابها يتملقون بها كأنها لاهوت جديد يقدمونه باسم العلم ، أو الرياضة ، أو يسمونه « بالذرية المنطقية » التي برع فيها راسل .

وهذه الذرية المنطقية لن يتسع لها هذا المقام ، وقد يكون فيها بعض جوانب الصديق الموثوقة على معادلات المادة والطاقة . ولكن ليس هناك أي مبرر لتصور أنها تحوي الصديق كله خصوصا عندما تهرب من التسليم بوجود الخالق باعتباره الحقيقة المطلقة في الوجود . أو عندما تهرب من التسليم بأزلية الوجود ، أو حتى بوجود الروح ، أو الإرادة ، أو الضمير الأخلاقي . أو غير ذلك من المسلمات التي وصل إليها أحسن فلاسفة التاريخ من أيام الإغريق حتى عصرنا الحاضر .

واليك مثال واحد من فلسفة راسل عندما يرى أن الإنسان لم يعد له لا روح ولا مادة ، لأنه في تقديره ليس ثمة ما يدل على الروح ، ولأنه لم يعد في فلسفة « الذرية المنطقية » ما يدل

على مادة الانسان أو شكله المادي . . . فهل معنى ذلك أن ننكر وجود الانسان ؟ وهكذا دواليك في العديد من القضايا ، أو بالأدق من حلول القضايا التي تعتمد في النهاية على التصيغ الكلامية ، التي تنكرها البداة قبل القتل ، وقبل العواس ، وقبل أسلوب المنطق الذي ينبغي أن يسود العالم والفلسفة معا .

ولا ريب أن من أكبر عيوب الفيلسوف أن يكون نظريا في استنتاجاته ، وأن يحتاج الى حشد أكبر عدد من المعادلات الرياضية أو المصطلحات الفنية كيما يعزز وجهة نظر ترفضها البداة ، وحقائق العلوم الوصفية في وقت واحد .

ولذا فإن رامبل - أو غيره من المناطق الدريين - الذين اتجهوا الى الايمان أو الى الانكار لو أتاحت لهم فرصة كافية لتحقيق ضحية الظواهر الروحية ، مثلما أتاحت لهؤلاء العلماء الذين أسلمتناهم ، وللآلاف من غيرهم في كل أنحاء العالم ، لما اندفعوا بعد اخضاعها للتحليل المنطقي - ولأسلوب المنطق الذري بالذات - نحو انكار الروح أو ظواهرها المحسوسة ولوجدوا أن هذه الظواهر تلتئم مع حقائق المادة في مفهومها الذري لا الحس ، بمقدار ما تلتئم مع التسليم بالروح وبحقيقة الخلود ، والضمير الاخلاقي بعد فهمه وتحديده . وفي الجملة لوجدوا في معلولاتهم قدرة على الاتساق التام مع أسس حقيقتين يقوم عليها كل اعتقاد وهما : دوام الحياة بعد الموت عن طريق الروح شملة الحياة ، وحقيقة الضمير الاخلاقي ودوره الهائل في توجيه دفة المسير الانساني .

وذلك بداة بصرف النظر عن ذلك الحشد الهائل من

الخرافات الذي تسلك الى مفاهيم كل اعتقاد عن طريق ضعف الانسان بوجه عام ، واثانيته ، وغروره ، وايضا عن طريق الجهالة المستعرة التي كثيرا ما ترتدي رداء الاعتقاد ، أو العلم ، أو الفلسفة ، أو المنطق ، والتي قد يكون مبعثها الحقيقي الانفصال التام أو الجزئي بين هذا وذاك من عناصر العرفان الصحيح .

الايمان بنظر ديكرت :

يعتقد الفيلسوف « رينه ديكرت » أن خيرنا الأسمى لو عرفنا قدرته اللامتناهية التي تتمثل في خلقنا وخلق العالم ، وتأملنا كمال معرفته التي يرى بها الاحداث الحاضرة والماضية والمستقبلية ، ثم ضرورة احكامه ، ثم ضعفنا وضعفنا شأنا بالنسبة الى عظمة العالم المخلوق .

وليس علينا الا أن ندرب وجداننا على الاتجاه دائما وأبدا الى اله الخير والسلام والمحبة المطلقة وذلك لأن الله هو القدرة الفاعلة في الوجود والموجودات .

واذا ما تأملنا بما أوجده من مخلوقات ، لا يد لنا من الامتثال لأمر الله ، كونه علة الموجودات وفاعلها ، والانسان العارف يجعل الأمر الالهي ويحبه الى حد أنه حتى لو أتيح له تغيير الأمر لرفض ذلك . ولا شك في أن هذا الاعتقاد الذي يملأ نفس المتأمل العارف قد لا يشبهه أي نوع من الانفصالات الوجدانية .

والجدير بالملاحظة أن ديكرت قد أعلن عن رأيه هذا بعد

أن طاف به في حلم كان قد شاهده في ليلة من ليالي الشتاء ،
ولنستمع إليه ماذا يقول : حلم نزل علي من السماء ، فقد سمعت
قصف الرعد ، وكان هو روح الحق نزل ليملكني ، وفي صباح
اليوم التالي دعا الله أن يهبه النور لأن حياته منذ اليوم صارت
مكرسة للبحث عن الحق .

وعرف ديكارت بأفكاره المتعلقة بالشك حيث قال : فقد
أشك في أنني جسم ، أو في وجود عالم مادي أعيش فيه ، ولكنني
لا أستطيع الشك في أنني أشك ، أو في وجود تفكيري ، وأعلم من
ثم أنني جوهر جماع طبيعته أن يفكر ، ولا يحتاج وجوده إلى
مكان ما ، ولا يتوقف علي أي شيء مادي . لذا كانت ذاتي أي
الروح هي التي جعلتني من أنا . هي شيء متعيز تماما عن
جسمي ، وأدراكها أكبر من إدراك ذلك الجسم ، ولن تكف الروح
عن أن تكون ما هي ، حتى لو لم يكن ثمة جسم .

والله في نظر ديكارت كامل ، خالد ، لا نهائي ، بصير بكل
شيء ، لا حد لقوله ، قادر على كل شيء ، قدسي . ووجود
الإله الكامل يبلغ من اليقين في مفهوم ديكارت ما تبلغ بديهيات
الهندسة ، أو يزيد . فالله هو الكمال الذي يهدي خطانا الضالة
فتتجه اتجاهها خريزيا نحو النور .

ويلاحظ ديكارت أن كل ما يقوله أهل الاتحاد لنقص وجود
الله ليس سوى الحاد ، لأن الله قد أثبت وجوده باعتباره مفكر
أو جوهر ، والله حسب مفهوم ديكارت قد التفت إلى البحث عن
ذاته اللامتناهي ، فأثبت وجوده مما أبدع من موجودات دقيقة
متقنة تشد الإنسان إلى التأمل بماهياتها المعجبية .

ولقد وجد ديكارت في نفسه فكرة مهيمنة على جميع ما عداها ، وهي فكرة الله الكامل اللامتناهي ، استعان بها على اثبات وجود الله مقدما الأدلة والبراهين المنبثقة من ذاته ، ومن أفكاره العرفانية ، وهي : الدليل الأول - يوصلنا البحث في ماهية هذا الوجود الموضوعي للأنكار على وجود الله ، ولبيان هذا الدليل يجب علينا أن نفرق الوجود الموضوعي للأنكار الذي نتحدث عنه ، عن ادعاء الأفكار الحسية العارضة الى وجود موضوعات مشابهة لها . وقد بينا أن لا قيمة لهذا الادعاء . وليس هدفنا أن نستدل بأي فكرة من الأفكار حسية كانت أم غير حسية ، على وجود موضوعات الأفكار أيا كانت . انما لا نرمي الى اثبات وجودها الطبيعي . انما ننهض لتفسير الأفكار في ذلك الوجود ذاته .

وليس من شك أن هناك اختلافا بين الأفكار من ناحية وجودها الموضوعي : ففكرتي عن المثلث هي غير فكرتي عن الدائرة ، وغير فكرتي عن الانسان ، ومن المؤكد أن هناك تفاوتاً بين الأفكار في مرتبة ذلك الوجود . ففكرتي عن انسان غير فكرتي عن صفات ذلك الانسان ، عن لونه مثلاً ، أو صوته ، أو ذكائه . انها فكرة عن جوهر ، بينما كانت تلك الأفكار عن أعراض ذلك الجوهر ، وفكرتي عن الله غير فكرتي عن الانسان ، وبالأولى عن جسم من الاجسام . انها فكرة كانت أسمى ، أزلي لا متناهي ، ثابت لديه المعرفة والقدرة الكاملتان ، خالق جميع الاشياء الخارجة من ذاته ، وتملك فكرته وجوداً موضوعياً أكثر مما تملك أفكار الجواهر المتناهية (١) . وقد تتساءل كيف يمكن

(١) ديكارت - المطالعات : الفصل الثالث ص ١٨١ .

تفسير الأفكار في وجودها الموضوعي هذا وما سببها وما علتها ؟
ومن المؤكد أنها لا تحتاج في وجودها الصوري أي خارج النفس
ذاتها . أما تلك الأفكار المختلفة متفاوتة فيما بينها في
وجودها الموضوعي ، لزم البحث عن علة تفسر تمثيلها
للموضوعات واختلافها في هذا التمثيل وتفاوتها . ولا يمكن
فرض موضوعات خارجية تؤثر في النفس ، وتعد هذه بالأفكار
المختلفة ، وربما نتساءل عن سبب الأفكار في وجودها الموضوعي
هذا وما من اختلافها وتفاوتها ؟

فالإجابة أنه مهما بحثنا في الظرف الحاضر ، لما وجدنا لتلك
الأفكار كلها - ما عدا واحدة منها - سببا خارج النفس ذاتها ،
سواء نظرنا إلى ما تتضمنه موضوعات تلك الأفكار من نقص أو
نقصه من حقيقة أو كمال ، فالأفكار مثل الحار والبارد والحلو
والمر ، وما إليها لا تعوي إلا حقيقة موضوعية ضئيلة وما بها
من نقص يمكن رده إلى ما في النفس من نقص وقابلية للأخطاء
والخداع (١) . أما ما يحويه بعضها من حقيقة موضوعية فيعود
إلى ما في النفس من قدرات وكمال .

أما الأفكار الرياضية ، فعلاوة على أنها تمثل للنفس في
صفاء وتميز يعظمان بقدر ما تتجنب النفس الاتصال بالعلم
الخارجي الذي تدعى وجوده - علاوة على هذا - فليس هناك
فيها ما يجبرنا على تعدي قدرة النفس على تمثيلها وتكوين
بعضها من البعض الآخر . كذلك هو الأمر فيما يتعلق بأفكارنا
الواضحة المتميزة عن الأجسام : فالأجسام خارج الكيفيات التي

(١) هيكلت الثلثات ص ١٨٤ .

أشرنا إليها كالبحار والبارد والحو والمز ، تعمل خصائص
نتمثلها بوضوح وتميز كاملين لا لسبب إلا أنها راجعة في نهاية
الأمر إلى الخصائص الرياضية كالمسافة والشكل والمقدار .
وأفكارنا عن هذه الخصائص لا تتطلب منا الخروج عن النفس
وعن قدرتها على التصور والتركيب ظلت أفكارنا عن غيرنا من
الناس وعن الملائكة وعن الله : ولا تختلف الأولى في موضوعها
عما نعرفه في أنفسنا ، أما الثانية فهي على الأغلب مزيج من
أفكارنا عن النفس وعن الأجسام (١) أما فكرة الله فهي - في
ناحية واحدة منها على الأقل - تقتضي سببا خارج النفس
وخارج قدرة النفس على التفكير .

والبحث في النفس ومحتوياتها يوصلنا إلى أن نتأمل في
فكرة الله وأن نجاح تفسيرها من جهة حقيقتها الموضوعية أي من
جهة ذلك الموضوع الذي تمثله دون غيره من الموضوعات .
وفكرة الله هي كما لاحظنا فكرة كائن كامل أزلي لا متناه ،
لديه المعرفة والقدرة الكاملتان وهو خالق جميع الأشياء . وتلك
الفكرة تنبع من النفس نبوفا طبيعيا . فيكفي لصدورها أن
نفكر في أنفسنا وفيما يحمله وجودنا من نقص ، وفيما يحملنا
وجودنا من نقص ، وفيما يمرض لتفكيرنا من شك وخداع ثم
فيما نحن حاصلون عليه من حقيقة وكمال ورغبة في تجنب
مواضع النقص والشك والخداع . يكفينا هذا التفكير في أنفسنا
لنصل على نحو مباشر إلى التفكير في كائن كامل (٢) .

(١) ديكارت التلميذات : التابل الثالث ص ١٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩١ .

ولذلك كانت فكرة هذا الكائن هي الأولى التي تعثل للنفس
مثلا طبيعيا مع فكرة النفس عن ذاتها ووجودها وأنها كانت
مرتبطة بهذه الفكرة الأخيرة ارتباطا مباشرا .

وقد نتساءل من أين جاءت هذه الفكرة ؟ اذ سبق أن أثبتنا
أن لا موضوع خارجي يفسرها - ثم لا يمكن أن تكون النفس
سببها ، فالنفس ناقصة محدودة منتهية ودون الكائن اللامتناهي
القادر الذي تتعطله بفكرتها . ولا يمكن للأدنى أن يفسر
الأسى - ولا يمكن أن تكون النفس وحدها سبب تفكيرنا في
الكائن الأول اللامتناهي . ولا يجوز أن يقال أن في الله كمالات
متعددة ، ربما أكون قد حصلت على أفكارنا بواسطة تجربتي
الشخصية ، وجمعت هذه الأفكار فيما بينها وعملت منها فكرة
لكائن كامل -

وهذا غير جائز ، لأن فكرتي عن الله تتضمن في ذاتها اتحادا
مباشرا فعليا لكافة الكمالات فيما بينها ، وذلك مهما بدا لمقلي
من اختلاف بين تلك الكمالات .

ولا يمكن أن يقال أنني أنا الذي تكونت فكرة اللامتناهي
بناء على الكمال اللامتناهي القائم في نفسي بالقوة ، بناء على
قدرة نفسي على التقدم ، تقدم مطرودا الى هذا الكمال
اللامتناهي الذي أتصوره . لا يمكن هذا ، لأن اللامتناهي مثل
الكمال العاشر في الله بالفعل لأن فكرتي عن كمال الله ولا
نهائيته هي التي تجعلني أتصور وأفهم حدودي ووجودي
ونقصي . ان هذه الفكرة في نفسي لتدل على الله وكأنها علامة
الصانع على صنعه .

لتفسير فكرة الكائن الكامل اللامتناهي يجب الخروج من النفس والحكم بأن هذا الكائن ، الكامل اللامتناهي موجود وبأنه علة تلك الفكرة وسببها الوحيد (١) .

الدليل الثاني : أقر ديكارت بما حمله الدليل الاول من صعوبة لا سيما على من لا يتعود المضي طويلا في تجريد أفكاره وتقليبها على مختلف أوجهها ، ورأى أن يؤيد هذا الدليل ويكمّله بدليل ثان يبدو أيسر منه وأقرب الى الفرض المطلوب . فبدلا من البحث عن سبب لفكرته عن الكائن الكامل اللامتناهي حاول البحث عن سبب وجوده ، هو الذي يفكر في الكائن الكامل اللامتناهي « أفكر إذن أنا موجود » أنا كائن مفكر أي يعرف ما في نفسه من كمال ونقص . يعرف أنه يشك ويخطئ كثيرا ويريد أن يتجنب الشك والخطأ معا .

ومن المؤكد أنه لا يمكن أن يكون سبب وجودي أنا الذي أفكر في الكائن الكامل ، إذ لو صبح ذلك لاستطعت الحصول على تلك الكمالات التي أتصورها في الله والتي أعرف نفسي خالية منها مفتقرة اليها (٢) .

فوجودي يفترض العدم الذي خرج منه وخروجه من العدم يفترض قدرة مطلقة لا متناهية لا يمكن أن أكون حائزا عليها . ثم أنني جوهر مفكر لو كنت منحت نفس الوجود لما قصرت عن منحها عدة صفات وكمالات ليست هي في نهاية الامر إلا أعراضا لذلك الجوهر .

(١) ديكارت : مبادئ الفلسفة الجزء الاول .

(٢) ديكارت : المقال في المنهج ج ١ ص ١١٥ الفصل الثالث ١٧٨ .

ولما كنت لست سبب وجودي ، وجب البحث عن هذا السبب ،
اذ لا يمكن أن يثبت وجودي ، أو يبقى بدون سبب ، اني موجود
في الزمن ووجودي الزمني هذا مؤلف من لحظات متتابة منفصلة
الواحدة منها عن الأخرى - فوجودي في اللحظة العاصرة كان من
الممكن ألا يكون ، وهو لا يستتبع بالضرورة وجودي في لحظة
تالية - ولا يمكن أن يكون والذي سبب وجودي - انهما مفاسقان
فقط لميلادي ولا يستطيعان المضي به لحظة واحدة وراء ذلك
الميلاد - ثم لا جدوى من البحث عن سبب وجودهما والتسلسل
في هذا البحث ، بل ينبغي الاكتفاء بالبحث عن سبب وجودي
أنا الآن -

أنا موجود الآن ، وأعرف اني لست سبب وجودي ولست
بالأولى سبب بقائي في الوجود وانتقالي من اللحظة العاصرة الى
لحظة تالية وعلى ذلك فلست سبب انتقالي من اللحظة الماضية
الى اللحظة العاصرة - ولا بد من سبب وأن يكون هذا سبب
وجوده ذاته وبقائه في الوجود معا ، أي حسب تعبير ديكارت
والدريسين أن يكون سبب ذاته -

هذا هو الكائن الكامل الذي أفكر فيه - فاني أتصوره من
الغنى والقدرة بحيث لا يكون مفقراً في وجوده الى سبب ، ولا
عاجزاً عن البقاء بذاته في الوجود ، فهو اذن قادر على ايجادي
وحفظي ، هو الخالق الحافظ - ولا فارق بين الاثنين - بما أني
الكائن العاجز ، وبما أن عجزى ايجاد نفسي في اللحظة العاصرة
عجز بالأولى عن الاحتفاظ بها في الوجود - هذه هي الصيغة
الثانية للبرهنة على وجود الله - وهي قائمة مثل الأولى على

يقيني الاول بوجود نفسي ، وبما في نفسي من كمال ونقص
من حقيقة وخطأ ، من وجود وعدم .

ويمكن أن يجتمع اذن مع تلك الصيغة الأولى في تعبير واحد
مقتضب . يقول ديكارت في بداية التأمل الرابع ه من هذا
فقط ، أن (فكرة الله) في نفسي ، ومن كوني موجودا أنا الذي
لدي هذه الفكرة أستنتج وجود الله في يقين تام (١) .

الدليل الثالث : أما وقد تم اثبات وجود الله أصبح اثبات
وجود الاجساد أمرا معكنا . ولكن ديكارت فضل البقاء مع ما
استطاع البقاء في أرض الفكر الثابتة والتأمل فيما يعرفه
بوضوح وتميز عن طبيعة تلك الاجسام ، وذلك قبل الغوص
في اثبات وجودها (٢) . والمعرفة الواضحة المتميزة عن الاجسام
هي بدون شك المعرفة الرياضية . ولا شيء أنسب للتأمل وأكثر
ثباتا ويقينا بعد النفس والله من العلم الرياضي وحقائقه .

وقد تبين لديكارت أنه يمكن المتادي من هذا التفكير في
العلم الرياضي وفي حقائقه الى حقيقة أسعى من العلم الرياضي
ذاته الى حقيقة ربما كانت أصل اليقين وأساسه ، يستلعب
الانسان أن يتقدم في ذلك العلم ما شاء له التقدم ، معتمدا في
تقدمه على انتباه متصل للأحكام التي يقوم بها ، وعلى نظام
يراعيه بينها أثناء انتقاله وتقدمه ، ومعتمدا بنوع خاص على

(١) ديكارت التأملات — التأمل الثالث من ١٩٢ — المبادئ الفلسفية
ص ٢٠٣ .

(٢) ديكارت التأملات — التأمل الخامس ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

الأفكار الرياضية ذاتها التي تعمل منها الأحكام - فالفكرة الرياضية نظرة النفس الخالصة في طبيعة ثابتة حقيقية لطبيعة المثلث أو الدائرة أو المربع أو ما شابه ذلك .

قد لاحظنا أن النفس لا تستطيع إزاء تلك الطبائع إلا النظر والبصيرة ثم الإقرار والتسجيل .

ففي المثلث مثلا خصائص معينة أن نظر العقل فيها عرف ما بينها من روابط ، واستطلاع بفضل ذلك ، الانتقال من هذه الخصائص إلى أخرى ومن هذه إلى أخرى . كذلك هو الأمر فيما يتعلق بالدائرة وبغيرها من الطبائع الرياضية ، خصائص مترابطة فيما بينها ترابطا ضروريا تعمل منه كل طبيعة ولا يستطيع الفكرة إزاء تلك (١) الطبيعة وتلك الضرورة إلا أن يقرهما ثم أن يستخدمهما في تقدمه العلمي المتصل .

ويرى ديكرت أنه يمكن التفكير في الله وفي موضوع وجوده على نحو مماثل للتفكير الرياضي الوصول بمقتضى ذلك إلى يقين مماثل لليقين الرياضي - فكما أن فكرة المثلث تقتضي منا أن نقرر أن زواياه مساوية لقائمتين ، كذلك تقتضي فكرة الكائن الكامل أن ننسب إليه الوجود بالضرورة . ففكرة الكائن الكامل هي فكرة كائن لديه جميع الكمالات . ولئن يكون هذا الكائن تام الكمال ما لم نقرر الوجود فيه - الكائن الكامل إذن موجود (٢) .

(١) ديكرت : الثبوتات - المثلث الخاص ص ٢٠٢ .

(٢) ديكرت : المقال في المنهج : المثلث الخاص (٢٩٢ - ٢٠٠) .

هذا الدليل على وجود الله هو المعروف بالدليل الوجودي لأن الفكر يتتعلّق فيه مباشرة إلى وجود الله . وانتقال الفكر هذا إلى الوجود هو ما جعل الدليل موضع جدال واعتراض أثناء حياة ديكرت وبعد موته . إذ كيف يمكن تبرير الدليل بالاعتماد على مثال المعلم الرياضي الذي لا يخرج الفكر فيه لحظة إلى الوجود ؟

تقوم المقارنة بين فكرة الكائن الكامل وبين الأفكار الرياضية على أساس أن جميع هذه الأفكار بما فيها فكرة الكائن الكامل أفكار لطبائع ثابتة حقيقية . والاعتراضات على الدليل السابق لا بد صادرة عن عدم إدراك للمقارنة المذكورة وعدم فهمهم لنظريته في الأفكار والطبائع الثابتة الحقيقية . فالأفكار الرياضية وفكرة الكائن الكامل كلها أفكار لطبائع ثابتة حقيقية أي الطبائع تمتاز كل منها بضرورة داخلية معينة . فكل فكرة رياضية تمتاز عن الأخرى لطبيعتها ، ولكل منها طبيعة وضرورة خاصة بها . كذلك فكرة الكائن الكامل فكرة ثابتة حقيقية ، ولهذه الطبيعة ضرورة معينة خاصة ، تميزها عن الطبائع الرياضية . وإذا كان من المحقق أن لدينا فكرة عن الكائن الكامل فالسؤال هو بمدى ما يميز تلك الفترة أو بصدق ما يعين طبيعة وضرورة هذا الكائن الكامل الذي لدينا عنه فكرة ، عن الطبائع الرياضية التي لدينا عن كل منها فكرة واضحة متميزة . فيما تمتاز فكرة الكائن الكامل من تلك الأفكار ؟ أنها تمتاز عنها ، ويمكن أن نقول أنها تمتاز عليها ، بأنها فكرة لكائن لا تنفصل ماهيته عن وجوده . فكرة لكائن تقتضي ماهيته وجوده (١) بينما

(١) ديكرت : الإجابة عن الاعتراضات الأولى ١٤٦ .

لم تنقض ذلك أي فكرة من الأفكار الأخرى - فكرة الكائن الكامل فريدة بين الأفكار وتتمايز (١) عنها ، كما تتمايز فكرة المثلث عن فكرة الدائرة وعن فكرة المربع - ولفكرة الكائن الكامل هذه ضرورة تفرض علينا أن نقرر وجود موضوعها ، كما كانت لفكرة المثلث ضرورة تفرض علينا أن نقرر للمثلث زوايا ثلاثة مساوية في مجموعها لقائمتين .

وكما أننا فكرنا في المثلث ، اعترفنا بأن زواياه مساوية لقائمتين ، كذلك كل مرة يأتي لنا فيها التفكير في الكائن الأول ، وجب علينا الاعتراف بوجوده ، وإن كان الأمر كذلك فهذا التفكير في الكائن الكامل ، صورة طبق الأصل لهذا الكائن ، وأثر أول في النفس لا يعنى لهلييمته وضرورته ، وإذا كان الأمر كذلك تبينت لنا وحدة الأدلة على وجود الله وأنها في نهاية الأمر صفة لدليل واحد .

ديكارت ووجود العالم :

يلاحظ ديكارت بعد أن علم أنه موجود وأن الله موجود علما يقينيا أنه هو موجود أيضا - بمعنى أن له نفسا متميزة عن بدنه ، وهي قادرة على أن تبقى بدونها ، كونها خالدة لا تموت - ويذهب إلى أنه طالما أن الله موجود ، ولليقين بوجود الله مغزلة رفيعة عنده - أي عند ديكارت فمن دون الله كان يظل مسجيتا في « الكوجيتو » لا يبرحه ، ومن دونه كان يعرف نفسه ولا يعرف شيئا آخر - ولكن وجود الله ضمان لكل علم ولكل يقين ،

(١) ديكارت : التأملات : التأمل الخامس ص ٢٠٥ .

وبوجوده يستطيع أن يعبر الهوة التي حفرها الشك بين فكره وبين الأشياء ، ويمكن أن يطمئن إلى وجود العالم الخارجي .
 ذلك أن الميل الطبيعي القوي الذي يشعر به ، والذي يدعو إلى الاعتقاد بوجود ذلك العالم ، هو ميل يستحيل أن يقوده إلى ضلال ، ما دام قد استفاد من الله الذي هو الكامل الصادق الذي لا يخدع . ومنذ الساعة التي عرف فيها الله أيقن بوجود الأشياء ، وأصبح الشك أمرا مستحيلا ، وذهب ما بقي لديه من ارتياب ، وحل محله ثقة بالمثل لا تتزعزع .

ويقول ديكرت : أستطيع أن أثق من النتائج التي تقود إليها الاستدلالات العقلية مهما يكن حظها من الطول والتعقيد ، ما دمت أراعي فيها شرطا واحدا : أن يكون لي فكرة واضحة متميزة عن كل حلقة في سلسلة الاستدلال ، قد يحدث أحيانا أن أضل في بحوثي ، ولكنني حينئذ أنا المسؤول وحدي : لأنني حر ، وإرادتي لا متناهية ، وقد تتمتع بإرادتي في الحكم على الأشياء مثل أن يراها عقلي بوضوح وتمييز .

والله إذا منحني الحرية والاختيار ، منحني القدرة على الخطأ والصواب ، ووجود الله هو الذي يضمن وجود العالم الخارجي ، ولكن العالم الخارجي (١) لا يمكن أن يكون وجوده الحقيقي على نحو ما نعرفه بحواسنا ، لأن الأحاسيس إنما هي غامضة مبهمه لا تؤدي إلى اليقين الذي نتوخاه ، ولن يكون لنا من الأحاسيس أي يقين عن طبيعة الضوء أو الصوت مثلا .
 والضمآن الإلهي يفيد أن ما يصح أن يوجد حقا إنما هو ما

(١) ديكرت — مبادئ الفلسفة : الباب الأول ص ١٢١ .

يكون موضوعاً لفكرة • فإذا بحثنا وأمعنا النظر لم نجد في تصورنا للعالم الخارجي إلا فكرة واحدة متميزة دائمة باقية مهما تتغير الصفات الحسية : تلك هي فكرة (الامتداد) الذي هو موضوع بحوث المشتغلين بالهندسة ، ونستطيع الآن أن نتخذ مبدأ الأفكار الواضحة المتميزة وسيلة نستطيع بها أن نطلق الأحكام على وجود العالم المادي وعلى طبيعته •

فإذا لقينا جسماً ما فيكفي أن نسأل أنفسنا بصدده : من أي شيء يكون لدينا فكرة واضحة متميزة حين نفكر في هذا الجسم ؟

لنأخذ مثلاً هذه القطعة من شمع المسل ، ولم يمتز على استخراجها من الخلية إلا زمن قصير : فهي لم تفقد بعد حلولة المسل الذي كانت تحتويه ، ولم يزل بها شيء من رائحة الزهور التي قطنت منها ، لونها وحجمها وشكلها أشياء ظاهرة للعيان ، وهي الآن جامدة باردة تستطيع أن تلمسها ، وإذا نقرت عليها أحدثت صوتاً ما •

وأخيراً جميع الأشياء التي يمكن يتميز أن نجعلها نعرف على الجسم ، تلقاها في الشمعة • ولكن بينما أنا أتكلم ، أصفها قرب النار ، فإذا أضاءت ، تذهب بقية طعمها ، وتتلاشى رائحتها ، ويتغير لونها ، ويضيع شكلها ، ويزيد حجمها ، وتصبح من السوائل ، وتسخن حتى لا نكاد نستطيع لمسها ، ومهما نقر عليها قلن ينبعث فيها صوت • أما تزال الشمعة باقية بعد هذه التغيرات جميعاً ؟ يجب أن نقر بأنها باقية ، ولا يستطيع أحد إنكار ذلك • فما الذي كنا نعرفه في قطعة الشمع هذه يتميز

ووضوح ؟ لا شيء يقينا من كل ما لاحظته فيها عن طريق الحواس ، ما دامت الاشياء التي كانت تقع تحت حواس الذوق ، أو الشم ، أو البصر ، أو السمع ، قد تنيرت كلها في حين أن الشمعة (١) نفسها باقية .

من هذا المنطلق التحليلي لذلك المثال ، يستنتج ديكارت أن الشمعة ليست تلك الرائحة ، ولا ذلك اللون ، ولا تلك المقاومة ، ولا ذلك الشكل ، وأن الحواس لا تدركها في طبيعتها وكيانها ، وانني لم أستطع أن أفهم بالخيال ما هي قطعة الشمع هذه ، وانما ذهني وحده هو القادر على أن يفهمها ، وهو القادر أن يتمقبها دائما . ومهما تحترق الشمعة ومهما تتلاشى ، فالذهن يلحقها حيث تكون - والشمعة موجودة وان غابت عن العيان ، وهي باقية وان تناثرت أجزاؤها وذهبت عناصرها فرقا .

والذي يبقى من الشمعة ، والذي يدركه الذهن فيها بوضوح وتميز ، انما هو امتدادها ، لا ذلك الامتداد الحسي الذي اتمثله بحواسي وبنخالي ، بل هو الامتداد الذهني المجرد من الألوان والأصوات والماسات . وليس الامتداد هو ماهية الشمعة فحسب ، على نحو ما شاهدنا من التحليل السابق ، بل ليس بالجسم وليست المادة شيئا غير هذا الامتداد المجرد الذي يدركه الذهن ، والذي هو أشبه بفضاء صاحب الهندسة - واذن فالامتداد وحده هو « الصفة الأولى » وهو جوهر الجسم المستقل عن جوهر النفس .

(١) ديكارت : التليلات : التليل الثاني من ٨١ .

أما الألوان والاصوات والروائح والعلوم فكلها صفات
ثانية ، وليس لها وجود في ذاتها وإنما وجودها في أذهاننا .

يتضح من ذلك أننا لا نعرف « العالم الخارجي » معرفة
مباشرة بالعواس ، ولا ندركه ادراكا مباشرا كما هو في ذاته ،
وكل ما نعرفه عنه هو الصور الذهنية التي في أذهاننا ، أما أن
هذه الصور والافكار مطابقة لموجودات حقيقية لا وهمية . فهذا
ما لا نعلمه الا بالواسطة - أي بفضل الصدق الالهي : لأن من
غير الممكن أن نخدمنا الافكار التي أودعها الله فينا مع ميل قوي
إلى الاعتقاد بأنها صحيحة -

لاحظنا من خلال دراستنا لآراء ديكارت في وجود النفس
ككائن في الزمن ووعي مباشر بالوجود الزمني - وهذه هي
ظاهرة الوجود الزمني النفساني - وعلى هذه الظاهرة أقام
الدلالة على وجود الله - وهذا يعني نظرية « الخلق المستمر »
وتجسيدها بين فيما يتعلق بوجود النفس - وديكارت اذ عرضها
في تلك الصورة في « كتاب التأملات » فهو قد عرضها قبل ذلك في
صورة عامة وبصدد العالم المادي ، وبصدد فلسفة الطبيعة كلها ،
وذلك في كتاب « العالم » ثم في « المقال عن المنهج » حيث يقرر
أن الله يحفظ العالم في الوجود ، على نفس النحو الذي خلقه
عليه ، وأن الفعل الذي يحفظه به العالم ، لا يختلف عن ذلك
الذي خلقه به (١) وأن تلك القدرة التي خلقته لأول مرة ،

(١) ديكارت : المؤلفات الكاملة « العالم » المجلد الحادي عشر ص ٢٧
المقال عن المنهج ١٢٢ .

لا بد من افتراضها من جديد في كل لحظة من لحظات الوجود (١) .
ويجسد ديكارت هذه المفاهيم ، بشأن العالم المادي ، في مجال
لا يشير فيه الى أدلة على وجود الله ، وكأنه لا يحتاج الى أدلة ،
أو كأنه ينتقل مباشرة من صفة الحدوث الزمني في العالم ، الى
الاقرار بأن العالم مخلوق وبوجود خالق ، كما ينتقل مباشرة من
ظاهرة الوجود الزمني النفساني الى اثبات الله الخالق .

ومن الواضح أن لنظرية الخلق هذه نتيجة ميتافيزيقية
لاهوتية مباشرة - ان الله اذ يخلق العالم خلقا مستمرا ، واذ
يحفظه كما يخلقه ، فهو لم يخلقه شيئا فشيئا ، متوقفا به من
أبسط الصور الى أكثرها تعقيدا ، ومعتدا في ذلك على الزمن
والتغير الزمني . به انه خلقه في الأصل ، على الصورة التي
نراها عليها الآن (٢) . وتذكر الكتب السماوية بصدد آدم
والجنة التي عاش فيها ، الى ان الله خلق الانسان ، وكائنات
العالم في صورة كاملة تامة .

ومن الملاحظ أن هذا المعنى اللاهوتي الميتافيزيقي للخلق
يجاوز افهامنا الانسانية - ولكنه لا بد للفيلسوف من بيان علاقة
ما بين حقيقة الخلق ، وطبيعة العلم وتطبيقاته العلمية
الصناعية . وقد لاحظنا مشروع ديكارت في العلم والعالم المادي
أنة لا ينفصل عن الناحية التطبيقية للعلم ، وراينا أن المنهج في
غايته وأهدافه متجه الى تلك الناحية التطبيقية ، وأنه في ضوء

(١) ديكارت : القائل الثالث من ١٨٩ ، الإجابة على الاعتراضات الخمسة
. ٢٨٢

(٢) ديكارت : القائل في المنهج من ١٢٢ .

تلك الاهداف يمهّد الطريق للمعلوم الرياضية في صيغتها
التحليلية ، كما يمهّد الطريق للمعلوم الطبيعية في صيغتها
الميكانيكية الهندسية (١) .

ولم يخامر ديكارت الشك لحظة واحدة ، في امكان هذا
المشروع العلمي ، لا في المرحلة المنهجية ، وقيل أن يميز مسألة
الخلق بصدد حقائق العلم ، ولا في المرحلة العلمية التالية لموقفه
في خلق الحقائق العلمية ، ولا في المرحلتين الفلسفية والاخلاقية ،
كونه أشار في كتابه « مبادئ الفلسفة » الى أن الفروع الرئيسية
لهجرة الفلسفة هي الميكانيكا والطب والاخلاق (٢) .

ويؤدّي المشروع الذي وضعه ديكارت حول المنهج والعلم الى
اعتبار العالم الطبيعي امتدادا هندسيا ترجع الحركات منه الى
تغير اجزاء الامتداد في أوضاعها المتبادلة . ويميز ديكارت عن
هذا المشروع في كتابه « القواعد » عن نظرية خلق الحقائق ،
ثم يتجه الى نظرية « الخلق المستمر » التي يربطها بمظاهر
علمية فيزيائية ، يحاول فيها أن يستدل على أوضاع المعاني
الخاصة بأصول العالم المادي ، تمثّل وصفا لهذا العالم
ولظواهره ، قائما على تلك الأصول ، ومتناسبا مع تلك النظرية
الميتافيزيقية اللاهوتية .

ويرى ديكارت أنه من المفروض أنه يتعدى على الانسان
رؤية علاقة الفعل الالهي المطلق للخلق بتفاصيل الاحداث

(١) ديكارت : المقال في المنهج من (٧٥ - ٧٧) .

(٢) ديكارت : المقال في المنهج من (٧٥ - ٧٧) .

الزمنية ، وبما أنه من الضروري أن يقف الانسان على تلك
الأوجه التي يستطيع بها السيادة على العالم والسيطرة عليه .

ويتصور ديكارت في كتابه « العلم » العالم ونشأته ، فيرى
نفسه متفرجا على عالم جديد غير عالمنا هذا ، عالم جديد بأن
يكون الله خالقه ، ويتفق وحقيقة الخلق المستمر ومعاني النفس
المواضعة ، ويتناسب ومطالب العمل والتطبيق والصناعة (١) .

ويطلع علينا ديكارت بالمعنى الواضح عن أصول العالم
المادي ، فيرى أنه ليس سوى معنى الامتداد ، وما يتبع ذلك من
تصور هندسي للحركة والتغير العالمي .

أما الوصف الذي يتخيله ، فهو الوصف الميكانيكي ، لأن
المادة التي يعمل العالم منها يجب ألا تفرض فيها خصائص
نراها ونشاهدها بأعيننا في أجسام دون أخرى ، إنما يجب
تصورها على نحو يفهمه ويقره العقل الطبيعي النير ، ذلك
العقل الذي يهتدي بالمبادئ الرياضية . فالمادة امتداد هندسي
يعمل المكان ويشغله ، بحيث لا يبقى فيه خلاء أو فراغ ، لأنه
مما لا يمكن تبريره أن يكون الله خلق أجزاء مادية في مكان ،
وترك العدم في مكان آخر - أننا أمام ملا هندسي مطلق (٢) .

ويرى ديكارت أنه لا يمكن أن ننسب للامتداد أي صورة من
تلك الصور الجوهرية الغامضة التي افترضها المدرسيون ، أو

(١) ديكارت : « العلم » المجلد المادي عشر .

(٢) ديكارت : العلم - المجلد العادي عشر - مبدأ الفلسفة ج ٢ ص ١٦٠ .

أي مظهر من مظاهر القدرة والفاعلية . باعتبار أن الامتداد جامد كل الجمود وإن صح ذلك فهذا يعني أن الحركة لا يخرج منها عن أجزاء الامتداد ومن تغير أوضاعها فيما بينها .

ولذلك كان المبدأ الأول الذي يخضع له العالم في حركته هو مبدأ القصور الذاتي ، أي مبدأ الجمود . وينص هذا المبدأ على أن كل جسم يظل على الحال التي هو عليها ، ولا يتركها إلا عند احتكاكه بالأجسام الأخرى (١) . وهذا يعني أن الجسم الساكن يظل ساكنا ، والجسم المتحرك يبقى متحركا بحركة مستقيمة منتظمة ، ما لم تتغير حاله من السكون إلى الحركة باحتكاكه بجسم آخر .

ومن هذا المنطلق كان الله السبب الأول أفعال للحركة والحدوث والتغير في العالم ، فالسبب الظاهر هو الاحتكاك ، والاحتكاك سبب غير فعال يتناسب والقدرة الإلهية ، والاحتكاك ينجم عنه تغير الحركة في العالم الذي يقصد منه التواء جسم آخر ، وحدث التغير عند هذا الالتقاء ، على أن يكون التغير في لحظة الاحتكاك ذاتها ويؤتي الاحتكاك أثره فورا .

أي أن فعل الاحتكاك قائم في نفس الفترة ولا يتجاوزها ، ولا يحتل دواما أو ديمومة ، إنما يقوم ليتلاشى . وعلى ذلك كانت الاحتكاكات التي تؤدي إلى التغير العالمي قائمة في فترات ، أن كانت متتالية فهي منفصلة ، فلا بد من قدرة عليا للربط بين تلك الاحتكاكات ولجعل التغير متواصلا ، وإقامة العالم

(١) ديكرت : مجلد الفلسفة ج ٢ مقالة ٣٧ .

الحادث المتحرك - والمثال على ذلك حركة الضوم - فالضوم يدرك الناظر اليه نورا ، ويقتل الى العين ، كما تنتقل حركة العصا من أحد طرفيها الى الآخر ، انتقالا فوريا ، ويرى ديكارت أن فلسفة الطبيعة كلها تنهار لو صح تأخر قمل الضوم أثناء انتقاله ، وذلك لأن التأخر يقتضي انفصالا في الامتداد أو خلافا ، أي عدما مطلقا ، وهو ما لا تسمح به القدرة الالهية - وهذه القدرة هي قدرة الخلق المستمر - وإن كان الخلق مما يجاوز عقولنا البشرية ، فهناك مقابل له في عالمنا الجامد هذا الذي ترجع الحركات فيه الى احتكاك يقوم في لحظة ليتلاشى .

وهذا يعني احتفاظ الحركة بمقدار ثابت لا يتغير في جميع لحظات العالم ، أو هو مبدأ ثبات مقدار الحركة - ففي جميع لحظات الزمن منذ اللحظة العالمية الأولى ، كان مقدار الحركة التي طبعها الله على العالم واحدا بعينه ، وعلى ذلك كانت حال العالم في لحظة معينة ، معادلة لها في أي لحظة أخرى ، وكان تغير في تلك اللحظة كما في غيرها يقوم تبعا للاحتكاك ، دون أن يكون هناك تغير ما في مقدار الحركة العالمية ذاتها .

ويشير ديكارت الى قوانين الاحتكاك السبعة التي تنشأ عنها التفسيرات الكبرى في العالم - ثم يمضي بفضل فكرتي الامداد والحركة الهندسية ، في استدلال متصل لقوانين العالم وظواهره العامة ، تلك التي يمكن أن تتخذ الصيغة الرياضية اليقينية ، الى أن يبلغ المرحلة التي يجب الانتقال فيها من الاستدلال الى التجربة ، وذلك عندما تؤدي القوانين الطبيعية الى عدة نتائج محتملة لحلها . وتتفق كلها مع التفاصيل الواقعية القائمة بالفعل في هذه المرحلة يلتجئ الطليعي الى التجارب ، ولكنه

في هذه المرحلة يأخذ صيغة السيادة ، من حيث أنه لا يفترض
التفسير فحسب ، بل يفرضه على الطبيعة فرضاً •

ويكون ذلك باعتبار ظواهر الطبيعة وآثارها ناتجة من
اجتماع أجزاء الامتداد ، لها شكل (أ) هندسي معين وحركة
معينة ، على النحو الذي تجتمع عليه أجزاء آلة صناعية أو
أجزاء جسم مصنوع • ويلاحظ ديكرت أن هذه الموازنة بين
ظواهر الطبيعة وآلات الصناع ومصنوعاتهم قد أفادته أمظم
الفائدة في كل تفسير قام به للظواهر الخاصة • وأن لا فارق
بين تلك الآلات والمصنوعات بوجه عام ، وبين الظواهر الطبيعية
إلا في أجزاء الآلات التي تؤدي إلى النتائج المطلوبة ، كبيرة بحيث
تلتقيها أو تدركها أعضاء الجسم الانساني ، بينما كانت أجزاء
الظواهر الطبيعية صغيرة جداً تتجاوز ادراكنا وحواسنا •

ويمكن تفسير الظواهر الطبيعية بالاستعانة بأجزاء المادة
على نحو يمكن معه استحداث ظواهر مماثلة لتلك التي يريد
تفسيرها بالفرض الطبيعي ليس سوى بعمل تركيبى ، والتفسير
الطبيعي تركيب للظواهر من جديد ، أو محاولة من جانب
الإنسان بوجه عام ، والطبيعي بوجه خاص لصناعة الظواهر أو
لصناعة ما يعادلها ، ويمثلها أو يشابهها ولذلك كان الطبيعي
علماً ومهندساً وصانعاً في الوقت ذاته •

ويخلص ديكرت من كل هذه الأبحاث إلى اعتبار ذاته متفرجاً
على ذلك العالم الجديد الذي يستطيع الله أن يخلقه في أي لحظة.

(1) ديكرت : جادى الفلسفة ج ٤ مقرة ٢٠٢ •

من الامتداد والحركة الهندسية وحدهما - ثم نلاحظ أن ديكارت يتخيل ذاته صانعا ، يستخدم الامتداد والحركة ، لا لتكميل الصناعة الالهية ، وهي كاملة منذ البدء ، بل لصنع ظواهر تعاليل التي توجد في العالم - وبذلك نصبح سادة على الطبيعة ومسخرين لها (١) .

قدم العالم بمفهوم أرسطو :

إذا تصفحنا ما كتبه أرسطو حول قدم العالم وأزلية الحركة مستندا على حجج كثيرة تدلل على أحقية هذا الاعتقاد وصحة ، فهو يرى أن العلة الأولى ثابتة أي أنها كما هي دائما لها نفس قدرتها على الفعل ، وأنها تحدث دائما نفس معلولها ، فلو افترضنا أنه كان هناك مكون في وقت ما ولم تكن ثمة حركة ، فإن معنى ذلك أنه لن تكون هناك حركة بعد ذلك ، وإذا فرضنا أن هناك حركة صادرة عن العلة الأولى فإنها ستستمر قدما وتبقى كما هي لأنه إذا قلنا أن العلة الأولى بقيت ثابتة زمنا ما ، ثم صدرت عنها حركة تكون هي سبب العالم وحدوثه فالتساؤل ما الذي رجح في ذات العلة الأولى أحداث هذه الحركة في الوقت الذي أحدثت فيه ولم تحدث في وقت آخر غيره .

لا بد أن ثمة مرجحا يقتضي حدوثها في الوقت الذي استحدثت فيه بالصورة التي حدثت بها - وإذا سلمنا بهذا فكأننا نسلم بوجود تغير في العلة الأولى ، وقد ذكرنا أنها ثابتة على الدوام . وأذن فالتناقض في تناقض مرده أننا نقول بأن فعل الحركة فعل

(١) ديكارت : الخال في المنهج : ج٢ ص ١٢٢ .

محدث ، لهذا يجب التسليم بقدم العالم والحركة • واستنادا الى هذا البرهان على قدم العالم يناقش « أرسطو انكسافوراس » الذي اشار الى أن العقل ظل ساكنا زمنا لا متناهيا ثم حرك الأشياء • ويؤكد استحالة هذا الرأي لأنه يعني أن العلة الأولى متغيرة ، وقد قلنا أنها ثابتة - فيلزم أن ترفع عنها الحركة المحدث في الزمان وأن نسلم بقدم الحركة •

• وبالعلاج أيضا أرسطو الاعتقاد القائل بأن العالم يمر بدور حركة يعقبه دور سكون ، فيتساءل عن المرجح لوجود سكون بعد الحركة ، ثم للحركة بعد السكون ؟ ويقدم بهذه المناسبة بعض الحجج التي يثبت بها قدم العالم والحركة بعضها متصل بقدم الهولي وبعضها يثبت فيها قدم الحركة بقدم المتحرك والمحرك والزمان •

ويرى الدكتور يوسف كرم أن الحجج التي قدمها أرسطو مركبة على نمط واحد حتى تكون حجة واحدة في الحقيقة • هي ثلاثتان : طائفة خاصة بقدم العالم ، وأخرى خاصة بقدم الحركة •

ففي قدم العالم يذهب أرسطو الى أن الهولي أزلية أبدية ويقول : لو كان الهولي حادث عن موضوع لكنها هي موضوع تحدث منه الأشياء ، بحيث يلزم أن توجد قبل أن تحدث ، وهذا خلف ، ولو كانت فاسدة لوجبت هولي أخرى تبقى لتحدث عنها الأشياء ، بحيث تبقى الهولي بعد أن تفسد ، وهذا خلف كذلك (١) •

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١١٥ .

نقول : صحيح في التفسيرات الجزئية أن الهيولي ليست حادثة لأنها موضوع تحدث فيه الصورة ، ولكن إذا وصفتنا حدوث العالم فما الذي يمنع أن تحدث الهيولي ؟ وتلاحظ على الشق الثاني (لو كانت الهيولي فاسدة ٠٠٠) انه قائم على الاعتقاد بأبدية العالم ، وليست هذه الابدية ضرورية ، شأنها شأن الازلية سواء بسواء -

ويقول أرسطو (١) : وننبين ضرورة القول بتقديم الحركة من اعتبار المتحرك والمحرك والزمان ، أما المتحرك فلا يغلو أن يكون اما قديما أو حادثا ، فان كان حادثا وكان الحدوث ، أو الكون يقتضي الحركة كان كونه تغيرا يقتضي حركة سابقة على البداية المزعومة للحركة .

وهذا خلف ، وان كان قديما فهو متحرك لا ساكن - لأن السكون ما هو الا عدم الحركة ، فهو متأخر عنها ، يقتضي أحداثه حركة أولى قبل الحركة وهذا خلف -

وأما من جهة المحرك فان عدم الحركة يعني أن المحرك أو المتحرك بميدان الواحد عن الآخر ، فلأجل أن تبدأ الحركة ، لا بد من حركة تقدم بينهما ، وهذه الحركة تكون سابقة على بداية الحركة . وأما الزمان فهو مقياس الحركة أو هو نوع من الحركة ، فان كان قديما كانت الحركة قديمة -

وقد أخطأ أفلاطون في معارضته قدم الزمان ، فان الزمان

(١) أرسطو : السماع الطبيعي ، كتاب ١ ص ٢٥١ -

يقوم بالآن ، والآن وسط بين مدتين ، هو نهاية الماضي وبداية المستقبل ، فليس للزمان بداية ولا نهاية ، والا لزم أن يكون زمان قبله ولا بعده ، ولكن قبل وبعد يتضمنان الزمان ، فهذا خلف - نقول عن الحجة الأولى الخاصة بالمحرك : ليس الخلق كونا بأنواع الكون المشاهدة في هذا العالم والتي تتم في موضوع يتأثر بمحرك مادي ، ولكنه أحداث من لا شيء ، فهو ليس حركة ، ولا يقتضي الحركة كما ظن أرسطو .

وعن الحجة الثانية بالمحرك نقول : لما كان الخلق ابداعا شئيا بعبادته وصورته ، فلا يمكن أن يصور بأنه حركة من العلة نحو موضوع ، ثم إن العلة الأولى عند أرسطو ليست محرك كعلة فاعلية ، بل كعلة نمائية وليس يقتضي فعل الغاية تماما واقتراها ، فالحجة ساقطة من الجهتين ، ونجيب عن الحجة الثالثة الخاصة بالزمان بأن الآن وسط بين مدتين متى بدأ الزمان .

أما عند بدايته فالآن الأول أول بالاطلاق ، ولا يمكن وضع زمان قبل الزمان الا بالوهم ، مثل المكان الوهمي الذي نتخيله خارج العالم سواء بسواء ، وأرسطو نفسه يقول أنه ليس خارج العالم خلا .

فنقول كذلك ليس قبل الزمان زمان ، وكما أن « خارج » يدل في قولنا « خارج العالم » على مكان بالقوة لا بالفعل ، فإن « قبل » يدل على زمان بالقوة لا بالفعل .

هذه حجج أرسطو ركبها للتدليل على قدم الحركة ، وهي

لا تستقيم الا مع الاعتقاد بهذا القدم ، فاولى بها أن تسمى
مصادرات ، لا حججا أو أدلة (١) .

ونظن أنه انما تورط فيها لاعتقاده أن ثبات العلة الأولى
يستتبع بالضرورة دوام المعلول ، وكان يكنيه إذ يلحظ ما
بينهما من تفاوت كما ذكرنا ، فيعلم أن هذا التفاوت يبطل
ضرورة العالم ، ويعلم أن فعل العلة الأولى غير ضروري كذلك ،
وانما هو فعل حر ، ثم يرقى بالتنزيه . فيتصور الحرية في الله
بعيث لا تتنافى مع الثبات - ولكن هذه الخطوات لم يخطها العقل
الا المسيحية بعد أرسطو بزمان طويل .

أرسطو والنفس :

النفس البشرية عند أرسطو هي صورة الجسد ومبدأ الحياة
فيه ، وعلم النفس هو جزء من العلم الطبيعي لأن موضوعه وهو
الكائن الحي ، مركب من مادة وصورة . والافعال الحيوية
تنقسم قسمة أولى الى النمو والاحساس والنطق أو العقل .
يضاف الى ذلك النزوع ، لأن الحاس والناتق ينزعان الى الخير
الذي يدركانه بالحس أو بالعقل .

والنفس البشرية برأي أرسطو تتميز بثلاث قوى ، المفترية،
والحاسة والفاهمة - ويرى أيضا أن النفس مبدأ وأصل الفهم
والاحساس ، والحس هو سبب الفهم ، وبذلك خالف معلمه
أفلاطون الذي جعل الفهم والمعرفة نتيجة تذكر النفس معارفها

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية : كرم ص ١٢٧ .

المقديمة • وأنكر أرسطو خلود النفس وقال إن العقل السامي يمكن أن يتسرمد •

ثم يعرف النفس فيقول بأنها : • ما به نحيا ونحس فنمقل وننزع ونتحرك في المكان • • ولكل حي نفس ، ولكنها تختلف باختلاف الأحياء ، وتعتمد قواها ووظائفها كلما ارتقى الشخص في سلم الحياة • ويقول أرسطو واصفا حاله مع نفسه : انني ربما خلوت بنفسي كثيرا ، وخلصت بدني ، فصرت كأني جوهر مجرد بلا جسم ، فأكون داخلا في ذاتي راجعا إليها ، وخارجا من سائر الاشياء سواء ، فأكون المعلم ، والعالم ، والمعلوم جميعا ، فأرى في ذاتي من الحسن والبهاء متعجبا منه ، فأعلم عند ذلك انني من العالم الشريف ، جزء صغير ، فلما أيقنت بذلك ، ترقبت بذمتي من ذلك العالم الى العالم الالهي ، فصرت كأني هناك متعلقا به ، فعند ذلك يلعب لي من النور والبهاء ما تكل الألسن عن وصفه ، والأذان عن سماعه ، فاذا استنشيت في ذلك النور وبلغ الطاقة ، ولم أقر على احتماله ، هبطت الى عالم الفكرة ، فاذا صرت الى عالم الفكرة ، حجبت الفكرة عني ذلك النور •

ويذهب أرسطو الى أن النفس لا يمكنها الوجود بدون الجسد لأنها قواه ، فكلاهما كالشكل والشمع ، يمكن الفصل بينهما بالفكر فقط ، لكنهما في الواقع والحقيقة كلا كاملا عضويا واحدا • ويرى أن النفس لا تحقق في الجسد ، كما حقق « ديدالوس » الزئبق في صور « مينوس » ليجعل منها « انتصابات » فالنفس الشخصية والخاصة لا توجد الا في الجسد الخاص بها • ومع هذا فهي ليست مادية ولا تموت بأكملها ، لأن هناك جزء من القوة العقلانية للنفس البشرية يكون سلبيا ومرتبعا

بالذاكرة ، فهو الذي يموت بموت الجسد حامل الذاكرة ، والذي يظل ويتسرمم العقل الايجابي الفاعل الذي يكون مستقلا عن الذاكرة بشكله المجرد - والنفس الخالدة عند أرسطو هي الفكر المحض .

وعلم النفس حسب رأي أرسطو يبحث حول موجودات طبيعية مركبة من صورة وهيولي . باعتبار أن الانفعالات كالغضب والخوف لا تصدر عن النفس وحدها بل عن المركب من النفس والجسم ، ففي الغضب مثلا نلاحظ أن الذي يحدث هو انفعال نفسي يصاحبه تبدل جسمي ، وكذلك بالنسبة للاحساس فهو أيضا فعل النفس بمشاركة العضو الحساس المعند لادراك الحسوس كالعين والأذن فلا يمكن أن يقال على فاقد العين أن له قوة الابصار ، ذلك أن هذه القدرة مرتبطة بالعين كمضو له .

أما العقل فهو خاص بالنسبة الا أنه لا يمكن أن يقوم الا على أساس التخيل ، والتخيل لا يتحقق بدون الجسم : إذن فجميع الأفعال النفسية في الاجسام الحية متعلقة بالجسم وداخله في العلم الطبيعي . ويذكر أرسطو في كتابه النفس الذي يضم ثلاث مقالات في المقالة الأولى : في مذاهب القدماء الرئيسية في النفس ، ولهذه الآراء أهمية تاريخية كبرى لأنها تعتبر أحد المراجع الرئيسية لآراء السابقين على سقراط ، ولو أنه يبدو أن أرسطو يحور آراء القدماء حسب مذهبه تمهيدا للرد عليهم ومتافضة أقوالهم .

ويخصص المقالة الثانية : لتعريف النفس حسب رأي أرسطو بأنها كمال أول لجسم طبيعي آلي .

ثم شرح دواعي القول بهذا التعريف ، والكلام عن القوى
الخاصة .

ما المقالة الثالثة : فيفرد بها للنفس وقواها ، وفي القوى
المحركة عموما ، وقد كان لهذه المقالة تأثير كبير على فلسفة
أفلاطون ، وفلسفة القرون الوسطى بوجه عام ، كونها أثار
مشكلة العقل المفارق مناقشات كثيرة رد فيها فيليبون على
الاسكندر الأفروديسي وأفلاطون ، وكذلك فعل ابن رشد ، ويمود
هذا الى غموض نص أرسطو في كلامه عن العقل المفارق ، وتفسير
الاسكندر لهذا النص واعتبار هذا العقل خارجا عن النفس .
وتسميته له بالعقل الفعال . وللأسكندر رسالة في العقل والمقول
يرى فيها هذا الرأي - وقد كتب الفارابي رسالة في العقل
تتضمن موقف الاسكندر هذا الذي اتبعه فلاسفة الاسلام
باستثناء ابن رشد وأبي البركات البندادي - ويرى أرسطو أن
المعرفة على اختلاف أنواعها شيء حسن وجليل وهو يجمل
دراسة النفس في المرتبة الأولى بالنسبة لسائر الأمور العرفانية
وذلك لأسباب منها :

أ - أن هذه الدراسة دقيقة أي أنها تتطلب كثيرا من الدقة في
البحث والامتصاص .

ب - أن موضوع هذه الدراسة وهو النفس أشرف وأسمى ما
في الوجود الطبيعي .

ج - أن دراسة النفس تكشف عن جوانب الحقيقة الكاملة في
مجال العلم الطبيعي لأن النفس صورة الكائن الحي .

ثم يشرح أرسطو بعد ذلك عن غايته من بحثه أو من دراسته للنفس ، فيرى أن غايته من دراسته للنفس هي التعرف على طبيعة النفس ، وجوهرها ثم التمييز بما يتعلق بطبيعتها من لوازم ، وهذا يعني أن أرسطو يهدف إلى الوصول إلى معرفة ماهية النفس من طريق تعريفها بالحد التام ، وهو يستفسر عن المنهج الواجب سلوكه في هذه الأبحاث ، كونه يرى عدم وجود منهج واحد لتأثير العلوم بل لكل علم منهج خاص به ، لذلك ثمة منهج خاص لعلم النفس يقوم على البرهان والقسمة .

ويذكر أرسطو أن طريقة البحث أننا نبحث أولاً عن الجنس الذي تقع تحته النفس ، وهل هي جوهر أم شيء جزئي ، كيف أم كم شيء آخر من المقولات . وهل هي بالقوة أم أنها كمال أول ، وهل تقبل القسمة أم أنه لا أجزاء لها ؟ وهل سائس الأنفس من نوع واحد أم لا ؟ وإذا كانت مختلفة فهل تختلف بالنوع أم الجنس ؟ وهل نبدأ بالبحث عن وظائف النفس أم عن النفس ذاتها ؟ ويشير أرسطو إلى أن الاتجاه العام الذي كان سائدا عند القدماء هو البحث عن النفس الانسانية فقط ويريد هو في هذا البحث أن يبين علاقة نفوس الحيوان وغيره من الكائنات الحية بنفس الإنسان . وهل تقع هذه النفوس كلها تحت جنس واحد أم لا ؟ .

ويذهب أرسطو إلى أنه من الواضح أن العلم بالماهية لا يتيسر لنا قبل دراسة سائر أعراض الجوهر ، لأننا إذا أمكننا دراسة هذه الأعراض توصلنا إلى تعريف حد الجوهر بالماهية - ثم ينتقل بعد هذا إلى دراسة وظائف النفس : فيذكر أن الاحساس لا يتم بدون جسم وكذلك الفكر ، لأن الفكر القائم على التخيل ولا

يتحقق التخيل من غير الجسم ، فلا يمكن أن تصارص النفس وظائفها بدون البدن - وعلى ذلك فإن جميع أحوال النفس توجد مع الجسم ، فعندما يحدث أي انفعال في النفس يحدث معه تغير جسمي ، واذن فأحوال النفس صور حالة في الهوى ، ومن ثم فلا يجب أن نقول أن الغضب حركة هذا الجسم أو ذلك ، بل الغضب يتم بالنفس والجسم معا ، ولذلك أيضا كان البحث في النفس مما يخص العلم الطبيعى سواء فيما يتعلق بأحوال النفس أو جوهرها *

ويجمع أرسطو في تعريفه للنفس بين تعريف الجدلي الذي يعرف الغضب مثلا بأنه الميل الى الاعتداء ، وبين تعريف الطبيعى الذي يصف الغضب بأنه غليان الدم المحيط بالقلب ، فالأول يصف الصورة والثاني يصف الهوى - أما أرسطو فيجمع التعريفين معا ويضيف الصورة الى الهوى * ولما كان البحث في العلم يتناول المكون من صورة وهوى كان من الضروري اعتبار علم النفس جزءا من العلم الطبيعى * ويصل أرسطو في نهاية المقالة الأولى الى القول بأن أحوال النفس انما تصدر عن الموجود المركب من نفس وجسم *

وبعد أن يحدد أرسطو مشكلات دراسة العلاقة بين علم النفس والعلم الطبيعى يرجع الى نهج المنهج التاريخي فيستعرض مذاهب القدماء السابقين عليه في النفس ويميز بينهما وبين مذهبه واعتقاده ، وقد لخص ما اتفق عليه القدماء من تمييز الكائن الحي الى غير الحي في ناحيتين هما : الاحساس والحركة ، فمن حيث الحركة نلاحظ أن جميع الفلاسفة الذين ذكروا أن الكائن الحي يتحرك ، اشاروا الى أن النفس هي الأولى بفعل

التحريك ، وانها من نفس طبيعة ما يتحرك ، فالنفس في رأيهم هي المحرك وهي من نفس نوع الاشياء المتحركة أي انها مؤلفة من العناصر التي قاموا بها . « فطاليس » وهو أول الفلاسفة يرى أن النفس هي قوة محرك ويجعل هذه القوة المحركة سارية في جميع الاجسام فيقول ان المتعاطيس له نفس لأنه يجذب الحديد ، « أما ديوجيني و انكسمانس » فقد قالوا أن النفس هي الهواء ، وهي تعرف وتحرك . ومنهم من قال بأن النفس جرم لعليف ناري الطبيعة وهو أول ما يتحرك ويحرك ، « وهيرقليطس » من هذه الجماعة وعلى هذا فقد قال بأن النفس نار أثرية وانها في تغير مستمر ، وقد استند « القمايون » الى هذا المبدأ وقال ان النفس خالدة لأنها تتحرك حركة أبدية وقال « هيبون » أن النفس مام . أما « كريستيل » فقد قال أن النفس دم اعتقادا منه بأن الاحساس أخص صفاتها وأن هذا الاحساس مرده الى الدم . وبقي التراب فلم يزل أحد أن النفس تراب الا هؤلاء الذين جعلوا النفس تتألف من العناصر الاربعة « كاتياذوقليس » فانه جعل من ضمنها التراب ، فاتيادوقليس ذهب الى أن النفس مركبة من جميع العناصر وأن كل عنصر منها هو أيضا نفس ، وقال أيضا بالأضداد أي المحبة والكراهية ، وأن النفس مؤلفة أيضا من قوى بالاضافة الى العناصر ، « أما الفيثاغوريون وديموقريطس ولوقيبوس » فقد ذهبوا الى أن النفس نوع من النار والحرارة الا أنهم اضافوا الى رأيهم أن النفس مؤلفة من ذرات نارية كروية الشكل لطيفة لكي تكون أسهل في النفاذ الى الاشياء ، وذكروا أن النفس هي التي تمنح الحركة للحيوانات وهي كذلك الصفة الجوهرية للحياة ، ولكن فريقا من الفيثاغوريين اختلفوا

عن هؤلاء وقالوا أن النفس هي غبار الهواء ، ومنهم من قال لا يل هي التي تحرك هذا الغبار ، أما أفلاطون فيتنق معهم بقوله أن النفس هي التي تحرك ذاتها ، والحركة عنده هي أهم خاصية للنفس ، وأن كل شيء يتحرك بالنفس ، لكن النفس تتحرك بذاتها .

ويذكر أرسطو أن السبب في قول هؤلاء الفلاسفة بهذه الأراء عن النفس هو أنهم لا يرون محركا الا وهو نفسه يتحرك ، فاختلط عندهم مفهوم المحرك بالمتحرك ، ولم يفتنوا الى أن الذي يحرك غير الذي يتحرك ، وعلى هذا فان هؤلاء القدماء جعلوا الحركة في النفس تلقائية والنوا النفس مما تتألف منه المادة .

أما ما تميزت به النفس بالاضافة الى الحركة أي الاحساس الذي هو طريق المعرفة من حيث قولهم أن الكائن الحي يعرف ويدرك الموجودات بالاحساس فقد خضعوا لمبدأ عام واحد هو أن الشبيه يدرك الشبيه ، ولذلك جعلوا النفس تتألف من العناصر التي تدركها . فمنهم من قال بمنصر واحد ومنهم من قال بعدة عناصر ، وقال بعضهم أنها جسمانية ورأى الآخرون أنها لا جسمانية ، ومنهم من جمع بين الجسمانية وغير الجسمانية . وقد تصور كل فريق من هؤلاء طبيعة النفس حسب اعتقاده في طبيعة العناصر حتى يجعل النفس قادرة على ادراك الموجودات .

ويذكر أرسطو رأيا لأفلاطون ولمدرسته يرون فيه أن النفس حاملة ومحركة وأنها عدد يحرك نفسه ، وهم يفسرون العقل والادراك العقلي والظن والاحساس بالاعداد . فالاعداد تقصر

وظائف النفس المركبة من عناصر وهذه الأعداد من ناحية أخرى هي مثل الأشياء ، والنفس الذي يشير فيه أفلاطون الى ذلك نص غامض ، وتفسيره أن النفس الحيوان بالذات أي نفس العالم لا بد أن تكون مركبة من المبادئ الأولى التي توجد في عالم المثل خضوعاً للمبدأ القائل بأن الشبيه يدرك الشبيه ، ففي عالم المثل نرى الواحد بالذات ثم نجد مثال الطول ومثال العرض ومثال العمق ، وهذه هي أصول الاشكال الهندسية أي مثلها .

ولما كان الجسم المحسوس الذي نقابله في تجربتنا الحسية له طول وعرض وعمق ، لذلك فإن النفس يجب أن تكون حاصلة على أصول هذه الأبعاد من أصولها الموجودة في جسم الحيوان بالذات أي العالم ، ولهذا نلاحظ أن أفلاطون يرى ضرورة تركيب النفس مما يتألف منه الجسم . شيء آخر هو أن أفلاطون يقابل بين هذه الاشكال الهندسية وبين الأعداد ، فهناك الواحد وبعده الاثنان وهي تقابل الطول ، والثلاثة وهي تقابل العرض والارتفاع وتقابل العمق - فكان النفس الحاصلة على مبادئ الاجسام المعبر عنها بأعداد ، ولذلك فأرسطو يقول ان النفس عند أفلاطون مركبة من نفس العناصر التي يتركب منها الجسم ، ومن ثم فهو يدرج أفلاطون في نفس قائمة الطبيعيين مع اختلافهم عنه في طريقة تناول العناصر ، ذلك ان أفلاطون لا يتكلم عن عناصر مادية تتألف منها النفس وتكون هي نفس العناصر الموجودة في المادة . واذن فاعتقاد أفلاطون في نظر أرسطو يخضع للقاعدة العامة التي تقول بأن النفس تتألف مما يتركب منه الجسم استناداً الى القول بأن الشبيه يدرك الشبيه ، ويشذ عن هؤلاء جميعاً انكساغوراس القائل بالمقل ، والذي يميز بين المقل

والنفس ، فالعقل بمفهومه - على عكس ديموقريطس - علة للحس والنظام ، والحس هو الذي يوجد بين العقل والنفس ، أما العقل عند انكساغوراس فهو مبدأ لجميع الكائنات وهو بسيط نقي وغير ممتزج ، واليه ترجع المعرفة وفعل التحريك . ولكن أرسطو بعد أن استعرض رأي انكساغوراس وسمعه بالعموم ، فهو لم يوضح كيف يعرف العقل الاشياء وبأي علة يعرفها ؟ فقد قال بالعقل ولكنه صمت عن تفصيل أي شيء يصدد العلة وطبيعتها .

وبالنتيجة نلاحظ أن هؤلاء الفلاسفة جميعا يحدون النفس بصفات ثلاث : الحركة والاحساس واللاجسمية ، وترجع كل صفة من هذه الصفات الى العناصر التي قالوا بها ما عدا انكساغوراس . وما داموا يقولون ان الشبيه يدرك الشبيه فلا بد أن تتركب النفس من سائر العناصر التي تكون موضوعا لادراك الحس والعقل .

يرى أرسطو أن النفس الانسانية مصدرا للحركة ، ولكنها مع ذلك ليست متحركة بذاتها كونها غير قادرة على تحريك نفسها ، لأن ليس لها حركة ذاتية ، بل هي محركة غير متحركة ، تحرك الجسم المتصل بها ، اذ من المتعذر أن تكون للنفس حركة . اذ أنه ليس من الضروري أن يكون المحرك متحركاً لانقسام حركة الشيء على نوعين حسب رأي أرسطو : فالشيء إما أن يتحرك بشيء آخر ، وإما أن يتحرك بنفسه . وأما الشيء المتحرك بشيء آخر فهو الموجود في شيء يتحرك كالبحارة في السفينة ، فهل تنسب للنفس مثل هذه الحركة أو يقال عنها أنها تتحرك بذاتها ؟ ولكي يرد أرسطو على هذا الاستفسار يفصل أنواع الحركة في

كتابه « الطبيعة » ويقول : ان النفس لو كانت متحركة بوحدة أو أكثر منها لكانت النفس في المكان بالذات ، وما دامت هذه الحركات لا يمكن أن تتم الا في المكان . فاذا كان ماهية النفس أن تتحرك بذاتها فلا تكون الحركة لها بالعرض ، بل يجب أن تتم حركتها كالجسم في المكان ، وقد تبين لنا أن النفس ليس لها مكان طبيعي لتتحرك فيه فهي إذن لا تتحرك بذاتها ، وانما تتحرك حركة مشتركة أي أنها تتحرك بشيء آخر هو الجسم الذي توجد فيه ، وهو الذي يتحرك في الحقيقة ، وإذن فالنفس تتحرك بالعرض .

وينطلق بعد ذلك الى الكلام عن موقف ديموقريطس فيرى أنه كثيراً من جماعة الفلاسفة التي ترى أن النفس تحرك الجسم الذي تحمل فيه على النحو الذي تحرك به هي نفسها ، فعنده أن الذرات الكروية التي تتألف منها النفس تتحرك تلقائياً لأن طبيعتها لا تبثني أبداً في سكون فتدفع معها البدن كله وتحركه ، وهذا يعني أن ديموقريطس يعتقد أن النفس متحركة ومحركة للبدن ، فيتساءل أرسطو رداً على ديموقريطس بقوله : إذ كل الشئ يكون ظاهرة نشأته ونلمسها بالحواس فكيف يكون في مقدور النفس - أي الذرات التي تتحرك حركة تلقائية - أن تحدث السكون ؟ هذا ما يصعب القول به لأنه كيف يكون المتحرك المحرك بالطبع محدثاً للسكون ؟ وشيء آخر وهو أن النفس تحرك الجسم بضرب من القصد والاختيار والتفكير فتنتفي التلقائية ويبطل مع انتفاءها التحريك بالطبع أو القسر . وهذا الاعتقاد يقول به أيضاً أفلاطون ويفسر تحريك النفس للجسم تحريكاً طبيعياً ، إذ أنها عندما تحرك نفسها تحرك الجسم معها لأنها

متداخلة معه ، فهو - أي أفلاطون - قد ركب النفس من العناصر وقسمها وفقاً للأعداد المتناسبة حتى تحس غريزياً بالتناسب وحتى يتحرك العالم بواسطة حركات متناسبة ، وأذن فقد تصور النفس مقداراً • ويجيب أرسطو على رأي أفلاطون فيقول : إن نفس العالم من نوع طبيعة العقل ، ومع أن نفس العالم لا تشبه النفس الحاسة أو الفضائية إلا أن العقل الذي شبهها به واحد متصل كفضل التعقل كموضوع هذا التعقل ، وهي العقولات • فكيف يمكن أن نقول أن نفس العالم مقدار مع أنها شبيهة بالعقل ؟ فكانه أوقع أفلاطون في تناقض مع نفسه حيث يقول : إن النفس عدد أي مقدار • ويضيف أنها شبيهة بطبيعة العقل ، وهذان القولان متعارضان • ويتابع أرسطو نقد رأي أفلاطون الذي يذهب إلى أن النفس عقل يتحرك ، قائلاً : إن النفس مقدار ينقسم فإذا كانت النفس مقداراً منقسماً فهل تقبل العقولات بأجزائها المنقسمة كلها أو بجزء من هذه الأجزاء فقط • ومن جهة أخرى بما أن العقولات غير منقسمة وهي موضوعات التعقل ونفس العالم شبيهة بالعقل ، فكيف يدرك المنقسم - أي النفس ذات المقدار - كيف تدرك غير المنقسم أي العقولات ؟ ويستمر أرسطو في حديثه عن العقل وفعله وموضوعه فيؤكد أن التعقل وهو فعل العقل دائم كالحركة الدائرية ، وما دام هذا التعقل دائماً لزم أن يكون موضوعه دائماً • ولما كانت الأفكار العلمية والنظرية محدودة فإن العقل يستمر في تعقل موضوعه أكثر من مرة كالحركة الدائرية في سيرها - وعلى ذلك فإن العقل يظهر في حالة تعقله كما لو كان سكونا أو وقوفاً أكثر من كونه حركة وهذه هي الصفة الغالبة للتعقل الإلهي •

ويقدم أرسطو بعد كل هذا عدة آراء ومشاكل تظهر عن موقف من يقولون : أن النفس متحركة بذاتها ، فهو يرى أنهم يستدلون على الحركة الذاتية للنفس من أن ما يتحرك بالفسر لا يأتي بالسعادة فإذا لم تكن حركة النفس هي جوهر النفس فإن حركتها تكون مضادة لطبيعتها ، وهي حركة قسرية ، واذن فالنفس لن تبغ السعادة - ويقولون أيضا : أن اتصال النفس بالجسم يجلب لها الألم والافضل لها أن تفارقه ، وأرسطو يهدف بهذا القول أفلاطون ويواصل عرضه لهذا الرأي بقوله : أن أصحابه يقولون أن النفس تفضل ألا تتصل بالجسم أصلا . ويرى أنه إذا كان العالم يتحرك حركة دائرية فليست النفس حلة لهذه الحركة بل أنها تتحرك بالمرض حركة دائرية لأنها في العالم الذي يتحرك حركة دائرية . وهم في بحثهم عن علة حركة النفس ينتهون إلى أن الله هو الذي جعل النفس تتحرك حركة دائرية وأن تكون حركتها أفضل من سكونها وهذا غير صحيح .

ويصر أرسطو على أن تفصيل هذا الرأي موجود في دراسته للحركة في كتاب الطبيعة ، ويجعل رأيه في آخر الفصل بأن يقول أن هذه المشاكل التي يثيرها أصحاب هذه الآراء عائدة إلى أنهم يضيفون النفس إلى البدن دون أن يوضحوا علة الاتحاد بينهما ، مع أن الجمع بينهما ضروري إذ أن أحدهما وهو النفس فاعل والآخر وهو البدن منفعل ، وأحدهما يعرك والآخر يتحرك ، وليست هذه الصلات نتيجة للصدفة أو الاتفاق ، وهم يحسون بتجديد طبيعة النفس دون أن يحددوا طبيعة البدن الذي تحل فيه - وهذا يعني أن النفس بمنهوم تحل في أي بدن لا في بدن محدد ، فهم لا يرون بنفس معيقة لبدن معين .

أفلاطون والوجود :

يبدو أن نظرية أفلاطون في الوجود مطابقة لنظريته في المعرفة بمعنى أنها تصعد من المحسوس إلى المعقول ، وتنخسف الأول للشأنى . وقد سرد قصة حاله تجاه العلم الطبيعي فقال بلسان سقراط : « لما كنت شابا كثيرا ما قاميت الأمرين في معالجة المسائل الطبيعية بالمادة وحدها على طريقة القدماء » وسمعت ذات يوم قارئنا يقرأ في كتاب لائكساغوراس هو العقل الذي رتب الكل ، وهو علة الأشياء جميعا ، ففرحت لمثل هذه العلة ، وتناولت الكتاب بشغف ، ولكنني الفيت صاحبه لا يضيف إلى العقل أي شأن في العلل الجزئية لنظام الأشياء ، بل بالضد يذكر في هذا الصدد أفعال الهواء والأثير والماء وما إليها ، مثله مثل رجل يبدأ بأن يقول أن سقراط في جميع أفعاله يشمل بعقله ، ثم يعمل جلوسى هنا بحركات عظامي وعضلاتي ، ويعمل حديشي بفعل الأصوات والهواء والسمع وما أشبه ، ولا يعني بذكر العلل الحقة وهي : لما كان الأثينيون قد راوا أحسن أن يحكموا علي ، ورايت أنا أحسن أي أقرب إلى العدالة أن أتحمل القصاص الذي فرضوا علي ، فقد بقيت في هذا المكان ، ولولا ذلك لكأنت عظامي وعضلاتي في مقياري أو في بويتيا حيث كان حملها تصور آخر للأحسن . فتسمية مثل هذه الأشياء عللا منتهى الضلالة . أما أن قيل : لولا العضلات والعظام فلست أستطيع تحقيق أغراضى ، فهذا (١) صحيح . وعلى ذلك فما هو علة حقا شيء ، وما بدونه لا تصير العلة شيء آخر . أي أن العلة الحقة عاقلة تلحظ

(١) ليدون ص ٩٦ .

معلولها قبل وقوعه وترتب الوسائل اليه ، فان شيئاً لا يفعل الا اذا قصد الى غاية ، والغاية لا تتشمل الا في العقل ، وعند هذه الصخرة يتحطم كل مذهب آلي - ولما كان الموجود الوحيد الكفء للحصول على العقل هو النفس ، كانت العقل العاقلة نفوسنا تتحرك حركة ذاتية وكانت المادة شرطاً لفعلها أو علة ثاتوية خلوا من العقل ، تتحرك حركة قسرية (١) وتعمل اتفاقاً الا أن تستخدمها الملل العاقلة وسيلة وموضوعاً وتوجهها الى أغراضها - والنفس غير متطورة بينما العناصر والاجسام جميعاً متطورة - وبذلك توصل أفلاطون عبر هذا المسلك الى عالم معقول بصفة بأنه الهي لاشتراكه في الروحية والعقل - ولكنه يوجد فيه مراتب ، ويضع في ذروته الله .

وحتى يتم برهان أفلاطون على وجود الله يستخدم الحركة والنظام - ويرى أن هناك سبع حركات : حركة من يمين الى يسار ، ومن يسار الى يمين ، ومن أمام الى خلف ، ومن خلف الى أمام ، ومن أعلى الى أسفل ، ومن أسفل الى أعلى ، وحركة دائرية -

ويعتبر أفلاطون حركة العالم بما فيه من موجودات علوية وسفلية دائرية مرتبة ، ومنظمة لا يستطيعها العالم بذاته ، فهي معلولة لملة عاقلة ، وهذه الملة هي الله ، الذي أعطى العالم حركة دائرية على نفسه ، وحرره الحركات الست الأخرى ، ومتمه من أن يجري بها على غير هدى - ومن ناحية يقول أفلاطون : ان العالم آية فتية هاية في الجمال ، ولا يمكن أن

(١) نيباوس ص ٦١ .

يكون النظام البادي فيما بين الاشياء بالاجمال وفيما بين اجزاء كل منها بالتفصيل نتيجة علل اتفافية ، ولكنه صانع عقل كامل توخى الخير ورتب كل شيء عن قصد .

ويذهب افلاطون الى ان الله روح عاقل محرك جميل خير عادل كامل ، وهو بسيط لا تنوع فيه ، ثابت لا يتغير ، صادق لا يكذب ، ولا يشكل اشكالا مختلفة كما صوره هوميروس ومن لف لف من الشعراء وهو كله في حاضر مستمر ، فان اقسام الزمان لا تلائم الا المحسوس ونحن حينما نضيف الماضي والمستقبل الى الجوهر الدائم فنقول كان وسيكون (١) ندل على اننا نجهل طبيعته ، اذ لا يلائمه سوى الحاضر - وهو معني بالملم بخلاف ما يدعيه السوفسطائيون محتجين بنجاح الأشرار ، فان الله ان كان لا يعني بسيرتنا ، فذلك اما لأنه عاجز عن ضبط الاشياء وهذا محال ، واما لأن السيرة الانسانية اتفه عنده من أن تستحق عنايته ، وهذا محال كذلك ، لأن كل صانع يعلم أن للأجزاء شأنها في المجموع فيعنى بها ، فهل يكون الله أقل علما من الانسان ؟ ان ساعة الأشرار آتية لا محالة ، هذا عن الشر الخلقى . أما عن الشر الطبيعي ، فما هو في ذاته الا نقص في الوجود ، أو خير أقل ، هو ضد يتميز به الخير كما يتميز الصديق بالكذب ، لم يرده الله ، بل سمح به فدام للخير الفاضل على العالم ، ويستحيل أن يكون العالم الموضوع خيرا محضا فيشابه نموده الدائم - هو اذن ناقص ، ولكنه أحسن عالم ممكن - وعناية الله تشمل الكلبيات والجزئيات أيضا بالقدر

(١) جمهورية افلاطون المقالة الدائية ص ٢٧٩ . تيلوس ص ٢٧ .

الذي يغفق مع الكليات ونحن نرى الطبيب يرمى الكل قبل
الجزء ، والقنان يدبر أفعاله مقتضى الغاية ويرمي الى أعظم
كمال ممكن للكل ، فيصنع الجزء لأجل الكل ، لا الكل لأجل
الجزء - كذلك حال الصانع الأكبر ، فان تدمر الانسان ،
فلأنه يجهل أن خيره الخاص يتعلق به وبالكل معا على مقتضى
قوانين الكل .

فوجود الله وكماله وعنايته حقائق لا ريب فيها ، وانكارها
جملة أو فرادى جريمة ضد الدولة ، يجب أن يعاقب عليها
القضاء ، لأن هذا الإنكار يؤدي مباشرة الى فساد السيرة ، فهو
إخلال بالنظام الاجتماعي . وقد يفكر المرم الله بقاتا ، وقد
يؤمن به ويفكر عنايته ، وقد يؤمن به ويعنايته وينكر كماله
وعدالته ، فيتوهم أنه يستطيع شراء رضائه بالتقدمات والقرابين
دون النية الصالحة . والبدعة الثالثة أشنع من الثانية لأن
الاهانة فيها أعظم والثانية أشنع من الأولى لنفس السبب فان
إنكار الله أهون من إنكار عنايته مع الايمان به ، وإنكار العناية
أهون من تصور الله مرتشيا ، الأولى والثانية يجديران بالمناقشة ،
أما (١) الأخيرة فأحق بالسخط منها بالتنفيذ .

وهكذا نلاحظ بأن أفلاطون يعتقد بأن الله روح عاقل ،
محرك ، منظم ، جميل ، خير ، عادل ، كامل . وهو بسيط لا تنوع
فيه ، ثابت لا يتغير ، صادق لا يكذب ، ولا يشكل أشكالا مختلفة
كما صورة الشمع - وهو كله في حاضر مستمر ، فان أقسام
الزمان لا تلائم الا المحسوس ونحن حينما نضيف الماضي

(١) القوانين مقالة ١٠ .

والمستقبل الى الجوهر الدائم فنقول كان وسيكون ، ندل على
أننا نجهل طبيعته إذ لا يلائمه سوى الحاضر ، وهو معنى بالعالم -

أفلاطون والعالم :

شاء أفلاطون أن يبرهن عن كيفية تكوين العالم في محاورة
« تيمائوس » الفيثاغوري ، الذي أطلقه ، فمبر عن تكوين العالم
بأنه قائم على مبادئ عقلية رياضية . وفضل أفلاطون أن
تكون قصة التكوين التي يراها مبينة على الحوار والخطاب ليدل
على أن العالم المحسوس لا يوضع في قضايا ضرورية ، فليس
أمام العقل البشري الا الظن والتشبيه (١) -

قال تيمائوس : كل ما يحدث فهو يحدث بالضرورة من علة ،
والعالم حادث قد بدا من طرف اول لأنه محسوس ، وكل ما هو
محسوس فهو خاضع للتغير والحدوث له صانع . ولما كان الصانع
خيرا والغير بريئا من الحسد ، فقد أراد أن تحدث الاشياء
شبيهة به على قدر الامكان . فرأى أن العاقل أجمل من غير
العاقل ، وأن العقل لا يوجد الا في النفس ، فصور العالم كائنا
حيا عاقلا ، لا على مثال شيء حادث ، بل على مثال العصي
بالذات ، أجمل الاحياء المعقولة الحاوي في ذاته جميع هذه
الاحياء كما أن العالم يحوي جميع الاحياء التي من نوعه .
فالعالم واحد لأن صانعه واحد ، ونموذجه واحد ، وهو كل
محدود ، ليس خارجه ما يؤثر فيه ويفسده ، فلا تصيبه شيخوخة
ولا مرض ، وهو كروي لأن الدائرة أكمل الاشياء ، متجانس

(١) فيلوس ص ٢٩ -

يدور على نفسه في مكانه . أما نفسه فهي سابقة على الجسم صنعها الله من الجوهر الالهي البسيط ، والجوهر الطبيعي المنقسم ، ومزاج من الاثنين ، فكانت غلافا مستديرا للعالم تحويه من كل جانب ، وتشترك حركة دائرية ، وتحرك الباقي ، وتترك المحسوس المنقسم والمعقول البسيط ، وتنفل بالسرور والحزن والخوف والرجاء والمحبة والكراهية ، وتحطك أن تخالف قانون العقل فتصير شريرة حقا ، وتضطرب حركتها فتزل التنبات بالعالم (١) .

وأما جسم العالم فلما شرع الله يركبه أخذ نارا ليجعله مرثيا ، وترايا ليجعله ملموسا ، ووضع الماء والهواء في الوسط ، غير أن هذه العناصر لم تكن كذلك منذ البدء ، وإنما كان العالم في الأصل مادة رخوة أي غير معينة ، غامضة لا تدرك في ذاتها بل بالاستدلال كل ما نعقله عنها أنها موضوع التقدير ، أو المكان والمحل الذي تحصل فيه الصور المعينة ، لأنه إذا كان الأصل معينا وكان له صورة ذاتية ، فليس يفهم التغيير الذاتي . وعلى ذلك فليست العناصر مبادئ الاشياء ، لأنها معينة من جهة ، ولأنها من جهة أخرى تتحول بعضها الى بعض ، فيدلنا هذا التحول على أنها صورة مختلفة تتعاقب في موضوع واحد غير معين في ذاته . البت ترى أن ما نسميه ماء إذا تكاثف صار ترايا وحجارة ، وإذا تخلخل صار هواء ريحا ، وأن الهواء إذا اشتعل تحول نارا ، وأن النار إذا تقلصت وانططت عادت هواء ، وأن الهواء إذا تكاثف صار (٢) معايا وضياها ، وأن هذه إذا

(١) ثيمولوس ص ٢٧ .

(٢) ثيمولوس ص ٤٨ — ٥٨ .

تكاثفت جرت ماء ، وهكذا دواليك - هذه المادة الأولى كانت تتحرك حركات اتفافية ، تلك الحركات الست التي قلنا أن الأشياء تتحرك بها إذا تركت وشأنها من غير نفس تدبرها . فاتخذت ذراتها على حسب تشابهها في الشكل والفت العناصر الاربعة : النار مؤلفة من ذرات هرمية ، أي ذات أربعة أوجه تشبه من السهم ، لذلك كانت أسرع الاجسام وانفذا ، والهواء مؤلف من ذرات ذات ثمانية أوجه ، أي هرمين ، والماء من ذرات ذات عشرين وجها ، والتراب أثقل الاجسام من ذرات مكعبة . وبعد أن تنظمت المادة هذا النوع من التنظيم بتوزعها عناصر أربعة ، هو أقصى ما نستطيع أن نبلغ اليه بذاتها ، ظلت (١) العناصر مضطربة هوجام كما يكون الشيء وهو خلو من الاله ، حتى عين الصانع لكل منها مكانة على ما ذكرنا ورتب حركته . ثم فكر الصانع فيما عسى أن يزيد العالم شيئا بنموذجه . ولما كان النموذج حيا أبديا ، فقد توخى أن يجعل العالم أبديا ، لكن لا كابدية النموذج ، فانها مستنمة على الكائن الحادث ، فعنى بصنع صورة متحركة للأبدية الثابتة ، فكان الزمان يتقدم على حسب قانون الأعداد ، وكانت الايام والليالي والشهور والنموذج ، ولم تكن من قبل . ورأى الصانع أن خير مقياس للزمان حركات الكواكب ، فأخذنا رواضع الشمس والقمر والكواكب الأخرى مشتملة مستديرة ، وجعل لكل منها نفسا تحركه وتدبره - ولما كان عبدا التدبير اليها بالضرورة ، فقد صنع هذه النفوس ما تخلفه بين يديه بمقد صنع النفس العالمية ، إلا أنه جعل تركيبها أقل من تركيب هذه ، فكانت أدنى

(١) تيمائوس ص ٥٢ - ٥٧ .

منها مرتبة ، ولكنها الهية مثلها عاقلة خالدة ، يأتيها الخلود لا من طيب عنصراها بل من خبرة الصانع تأتي عليه أن يقدم أحسن ما صنع .

ثم اتخذ منها أعوانا تصنع نفوس الاحياء المائتين . وانما مست الحاجة الى هذه النفوس لتحقيق في العالم جميع مراتب الوجود نازلة من أرفع الصور الى أدناها ، وليكون العالم كلا حقاً . وانما وكل امر صنعها الى النفوس والكواكب لأن كل صانع يصنع ما يماثله ، والصانع الاول لا يصنع الا نفوسا الهية ، فلا يكون هناك التفاوت المطلوب . أخذ إذن ما تخلف من الجوهرين الثاني والثالث ، وصنع مزيجا قسمه على الكواكب وكلف آلهتها أن تنزل أجزاء في أجسام مهياة لقبوله ، وأن تضم الية نفسين مائتين ، أحدهما انفعالية والأخرى غذائية . أما الانفعالية فغضبية وشهوانية ، تحس اللذة والألم والخوف والاقدام . والشهوة والرجاء ، يضمنونها في أعلى الصدر بين العنق والحجاب لكي لا تدنس النفس الخالدة المستقرة في الرأس . وأما الغذائية فيضعونها في أسفل الحجاب ، فصنع الآلهة الرجل كاملا بقدر ما تسمح طبيعته . والرجل الصالح يموه جزء نفسه الخالد بعد انحلال هذا المركب الى الكواكب الذي يهبط منه ، ويقضي هناك حياة سعيدة شبيهة بحياة الكواكب . أما الرجل الصالح (١) ، فإن نفسه تولد ثانية امرأة ، فإن أصرت على شقاوتها ولدت ثالثا حيوانا شبيها بخليلتها ، وهكذا بحيث لا تخلص من آلامها ولا تعود الى حالتها

(١) ثيلاوس - ص ٥٢ - ٥٧ .

الأولى حتى تغلب العقل على الشهوة وتمسك السلم فترجع رجلا صالحا - ودرجات هذا السلم المرأة فالطير فالدواب فالزحافات فالديدان فالأحياء المائية ، أوجدتها الخطيئة والجهالة نازلة بها نحو الأرض درجة فدرجة ، وهكذا كان الأحياء في ذلك الزمان واليوم أيضا ، يتحول بعضهم الى بعض بحسب ما يكسبون أو يخسرون من العقل . وإراد الآلهة أن يطفئوا أثر الحرارة والهواء في الإنسان - مع ضرورتها له - وأن يوفروا له الغذاء ، فمزجوا جوهر سمائلا لجوهر الإنسان بكيفيات أخرى وأوجدوا طائفة جديدة من الأحياء هي الأشجار والنبات والبهائم ، تحيا بنفس غذائية ، وليست هذه النفس عاقلة ، ولكنها تحس الألم واللذة والشهوة ، فهي متحركة وليست فاعلة إذ قد حرصت الحركة الذاتية فكانت جسما مثبتا في الأرض .

النفس عند أفلاطون :

يرى أفلاطون أن النفوس الانسانية كانت في عالم الكواكب تتبعها كما في عربة لتظل على عالم المثل - وعجزت في إحدى معاوماتها عن اللحاق بنفوس الكواكب ، وبلوغ قبة السماء ، ومشاهدة عالم المثل فهبطت من علوها وحلت في أبدان بشرية ، ولم يكن هبوط النفس من عالمها العلوي سوى جنابة وعقابا على ما ارتكبت من أفعال في عالمها السماوي - ويذهب بعض الباحثين الى أن رأي أفلاطون في ماهية النفس وعلاقتها بالجسم لا يخلو من التردد والغموض - ففي المحاوراة الواحدة ، فيدون : يحس النفس تارة بأنها فكر خالص - وطورا بأنها مبدأ الحياة والحركة للجسم ، دون أن يبين ارتباط هاتين الخاصتين ، ولا أيتهما

الأساسية - كذلك الحال في علاقة النفس بالجسم ، فتارة
بمبهرهما متميزين تمام التمايز ، فيقول ان الانسان النفس ،
وان الجسم آلة ، وتارة يضع بينهما علاقة وثيقة ، فيرى أن الجسم
يشغلها من قبلها الذاتي (الفكر) ويجلب لها الهم بحاجاته
وآلامه ، وأنها هي تقهره وتعمل على الخلاص منه (١) دون أن
يبين أفلاطون ماهية هذا التفاعل ، بل يرى بهذا التفاعل أنه
علاج الجسم (٢) وقيام الشعور والادراك في النفس عند تأثر
الجسم بالحركة المادية ما بين هذه الحركة والظاهرة النفسية من
تباين -

وفي كتابه « الجمهورية » (٣) ، يرجع الافعال النفسية الى
ثلاثة : الادراك والغضب والشهوة ، ويسأل هل يفعل الانسان
بمبادئ ثلاثة مختلفة ، أم أن مبدأ واحدا بعينه هو الذي يدرك
ويغضب ويحس لذات الجسم ؟ فيقرر أن المبادئ عدة ، لأن
شيئا ما لا يحدث ولا يقبل فعلين متضادين في وقت واحد ومن
جهة واحدة ، فلا يضاف اليه حالات متضادة الا يتميز أجزاء
فيه ، فيجب أن نميز في النفس جزءا ناطقا وجزءا غير ناطق ، لما
نحسه قينا من صراع بين الشهوة تدفع الى موضوعها والعقل
ينهي عنه - ولتنفس السبب يجب أن نميز في الجزء غير الناطقي
بين قوتين هما الغضب والشهوة ، الغضب متوسط بين الشهوة
والعقل ، ينحاز تارة الى هذا ، وطورا الى تلك ، ولكنه يشور
بالطبع للعدالة ، ونحن لا نغضب على رجل مهما يسبب لنا من

(١) ليدون : ص ٦٤ - ٦٦ .

(٢) تيمولوس : ص ٨٩ .

(٣) جمهورية أفلاطون مقالة ٤ ص ٤٤٠ .

الم إذا اعتقدنا أنه على حق ، لذلك كثيرا ما يناصر الغضب العقل على الشهوة ، ويعينه على تحقيق الحكمة في ما هو خلو من العقل والحكمة (١) . وهذا كلام لا غبار عليه إذا أريد به تمييز قوى ثلاث في النفس الواحدة ، ولكننا رأينا أفلاطون في « تيمائوس » يضع في الإنسان ثلاث نفوس ويميز لكل منها محلا في الجسم ، فيضيف إلى صعوبة التوفيق بين النفس والجسم صعوبة التوفيق بين النفوس الثلاث . وبينما هو في « فيدوس » يشبه النفس في حياتها السماوية الأولى بمركبة مجتعة ، الحوزي فيها العقل ، والجوادر الإرادة والشهوة (٢) . وإذا بكلامه في « تيمائوس » يشعر بأن الغضبية والشهوانية صنمهما الآلهة للحياة الأرضية والوظائف البدنية .

ومسألة خلود النفس أخذت الكثير من عناية واهتمام أفلاطون فأشار إليها في جميع مصنعاته ، وأفردها « فيدون » لما كان يشعر به من خطورة هذه المسألة الهامة وضرورة بحثها ومعرفة كنهها . يدور الحديث في « فيدون » بين سقراط واثنين من الفيثاغوريين ، هما « سيميوس وقابيس » فنرى فيها ثلاثة أدلة على خلود النفس ، يشرح أفلاطون بأبسطها تناولا وهو التناسخ وتداول الأجيال البشرية فيقول : إذا كان صحيحا أن النفس التي تولد في هذه الدنيا تأتي من عالم آخر كانت ذهبت إليه بعد موت سابق ، وأن الأحياء يبعثون من الأموات ، ينتج لنا أن النفس لا تموت بموت الجسم . ولكن هذا تسليم برأي

(١) جمهورية أفلاطون المقالة الرابعة من ٤٣٦ .

(٢) جمهورية أفلاطون من ٢٤٦ .

متواتر لا تدليل ، ويسكت سقراط ، كما يسكت الجميع * وبعد فترة يقول « سيمياس » : أن العلم بحقيقة مثل هذه الأمور ممتنع أو عسير جدا في هذه الحياة ، ولكن من الجبن اليأس من البحث قبل الوصول الى آخر مدى العقل ، فيجب اما الاشتياق من الحق ، وأما - ان امتنع ذلك - استكشاف الدليل الاقوى والتذرع به في اجتياز الحياة ، كما يخاطر المرم بقطع البحر على لوح خشب ما دام لا سبيل لنا الى مركب آمن وأمن . اثمني الى وحي الهي * ويقول قابس : ان كل ما يلزم من الدليل الاول بفروعه الثلاثة هو أن النفس كانت قبل الولادة ، ومن الثاني أنها شبيهة بالمثل ، فمن هذين الوجهين لا تتقافى خصائصها مع البقاء * أما البقاء نفسه فلم يقم الدليل عليه ، اذ من يدرينا ؟ لعل النفس تغنى بتلاشي قوتها بعد أن تكون تقمصت أجساما عدة (١) -

هنا يعتمد افلامون على نظريته في المشاركة ويورد دليلا ثالثا فيقول : لما كانت النفس حياة فهي مشاركة في الحياة بالذات ، ومنافسة للموت بالطبع وليست تقبل الماهية ما هو ضد لها ، لذلك يحاول ربط هذا الرأي بقضية كبرى واستخراجه منها نتيجة لازمة فيقول : اذا نظرنا في التغير بالأجسام ، وهو قانون العالم المحسوس ، وجدنا ما تبادلا دائرا بين الأضداد ، يتولد الأكبر من الأصغر ، والاحسن من الأسوأ ، وبالعكس فتصبح لدينا العقيدة القديمة بأن الحياة تبعث من الموت * ولو لم يكن الأمر كذلك لكانت الاشياء قد انتهت الى السكون المطلق -

(١) جمهورية افلامون ص ٨٦ - ٨٨ .

وإذن فقد كانت النفس قبل الولادة ، وستبقى بعد الموت .
ويتأيد هذا الدليل من ناحية أخرى : ذلك أن هناك ضدين هما
العلم والجهل ، وبعثا من نوع آخر هو تذكر المثل بعد تسيانها ،
فإذا كانت النفس قد عرفت المثل قبل هبوطها إلى الأرض فليس
بما يمنع بقاءها بعد الموت (١) ، والدليل الثاني يدور على تعقل
المثل ، فإن هذه بسيطة ، ومن ثم فهي ثابتة إذ أن المركب هو
الذي يتحلل إلى بسائطه ويتحول ، أما البسيط فلا يجوز عليه
تحول أو انحلال ، فلا بد أن تكون النفس التي تعقل المثل شبيهة
بها ، على حسب القول القديم . وعلى ذلك فالنفس بسيطة
ثابتة . فالنفس لا تقبل الموت . فيقتنع « قانس » ويعلم
« سيمياس » أنه مقتنع أيضا ألا أن شعوره المزدوج بعظم المسألة
وبالصنف البشري يضطره إلى بعض التحفظ بأزاء هذه الأدلة
على وجاهتها . فيسلم له سقراط بحقه في هذا التحفظ ، ويزيد
قائلا : بل إن المقدمات نفسها مفتقرة إلى بحث أوكد .

نيتشه والعود الأبدي :

بالرغم من أن نيتشه قد سخر من أفكاره ونظريات وأراء
الحكماء فقد تعرض في أبحاثه وذهب إلى أنه من الأسس العلمية
التي تعتمد عليها فكرة المود الأبدي القول بأن مدى القوة
الكونية متناه ومحدود . وهذا يعني أن عدد مواقع هذه القوة
وتغيرات وتركيباتها محدود بدورها ، وإن يكن هائلا . ففكرة
استمرار التحول إلى ما لا نهاية تتطوي في ذاتها على تناقض .

(١) جمهورية اللاتون (المقالة العشرة ص ٦٠٨ .

كونها تفترض وجود قوة تتزايد الى ما لا نهاية . ولكن أين لها هذا التزايد ؟ ومن أين تتغذى بهذا القدر الهائل ؟ أن تصور العالم على أنه قوة محدودة هو الذي يميز الروح العلمية من الروح الديتية من وجهة نظر نيتشه .

ومما يلفت النظر في نظرية نيتشه حول العود الابدي ، هو أنه أكسب التحول صفة الوجود ، بحيث لم يعد يقول بتحول دائم يسري دون أن تكون له أية هوية مع ذاته ، بل أصبح التغير يرجع الى ذاته على الدوام . فهو تحول خالد تصطبغ كل مراحلها بصبغة الابدية .

ويقول نيتشه في أصل المعرفة (١) : « لم يتولد عن العقل خلال الأزمان الهائلة الماضية سوى الاخطاء ومن هذه الاخطاء ما ثبت نفعه وقدرته على حفظ النوع ، بحيث استطاع من اعتدى اليه أو تلقاه بالميراث ، أو يحرز في فضاله من أجل ذاته ومن أجل ذريته مزيدا من النجاح . ومن قبيل هذه المعتقدات الباطلة ، التي ظلت تتوارث حتى كادت في نهاية الامر أن تعد كاسنة في ماهية النوع الانساني الاعتقاد بأن ثمة أشياء ثابتة وبأن ثمة أشياء متماثلة ، وبأن ثمة أشياء ، وجواهر ، وأجساما ، وبأن الشيء يكون على النحو الذي يبتدي عليه ، وبأن لنا ارادة حرة ، وبأن ما هو خير بالنسبة الي هو خير في ذاته ولذاته .

ولم يظهر من يفكر مثل هذه المعتقدات أو يشك فيها الا في وقت متأخر جدا - أعني أن الحقيقة لم تظهر الا متأخرة جدا .

(١) نيتشه : العلم والمرح ف - ١١ -

غذا بها أضعف صور المعرفة وأقلها أثرا . وعندئذ ظهر للمرم أنه لا يستطيع أن يحياها ، إذ أن الكائن العضوي ، كالأدراك الحسي وسائر أنواع الإدراك بوجه عام إنما مورست من خلال هذه الأخطاء الاسامية القديمة التي مرت فيها . بل أن هذه المبادئ قد غدت هي ذاتها المعايير التي يقاس بها ما هو « حقيقي » وما هو « غير حقيقي » في المعرفة - حتى تغلغلت في أعمق مجالات المنطق الخالص .

وعلى ذلك فقوة المعرفة لا تكون في مدى حقيقتها ، بل في قدمها ومدى تغلغلها فينا ، وطبيعتها بوصفها شرطا من شروط الحياة . وحيثما بدت الحياة والمعرفة في تعارض ، ولم ينشب أي صراع جدي ، فهنا يعد الإنكار والشك ضربا من الجنون . أما أولئك المفكرون الذين شذوا عن هذه القساعة كالأبليين ، الذين أكدوا رغم ذلك ما في الأخطاء الطبيعية من تقابل ثم وتمسكوا به . فقد اعتقدوا أن من الممكن أن نحيا هذا التقابل : ومن هنا ابتدعوا شخصية الحكيم ، بوصفه ذلك الذي يتصف بالثبات واللاشخصية ، وشمول الأفق ، ويكون واحدا وكلا من الآن نفسه ، وتتوافر لديه قدرة خاصة على هذه المعرفة المعكوسة ، وهكذا يمتقدون أن معرفتهم هي في الوقت نفسه « مبدأ الحياة » .

على أنه كان يتعين عليهم ، لكي يتسنى لهم أن يؤكدوا كل ذلك ، أن « يخدعوا » أنفسهم في موقفهم الخاص - أعني أنه كان يتعين عليهم أن ينسبوا إلى أنفسهم اللاشخصية والثبات الذي لا يعرف تحولا ، وأن يسيثوا فهم ماهية المعرفة ،

وبالاجمال ، أن يتصوروا العقل على أنه فاعلية كاملة الحرية ،
نابعة في ذاتها فحسب - ونسوا أنهم ما وصلوا الى مبادئهم هذه
الا بمناقضة ما هو شائع ، أو بدافع الرغبة في السكينة ، أو
الاستحواذ أو السيطرة - على أن التطور الأعرق الذي سارت
فيه نزعات الشك الامينة قد جعل وجود مثل هؤلاء الناس محالا
في نهاية الأمر ، فقد تبين أن حياتهم وأحكامهم تعتمد بدورها
على الفرائض المتأصلة والاختطام الاساسية القديمة التي تكمن
في كل كائن مدرك -

ولقد كانت مثل هذه النزعة للأعرق ، التي تتصف بالأمانة
والشك ، تظهر حيثما يبدأ متعارضان قابلين للانطباق على
الحياة ، ما دام كل منهما يتفق والاختطام الاساسية ، أعني أنها
كانت تظهر حيثما أمكن أن يثار الجدل حول مدى نفع هذه
المبادئ للحياة ، ولكنهما على الأقل ليست ضارة بها ، أعني
أنها كانت من انتاج ميل غريزي الى اللهو العقلي ، وفيها من
البراءة والطرافة ما في سائر مظاهر اللهو -

وبالتدريج امتلأ ذهن الانساني بمثل هذه الأحكام
والمعتقدات وثار في هذا الخليط فوران ، وصراع ، ونزوع
الى القوة ، ولم يكن النفع واللذة هما وحدهما اللذان في هذا
الصراع من أجل الحقائق ، بل تدخلت فيه كل أنواع الفرائض ،
وأصبح الصراع العقلي انشغالا ، وحماسة ، ورسالة ، وواجبا ،
وكرامة ، وانتهى الامر بالمعرفة وبالسعي وراء الحقيقة الى أن
يصبح حاجة ضمن سائر الحاجات - ومنذ ذلك الحين لم يعد
الايمان والاقتناع وحدهما قوة ، بل غدا البحث ، والانكار ،
والريبة ، والتناقض ، قوة بدورها ، وانتظمت المعرفة كل

الفرائز الضريرة ، واستغلقتها في خلقها ، واكتسبت هذه مكانة
الفرصات المشروعة ، المبجلة المفيدة ، وأصبح لها أخيراً مظهر
الخير وبراهمه .

وهكذا أصبحت المعرفة قطعة من الحياة ذاتها ولما كانت هي
ذاتها حياة ، فقد حوت قوة دائمة النمو ، حتى انتهى الأمر الى
تصادم المعارف وتلك الاخطام الاساسية القديمة ، ما دامت كل
منهما حياة ، وكل منهما قوة ، وكل منهما تتمثل في الانسان
عينه .

فالفكر هو الآن ذلك الكائن الذي يتصارع فيه لأول مرة ذلك
الميل الى الحقيقة مع تلك الاخطام التي تحفظ الحياة ، بعد أن
تبين أن الميل الى الحقيقة هو ذاته ميل حافظ للحياة ، والحق أن
كل أمر آخر ليندو بالقياس الى أهمية هذا الصراع ، غير ذي بال
فهنا يثار السؤال الأخير عن شرط الحياة ، هنا تبدل المحاولة
الأولى للإجابة عن هذا السؤال عن طريق التجربة . فالى أي حد
تتمثل الحقيقة أن تتمثل ؟ ذلك هو السؤال ، وتلك هي
التجربة .

ولما كان نيتشه قد وضع لفكرة المود الالهدي قواعد علمية
ترتكز عليها تلك الفكرة ، لا بد لنا من القول بأن تلك القواعد
كانت عبارة من منطلقات عقلانية حادفة الى اظهار نتائج المذهب
الالي باعتبار العالم آلة عمية ، من شأنها أن تمر بنفس الحالات
مرات لا متناهية . ولا بد لهذه الآلة من أن تؤدي وظيفتها بشكل
دوري منتظم ، بحيث يعود دائماً الى نفس الحالات التي مر بها
دون أي تغير . ويرى نيتشه أن القول بأن مدى القوة الكونية

ممتناه ومحدود ، من المطلقات الأساسية والقواعد العلمية الرئيسية لفكرة العود الأبدي وهذا يعني أن عدد مواقع هذه القوة وتغيراتها وتركيباتها محدود بدورها ، وأن يكن هائلا . ففكرة استمرار التحول الى ما لا نهاية تنطوي في ذاتها على تناقض ، إذ نفترض وجود قوة تتزايد الى ما لا نهاية . ولكن من أين لها هذا التزايد ؟ ومن أين تتفدى بهذا القدر الهائل ؟ أن تصور العلم على أنه قوة محدودة هو الذي يميز الروح العلمية من الروح الدينية . فنحن نعتقد اليوم أن القوة هي هي دائما ، وأنها لا ينبغي أن تكون لا متناهية بالضرورة . هي حقا فعالة فعلا أبديا ، ولكن طاقتها محدودة ، فلا تستطيع أن تستمر في خلق حالات جديدة الى ما لا نهاية له .

ولو فرضنا أن الشرط العلمي الاول لتحقيق العود الأبدي هو أن تكون القوى الكونية متناهية ، فالشرط الثاني هو أن يكون الزمان لا متناهيا ، أي أن تظل هذه القوة تمارس فعلا بلا انقطاع ، فإذا توافرت اللانهاية للزمان ، فلا بد أن نستنفد الامكانيات التي تتاح لهذه القوة المحدودة ، وبهذا تأتي حالة تماثل حالة أخرى تكررت من قبل ، وعندئذ تغلو عنها كل الحوادث كما وقعت من قبل تماما ، ويكون الكون قد أتم دورة من دوراته ، وتظل هذه الدورات تتكرر الى الأبد خلال الزمان اللامتناهي ، كل منها مماثلة للآخرى في كل صغيرة وكبيرة .

ومن المؤكد أن لفكرة العود الأبدي ، من جهة المذهب الآلي مزايا عديدة : فهي تفوق في بساطتها كل نظام يصور العالم على أنه يسير في خط واحد نحو غاية معلومة ، أي أن له بداية ونهاية . وفيها قدر كبير من الاستقرار والثبات ، فهي تضمن سيادة

القانون العلمي ، ولا تجعله عرضة للتحويل والتغيير . كما أنها لا تهيب بأي مبدأ يخرج عن الطبيعة ذاتها ، ويدفع العالم الى المبدأية أو النهاية . فمبدأ الاقتصايد في الفكر هو الذي يجعل المذهب الآلي يفضل فكرة العود الابدي على كل فكرة تصور العالم الطبيعي تصويرا غائيا .

ويلاحظ أن نيتشه كان يبشر بأفكاره العلمية والفلسفية والأخلاقية التي أوجدها بشأن العود الابدي ، وكان يكتب الرسائل الى دعاة انكار الذات يشرح فيها أفكاره العلمية هذه ، ولتستمع اليه ماذا يقول في إحدى هذه الرسائل (١) .

• لا تعد فضائل الشخص خيرا نظرا لما تعود به من نتائج على صاحبها ذاته ، بل بالنسبة الى ما تنتظر من نتائجها ، علمنا وعلى المجتمع . والحق أن الانسان في امتداحه الفضائل ، كان دائما أعمى ما يكون عن انكار الذات ، وعن الغيرية ولو لم يكن الأمر كذلك لأدرك أن الفضائل كالنشاط ، والطاعة ، والعفة ، والتقوى ، والعدالة ، هي في أغلب الأحيان ضارة بأصحابها ، إذ هي تسيطر عليهم بشيء غير قليل من العنف والشدة ، ولا يستطيع العقل أن يحقق التوازن بينها وبين سائر الميول - فحين تكون لديك فضيلة ما ، فضيلة حقة كاملة لا مجرد نزع سطحي الى الفضيلة ، تكون أنت ضحيتها ، ومع ذلك يمتدح الجار فضيلتك لهذا السبب عينه ! أن المرء يمتدح النشاط ، رغم أنه يضر بقوة ابصار عيني الشخص ، المنشيط ، أو بإصالة روحه وصفاته ، وأن المرء ليمجد الشاب الذي استهلك نفسه في العمل ،

(١) نيتشه : العلم المرح ل ٢١ .

ويتحسر عليه ، اذ يحكم على الامر قائلا : ان خسارة خير الأفراد من أجل المجتمع بأكمله انما هي تضحية طفيفة ! والمؤلم في الامر انها تضحية ضرورية ! ولكن الاكثر من ذلك ايلا ما أن يفكر الفرد على نحو مخالف ، وينظر الى بقاء ذاته واتمائها ، على أنه امر يفوق في الاهمية عمله من أجل خدمة المجتمع ! -

وهكذا يتحسر الناس على هذا الشاب ، لا حزنا عليه هو ذاته ، وانما لأن المجتمع قد فقد بهذا الموت أداة طبيعة تفرط في ذاتها - أعني أنه فقد ما يسمى بالرجل المجد . وربما فكر البعض في أنه قد يكون أنفع للمجتمع لو عمل ذلك الشاب على أن يكون أقل تفریطا في ذاته ، وأكثر حرصا على بقاءه ، ولكنهم مع موافقتهم على أن هذا قد يكون فيه نفع للمجتمع ، يؤكدون أن هناك نفعا آخر هو خير وأبقى ، وأعني به حدوث تضحية ، والشعور بأن فكرة النداء قد تكررت ودعمت مرة أخرى بصورة يادية للعيان - وعلى ذلك فعندما تمتدح الفضائل يكون ما يستدح فيها هو في واقع الامر صفتها من حيث أداة ، وذلك الاندفاع الأعلى الذي يسود كل فضيلة ، والذي لا يجعلها تقتصر على حدود نفع الفرد وحده ، أي بالاختصار ، تلك الصفة الهوجاء في الفضيلة ، التي يتحول بها الفرد الى أداة في يد الكل فحسب .

فامتداح الفضائل هو امتداح لشيء ضار بالفرد - هو امتداح لميول تسلب الانسان أنبل حب لذاته ، وقدرته على أن يرمي نفسه على أكمل نحو . ولا جدال في أن المرم يلبأ من أجل تلقين العادات الفاضلة ونشرها الى ايراد سلسلة من النتائج

التي تنجم عن الفضيلة ، على نحو تبدو معه الفضيلة ونفع
الفرد متفقين .

والحق أن هذا الاتفاق بينهما موجود بالفعل ! فالنشاط
المندفع الطبع مثلا وهو الفضيلة التي تتميز بها الأداة ، ينظر
إليه على أنه هو سبيل الثراء والمجد ، وهو سير تزيق من الملل
والآلام . غير أن المرء يتجاهل عن عمد ما فيه من خطر ، بل من
خطورة عظيمة . فالتربية تمضي دائما على هذا النحو . هي
تسمى عن طريق سلسلة من الترغيبات والمنافع ، إلى أن تثبت في
الفرد طريقة في التفكير والسلوك من شأنها ، إذا أصبحت عادة
وغيره وانفعالا متأصلا ، أن تسيطر عليه وتتحكم فيه على
نحو مضاد لنفعه النهائي ، وعلى نحو نافع للمجموع .

ولكم رأيته النشاط المندفع الطبع يجلب ثراء ومجدا يعق ،
ولكنه في نفس الوقت يسلب أعضاء الجسم ذلك العنصر المرفق
الذي يمكنها به أن تتمتع بهذا الثراء وهذا المجد ، كما رأيته
ذلك العلاج الشافي من الملل ومن الآلام يحيل الحواس صماء
والروح محضة ضد التأثير بأية إشارة جديدة . فأنشط
المصور - أعني عصرنا الحالي ، لا يعقل شيئا بنشاطه وماله
الموقور ، سوى أن يكتب على الدوام مزيدا من المال ويبذل
مزيدا من النشاط . وذلك لأن الاتفاق يحتاج إلى ذكاء يزيد
عما يحتاج إليه الاكتساب ! ولكننا على أية حال سيكون لنا
أحفادنا من بعدنا ! ما بلغت التربية هدفها ، فإن كل فضيلة
للفرد تبدو نفعاً للجماعة ، وضرراً للفرد ، إذ نظر إليها من
حيث الهدف الفردي الأسمى . وربما كان في ذلك فساد للروح

والحس ، أو هلاك مايق لأوانه • وعليها أن تتأمل ، ومن جهة
التنظر هذه فضائل الطاعة والعفة والتقوى والعدالة •

فامتداح من يتكر ذاته ، ويضحي بها ، ويتصف بالفضيلة -
أعني امتداح ذلك الذي لا يبذل كل طاقاته وذمته من أجل
الايقاع على ذاته ، وانماها والملاء بها • وانما منها ، وبسط
سلطانها ، وانما يحيا ، بازاء ذاته حياة كلها ضعة وخفلة ،
وربما كان فيها عدم اكتراث أو سخرية - هذا الامتداح لا يظهر
أبدا بدافع انكار الذات ؛ إذ أن الجار لا يمتدح انكار الذات
الا لأنه سيجتي منه غنما ؛ ولو كان الجار يفكر على نحو فيه
انكار الذات ، لرفض هذا التشعيت للطاقة ، وذلك الضرر الذي
يحل من أجله هو ، والعمل على تلافي ظهور مثل هذه الميول ،
ولأظهر - قبل كل هذا - انكاره لذاته ، بالامتناع عن تسمية
هذا خيرا - وهنا نصل الى التناقض الأساسي الذي تتصف به
تلك الاخلاق والتي تلقى اليوم أعظم تمجيد : فدافع تلك
الأخلاق مضادة لمبادئها • وتلك الاخلاق تفتد ما تريد أن تبرر
به نفسها - تفتد بمبادئها الخاص لما هو أخلاقي ١ - والقصة
القائلة : عليك أن تنكر ذاتك وتضحي بها ، يتبني عليها اذا
شاءت الا تتعارض مع أخلاقيتها ، الا تصدر الا عن كائن
ينصرف في دعوته ، هذه عن تقعه الخاص ، وربما وجد في تلك
التضحية التي يدعو اليها الفرد الى القيام بها ضررا له هو ذاته •
ولكن أن يدعو الجار أو المجتمع الى الذرية بدافع المفعة حتى
يكون قد اتبع المبدأ المضاد ، القائل : عليك أن تسمى الى
الشفعة ، حتى على حساب الآخرين ، وبهذا يدعو الى الأمر
عليك أن ••• والنهي عليك ••• في أن واحد •••

الفلاسفة المسلمون وعالم الأرواح :

الأفكار والآراء التي أوردناها عن بعض الفلاسفة والعلماء تسمح لنا بأن نتطلع بشغف وقلبتنا حاسر بالإيمان العميق بما تفاعل في عقول بعض المفكرين الكبار من أتباع الدين الاسلامي الحنيف الذين وقفوا وجودهم وحياتهم الفعلية لاستقصاء العوامل والتفاعلات التي كانت سببا في وجود هذا العالم العامر بالأسرار والغمايا . لذلك لا بد لنا من التلطف الى شيخ الفلاسفة الاسلاميين حجة الاسلام أبو حامد الفارابي الذي أمضى حياته باحثا مدققا لاثبات جوهر الحكمة العرفانية العقلانية ، عليه يتمكن من اخضاع العقائد الدينية الشرعية لأفكار الحكمة العقلانية الناهضة الى جوهر المعرفة الالهية وبالفعل استطاع أن يقلص بعض الأمور الدينية ويكسبها صفة خاصة ميزتها مع مرور الايام عن غيرها . وجعلتها مستقلة في كثير من المعارف العقلانية عن أفكار وآراء فلاسفة اليونان والهند والفرس ، ومن الطبيعي أن تثير هذه المبادرة معارضة شديدة لدى رجال الدين من المتكلمين ، وأصحاب الجدل والفقهاء ، فانبروا يتأفحون عن العقائد الاسلامية ويكيلون الاتهامات لأصحاب الأفكار العقلانية الفلسفية ، باعتبارهم ينفذون الى تشويه الدين واخلال الالحاد والزندقه فيه .

ولكن التيار الفلسفي الاسلامي مرعان ما جرف في طريقه التصاعدي كل من وقف في طريقه ، فانتشرت الأفكار العقلانية بسرعة بين كافة الفرق والمذاهب الاسلامية ، فظهر جماعة من الفلاسفة العقلانيين يوزعون معارفهم الروحية بين كافة

الطبقات ، ويجسدون فيها الافكار الخلاقة الهادفة الى نقد
الأديان والعقائد والانظمة الاجتماعية التي كانت سائدة في تلك
الأيام - وفي وسط هذه التيارات العاتية شمع نجم الغزالي
كشخصية علمية فذة في العالم الاسلامي ، فكان العالم الرياني
الوحيد بين الفلاسفة المسلمين الذي شق لذاته طريقا خاصا في
التفكير العرفاني الفلسفي ، وأثار ظلمات العقول الناهضة الى
فلسفة اسلامية صحيحة تنسجم مع الفكر الصحيح وتجسد
الشريعة الاسلامية التي وجدت من أجل تحقيق سعادة الانسان
في الدنيا والآخرة -

غير أن الغزالي الذي وقف حياته للكشف عن الحقيقة
العرفانية لم يعبأ بكل ما قيل فيه ويقال بل استمر في تجميع
أفكاره وتوزيعها على الناس مهما كان مستواهم العلمي -

ولا بد لنا من استعراض بعض افكاره ومواقفه وشكبه
ويقينه حول هذا الموضوع -

الغزالي وقدم العالم :

يلاحظ بأن الغزالي هذا الحكيم قد تعرض خلال حياته
الفلسفية الى نقد لاذع من بعض الفلاسفة وخاصة حول ما
يتعلق بقديم العالم وحدوثه ، لذلك يبدأ رده فيشير الى مذاهب
الفلاسفة قائلا : « اختلفت الفلاسفة في قدم العالم » فالذي
استقر عليه رأي جماهيرهم المتقدمين والمتأخرين القول بقدمه
وأنه لم يزل موجودا مع الله تعالى ومعلولا له ومساوقا له غير
متأخر عنه بالزمان مساوقا المعلول للعلة ومساوقا النور

للشمس ، وإن تقدم الباري عليه كتقدم العلة على المملول ، وهو تقدم بالذات والرتبة لا بالزمان - وحكي عن أفلاطون أنه قال : العالم مكون ومحدث * ثم فهم من أول كلامه وأبى أن يكون حدث العالم معتقدا له - وذهب جالينوس في آخر عمره في الكتاب الذي سماه (ما يمتقده جالينوس رأيا) إلى التوقف في هذه المسألة - وأنه لا يدري العالم قديم أو محدث ، وربما دل على أنه لا يمكن أن يعرف وأن ذلك ليس لقصور فيه بل لاستقصاء هذه المسألة في نفسها على القول ، ولكن هذا كالشاذ في مذهبهم وإنما مذهب جميعهم أنه قديم وأنه بالجملة لا يتصور أن يصدر حادث من قديم بغير واسطة أصلا (١) .

ثم يورد الفزالي أدلة الجماعة الأولى منهم على قدمه قائلا : « قولهم يستحيل صدور حادث من قديم مطلقا ، لانا إذا فرضنا القديم ولم يصدر منه العالم مثلا فانما لم يصدر لأنه لم يكن للوجود مرجح بل كان وجود العالم مسكنا امكانا صرفا ، فاذا حدث بعد ذلك لم يخل اما أن تجدد مرجح أو لم يتجدد ، فإن لم يتجدد مرجح بتمى العالم على الامكان الصرف كما قبل ذلك ، وإن تجدد مرجح فمن محدث ذلك المرجح ؟ ولیم حدث الآن ولم يحدث من قبل ؟ والسؤال في حدوث المرجح القائم * وبالجملة فأحوال القديم اذا كانت متشابهة فاما أن لا يوجد عنه شيء قط وأما أن يوجد على الدوام ، فاما أن يتميز حال الثرك عن حال الشرع فهو محال » .

الدليل الثاني : أن القول بقدم القديم وحدوث العالم ،

(١) الفزالي : دعوات الفلاسفة من (٤٨ - ٤٩) .

ينتهي الى القول بقدم الزمان وقدم الحركة . فاذا كان الباربي خالق هذا العالم ، فهو إما أن يتقدم عليه بالذات ، فيكون كلاهما قديم ، وإما أن يتقدم عليه بالزمان ، فيكون الله قديما ويكون العالم حادثا . وعندئذ تبرز مشكلة القدم على شكل آخر ، وهي قدم الزمان نفسه . والحقيقة أنه اذا انتضى زمان قبل حدوث العالم ، فمعنى ذلك أنه كان قبل العالم زمان ، كان العالم معدوما فيه ، وقبل هذا الزمان زمان لا نهاية له ، فالزمان قديم . واذا وجب قدم الزمان ، وهو عبارة عن قدر الحركة ، وجب قدم الحركة ووجب قدم المتحرك الذي يدوم الزمان بدوام حركته (١) .

الدليل الثالث : وجود العالم ممكن قبل وجوده ، اذ يستحيل أن يكون مستنعا ثم يصير ممكنا ، وهذا الامكان لا أول له ، أي لم يزل ثابتا ولم يزل العالم ممكنا وجوده ، اذ لا حال من الاحوال يمكن أن يوصف العالم فيه بأنه مستنع الوجود . فاذا كان الامكان لم يزل فالممكن على وفق الامكان أيضا لم يزل ، فان معنى قولنا أنه ممكن وجوده أنه ليس محالا وجوده . فاذا كان ممكنا وجوده أبدا لم يكن محالا وجوده أبدا . ويتفرع عن هذا الدليل دليل آخر هو القول بحدوث العالم يفترض وجود مادة قديمة ، صنع منها العالم : ان القول بأن العالم حادث ، وأنه من صنع الله ، يعني أن هناك مادة قديمة صنعها الباربي منها . فيكون العالم قديما بمادته ، حادثا بالصور والكيفيات التي طرأت عليه (٢) ، وبيانه أن كل حادث فهو قبل حدوثه لا يغلو

(١) الفزالي : نهالت الفلاسفة ص ٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٤-٧٥ .

أما أن يكون ممكن الوجود أو مممتنع الوجود أو واجب الوجود ، ومحال أن يكون مممتنعا لأن الممتنع في ذاته لا يوجد قط ، ومحال أن يكون واجب الوجود لذاته فإن الواجب لذاته لا يعدم قط ، فدل أنه ممكن الوجود بذاته * فاذن إمكان الوجود حاصل له قبل وجوده ، وإمكان الوجود وصف إضافي لا قوام له بنفسه ، فلا بد له من محل يضاف إليه ، ولا محل إلا المادة فيضاف إليها كما نقول : هذه المادة قابلة للحرارة والبرودة ، أو السواد والبياض ، أو الحركة والسكون ، أي ممكن لها حدوث هذه الكيفيات وطريات هذه التغيرات ، فيكون الإمكان وصفا للمادة * والمادة لا يكون لها مادة ، فلا يمكن أن تحدث ، إذ لو حدثت لكان إمكان وجودها سابقا على وجودها وكان الإمكان قديما بنفسه غير مضاف إلى شيء ، مع أنه وصف إضافي لا يعقل قائما بنفسه *

أدلة الفلاسفة التي أوردناها حول قدم العالم كما جاءت في كتاب التهافت قد رد عليها الخزالي مقدما الأدلة والبراهين على خطئها وانحراف أصحابها عن الطريق العرفاني الصحيح فقال : الاعتراض على الدليل الأول من وجهين - أحدهما أن يقال : هم تفكرون على من يقول ، أن العالم حدث بإرادة قديمة ، اقتضت وجوده في الوقت الذي وجد فيه ، وأن يستمر العدم إلى الغاية حتى استمر فيها ، وأن يبتدىء الوجود من حيث ابتداء ، وأن الوجود قبله لم يكن مرادا فلم يحدث لذلك ، وأنه في وقته الذي حدث فيه مراد بالإرادة القديمة ، فحدث لذلك ، فما المانع من هذا الاعتقاد وما المعيل له ؟ فإن قيل : هذا محال بين الإصالة ، لأن الحادث موجب ومسبب ، وكما يستحيل حادث بغير سبب وموجب ، يستحيل وجود موجب قد تم بشرائط

إيمانية وأركانه وأسبابه ، حتى لم يبق شيء منتظر اليته ، ثم يتأخر الموجب ، بل وجود الموجب عند تحقق الموجب بتعام شروطه ضروري ، وتأخره محال حسب استعالة وجود العاثر الموجب بلا موجب .

فقبل وجود العالم كان المريد موجودا ، والارادة موجودة ، ونسبتها الى المراد موجودة ، ولم يتجدد مريد ، ولم يتجدد ارادة ، ولا تجدد للارادة بنسبة لم تكن ، فان كل ذلك تنير فكيف تجدد المراد ، وما المانع من التجدد قبل ذلك ؟

وحال التجدد لم يتميز عن الحال السابق في شيء من الاشياء ، وأمر من الأمور ، وحال من الاحوال ، ونسبة من النسب ، بل الأمور كما كانت بعينها ، ثم لم يكن يوجد المراد ، وبقيت بعينها كما كانت ، فوجد المراد ، ما هذا الا غاية الاحالة . وليس استحالة هذا الجفس في الموجب والموجب الضروري الذاتي ، بل وفي العرفي والوصفي ، فان الرجل لو تلفظ بطلاق زوجته ، ولم تحصل البنية في الحال ، لم يتصور أن تحصل بعده ، لأنه جمل اللفظ علة للحكم بالوضع والاصطلاح فلم يقل تأخر المعلول ، الا أن يعلق الطلاق بمجيء الند ، أو بدخول النار ، فانه جمل علة بالاضافة الى شيء منتظر ، فلما لم يكن حاضرا في الوقت - وهذا الند والدخول - توقف حصول الموجب على حضور ما ليس بحاضر ، فما حصل الموجب الا وقد تجدد أمر وهو الدخول أو حضور الند ، حتى لو أراد أن يأخر الموجب عن اللفظ غير منوط بحصول ما ليس بحاصل ، لم يعقل ، مع انه الواضع المختار في تفصيل الوضع ، فاذا لم يمكننا وضع

هذا بشهواتنا ، ولم نعلمه ، فكيف تعقله في الإجابات الذاتية العقلية الضرورية ٥٩ . وأما في العادات ، فما يحصل بقصدنا لا يتأخر عن المقصد مع وجود المقصد إليه إلا المانع ، فإن تحقق المقصد والقدرة وارتفعت الموانع ، لم يعقل تأخر المقصود ، وإنما يتصور ذلك في العزم ، لأن العزم غير كاف في وجود العقل ، بل العزم على الكتابة لا يوقع الكتابة ، ما لم يتجدد قصد - هو : انبعاث في الإنسان متجدد حال الفعل - . فإذا كانت الإرادة القديمة في حكم قصدنا إلى الفعل ، فلا يتصور تأخر المقصود إلا المانع ، ولا يتصور تقدم المقصد ، فلا يعقل قصد في اليوم إلى قيام في الغد إلا بطريق العزم ، وإن كانت الإرادة القديمة في حكم عزمنا ، فليس ذلك كافيا في وقوع المعزوم عليه ، بل لا بد من تجديد انبعاث قصدي عند الإيجاد ، وفيه قول بتغير القديم ، ثم يبقى عين الاشكال في أن ذلك الانبعاث أو المقصد أو الإرادة أو ما شئت فسمه ، لم يحدث الآن ، ولم يحدث قبل ذلك فأما أن يبقى حادث بلا سبب أو يتسلل إلى غير نهاية - ورجع حاصل الكلام إلى أنه وجد الموجب بتمام شروطه ، ولم يبق أمر منتظر ، ومع ذلك تأخر الموجب ولم يوجد في مدة لا يرتقي الوهم إلى أولها ، بل آلاف السنين لا تنقضي منها شيئا ، ثم انقلب الموجب بفترة من غير أمر تجدد ، وشرط تحقق وهو محال في نفسه -

والجواب أن يقال : استعالة إرادة قديمة متعلقة بأحداث شيء ، أي شيء كان ، تعرفونه بضرورة العقل أو نظره ، وعلى لغتكم في المنطق ، تعرفون الالتقاء بين هذين الحدين بعد أوسط أو بنير حد أوسط ، فإن ادعيتم جدا أوسط وهو الطريق النظري ، فلا بد من إظهاره ، وإن ادعيتم معرفة ذلك ضرورة ،

فكيف لم يشارككم في معرفته مخالفوكم ، والفرقة المتقدمة لحدوث العالم بإرادة قديمة لا يحصرها بلد ، ولا يحصيها عدد ، ولا شك في أنهم لا يكابرون العقول عنادا مع المعرفة ، فلا بد من إقامة البرهان على شرط المنطق يدل على استحالة ذلك ، إذ ليس في جميع ما ذكرتموه إلا الاستبعاد والتشثيل يعزمننا وإرادتنا ، وهو فاسد ، فلا تضاهي الإرادة القديمة التصود العادية ، وأما الاستبعاد المجرد فلا يكفي من غير برهان . فإن قيل : نحن بضرورة العقل فلم أنه لا يتصور موجب يتنام شروطه من غير موجب ومجوز ذلك مكابر لضرورة العقل . قلنا : وما الفضل بينكم وبين خصومكم ، إذا قالوا لكم أنا بالضرورة نعلم إحالة قول من يقول : إن ذاتا واحدة حالة بجميع الكليات من غير أن يوجب ذلك كثرة ومن غير أن يكون العلم زيادة على الذات ، ومن غير أن يتعدد العلم مع تعدد المعلوم ، وهذا مذهبكم في حق الله ، وهو بالنسبة لنا وإلى علومنا غاية الإحالة ، ولكن تقولون : لا يقاس العلم القديم بالحادث ، وطائفة متكم استثمروا إحالة هذا ، فقالوا : إن الله لا يعلم إلا نفسه ، فهو العاقل والعقل والمقول معلوم الاستحالة بالضرورة ، إذ تقدير صانع العلم لا يعلم إلا نفسه - تعالى عن قولكم ومن قول جميع الزائفين حلوا كبيرا - لم يكن يعلم صنمته البتة . بل لا تتجاوز الزمان هذه المسألة فنقول : بم تذكرون على خصومكم إذا قالوا : قدم العالم محال ، لأنه يؤدي إلى اثبات دورات الفلك لا نهاية لأعدادها ، ولا حصر لأحاديثها ، مع أن لها سديا وربما ونصفا ، فإن فلك الشمس يدور في سنة ، وفلك زحل في ثلاثين سنة ، فتكون أدوار زحل ثلث عشر أدوار الشمس ،

وأدوار المشتري نصف سدس أدوار الشمس ، فإنه يدور في اثنتي عشر سنة ، ثم كما أنه لا نهاية لأعداد دورات زحل ، لا نهاية لأعداد دورات الشمس ، مع أنه ثلث عشرة ، بل لا نهاية لأدوار فلك الكواكب الذي يدور في ستة وثلاثين ألف سنة مرة واحدة ، كما لا نهاية للحركة المشرقية التي للشمس في اليوم واللييلة مرة .

فلو قال قائل : هذا مما يعلم استحالة ضرورة ، فبماذا تنفصلون من قوله ؟ بل ان قال قائل : أعداد هذه الدورات شفع أو وتر ؟ أو شفع ووتر جميعا ؟ ان لا شفع ولا وتر ؟ فان قلتم شفع ووتر جميعا ، أو لا شفع ولا وتر فيعلم بطلانه ضرورة .
وان قلتم : شفع ، فالشفع يصير وترا بواحد ، فكيف أموز ما لا نهاية له واحد ؟

وان قلتم : وتر ، فالوتر يصير بواحد شفعا ، فيلزمكم القول بأنه ليس بشفع ولا وتر . فان قيل انما يوصف بالشفع والوتر المقناهي ، وما لا نهاية له ، قلنا : جملة ومركبة من أحاد ، لها سدس عشر كما سبق ، ثم لا توصف بشفع ولا وتر ، يعلم بطلانه ضرورة من غير نظر ، فبماذا تنفصلون عن هذا ؟

فان قيل : محل الفلظ في قولكم : أنه جملة مركبة من أحاد ، فان الدورات معدومة ، أما الماضي فقد انقرض ، وأما المستقبل فلم يوجد ، والجملة اشارة الى الموجودات حاضرة ولا موجودة ها هنا . قلنا : العدد ينقسم الى الشفع والوتر ، ويستحيل أن يخرج عنه سواء أكان المعدود موجودا باقيا أو فائيا ، فاذا فرضنا عددا من الأفراس ، لزمنا أن نعتقد أنها لا تغلو من كونها شفعا أو وترا ، سواء قدرناها موجودة أو معدومة ، فان

انعدمت بعد الوجود ، لم تتغير هذه القضية ، على انا نقول لهم : لا يستحيل على أصلكم موجودات حاضرة ، هي أحساد متغايرة بالوصف ، ولا نهاية لها ، وهي نفوس الأديميين للأبدان بالموت ، فهي موجودات توصف بالشفع والوتر ، فبكم تنكرون على من يقول : بطلان هذا يعرف ضرورة ، كما ادعيت بطلان تعلق الإرادة القديمة بالأحداث ضرورة ، وهذا الرأي في النفوس ، هو الذي اختاره (ابن سينا) ولعله (أرسطو طاليس) -

فان قيل : فالصحيح رأي أفلاطون ، وهو أن النفس قديمة ، وهي واحدة ، وانما تنقسم في الأبدان ، فإذا قارقتها عادت الى أصلها واتحدت - قلنا : فهذا أقبح وأشنع ، وأولى بأن يعتقده مخالفا لضرورة العقل ، فانا نقول : نفس زيد حين نفس عمر أو غيره ، فان كان عينه فهو باطل بالضرورة ، فان كل واحد يشعر بنفسه ، ويعلم أنه ليس هو نفس غيره ، ولو كان هو عينه لتساويا العلوم التي هي صفات ذاتية للنفوس داخلة مع النفوس في كل إضافة ، وان قلتم : أنه غيره ، وانما انقسم بالتعلق بالأبدان ، قلنا : وانقسام الواحد الذي ليس له عظم في الحجم بكمية مقدارية ، محال بضرورة العقل ، فكيف يصير الواحد اثنين ، بل ألفا ، ثم يعود ويصير واحدا ، بل هذا يعقل له عظم وكمية ، كماء البحر ينقسم بالجداول والأنهار ثم يعود الى البحر ، فاما ما لا كمية له فكيف ينقسم ؟ والمقصود من هذا كله ، أن نبين أنهم لم يميزوا خصوصهم عن معتقدهم في تعلق الإرادة القديمة بالأحداث الا بدعوى الضرورة ، وأنهم لا يتفصلون عن يدعي الضرورة عليهم في هذه الأمور على خلاف معتقدهم ، وهذا لا مخرج عنه -

فإن قيل : هذا ينقل عليكم في أن الله قبل خلق العالم كان قادرا على الخلق بقدر سنة أو سنتين ، ولا نهاية لقدرته ، فكأنه صبر ولم يخلق ، ثم خلق ، ومدة التبرك متناه أو غير متناه ؟ فإن قلتم : متناه حار وجود الباري متناهي الأول . وإن قلتم : غير متناهي ، فقد انقضى فيها امكانات لا نهاية لاعدادها ، قلنا : المدة والزمان مخلوق عندنا . . .

الاعتراض على الدليل الثاني : هو أن يقال : الزمان حادث ومخلوق ، وليس قبله زمان أصلا ، ونعني بقولنا أن الله متقدم على العالم والزمان ، أنه سبحانه كان ولا عالم ، ثم كان معه عالم ، ومفهوم قولنا : كان ولا عالم ، وجود ذات الباري وعدم ذات العالم فقط ، ومفهوم قولنا : كان معه عالم ، وجود الذاتين فقط ، فنمضي بالتقدم انفراد بالوجود فقط ، والعالم كشخص واحد ، ولو قلنا : كان الله ولا عيسى مثلا ، ثم كان وعيسى معه ، لم يتضمن اللفظ الا وجود ذات وعدم ذات ثم وجود ذاتين ، وليس من ضرورة ذلك تقدير شيء ثالث ، وإن كان الوهم لا يسكت عن تقدير شيء ثالث وهو الزمان ، فلا التفات إلى أغاليط الأوهام .

وبعد أن يناقش الفزالي بقية عناصر الدليل الثاني بصورة مفصلة يقول : لله وجود ولا عالم معه ، وهذا القدر لا يوجب اثبات شيء آخر ، والذي يدل على أن هذا عمل الوهم ، أنه مخصوص بالزمان والمكان ، فإن الخضم وإن اعتقد قدم الجسم ، يدعن وهمه لتقدير قدمه ، هذا في الجسم . فإذا رجعنا إلى الزمان ، لم يقدر الخضم على تقدير حدوث زمان لا قبل له .

وخلاف المعتقد يمكن وضعه في الوهم تقديرًا وغرضًا • وهذا
 ما لا يمكن وضعه في الوهم كما كان في المكان ، فان من يعتقد
 تناهي الجسم ومن لا يعتقد كل واحد يعجز عن تقدير جسم
 ليس وراءه لا خلاه ولا ملأ ، بل لا يدعن وهمه لقبول ذلك •
 ولكن قيل : صريح العقل اذا لم يمنع وجود جسم متناه بعكم
 الدليل لا يلتفت الى الوهم • فكذلك صريح العقل لا يمنع
 وجودا مفتتحا ليس قبله شيء • وان قصر الوهم عنه فلا يلتفت
 اليه ، لأن الوهم ، لما لم يالف جسما متناهيا الا وبجنبه جسم
 آخر أو هوام تخيله خلاه ، لم يتمكن من ذلك في الغائب ، فكذلك
 لم يالف الوهم حادثا الا بعد شيء آخر • فكان عن تقدير حادث
 ليس له قبل هو شيء موجود قد انتقضى ، فهذا هو سبب الفشل •
 والمقاومة حاصلة بهذه الممارسة •

واذا كان الأمر على هذا التساق بصدد الزمان ، فهو لا بد
 من أن يكون كذلك بصدد الحركة ، فالزمان هو قدر الحركة ،
 ومتى كان الزمان متناهيا ، وجب أن تكون الحركة متناهية •

الاعتراض على الدليل الثالث : يعتقد بعض الفلاسفة ، أن
 العالم كان ممكنا منذ القديم ، والا لكانت هناك فترة كان فيها
 مستحيلا ، وكان الله فيها عاجزا عن خلقه • ويخرجون من قدم
 الامكان قدم للعالم بالذات • فيعترض عليهم الغزالي قائلا :
 أن يقال العالم لم يزال ممكن الحدوث ، فلا جرم ما من وقت الا
 ويتصور أحداثه فيه ، واذا قدر موجودا أبدا لم يكن حادثا ،
 فلم يكن الواقع على وفق الامكان ، بل على خلافه • وهذا
 كقولهم في المكان وهو أن تقدير العالم أكبر مما هو ، أو خلق
 جسم فوق العالم ممكن ، وكذا آخر فوق ذلك الآخر ، وهكذا الى

غير نهاية • فلا نهاية لامكان الزيادة ومع ذلك فوجود ملاً مطلق لا نهاية له غير ممكن • فكذاك وجود لا ينتهي طرفه غير ممكن ، بل كما يقال الممكن جسم متناهي السطح ولكن لا تتمين مقادير • في الكبير أو الصغر ، فكذاك الممكن الحدوث ومبادئ الوجود لا تتمين في التقدم والتأخر ، وأصل كونه حادثاً متمين فانه الممكن لا غير -

ويرى الغزالي أن القول بحدوث العالم ، وافترض مادة سابقة على حدوثه صنع منها ، ثم جعل الامكان وصفا للمادة ، لاثبات قدم المادة بأسناده الى قدم الامكان ، رأى ليس بإمكاننا الأخذ به باعتبار أن الامكان معنى عقلي خالص - أنه مثل معنى الامتناع ومعنى الوجوب لا يحتاج الى موجود ينضاف اليه • ويستدل على ذلك بأمور ثلاثة أحدهما : أن الامكان لو استدعى شيئاً موجوداً يضاف اليه ، ويقال أن امكانه لاستدعى الامتناع شيئاً موجوداً يقال أنه امتناعه ، وليس للممتنع في ذاته وجود ، ولا مادة يطرأ عليها الحال ، حتى يضاف الامتناع الى المادة •

ولما كان السواد والبياض يقضي العقل بينهما قبل وجودهما ، يكونهما ممكنين - فإن كان هذا الامكان مضافاً الى الجسم الذي يطرأ عليه ، بحيث يمكن أن يسود أو يبيض ، يكون الجسم هو الممكن ، ويكون السواد أو البياض مضافاً اليه •

ولكننا اذا صرفنا نظرنا عن الجسم ، واتجهنا به نحو السواد أو البياض في ذاتهما ، وتساؤلنا : هل البياض ممكن أم واجب أم ممتنع ؟ فكان لا بد لنا من أن نجيب ، أنه ممكن - وبذلك

يقضي العقل بالامكان دون الاقتدار الى وضع ذات موجودة ،
يضيف اليها الامكان .

واذا اعتبرنا أن نفوس الأديين ليست سوى جواهر قائمة
بأنفسها ، ليست بجسم ولا مادة ، ولا منطبعة في مادة ، وهي
حادثه على ما اختاره (ابن سينا) والمحققون منهم ، ولها إمكان
قبل حدوثها ، وليس لها ذات ولا مادة ، فامكانها وصف اضافي ،
ولا يرجع الى قدرة القادر ، ولا الى فعل الفاعل ، فالى ماذا ترجع ؟
ان الاشكال لينقلب عليهم .

وليس هذا غريبا ، فالامكان أشبه ما يكون بالكمالات الثابتة
في العقل ، والتي جاء على ذكرها الفلاسفة . فإذا كانت هذه
الكمالات لا وجود لها في الأعيان ، بل في الأذهان ، فما يمنع أن
يكون الامكان لا وجود له في الأعيان ؟

حقيقة العالم عند الغزالي :

النقاش الذي أجراه الغزالي بين الأدلة الفلسفية التي قال
بها بعض الفلاسفة وبين اعتراضاته عليها وتفنيدها ، لا يد لنا
من التساؤل عن النتيجة التي يمكن أن نخرج بها معتمدين على
أفكار الغزالي التي ناقش فيها الفلاسفة وفند أدلتهم حول حقيقة
العالم ؟

ويرى الغزالي أن العالم حادث ، وحدثه نتيجة لخلق الله ،
الذي خلقه بإرادة قديمة ، اقتضت وجوده في الوقت الذي وجد
فيه ، وعلى الهيئة التي وجد عليها ، وفي المكان الذي وجد فيه .
وينتهي الغزالي الى أن جرم العالم مثناه في أقطاره ، وتصوره

امتداد أقطاره الى ما لا نهاية له من أخاديع الوهم - وهذا يعني أن المكان - وهو تابع لامتداد أقطار العالم - متناه أيضا ، ولا يمكن تصور مكان خارج حدود العالم - كما وأن الفزالي يعتبر أن الحركة حادثة مثل حدوث العالم ، بدأت ببذته ، وتزدوم بدوامه - وإذا كانت الحركة تدوم بدوام المتحرك ، وكان تصور مكان خارج حدود العالم من أخاديع الوهم ، فمعنى ذلك أن الحركة تحدث في المكان ، وأن المكان الذي تحدث فيه متناه ، وأنها متناهية في النتيجة - ولما كان الزمان هو قدر الحركة ، بل هو الحركة التي يستغرقها المتحرك في اجتياز مكان معين - وإذا كان المكان متناهيا ، ونتج عنه تنامي الحركة التي تحدث فيه ، وجب أن يكون الزمان - وقد قدر هذه الحركة - متناهيا أيضا - أضف الى ذلك ، أن الزمان بدأ ببذم العالم ، وحدث بحدوثه ، بل أن الله خلقه بمجرد خلق العالم ، وتصور زمان قبل زمان العالم ، خدعة من أخاديع الوهم -

ويرى الفزالي إذا كان العالم حادثا ومخلوقا من قبل الله ، فهذا لا يعني أن حدوثه وخلقه يقتصران على الصور والكيفيات الماثرة ، لأن المادة حادثة أيضا ومخلوقة من قبل الله ، ومعنى خلق العالم وحدثه ، هو خروجه بعادته وصوره وكيفياته من العدم الى الوجود -

ويعتبر الفزالي أن العالم وجود واقعي ، ولا تجوز مقايسته بفكرة الامكان ، ولهذا فإن النتائج التي نستخرجها من فكرة الامكان قد لا تنطبق على الواقع ، بحال من الاحوال ، لأن العالم قائم بالفعل ، في حين أن الامكان لا وجود له الا في عقولنا ، ولا يجوز الانتقال من المعقول الى الموجود -

ويصل الفزالي الى السببية والعالم ، فيقول :
اننا اذا رأينا حادثة تحدث ، وحادثة أخرى تعقبها ،
مثل اقتراب النار من القطن واحتراقه ، لم يجوز
لنا أن نقول : أن النار سبب احتراق القطن ، بل كان المربوب
أن نقول : أن الله هو سبب الاحتراق ، اذ يأمره يحترق القطن
عند اقتراب النار منه . ثم يضيف قائلا : الاقتران بين ما يعتبر
في المادة سببا ، وبين ما يعتقد مسببا ، ليس ضروريا عندنا . . .
فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة
عدم أحدهما عدم الآخر ، مثل الري والشرب . . . والاحتراق
ولقاء النار . . . والموت وحز الرقبة ، والشفاء وشرب الدواء ،
وهلم جرا الى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم
والصناعات والحرف . فان اقترانها لما سبق من تقدير الله
سبحانه ، يخلقها على التساوق ، لا لكونه ضروريا في نفسه ،
غير قابل للنفوذ ، بل في المقدور - خلق الموت دون جز الرقبة ،
وادامة الحياة مع جز الرقبة ، وهلم جرا الى جميع المقترنات -
ويأخذ الفزالي مثال احتراق القطن ، ومثال النور ، فيقول :
المقام الاول ، أن يدعي الخصم ، أن فاعل الاحتراق هو النار
فقط ، وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار ، فلا يمكنه الكف عما هو
في طبعه بعد ملاقاته لمحل قابل له . وينكر الفزالي صحة هذا
الزعم ، ويرد الاحتراق الى الله ، اما بواسطة الملائكة ، أو بنون
وساطة ، لا مشاهدة الاحتراق عند سلافة النار ليس دليلا .

ثم يواصل الفزالي نقاشه قائلا : المقام الثاني مع من يسلم
أن هذه الحوادث تفيض من مبادئ الحوادث . ولكن الاستعداد
لقبول الصور يحصل بهذه الاسباب المشاهدة الحاضرة ، الا أن

تلك المبادئ أيضا تصدر الأشياء منها بالضرورة والطبائع ، لا على
 سبيل القوي والاختيار ، صدور النور من الشمس ، وانما
 اقترفت الحال في القبول ، لاختلاف استعدادها فان الجسم
 الثقيل يقبل شعاع الجسم ، ويرده حتى يستضيء به موضع
 آخر ، والمدر لا يقبل ، والهوام لا يمنع نفوذ نوره ، والعبر
 يمنع . . . والمبدأ واحد ، والآثار مختلفة ، لاختلاف الاستعدادات
 في المحل .

ويرد الغزالي على ذلك قائلا : كيف يتصور أن تحترق
 أحدهما دون الأخرى ؟ وليس ثم اختيار ، وهذا يعني أن الله
 هو الذي شاء أن يرد الجسم الثقيل شعاع الشمس ، وأن يمنعه
 المدر من هذا الارتداد . غير أن السببية تعود إلى ارتكاب محاولات
 شنيعة ، كأن يترك أحدا كتابا في بيته ، ثم يجوز أن انقلب
 عند رجوعه إلى بيته غلاما أمرد ، ما قلا متصرفا ، ثم يخلص أن
 لا خوف على مبدأ السببية ، ولا خوف على عقولنا من الخطأ ،
 إذا حكمت على الأمور ، بالاستناد إليه .

الله فاعل العالم :

يناقش الغزالي الفلاسفة الذين يقولون أن للعالم صانعا وأن
 الله هو صانع العالم وفاعله وأن العالم فعله وصلته ، ويرى أن
 هذا تلبيس على أصلهم - بل لا يتصور على مساق أصلهم أن
 يكون العالم من صنع الله ، من ثلاثة أوجه : وجه في الفاعل ،
 ووجه في الفعل ، ووجه في نسبة مشتركة بين الفعل والفاعل .
 أما الذي في الفاعل فهو أنه لا بد وأن يكون مريدا مختارا
 عالما بما يريد ، حتى يكون فاعلا لما يريد ، والله تعالى عندهم

ليس مريدا بل لا صفة له أصلا ، وما يصدر عنه فيلزم منه لزوما ضروريا - والثاني أن العالم قديم والفعل هو الحادث ، والثالث أن الله واحد عندهم من كل وجه ، والواحد لا يصدر منه عندهم الا واحد من كل وجه ، والعالم مركب من مختلفات فكيف يصدر عنه ؟

وبعد هذا العرض يحاول الفزالي أن يبحث وجه كل واحد من هذه الوجوه الثلاثة مع خيالهم في دفعة فيقول في الاول : الفاعل عبارة عن مصدر منه الفعل ، مع الارادة للعقل على سبيل الاختيار ومع العلم بالمراد - وعندهم أن العالم من الله كالمعلول من العلة يلزم لزوما ضروريا لا يلزم من الله دفعه ، لزوم من الشخص والنور من الشمس ، وليس هذا من العقل في شيء . بل من قال أن السراج يفعل الضوء ، والشخص يفعل الظل ، فقد جازف وتوسع في التجاوز توسعا خارجا من الحد ، واستعار اللفظ اكتفاء بوقوع المشاركة بين المستعار له والمستعار عنه في وصف واحد ، وهو أن الفاعل سبب على الجملة والسراج سبب الضوء والشمس سبب النور - ولكن الفاعل لم يسم فاعلا صائما بمجرد كونه سببا بل يكونه سببا على وجه مخصوص ، وهو على وجه الارادة والاختيار ، حتى لو قال القائل : الجدار ليس بفاعل ، والحجر ليس بفاعل ، والجماد ليس بفاعل ، وانما الفعل للحيوان ، لم ينكر ذلك ، ولم يكن قوله كاذبا . وللحجر فعل عندهم وهو الهوى والثقل والميل الى المركز ووقوع الظل ، فان كل ذلك صادر منه ، وهذا محال . فان قيل : كل موجود ليس واجب الوجود بذاته بل هو موجود بفرضه ، فانا نسمي ذلك الشيء مفعولا ، ونسمي سببه فاعلا ، ولا تبالي كان السبب

فاعلا بالطبع أو بالارادة ، كما أنكم لا تبالون أنه كان فاعلا بآلة أو بغير آلة - بل الفعل جنس وينقسم الى ما يقع بآلة وإلى ما يقع بغير آلة ، فكذلك هو جنس وينقسم الى ما يقع بالطبع وإلى ما يقع بالاختيار بدليل أننا إذا قلنا : فعل بالطبع لم يكن قولنا بالطبع ضدًا لقولنا فعل ، ولا دفعا ونقضا له ، بل كان بيانًا لنوع الفعل . كما إذا قلنا فعل مباشرة بغير آلة لم يكن نقضا ، بل كان تنويهاً وبياناً .

وإذا قلنا فعل بالاختيار لم يكن تكرار مثل قولنا : حيوان انسان ، بل كان بيانًا لنوع الفعل كقولنا فعل بآلة ، ولو كان قولنا فعل يتضمن الارادة وكانت الارادة ذاتية للفعل من حيث أنه فعل لكان قولنا فعل بالطبع متناقضًا كقولنا فعل وما فعل . وإذا كان الجهاد لا فعل له ، فهذه التسمية برأي الغزالي خامسة لا يجوز أن يسمى كل سبب بأي وجه كان فاعلا ولا كل مسبب مفعولا ، ولو كان كذلك لما صح أن يقال الجهاد لا فعل له وإنما الفعل للحيوان ، وهذه الكلمات المشهورة المصادقة -

فان سمي الجهاد فاعلا في الاستعارة كما قد يسمى طائيا مريدا على سبيل المجاز ، اذ يقال الحجر يهوي لأنه يريد المركز ويطلبه ، والطلب والارادة حقيقة لا يتصور الا مع العلم بالمراد المطلوب ، ولا يتصور الا من الحيوان . وأما قولكم : ان قولنا فعل عام وينقسم الى ما هو بالطبع وإلى ما هو بالارادة ، غير مسلم وهو كقول القائل : قولنا اراد عام وينقسم الى من يريد ، مع العلم بالمراد وإلى من يريد ولا يعلم ما يريد وهو فاسد ، اذ الارادة تتضمن العلم بالضرورة ، فكذلك الفعل يتضمن الارادة بالضرورة . وأما قولكم : ان قولنا فعل بالطبع ليس ينقض

للاول ، فليس كذلك فانه نقض له من حيث الحقيقة ، ولكن لا يسبق الى الفهم التناقض ولا يشهد نفور الطبع عنه لأنه يبقى مجازا ، فانه لما أن كان سببا بوجه ما والفاعل أيضا سبب سمي فعلا مجازا . وإذا قال فعل بالاختيار فهو تكرير على التحقيق كقوله أراد وهو عالم بما أراد . الا أنه لما تصور أن يقال فعل وهو مجاز ويقال فعل وهو حقيقة لم تنزع النفس من قوله فعل بالاختيار ، وكان معناه فعل فعلا حقيقيا لا مجازيا كقول القائل : تكلم بلسانه ونظر بعينه ، فانه لما جاز أن يستعمل النظر في القلب مجازا والكلام في تحريك الرأس واليد حتى يقال قال برأيه أي نعم ، لم يستقبح أن يقال : قال بلسانه ونظر بعينه ، ويكون معناه نفي احتمال المجاز . فهذا مزية القدم ، فلينبه لحل انخداع هؤلاء الأغبياء فان قيل : تسمية الفاعل فاعلا انما يعرف من اللفة ، والا فقد ظهر في العقل أن ما يكون سببا للشيء ينقسم الى ما يكون مريدا والى ما لا يكون . ووقع النزاع في أن اسم الفعل على كلا القسمين حقيقة أم لا ؟ ولا سبيل الى انكاره ، اذ العرب تقول : الفار تحرق والسيف يقطع ، والثلج يبرد ، والسقمونيا تسهل ، والخبز يشبع ، والماء يروي ، وقولنا يضرب معناه بفعل الضرب ، وقولنا تحرق معناه تفعل الاحتراق ، وقولنا يقطع معناه يفعل القطع . فان قلتم : أن كل ذلك مجاز كنتم متحكمين فيه من غير مستند . ويصل أخيرا الى قولهم : تعني بكون الله فاعلا أنه سبب لوجود كل موجود سواء وأن العالم قوامه به ، ولولا وجود البارئ لما تصور وجود العالم ، ولو قدر عدم البارئ لانعدم العالم ، كما لو قدر عدم الشمس لانعدم الضوء . فهذا ما نعنيه بكونه فاعلا ، فان كان الخصم

يأبى أن يسمى هذا المعنى فعلا فلا مشاحة في الأسافي بعد ظهور المعنى . وغرضنا أن نبين أن هذا المعنى لا يسمى فعلا وصفا ، وإنما المعنى بالفعل والصنع وما يصدر عن الإرادة حقيقة . وقد نفيتم حقيقة معنى الفعل وتطقتم بلفظة تجعل بالاسلاميين ، ولا يتم الدين بإطلاق الألفاظ الفارغة عن المعاني ، فصرحوا بأن الله لا فعل له ، حتى يتضح أن معتقدكم مخالف لدى المسلمين . ولا يلبسوا بأن الله صانع العالم وأن العالم صنعه فإن هذه لفظة أطلقتموها ونفيتم حقيقتها ، ومقصود هذه المسألة الكشف عن هذا التلبيس فقط .

قديم العالم وحلوته عند الفارابي :

ولما كان الفارابي في ملية الفلاسفة المسلمين الذين وقفوا تفكيرهم العقلاني على اظهار الحقائق الكامنة وراء الوجود والموجودات فقد استعق بحق أن يلقيه بالمعلم الثاني - كونه وضع نظاما اجتماعيا ، وفلسفيا ودينيا ، قدوة مثالية للبشرية جمعاء ذو أهداف ومقاصد لا يزال الفكر البشري حتى عصرنا يبحث لجلام غوامضه ، وسير أغواره لاكتشاف رموزه وإشارات، التي أثرت في العقول ، وأخرجتها من حد القوة إلى حد الفعل ومن حيز الجمود والتعصب إلى حيز الانطلاق والتحرر .

والجدير بالملاحظة أن الفارابي قد ناقش آراء أرسطو وأفلاطون بقديم العالم فرد على مزاعمهم قائلا : أن الذي دعى هؤلاء إلى هذا الظن القبيح المستنكر بأرسطو طاليس الحكيم ، هو ما قاله في كتاب « طوييقتا » أنه توجد قضية واحدة بعينها يمكن أن يؤتى على كلا طرفيها قياس من مقدمات دائمة ، مثال

ذلك ، هذا العالم قديم أم ليس بقديم - وقد وجب على هؤلاء المختلفين ، أما أولا فبان ما يؤتى به على مبدئ المثال لا يجري سجري الاعتقاد ، وأيضا فان عرض أرسطو في كتاب « طوبيقا » ليس هو بيان أمر العالم ، لكن غرضه أمر القياسات المركبة من المقدمات الدائمة - وكان قد وجد أهل زمانه يتناظرون في أمر العالم : هل هو قديم أم محدث ، كما كانوا يتناظرون في اللذة ، هل هي خير أم شر ، وكانوا يأتون على كلا الطرفين من كل مسألة بقياسات دائمة * وقد بيثن أرسطو في ذلك الكتاب وفي غيره من كتبه ، أن المقدمة المشهورة لا يراعي فيها الصدق والكذب لأن المشهور ربما كان كاذبا ، ولا يطرح في الجدل لكذبه ، وربما كان صادقا ، فيستعمل لشهرته في الجدل ، ولصدقه في البرهان * فظاهر أنه لا يمكن أن ينسب إليه الاعتقاد بأن العالم قديم بهذا المثال الذي به في هذا الكتاب (١) .

ومما دعاهم الى ذلك الظن أيضا ، ما يذكره في كتاب « السماء والعالم » أن الكل ليس له بدو زمني ، فيظنون عند ذلك أنه يقول بقديم العالم ، وليس الأمر كذلك * إذ قد تقدم فبين في ذلك الكتاب وغيره من الكتب الطبيعية والالهية ، أن الزمان إنما هو عده حركة الفلك ، وعنه يحدث ، وما يحدث عن الشيء لا يشتمل ذلك الشيء * ومعنى قوله : إن العالم ليس بدو زمني * أنه لم يتكون أولا فأولا بأجزائه ، كما يتكون البيت مثلا ، أو الحيوان الذي يتكون أولا فأولا بأجزائه ، فان أجزاءه يتقدم بعضها بعضا في الزمان * والزمان حادث عن حركة الفلك *

(١) الجبع بين رأي الحكيمين : الفارابي ص (١٠٠ - ١٠١) .

فمحال أن يكون لحدوثه بدء زمني - ويصح بذلك أنه إما يكون عن إبداع الباري جل جلاله ، إياه دفعة بلا زمان ، وعن حركته حدث الزمان (١) . ومن نظر في أقاويله في الريبية في الكتاب المعروف « يا ثولوجيا » لم يشبه عليه أمره في إثباته الصانع المبدع لهذا العالم . فإن الأمر في تلك الأقاويل أظهر من أن يخفى . وهناك تبين أن الهوى إبداعها الباري ، جل ثناؤه لا عن شيء ، وأنها تجسدت عن الباري سبحانه ، وعن إرادته ، ثم ترتبت . وقد بين في « السماع الطيبي » أن الكل لا يمكن حدوثه بالبحث والاتفاق ، وكذلك في العالم جملته . يقول في كتاب « السماء والعالم » : يستدل على ذلك بالنظام البديع الذي يوجد لأجزاء العالم بعضها مع بعض .

وقد بين هناك أيضا أمر العلل ، لم هي ، وأثبت الأسباب الفاعلة . وقد بين هناك أيضا أمر المكون والحرك ، وأنه غير المتكون وغير المتحرك . وكما أن أفلاطون بين في كتابه المعروف « بطيماوس » أن كل متكون قائما يكون من علة مكونة له اضطرارا ، وأن المتكون لا يكون علة لكونه ذاته . كذلك أرسطو طاليس بين في كتاب « اثولوجيا » أن الواحد موجود في كل كثرة ، لأن كل كثرة لا يوجد فيها الواحد لا يتناهي أبدا البتة . وبرهن على ذلك براهين واضحة ، مثل قوله أن كل واحد من أجزاء الكثير ، إما أن يكون واحدا وإما أن لا يكون واحدا ، فإن لم يكن واحدا لم يخل من أن يكون أما كثيرا وأما لا شيء . وإن كان لا شيء لزم أن لا يجتمع منها كثرة ، وإن

(١) الجمع بين رأي الحكيمين من (١٠١) .

كان كثيرا فما الفرق بينه وبين الكثرة ؟ ويلزم أيضا من ذلك أن ما يتناهى أكثر مما لا يتناهى ثم يبيّن أن ما يوجد فيه الواحد من هذا العالم فهو لا واحد الا بجهته وجهة ، فإذا لم يكن في الحقيقة واحدا ، بل كان كل واحد فيه موجودا ، كان الواحد غيره وهو غير الواحد - ثم يبيّن أن الواحد الحق هو الذي أقاد سائر الموجودات الواحدية * ثم يبيّن أن الكثير بعد الواحد ، لا محالة * وأن الواحد تقدم الكثرة * ثم يبيّن أن كل كثرة تقرب من الواحد الحق كان أول كل كثرة مما يبعد عنه ، وكذلك بالعكس * ثم يترقى ، بعد تقديمه هذه المقدمات ، إلى القول في أجزاء العالم الجسمانية منها والروحانية ، ويبيّن بيانا شافيا أنها كلها حدثت عن إبداع الباري لها وأنه عز وجل ، هو العلة الفاعلة ، الواحد الحق ، ومبدع كل شيء ، على حسب ما بيّنه أفلاطون في كتبه في « الريوبية » مثل « طيماسوس » و « بوليطا » وغير ذلك من سائر أقاويله وأيضا فإن حروف أرسطوطاليس فيما بعد الطبعة إنما يترقى فيها من الباري جل جلاله ، في حرف اللام ، ثم ينحرف راجعا في بيان صحة ما تقدم من تلك المقدمات ، إلى أن يسبق فيها ، وذلك مما لا يعلم أنه يسبقه إليه من قبله ولم يلحقه من بعده إلى يومنا هذا * فهل تظن بمن هذا سبيله أنه يعتقد نفي الصانع وقدم العالم ؟ -

ومما يلفت النظر إذا غصنا في فلسفة الفارابي الماورائية نراه قد شرح وعلق بأسلوب عرفاني واضح على الهيئات أرسطو وجاءت نظرياته في هذا المجال مطابقة لاهيات أرسطو وأفكاره الماورائية التي ميز فيها بين الماهية والوجود ، ووجود الواجب الوجود المحض ، التام ، المطلق ، ولم يقف نشاطه العرفاني

عند هذا الحد ، يل تعداه الى الوجود الأول فقال : انه موجود بذاته وليس لوجوده سبب ، بل هو السبب لوجود سائر الموجودات ، وهو يرى من جميع أنحاء النقص * من أجل ذلك كان وجوده أقدم الوجود وأفضل الوجود معا * والموجود الأول كان دائما موجودا بالفعل ، ولم يكن قط موجودا بالقوة - أي انه لم يوجد بعد أن لم يكن - وكذلك ليس له أفعال بالقوة - أي أفعال لم تظهر بعد - من أجل ذلك هو أزلي دائم الوجود بجوهره وذاته * ثم هو ليس مادة ، وليس هو في صورة ، لأن الصورة لا تقوم الا في مادة * وكذلك ليس لوجوده غاية ، والا لكانت تلك الغاية أسبق منه في الوجود المطلق ، ولما كان هو موجودا أولا * والموجود الأول مخالف لكل موجود آخر ، فلا يمكن أن يكون شئاً مثله حتى يكون شريكاً له * ثم هو منزه بوجوده وبرتبته لا ضد له * وال ضد عادة يشترك ضده أو يوازيه ، فيبطل ضده مرة ويبطله مرة أخرى ، وما دام هو موجودا ولم يبطله شئ ، فذلك دليل على أن ليس له ضد * والموجود الأول ليس له حد ، أي تعريف دال على ماهيته ، ان الحد في الاصل وصف لأقسام الشئ المراد تعريفه ، فإذا عرفنا تلك الاجسام عرفناه * وبما أن الموجود الأول واحد من كل جهة وليس فيه أقسام فلا يمكن أن يكون له حد أو تعريف * وبما أن الموجود الأول لا يشبهه شئ من الموجودات كان كل ما فيه خاصا به وحده ، ولذلك كانت وحدته عين ذاته وعين وجوده * ثم بما أن وجوده ليس مادة ولا صورة ، فانه عقل بالفعل ، لأن العقل هو الموجود الوحيد الذي لا يحتاج في قوامه الى مادة أو صورة * وبما أنه أيضا مخالف لكل موجود آخر ، فلا يمكن

للموجودات الأخرى أن تدركه . ولا هو محتاج الى أن يدرك شيئا شبيها به من خارجه ليستعين بذلك على ادراك نفسه كما نفعل نحن عادة . ولذلك لا يدركه الا هو - وهذا معنى قولنا : أنه يعقل نفسه - ومثل ذلك قولنا أنه عالم يعلم نفسه . وإذا قلنا أنه حكيم ، فأننا نمني أنه يعلم أفضل الاشياء علما دائما - وهو الحق ، لأن حقيقة الشيء هي الوجود الذي ينصه ، والحق انما هو الموجود من جهة ما هو معقول . ثم هو حي لأنه يعقل الموجودات على ما هي (على نهاية الكمال من الادراك للموجودات) -

غير أننا نحن ندرك الموجود الاول ادراكا ناقصا لضعف قوى عقولنا ، لأن تلك القوى متلبسة بالمادة التي من شأنها أن تلحق بما يتلبس بها نقصا - ومن أجل المادة التي فينا كان جوهرنا بعيدا عن جوهره - ولكن كلما استطعنا أن نكون مفارقين للمادة - بالعلم وبتخلص النفس من أسر الجسد - أصبح ادراكنا للموجودات الأولى أكثر كمالا - ولله عظمة وجلال ومجد هي له بحسب كماله هو ، وفي جوهره نفسه ، إذ لا يوجد خارجه ما هو أعظم منه أو مثله حتى يقارن بينهما - ولذلك يلتد الموجود الأول بنفسه ويعشق ذاته لأن ادراكه لنفسه هو الادراك الاتقن (١) - وهو مبين بجوهره لكل ما سواه ، ولا يمكن أن يكون الوجود الذي له شيء آخر سواه ، لأن كل ما وجوده هذا الوجود لا يمكن أن يكون بينه وبين شيء آخر له أيضا هذا الوجود مباينة أصلا ، ولا تغاير أصلا ، فلا يكون اثنان ، بل يكون هناك ذات واحد فقط ، لأنه ان كانت بينهما مباينة كان

(١) الفارابي : المعينة الماسة ص (٣٨ - ٣٩) .

الذي تباينا به غير الذي اشتركا فيه - فيكون الشيء الذي باين كل واحد منهما الآخر جزءا مما به قوام وجودهما ، والذي اشتركا فيه هو الجزء الآخر - فيكون كل واحد منهما منقسما بالقول ، ويكون كل واحد من جزئيه سببا لقوام ذاته - فلا يكون أولا ، بل يكون هناك موجود آخر أقدم منه هو سبب لوجوده ، وذلك محال .

وان كان ذلك الآخر هو الذي فيه ما باين به هذا ، ولم يكن في شيء باين به ذلك الا بعد الشيء الذي به باين ذلك ، لزم أن يكون الشيء الذي به باين ذلك الآخر هذا هو الموجود الذي يخص ذلك - وجود هذا مشترك لهما ، فاذن ذلك الآخر وجود مركب من شيئين : من شيء يخصه ، ومن شيء يشارك به هذا . فليس اذن وجود ذلك هو وجود هذا ، بل ذات بسيط غير منقسم ، وذات ذلك منقسم . فلذلك اذن جزآن بهما قوامه . فلوجوده اذن سبب ، فوجوده اذن دون وجود هذا وانقص منه . فليس هو اذن من الموجود في الرتبة الأولى . وأيضا فانه لو كان مثل وجوده في النوع خارجا منه بشيء آخر ، لم يكن تام الوجود ، لأن التام هو ما لا يمكن أن يوجد خارجا منه وجود من تنوع وجوده ، وذلك في أي شيء كان ، لأن التام في العظم هو ما لا يوجد عظم خارجا منه ، والتام في الجمال هو الذي لا يوجد جمال من نوع جماله خارجا منه ، وكذلك التام في الجوهر هو ما لا يوجد شيء من نوع جوهره خارجا منه ، وكذلك كل ما كان من الاجسام تاما ، لم يمكن أن يكون من نوعه شيء آخر غيره ، مثل الشمس والقمر وكل واحد من الكواكب الآخر - اذا كان الاول تام الوجود لم يمكن أن يكون ذلك الوجود لشيء آخر غيره - فاذن

هو منفرد الوجود وحده ، فهو واحد من هذه الجهة (١) ، وأيضا فانه لا يمكن أن يكون له ضد ، وذلك يتبين اذا عرف معنى الضد ، وأن الضد مبين للشيء ، فلا يمكن أن يكون ضد الشيء ، هو الشيء أصلا ، ولكن ليس كل سبب هو الضد ، ولا كل ما لم يمكن أن يكون هو الشيء هو الضد ، لكن كل ما كان مع ذلك معاندا ، شانه أن يبطل كل واحد منهما الآخر ويفسده اذا اجتمعا ، ويكون شأن كل واحد منهما أنه أن يوجد حيث الآخر موجود لعدم الآخر ، ويعدم من حيث هو موجود فيه لوجود الآخر في الشيء الذي كان فيه الاول ، وذلك عام في كل شيء يمكن أن يكون له ضد ، فانه ان كان الشيء ضد الشيء في فعله ، لا في سائر أحواله ، فان فعليهما فقط بهذه الصفة ، فان كانا متضادين في كيفيتهما ، فكيفيتهما بهذه الصفة - وان كانا متضادين في جوهرهما ، فجوهرهما في هذه الصفة (٢) .

وان كان الاول له ضد فهو من ضده بهذه الصفة ، فيلزم أن يكون شأن كل واحد منهما أن يفسد وأن يمكن في الاول أن يبطل عن ضده ، ويكون ذلك في جوهره ، وما يمكن أن يفسد ، فليس قوامه وبقاؤه في جوهره ، بل يكون جوهره غير كاف في أن يبقى موجودا ، ولا أيضا يكون جوهره كافيا أن يحصل موجودا ، بل يكون ذلك بغيره ، وأما ما أمكن أن لا يوجد فلا يمكن أن يكون أزليا ، وما كان جوهره ليس بكاف في بقائه أو وجوده ، فلو وجوده أو بقاءه بسبب آخر غيره ، فلا يكون أولا ، وأيضا فان وجوده انما يكون لعدم ضده ، فعدم ضده اذن هو سبب وجوده ، فليس

(١) الفارابي : المعينة للفاصلة ص ٤٠ .

(٢) الفارابي : المعينة للفضيلة ص ٢٢ .

اذن هو السبب الأول على الإطلاق * وايضا فانه يلزم أن يكون لهما أيضا حيث ما مشترك ، قابل لهما حتى يمكن بتلاقيهما فيه أن يعطى كل واحد منهما الآخر ، أما موضوع أو جنس أو شيء آخر غيرهما ، ويكون ذلك ثابتا ، ويتعاقب هذان عليه - فذلك اذن هو أقدم وجودا من كل واحد منهما *

وان وضع واضع شيئا ما هو بهذه الصفة ضد الشيء ، فليس الذي يضعه ضد ، بل مباينا مباينة الضد ، ونحن لا ننكر أن يكون للأول مباينات آخر سوى مباينة الضد وسوى ما يوجد وجوده * فاذن لم يمكن أن يكون موجود ما في مرتبة وجوده ، لأن الضدين هما في رتبة واحدة من الوجود * فاذن الاول منفرد بوجوده ، لا يشاركه شيء آخر أصلا موجود في نوع وجوده - فهو اذن واحد * وهو مع ذلك منفرد أيضا برتبته وحده * فهو أيضا واحد من هذه الجهة *

وبعد هذا العرض الشيق حول الموجود الاول وكونه مغالف لكافة الموجودات العلوية والسفلية يرى الفارابي أن وحدته هي عين ذاته ، وأنه حق وحى وحياة فيقول : « فان وجوده الذي به يتعاز عما سواه من الموجودات لا يمكن غير الذي هو به في ذاته موجود » * فلذلك يكون انحيازه عن ما سواه توحيده في ذاته * وان أحد معاني الوحدة هو الوجود الخاص الذي به يتعاز كل موجود عما سواه ، وهي التي بها يقال لكل موجود واحد من جهة ما هو موجود الوجود الذي يخصه ، وهذا المعنى من معاني الواحد يساوق الموجود الاول * فالأول أيضا بهذا الوجه واحد، وأحق من كل واحد سواه باسم الواحد ومعناه (١) *

(١) للفارابي : المحيطة الغائصة ص (٦٦ - ٦٧) .

ولأنه ليس بمادة ، ولا مادة له بوجه من الوجوه ، فإنه بجوهره عقل بالفعل . لأن المانع للصورة أن تكون عقلا وأن تعقل بالفعل ، هو المادة الذي يوجد فيها الشيء . فمضى كان الشيء في وجوده غير محتاج إلى مادة ، كان ذلك الشيء بجوهره عقلا بالفعل : وتلك حال الأول ، فهو إذن عقل بالفعل ، وهو أيضا معقول بجوهره . فإن المانع أيضا للشيء أن يكون بالفعل معقولا هو المادة ، وهو معقول من جهة ما هو عقل ، لأن الذي هو يته عقل ليس يحتاج في أن يكون معقولا إلى ذات أخرى خارجة عنه تعقله ، بل هو بنفسه يعقل ذاته ، فيصير بما يعقل من ذاته عاقلا وعقلا بالفعل ، وبأن ذاته تعقله يصير معقولا بالفعل . وكذلك لا يحتاج في أن يكون عقلا بالفعل وعاقلا بالفعل إلى ذات يعقلها ويستفيد بها من خارج ، بل يكون عقلا وعاقلا بأن يعقل ذاته . فإن الذات التي تعقل هي التي تعقل ، فهو عقل من جهة ما هو معقول ، فإنه عقل وأنه معقول وأنه عاقل . هي كلها ذات واحدة وجوهر واحد غير منقسم . فإن الإنسان مثلا معقول وليس المعقول منه معقولا بالفعل ، بل كان معقولا بالقوة ثم صار معقولا بالفعل بعد أن عقله العقل .

فليس إذن المعقول من الإنسان هو الذي يعقل ، ولا العقل منه أبدا هو المعقول . ولا عقلنا نحن من جهة ما هو عقل هو معقول ، ونحن عاقلون لا بأن جوهرنا عقل ، فإن ما نعقل ليس هو الذي به تجوهرنا ، فالأول ليس كذلك ، بل العقل والعاقل والمعقول فيه معنى واحد ، وذات واحدة ، وجوهر واحد غير منقسم . وكذلك الحال في أنه عالم . فإنه ليس يحتاج في أن يعلم إلى ذات أخرى يستفيد بعلمها الفضيلة خارجة عن ذاته ،

ولا في أن يكون معلوما إلى ذات أخرى تعلمه ، بل هو مكتشف بجوهره في أن يعلم ويعلم * وليس علمه بذاته شيئا سوى جوهره فإنه يعلم وأنه معلوم وأنه علم ، فهو ذات واحدة وجوهر واحد * وكذلك في أنه حكيم * فإن الحكمة هي أن العقل فضل الأشياء بأفضل علم ، وبما يعقل من ذاته ويعلمه يعلم أفضل الأشياء - وأفضل العلم هو العلم الدائم الذي لا يمكن أن يزول ، وذلك هو علمه بذاته - وكذلك بالنسبة في أنه حق ، وأنه حي - - فإن الحركة والزمان واللانهاية والعلوم وأشياءها من الموجودات ، فالمعقول من كل منها في نفوسنا معقول ناقص ، إذ كانت هي في أنفسها موجودات ناقصة الوجود - والعدد والثالث والمربع وأشياءها فمعقولاتها في أنفسنا أكمل لأنها هي في أنفسها أكمل وجودا ، فلذلك كان يجب في الأول ، إذ هو في الغاية من كمال الوجود ، أن يكون المعقول منه في نفوسنا على نهاية الكمال أيضا - ونحن نجد الأمر على غير ذلك ، فينبغي أن تعلم أنه من جهته غير محتاس الإدراك ، إذ كان في نهاية الكمال ، ولكن لضعف عقولنا نحن وللاستعانة بالمادة والعدم ، يعتاس إدراكه ، ويعسر علينا تصوره ، ونضعف من أن نعقله على ما هو عليه وجوده *

كذلك قياس السبب الأول والحق الأول ، وعقولنا نحن - ليس تنقص معقولة عندنا لنقصانه في نفسه ، ولا عسر إدراكنا له لمسه في وجوده ، لكن لضعف قوى عقولنا نحن عسر تصوره * ويلاحظ مما تقدم أن المفارابي يبين فلسفته الماورائية على أنه من الثابت من وجود الموجودات ، لا بد من وجود كائن واجب الوجود ، ووجود ذاته ، ووجوده علة وجود كافة الموجودات ،

العلوية والسفلية ، وهذا ما يسميه السبب الاول ، والعقل الاول ، والموجود الاول بذاته ، الذي يمد ولا يستمد .

الفيض والابداع بمفهوم الفارابي :

يصور لنا الفارابي فلسفيا وعقلانيا كيفية صدور الموجودات عن الموجود الاول في عالم الابداع ، يمد أن يجعل الموجود الاول ، السبب الاول لوجود سائر الموجودات ، لأنه يرى من جميع أنحاء التقص باعتبار وجوده أفضل الوجود وأقدم الوجود ، لذلك لا يمكن أن يشوب وجوده وجوهه عدم أصلا . ولهذا كانت كافة الموجودات التي أوجدها أقل منه كمالات . ولما كانت هذه الموجودات مكونة من عناصر متنوعة وجب أن تكون متفاوتة بالدرجة والكمال .

ويرى الفارابي أن الموجودات تصدر عن الاول من جهة الفيض وجوده . لأن الموجود يفيض فيضا ضروريا إلا أنه ليس لغاية ، لأن الخالق لم يوجد لأجل غيره ، بل أن هذا الابداع جود منه ، فالوجود يصدر عنه ، كما يصدر النور عن الشمس ، والحرارة عن النور ، بموجب ترتيب معين وترايط وثيق معكم . ومتى وجد الاول الوجود الذي له ، لزم ضرورة أن يوجد عنه سائر الموجودات .

ومن ثم يأتي دور مراتب الموجودات التي فاضت عن الموجود الاول فترتبها الفارابي كما يلي : « و يفيض عن الاول وجود الثاني ، فهذا الثاني هو أيضا جوهر غير متجسم أصلا ، ولا هو في مادة ، فهو يعقل ذاته ويعقل الاول ، فيما يعقل من الاول يلزم

عنه وجود ثالث ، وبما هو متجوهر بذاته التي تخصه يلزم عنه وجود السماء الأولى * ثم يستمر الفيض عند الفارابي على هذه الصورة ، فيوجد عن العقل الثالث كرة الكواكب الثابتة ، وعن العقل الرابع كرة زحل ، وعن العقل الخامس كرة المشتري ، وعن العقل السادس كرة المريخ ، وعن العقل السابع كرة الشمس ، وعن العقل الثامن كرة الزهرة ، وعن العقل التاسع كرة عطارد ، وعن العقل العاشر كرة القمر .

ومند كرة القمر ينتهي فيض الأجسام السماوية ، أو الموجودات المطلقة التي لا تقع تحت تأثير عالم الكون والفساد ، لأن السماء الأولى هي أعلى الأفلاك ، وكرة القمر أدناها ، وجميع هذه الأفلاك محيطة بالارض ، والارض ثابتة بالمركز - وأما بقية الموجودات التي تكون دون فلك القمر فلا تكون كاملة ، بل تترقى صعودا وتبلغ كمالا قاصرا على طبيعة كل نوع من أنواعها .

وأدنى الموجودات التي هي دون فلك القمر عند الفارابي الهيولى التي لا صورة لها ، وفوقها العناصر الأربعة ، ثم الجهاد ، ويليه النبات ، فالحيوان البهيم ثم الحيوان الناطق ، الذي هو الانسان * ومن امتزاج النفس البشرية بالشكل والمادة المعنوية خرج الكون الحسي والانسان والحيوان والنبات والجهاد ، وهي كلها تتألف من العناصر الأولية الأربعة التي دارت عليها علوم جميع الفلاسفة القدماء وهي : التراب ، والهواء ، والماء ، والنار .

ولا يد لنا من الاستماع الى الفارابي وهو يتحدث عن كيفية صدور جميع الموجودات عن الموجود الأول فيقول : * والأول

هو الذي عنه وجد - ومتى وجد للأول الوجود الذي هو له ، لزم ضرورة أن يوجد عنه سائر الموجودات التي وجودها لا بإرادة الانسان واختياره ، على ما هي عليه من الوجود الذي يعضه مشاهد بالحس وبعضه معلوم بالبرهان * ووجود ما يوجد عنه انما هو على جهة فيض وجوده لوجود شيء آخر ، وعلى أن وجود غيره فائض عن وجوده هو * لمعنى هذه الجهة لا يكون وجود ما يوجد عنه سببا له بوجه من الوجوه ، ولا على أنه غاية لوجود الأول ، كما يكون وجود الابن - من جهة ما هو ابن - غاية لوجود الأبوين - من جهة ما هما أبوان - يعني أن الوجود الذي يوجد عنه يفيد كمالا ما ، كما يكون لنا ذلك عن جل الاشياء التي تكون منا ، مثل انا باعطائنا المال لغيرنا نستفيد من غيرنا كرامة أو لذة أو غير ذلك من الخيرات ، حتى تكون تلك فاعلة منه كمالا ما .

فالأول ليس وجوده لأجل غيره ، ولا يوجد بغيره ، متى يكون الفرض من وجوده أن يوجد سائر الاشياء ، فيكون لوجوده سبب خارج عنه ، فلا يكون أولا ، ولا أيضا باعطائه ما سواه الوجود ينال كمالا لم يكن له قبل ذلك خارجا عما هو عليه من الكمال ، كما يقال من وجود بحاله أو شيء آخر ، فيستفيد بما يبذل من ذلك لذة أو كرامة أو رئاسة أو شيئا من غير ذلك من الخيرات ، فهذه الاشياء كلها محال أن تكون في الاول ، لأنه يسقط أوليته وتقدمه ، ويجعل غيره أقدم منه وسببا لوجوده ، بل وجوده لأجل ذاته ، ويلحق جوهره ووجوده ويتبعه أن يوجد عنه غيره * .
 فذلك وجوده الذي به فاض الوجود الى غيره هو في جوهره ، ووجوده الذي به تجوهره في ذاته ، هو بعينه وجوده الذي به

يحصل وجود غيره عنه ، وليس ينقسم الى شيئين ، يكون بأحدهما
تجوهر ذاته وبالأخر شيء آخر عنه ، كما أن لنا شيئين متجوهر
بأحدهما ، وهو النطق ، ونكتب بالأخر ، وهو صناعة الكتابة ،
بل هو ذات واحدة وجوهر واحد ، به تكون تجوهره وبه بعينه
يحصل عنه شيء آخر (١) .

ثم ينتقل الفارابي الى التحدث في مراتب الموجودات فيقول :
« الموجودات كثيرة ، وهي مع كثرتها متفاضلة » وجوهره جوهر
بفيض منه كل وجود كيف كان ذلك الوجود ، كان كلاما أو
ناقصا - وجوهره أيضا جوهر ، اذا فاضت منه الموجودات كلها
بترتيب مراتبها ، حصل عنه لكل موجود قسطه الذي له من
الوجود ومرتبته منه . فيبتدئ من أكملها وجودا ثم يقلو ما
هو أنقص منه قليلا ، ثم لا يزال بعد ذلك يقلو الأنقص الى أن
ينتهي الى الموجود الذي ان تغطي عنه الى ما دونه تغطي الى ما
لم يمكن أن يوجد أصلا ، فتقطع الموجودات من الوجود - ويان
جوهرة جوهرها بفيض منه الموجودات من غير أن ينقص بوجود
دون وجوده - فهو جواد ، وجوده هو في جوهره ، ويشترتب عنه
الموجودات ، ويحصل لكل موجود قسطه من الوجود بحسب رتبته
عنه ، فهو عدل ، وعدالته في جوهره ، وليس ذلك لشيء خارج
عن جوهره - وجوهره أيضا جوهر ، اذا حصلت الموجودات مرتبة
في مراتبها ، أن يأتلف ويرتبط وينتظم بعضها مع بعض ، اتلافا
وارتباطا وانتظاما تصير بها الاشياء الكثيرة جملة واحدة ،
وتحصل كشيء واحد (٢) .

(١) الفارابي : الحديقة الفاضلة - ص (٥٥ - ٥٦) .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٨ .

وبعد هذا الشرح المبسط يصف الفارابي الموجودات الثواني
وكيفية صدور الكثير ، فيقول : « يفيض من الاول وجود
الثاني » فهذا الثاني هو أيضا جوهر غير متجسم أصلا ، ولا هو
في مادة * فهو يعقل ذاته ويعقل الاول ، وليس ما يعقل من
ذاته هو شيء غير ذاته * فبما يعقل من الاول يلزم عنه وجود
ثالث ، وبما هو متجوهر بذاته التي تخصه يلزم عنه وجود
السام الأولى *

والثالث أيضا وجوده لا في مادة ، وهو بجوهره عقل * وهو
يعقل ذاته ويعقل الاول * فبما يتجوهر به من ذاته التي تخصه
يلزم عنه وجود كرة الكواكب الثابتة ، وبما يعقله عن الاول
يلزم عنه وجود رابع * وهذا أيضا لا في مادة ، فهو يعقل ذاته
ويعقل الاول * فبما يتجوهر به من ذاته التي تخصه يلزم عنه
وجود كرة زحل ، وبما يعقله من الاول يلزم عنه وجود خامس *
وهذا الخامس أيضا وجوده لا في مادة ، فهو يعقل ذاته ويعقل
الأول * فبما يتجوهر به من ذاته يلزم عنه وجود كرة المشتري ،
وبما يعقله من الاول يلزم عنه وجود السادس وهذا أيضا وجوده
لا في مادة ، وهو يعقل ذاته ويعقل الاول * فبما يتجوهر به من
ذاته يلزم عنه وجود كرة المريخ ، وبما يعقله من الاول يلزم
عنه وجود سابع * وهذا أيضا وجوده لا في مادة ، وهو يعقل
ذاته ويعقل الاول * فبما يتجوهر به من ذاته يلزم عنه وجود
كرة الشمس ، وبما يعقل من الاول يلزم عنه وجود ثامن *
وهو أيضا وجوده لا في مادة ، ويعقل ذاته ويعقل الاول * فبما
يتجوهر به من ذاته التي تخصه يلزم عنه وجود كرة الزهرة ،
وبما يعقل من الاول يلزم عنه وجود تاسع * وهذا أيضا وجوده

لا في مادة ، فهو يعقل ذاته ويعقل الاول - فبما يتجوهر به من ذاته يلزم عنه وجود كرة عطارد، وبما يعقل من الاول يلزم عنه وجود حاشر * وهذا أيضا وجوده لا في مادة ، وهو يعقل ذاته ويعقل الاول ، فبما يتجوهر به من ذاته يلزم عنه وجود كرة القمر ، وبما يعقل من الاول يلزم عنه وجود حادي عشر * وهذا الحادي عشر هو أيضا وجوده لا في مادة ، وهو يعقل ذاته ويعقل الاول . ولكن عنده ينتهي الوجود الذي لا يحتاج ما يوجد ذلك الوجود الى مادة وموضوع أصلا * وهي الأشياء المفارقة التي هي في جواهرها عقول ومعقولات * وعند كرة القمر ينتهي وجود الاجسام السماوية ، وهي التي بطبيقتها تتحرك دورا (١) *

ابن رشد وحدوث العالم :

ولما كانت مشكلة حدوث العالم من المشاكل الأساسية التي عالجها حكماء المسلمين كل حسب مفهومه لهذه المشكلة الحساسة فمن الطبيعي أن ينبري فيلسوف حكيم وعالم تحرير مثل ابن رشد فيكوكب أفكاره ويطلق تأملاته العقلانية ليبعث بهذه المشكلة بأسلوب عقلاني يدل على طول بابه في أمثال هذه المواضيع الشائكة التي لا تزال موضع خلاف بين أكثر المفكرين *

وابن رشد من جانبه يجعل القرآن نبراسه في الاستدلال على حدوث العالم وبقيّة المشاكل الماورائية وهو يرى أن القرآن بصفة خاصة أهاب بنا في آيات كثيرة الى ضرورة معرفة العالم وفهمه ، حتى نصل من هذه المعرفة الى أنه صنع صانع حكيم

(١) الفراهي : المدينة الفاضلة - ص ٩٢ .

هو الله جلّت حكمته • ولم يفضّل ابن رشد عن نقد طريقة المتكلمين الأشاعرة لاثبات هذه العقيدة مؤكداً أنها ليست الطريقة الشرعية الحقة التي أشار القرآن إليها وأنها مع هذا لا تصلح للحكام لأنها ليست يقينية • ولا تصلح للجمهور لأنها ليست بسيطة قليلة المقدمات التي تكون نتائجها قريبة من المقدمات المعروفة بنفسها • باعتبار أن أسلوب هؤلاء القوم لاثبات حدوث العالم تقوم على القول بتركيب الاجسام من أجزاء لا تتجزأ ، وأن الجزء الذي لا يتجزأ محدث • والاجسام محدثة بحدوثه • ومسلكهم في بيان حدوث الجزء الذي لا يتجزأ والذي يسمونه الجوهر الفرد طريقة عقيمة صعبة تذهب على كثير من أهل الرياضة في صناعة الجدل فضلاً عن الجمهور ، ومع ذلك فهي طريقة غير برهانية ولا تقود يقيناً الى وجود الباري (١) • ولا ندري اذا كانت هذه الطريقة برأي ابن رشد لا تصلح وليست يقينية ماهية الطريقة التي يراها تقود الى اثبات وجود العالم عن الله تعالى • ان هذه الطريقة هي التي نبه الكتاب العزيز عليها ، ودعا الكل من خلالها • واذا تعمقنا في فحوى الكتاب العزيز وجدناها تنحصر في نوعين : أحدهما طريق الوقوف على العناية بالانسان وخلق جميع الموجودات من أجله ، ولنتعبر هذا دليل العناية •

والطريقة الثانية ما يبدو من اختراع جواهر الاشياء الموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد ، والادراكات الحسية ، والعقل • ولنتعبر هذا دليل الاختراع (٢) •

(١) فلسفة ابن رشد من ٢٠ •

(٢) الكشف صفحة ٢٥ •

ومن الملاحظ أن ابن رشد عندما يتحدث عن دليل العناية يرى بأن هذا الدليل قطعي وبسيط ، وذلك لأن ميثاء على أصليين معترف بهما عند الجميع : أحدهما أن العالم بجميع أجزائه يوجد موافقا في جميع أجزائه لوجود الانسان ولوجود جميع الموجودات ، والاصل الثاني أن كل ما يوجد منسجما في جميع أجزائه لتعمل واحد ، وموجها نحو غاية واحدة ، فهو مصنوع ضرورة ، فيستج من هذين الأصلين بالطبع أن العالم مصنوع وأن له صانعا أي أنه محدث لا قديم (١) ، وهذا النوع من الاستدلال هو النوع الموجود في القرآن ، وهذا حق مصدق كما يرى ابن رشد وذلك ظاهر في آيات كثيرة ، يلفتنا القرآن بها الى ضرورة النظر في العالم وفي سائر الموجودات ليتأكد لنا أنها من خلق اله حكيم في صنعه -

ويعتمد ابن رشد على آيات كثيرة منها قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا ، وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ، ونبتنا فوقكم سبعا شذادا ، وجعلنا مناجا وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماء لجاجا، لتخرج به حبا ونباتا، وجنتات الفافا (٢) » .

ومن الطبيعي أن يلتفت ابن رشد الى هذه الآيات التي اذا تأملها الانسان وجد فيها التنبيه على موافقة أجزاء العالم لوجود الانسان ، وذلك أنه تعالى ابتدأ فتيه على أمر معروف بنفسه لنا معشر الناس الابيض والاسود ، وهو أن الارض خلقت

(١) فلسفة ابن رشد ص ٨٣ .

(٢) سورة النبا : من آية ٦ الى ١٦ .

بصفة يتأتى لنا المقام عليها ، وانها لو كانت بشكل آخر غير شكلها ، أو في موضع آخر غير الموضع الذي هي فيه ، أو بقدر آخر غير هذا القدر لما أمكن أن نخلق عليها ولا أن نوجد فيها . وهذا كله محصور في قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهادا » . وذلك أن المهاد يجمع الموافقة في الشكل والسكون والموضع وزائدا إلى هذا معنى الوثارة واللين ، فما أعجب هذا الإعجاز ! وقد نبه الله قائلا : « والجبال أوتادا » يعني أن المنفعة الموجودة في سكون الأرض بسبب الجبال ، فانها لو كانت أصغر مما هي لتزعزعت من حركات الماء والهوام وخرجت من موضعها ، ولهلك ما عليها من الحيوان ضرورة واذن انسجام سكونها لما عليها من الموجودات لم يكن بالاتفاق ، ولكن من قصد قاصد وإرادة مريد ، فهي ضرورة مصنوعة بذلك المقاصد سبحانه وموجودة على الصفة التي قدرها .

أما قوله تعالى : « وجعلنا الليل لباسا والنهار معاشا » ليس سوى تنبيهها على موافقة الليل والنهار للحيوان والنبات ، إذ يسترها من حرارة الشمس كما يستر اللباس الجسد ويقيه شدة الحرارة ، ومع هذا فالليل يجمل كل ما فيه حياة يستغرق في النوم ، ولذلك قال : « وجعلنا نومكم سباتا » أي متواصلا بسبب الظلام . ثم قال : « وبثينا فوقكم سيبا شدا » أي السنوات التي عبر عنها بلفظ البنيان عن معنى الاختراع لها ، وكذلك عن معنى ما فيها من نظام واتفاق لما خلقت من أجله ، عبر بلفظ الشدة عما جمل فيها من القوة على الحركة الدائبة الدائمة ، فليس هناك خوف من أن تخر كما تخر السقوف والمباني العالية وهذا كله تحذير من الخالق على موافقة

السموات والافلاك وسائر ما فيها ، في أعدادها وأشكالها وأوضاعها وحركاتها لوجود ما على الأرض وما حولها ، حتى أنه لو وقف جرم من الاجرام السماوية لحظة واحدة ، فضلا عن أن تنف كلها ، لفسد ما على وجه الأرض - ونبه بقوله « وجعلنا سراجا وهاجا » على منفعة الشمس بخاصة وموافقتها لوجود ما على الأرض ، إذ لولا الضوء لما انتفع الانسان والحيوان بحاسة البصر ، ونبه على هذه المنفعة لأنها أشرف منافع الشمس وأظهرها - ثم يقول « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا » ليعرج به حبا ونباتا ، وجنات الفافا ، وبذلك نبه الخالق سبحانه وتعالى على العناية في نزول المطر ، وأنه ينزل لمكان الحيوان والنبات ، وأن نزوله لهذا بقدر محدود وفي أوقات محدودة لا يمكن أن يكون عن مصادفة ، بل سبب ذلك العناية الالهية بالأرض وما عليها .

ويلاحظ أن ابن رشد قد استدل بتلك الآيات على أن العالم صنع من صنع الله وخلق من خلقه ، وذلك بدليل يفهمه الناس جميعا وتؤمن له عقولهم وقلوبهم ، كما وأننا نراه يقرر أن العالم محدث عن ارادة قديمة ، وأنه خلق من لا شيء وفي غير زمان ، أمر لا يمكن أن يتصوره العلماء فضلا عن الجمهور ، ويوقع في شبهة عظيمة تقسد عقائد الجمهور وبخاصة أهل الجدل منهم -

ولذلك كان أهل علم الكلام يصنعهم بهذه المسألة ويقولهم أن العالم محدث عن ارادة الله القديمة ليسوا من الطعام الناجين بما وصلوا اليه من العلم البرهاني الميقيني الذين هم أهل له ،

ولا من الجمهور الذين مبعادتهم (١) في اتباع الظاهر وما سمح به الشارع ، بل هم من الذين في قلوبهم زيغ ومرض .

معرفة الله عند ابن رشد :

قبل أن يقدم ابن رشد الأدلة الشرعية الصالحة الخاصة بمعرفة الله ووجوده يعرض الى أدلة رجال علم الكلام الأشاعرة عليها ، ثم يتبعه بطريقة المتصوفة في الاستدلال وينقد كلا من الطريقتين - ودليل الأشاعرة الذي يذهب الى أن العالم حادث ، وكل حادث لا بد له من محدث ، وهذا المحدث هو الله - وهذه الطريقة كما يراها ابن رشد ، ليست هي الطريقة الشرعية التي نيه الله عليها ، ودعا الناس للايمان من قبلها ، وهذا لما في اثبات كل هذه المقدمات من شكوك ليس في قوة صناعة الكلام الخروج منها ، كما بيّن ذلك بشيء من التعلويل .

وأما الطريقة الصوفية فاتها لا تقوم على النظر بالعقل في العالم الموجود للاستدلال منه على الله موجوده ، ولكنها تقوم على الذوق وحده . وهذه الطريقة كما يرى ابن رشد ليست للناس بما هم ناس ، ولو كانت هي المقصودة لبطل النظر العقلي الذي دعا القرآن اليه ونبه على طريقه .

وطالما أن الدليلين المذكورين لم يقبل بهما ابن رشد لمعرفة الله ووجوده فمن البديهي أن يتجه نهج السبيل الذي نيه القرآن نفسه اليه ، وهو ينحصر في دليلين : دليل العناية الذي يقوم على أن جميع الموجودات موافقة لوجود الانسان وسائر ما على وجه

(١) فلسفة ابن رشد ص ٩١ .

الأرض من حيوان ، فهي إذن من قبل فاعل قاصد مريد لذلك .
ثم يعتمد على دليل الاختراع الذي يقوم على أن كل شيء من
السموات والحيوان والنبات مخترع ، وذلك بدليل المشاهدة في
هذين ، وبدليل حركات السموات التي تؤذن بأنها مسخرة لنا ،
وكل ما كان كذلك فهو مخترع حيثما وكل مخترع له مخترع
ضرورة ، فيصح من هذين الأصلين أن العالم مخترع . . .

الالهيات عند ابن سينا :

يشتم من خلال أبحاث ابن سينا العديدة في العلم الإلهي
المأثوراتي أنه وجه مناهة فائقة خاصة إلى الله سبحانه وتعالى
وأكد عن طريق البحث أنه واحد وليس سبباً لوجود بعض
الموجودات فقط . بل هو سبب لوجود المعلول كله ، أي أنه
الوجود بمجموعه . وهو تام بذاته ، كل ما يليق به وكل ما يمكن
أن يكون له موجود فيه منذ الأزل ، بسيط لا يتكثر ولا يتجزأ ،
إذ أنه لا بجسم ولا مادة ولا صورة ، واجب الوجود بنفسه ، لا علة
له ، ولا شريك ولا ضد ، ولذلك كان واحداً ، وهو سبب الحركة
في العالم ، وهو يعلم أوائل الموجودات منذ الأزل .

وعالج ابن سينا في مؤلفاته الفلسفية قضية واجب الوجود
وممكن الوجود ، وذكر الخلاف بين رجال الدين وبين الفلاسفة
حول هذين المدركين : ففي الدين واجب الوجود هو الله وحده .
وممكن الوجود كل شيء غير الله سواء أكان ذلك الشيء موجوداً
بالفعل ، أو لم يكن قد وجد بعد . لأن الدين يرى أن الموجودات
كلها ممكنة الوجود ، لأن الله تعالى كان بإمكانه ألا يوجدها لو
أراد ، ثم أنه بإمكانه أن يعدمها بعد أن أصبحت موجودة . أما

الفلاسفة فيرون كما يرى رجال الدين أن واجب الوجود بنفسه هو الله - وواجب الوجود بالله هو مجموع المسالم بمادته وصورته - وواجب الوجود بنيره هو كل شيء موجود في عالمنا بالفعل ، فالأبن مثلا واجب الوجود بأبيه ، والطاولة واجبة الوجود بالتجار ، والسيف واجب الوجود بالحداد -

وأما ممكن الوجود فهو كل شيء لم يوجد بعد ، كالناس الذين سيولدون ، والطاولات التي لم تصنع بعد ، فإذا صنعت تلك الطاولات أصبحت واجبة الوجود - ويعتقد ابن سينا أن نهاية الله بالعالم كلية ، أي أن الله خلق هذا العالم حسب نظام حكيم ثم جعل كل موجود مخصوصا بعمل * فكل ما يجري في عالمنا يجري على نظام ويقصد به تحقيق عمل ، تلك العناية الالهية * وليس معنى العناية اكرام شخص دون شخص أو نكر دون نكر بتبديل القوانين الطبيعية حبا لبعضهم أو نصرة لبعضهم على بعض - وليس في نظام العالم الطبيعي غير مطلق أو شر مطلق ، وإنما يكون الخير أو الشر بالاضافة اليها : فالعسى مثلا يكون في العين وله أسباب طبيعية * فإذا أصيبت العين بحجر قاس أو بمرض متلف فلا بد من أن تحدث فيها النتائج التي تتعلق بأصايتها بالحجر أو بالمرض -

وحول علم الله يرى ابن سينا أن علمنا نحن البشر ، نتيجة للحوادث التي تتأثر بها حواسنا ، أما علم الله فهو سبب تلك الحوادث * ان علم الله كلي كتقدير النتائج التي تحصل أو ستحصل من جريان القوانين الطبيعية في عالمنا * نحن لا نعلم بالكسوف الا اذا حسبناه لكل كوكب بمفرده ، أما الله فانه يعلم

كل كسوف وقع أو سيقع منذ الأزل لأنه عالم بالقوانين التي يجري بها الكسوف .

أما الجزئيات كالكسوف الذي حصل في يوم كذا من سنة كذا فالله لا يعلمها يوم تقع ، لأنه كان عالما أيضا أنها ستقع ، ومنذ الأزل : أنه لا يعلمها لأنها وقعت كما نعلمها نحن ، بل يعلمها منذ الأزل ، لأنها نتيجة حتمية للقوانين التي هو خلقها ووضعها (١) .

الفيض عند ابن سينا :

اعتقاد ابن سينا حول الفيض الالهي وخلق العالم لا يختلف كثيرا عن اعتقاد الفارابي وغيره من حكماء الاسماعيلية ، فهو يرى أن الواجب الوجود بنفسه ، الذي هو الخير الأول ، الأول في الوجود ، الموجود الأول ، الحق الأول ، العلة الأولى . واحد ، وهو عقل محض ، ليس بصورة ولا مادة ولا جسما ، يجب أن يعقل أنه يلزمه وجود الكل ، أي وجود هذا العالم عنه ، وأنه مبدأ لنظام الخير في هذا الوجود . وليس في ذلك ما يمنع أن يصدر هذا الوجود منه ، ولا أن يكره هو ذلك ، ثم إن الله الواحد القديم القادر العالم الحكيم الجواد يحب أن تظهر قدرته وعلمه وحكمته ووجوده . وبما أن الله أيضا هو العلة الأولى ، فلا بد من أن يكون ثمة معلول عنه ، وإلا لما كان علة .

من أجل ذلك صدر عن الأول عقل واحد بالعدد ، لأنه

(١) تاريخ الفكر العربي : ص ٣٢٩ .

لا يصدر عن الواحد الا واحد . وبما أن هذا العقل قد فاض
عن الله فانه يشبه الله من جانب ، ولكنه يخالف الله من جانب
آخر ، لأنه معلول عن الله ومتأخر عنه بالذات ، ولذلك كان
صورة لا في مادة . وهذا المعلول الاول عن العقل المحض هو
الثاني في الوجود وأول العقول المفارقة ، ويشبه أن يكون المبدأ
المحرك للجرم الأقصى على سبيل التشويق . وفي هذا العقل يبدأ
التكثير أنه يعقل ذاته ثم يعقل الاول ضرورة ، هذا الاثنينية في
الوجود الثاني هو سبب التكثير في الفيوضات التالية . ان هذا
العقل يصدر عنه ثلاثة موجودات : يعقل الاول فيلزم عنه
(يفيض منه ضرورة) عقل ثان ، هو الثالث في مرتبة الوجود ،
ثم يعقل ذاته وهنا يبدأ التكثير بالتنوع ، فيلزم عنه شيان :
وجود صورة الفلك الأقصى وكمالها ، وهي النفس ، وبما أن
الصورة لا تظهر بلا مادة ، فان الصورة تتوسط العقل الذي
صدرت هي منه ، أو تشاركه في ايجاد المادة . ثم يستمر الفيض
متسلسلا هبوطا على نمط السابق ، عقلا مفارقا وصورة فلك
وجرما فلكيا حتى تصبح الفيوضات كلها عشرة ، هي بعد الوجود
الأول الله :

- ١ - العقل المفارق الأول - المعلول الأول .
- ٢ - العقل المفارق الثاني - ومعه الفلك الأقصى الذي يحرك
العالم .
- ٣ - العقل المفارق الثالث - ومعه فلك الكواكب الثابتة
فلك النجوم .
- ٤ - العقل المفارق الرابع - ومعه فلك زحل .
- ٥ - العقل المفارق الخامس - ومعه فلك المشتري .

- ٦ - العقل المفارق السادس - وهو فلك المريخ
- ٧ - العقل المفارق السابع - ومعه فلك الشمس *
- ٨ - العقل المفارق الثامن - ومعه فلك الزهرة *
- ٩ - العقل المفارق التاسع - ومعه فلك عطارد *
- ١٠ - العقل المفارق العاشر - وهو العقل الفعال ، ومعه فلك القمر *

وهنا يقف فيض المقول ، ولكن يفيض من العقل الفعال عالم ما دون فلك القمر ، أو تحت فلك القمر ، وهو عالمنا الذي نعيش فيه ، وهو عالم الكون والفساد ، الذي تتكون فيه الأجسام وتتفرق *

ومن العقل الفعال تفيض العناصر الاربعة ، ثم تتركب من العناصر الاربعة ، بنسب مختلفة ، أجساما * وتتطور تلك الاجسام صعودا من الجماد الى النبات فالحيوان البهيم فالانسان * والله سبحانه وتعالى لا يقبل أن يفيض الا الخير ، ولكن الشر الموجود في العالم قد أفاض بالعرض (١) - ان الله سبب وجود العالم فالعالم محدث ، لأن له حلة سابقة عليه * ولكنه في الوقت نفسه قديم لأنه فاض عن الله منذ الأزل *

ابن سينا والعقل والنفس :

في أغلب مؤلفات ابن سينا خصص مؤلفاته الفلسفية للتحديث عن العقل وماهيته ووجوده وانفعالاته واستشهاد كما يستشهد

(١) تاريخ الفكر العربي : ص ٢٢٠ .

عادة فلاسفة المسلمين بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ليدعم نظرياته وأفكاره - لقد جعل ابن سينا العقول في خمس مراتب :

- ١ - العقل الهولاني : ويعني العقل الانساني في أولى أطواره .
- ٢ - العقل الملكة : وهو المرحلة الثانية التي تقبل فيها المعقولات الأولى من العقل الفعال .
- ٣ - العقل بالفعل : وهو المرحلة الثالثة حينما تفيض على العقل بالملكة معلومات ومعقولات أخرى من العقل الفعال .
- ٤ - العقل المستفاد : هو العقل الذي تكون الصورة المعقولة حاضرة فيه ، فيعقلها ويدركها أنه يعقل بالفعل .
- ٥ - العقل القدسي : يعتبر بنظر ابن سينا من أرفع العقول وأسمائها ، وليس مما يشترك فيها الفاس جميعا ، فمن الفاس من يهبه الله سبحانه وتعالى شدة الصفاء ، وقدرة الاتصال بالعقل الفعال ، موجد هذا الكون ، فترسم في هذه العقول السامية ، كثيرا من الصور التي هي في العقل الفعال - كمقول الأنبياء ، والعلماء ، والحكام ، الذين وقفوا نفوسهم على استنباط العلوم الالهية ، والارتشاف من رحيق المعرفة الماورائية .

أما النفس عند ابن سينا واهتمامه بها فقد فاق الوصف، وكسب قصب السبق على كافة العلماء الذين سبقوه في التحدث عنها ، من قبل ومن بعد ، ومع أن أكثر أفكاره وأرائه فيها أرسطو طاليسية ، فإن له نظريات وتعليلات يخالف بها أرسطو ،

مؤثراً بما يحتلج في أعماقه من أيمان عميق بالاسلام ، وعقائده السمحاء . ولقد قدم ابن سينا البراهين العقلية المقنعة التي تثبت وجود النفس كجوهرة روحانية قائمة بذاتها ، كأصل للقوى المدركة ، والحركة ، والمحافظة للمزاج ، والمتصرفة في أجزاء الجسم الانساني ، كونه محتاج اليها تمام الاحتياج في حين أن النفس لا تحتاج اليه في شيء .

ويرى ابن سينا أنه لا يتعين جسم ولا يتحدد الا اذا اتصلت به خلقتها . بينما النفس هي هي سواء اتصلت بالجسم أم لم تتصل به . ولا يمكن حسب رأي ابن سينا أن يوجد جسم بدون النفس ، لأنها مصدر حياته وحركته ، وعلى العكس تعيش النفس بمعزل عن الجسم ، ولا أدل على هذا من أنها متى انفصلت عنه تغير الجسم ، وأصبح شبيهاً من الاشباح . في حين أن النفس بالانفصال والصمود الى العالم العلوي تحيا حياة كلها بهجة وسعادة ، فالنفس اذا جوهرة روحانية قائمة بذاتها .

والنفس كما يرى ابن سينا تسوس البدن كما أنها تدرك المقولات ، وكونها تسوس البدن يوجد شبه بينها وبين القوة الحيوانية النزوعية التي تحدث فيها هيئات تنمى الانسان . فيتم بها بسرعة فعل أو انفعال مثل الغضب والحياء والضحك والبكاء وما أشبه ذلك . فالنفس تستعمل هذه القوة في استنباط البدايز في الأمور الكائنة واستنباط الصناعات الانسانية وتوجه الجسم في عمله وترشده في أفعاله فتتوكل من جرم ذلك الآرام الفدائنة المشهورة ، مثل أن الكذب قبيح ، والظلم قبيح ، أما الوظيفة الثانية التي تقوم بها النفس فهي ادراكها المقولات ،

وهذا يدل على تحرر النفس عن الجسم . ويلاحظ ابن سينا أن النفس لها جانبين : من جانب يشترك فيه الإنسان مع الحيوان والنبات ، ويكون تعريف النفس من هذا الجانب أنها كمال بجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة . أما الجانب الآخر الذي يشترك الإنسان فيه مع الملائكة فتعريف النفس فيه أنها جوهره روحانية تكمل الجسم وتحركه بالاختيار عن مبدأ نطقي عقلي بالقوة في النفس الإنسانية أو بالفعل للنفس الكلية . ويعرف هذا الجانب من النفس بالنفس الكلي أو نفس الكل والعقل الكلي أو عقل الكل (١) .

ويعتقد ابن سينا أن النفس صورة الجسم تمكنه من الظهور بمظهره المخصوص به ومن القيام بأعماله وواجباته الخاصة به . ان السيف مثلاً : حديدة مسنونة تقطع ، فحديده هي جسمه المادي وحدته الناتجة من أنه مسنون والتي يقطع بها هي صورته الروحانية أو نفسه . وكذلك الإنسان لا يسمى إنساناً بالأجزاء التي فيه من العناصر الأربعة ، التي هي النار ، والماء ، والهواء ، والتراب ، بل بعقله الذي به يتأمل ويفكر ويخلق ويبدع . والنفس ليس لها وجود سابق على وجود بدنها ، بل كلما حدث بدن صالح للحياة حدثت له نفس خاصة به ، ويكون البدن الحادث مملكة تلك النفس وآلتها . والنفس لا يمكن أن تأتي من شيء مادي كالجسم ، لأنها مخالفة للجسم ، لذلك فهي متصلة بالقيض في شأيا ترتيب العقول . وإذا امتزجت مقادير من العناصر الأربعة امتزاجاً فيه اعتدال وتكافؤ ، نشأ من هذا

(١) ابن سينا : النجاة ص ٥٤ - ٤٥٥ .

الامتزاج أجسام مستعدة لقبول نفوسها الخاصة بها • وكلما كان الامتزاج أكثر اعتدالا كان الجسم الناتج منه أرقى • فتقبل من أجل ذلك نفسا ألطف • إن الاجسام الكثيفة الناتجة من امتزاجات قليلة الاعتدال • كالحجارة والحديد وماء البحر ثقيل نفوسا كثيفة نسميها الطبيعية ونفوس النبات على هذا القياس ألطف من نفوس الجماد • ونفوس الحيوان البهيم ألطف من نفوس النبات • وبما أن جسم الانسان أحسن اعتدالا من أجسام الحيوان البهيم والنبات والجماد • فانه يقبل نفسا ألطف من نفوسها كلها • فاتصال النفس بالجسم هو استعداد في كل جسم لقبول نفس مكافئة في اعتدالها لاعتدال ذلك الجسم •

وحتى يتمكن ابن سينا من اقامة الدليل على وجود النفس في الانسان يرى أن هناك طريقتان :

طريق الحدس وطريق النظر العقلي • أما طريق النظر العقلي الذي هو دليل التفكير والتأمل • فيأتي من ادراك المعقولات الذي لا يأتي عن طريق الحواس التي لها أعضاء ظاهرة في البدن • لذلك تدرك تلك المعقولات بقوة مخالفة للبدن وزائدة عليه • وهي غير الحواس التي لها أعضاء ظاهرة في البدن • تلك هي النفس الجوهرية الروحانية التي هي جزء من النفس الكلية •

أما طريق الحدس فيأتي كما يعتقد ابن سينا عندما يدرك دائما الانسان أنه موجود • وأنه هو • وأن وجوده متصل • وفق البراهين الثلاثة التالية : فالبرهان الاول يقوم على استمرار الحياة العقلية فينا • أن الجسد يتغير • ينمو بالغذاء

ويهزل ويفضحك بالمرض ، أو تتعطل بعض أعضائه • أما إدراك
الإنسان وشموره ببقائه وتذكره لما مضى من عمره ومعرفته
بالمحسوسات والمعقولات ، فلا يتغير بذلك ، فهو دليل على أن
الذات أو النفس العاقلة مخيرة للبدن ولأجزائه الظاهرة
والباطنة ، فبينما شيء اذن غير الجسد ، ذلك هو النفس تلك
الجوهرية الروحانية الخالدة (١) •

والبرهان الثاني والثالث يقومان على الموازنة بين المعرفة
من طريق الحواس والمعرفة من غير طريق الحواس • فحينما
يفقد الإنسان عضوا من أعضائه يبطل الحس المتعلق بذلك
العضو ، فققدان العين أو تلفها يؤدي إلى بطلان البصر ، وفقدان
الذراع يؤدي إلى بطلان تناول الإنسان الأشياء بالطريق المألوفة
المعتادة ، ولكن ذاته أي نفسه العاقلة لا تتأثر في معارفها بشيء
من ذلك • حتى أن الإنسان حينما يقول : رأيت بمعنى أو
سمعت بأذني أو مشيت برجلي ، فإنما يعني أنه هو ذاته الذي
فعل كل ذلك • والعين كانت في الحقيقة آلة للرؤية ولم تكن
المنتفعة بالرؤية •

أما المقصود بالمنتفعة من الرؤية فكان ذات الإنسان • ولذلك
يقول الإنسان دائما : أنا رأيت ، أنا سمعت ، أنا مشيت •
فهذا المدرك المنطوي في قوله : أنا هو النفس على الحقيقة
وهو مخالف لجسمه وللحواس المتصلة بأعضاء من جسمه ، ويتبع
البرهان الثاني خاصة أن الإنسان قد يفكر أو يفعل ، وهو في

(١) ابن سينا : الاشارات ص ٣٠٥ •

اشياء ذلك كله غافل عن اعضاء بدنه وحواسه ، حتى انه قد يكون مستغرقا في تفهم قضية ثم ينادي باسمه بصوت مرتفع من قريب فلا يسمع ، ولكنه لا يغل عما هو بسبيله من التأمل والتفكير . وهذا ايضا دليل على ان نفسه غير بدنه وغير حواسه المتصلة ببدنه .

ويرى ابن سينا لو ان انسانا خلق دفعة واحدة وكاملا ثم حجب بصره ايضا ، وكان يهوي هويًا لا تتلاقى فيه اعضاءه ولا تنماس ، ولا كان ثمة هواء في الفضاء يصدم جسمه ، او كان في الفضاء هواء ولكن لا يكفي لأن يصدم جسمه صدمًا يحس به ، فان هذا الانسان الهاوي في الفضاء يظل مثبتا لذاته ، ومدركا أنه موجود .

واعتمادا على ما ذكرناه يمكننا أن نقول بأن النفس ليست جسما انما هي جوهرة روحانية غير قابلة للكون والفساد ، ولا تتكرر ولا تتألف من اشياء ، بل قائمة بالذات لا تحتاج في وجودها الى شيء هو غيرها . وهي روحانية ليست مادية ولا تعلق لها بالمادة ، ثم هي مفارقة بنفسها غير محتاجة في قوامها الى مادة ، وهي موجودة فعلا مستقلة عن البدن .

ابن سينا وخلود النفس :

استطاع ابن سينا عن طريق التحليل والمطابقة أن يبرهن على روحانية النفس الانسانية عن طريق ادراكها للمعقولات ، كون طبيعتها تختلف عن طبيعة البدن ، كما وان وظيفتها تختلف عن وظيفته . لذلك يرى : أنها لا تموت بموت البدن ولا تقبل الفساد أصلا . أما أنها لا تموت بموت البدن ، فلأن كل شيء

يفسد بفساد شيء آخر فهو متعلق به نوعا من التعلق - وكل متعلق بشيء نوعا من التعلق فاما أن يكون تعلقه به تعلق المكافئ في الوجود وأما أن يكون تعلقه به تعلق المتأخر عنه في الوجود ، وأما أن يكون تعلقه به تعلق المتقدم عليه في الوجود الذي هو قبله بالذات لا بالزمان (١) -

وبعد هذا الرأي يناقش ابن سينا ثلاث فرضيات فيقول :

١ - أن كان تعلق النفس بالبدن تعلق المكافئ في الوجود ، يكون كل واحد منها جوهرًا ، فإذا فسد أحدهما بطلت الإضافة بينهما ، وهي إضافة عارضة ، وبقي الجوهر الآخر -

٢ - أن كان تعلق النفس بالبدن تعلق المتأخر عنه في الوجود ، فيكون البدن علة النفس ويعتمد على أربعة علل هي :
أ - أما أن يكون البدن علة فاعلية للنفس ، معطية لها الوجود ، وهذا مستحيل لأن الجسم بما هو جسم لا يفعل شيئا ، وإنما يفعل بقواء التي هي من النفس -

ب - أما أن يكون البدن علة فاعلية للنفس ، وذلك محال أيضا لأن النفس ليست منطبعة في البدن بوجه من الوجوه ، فلا يكون إذن البدن متصورا بصورة النفس -

ج - أما أن يكون البدن علة صورية للنفس ، وهذا يستحيل إذ أن النفس هي التي تعطي الصورة للبدن -

(١) النجاة : القسم الثاني ، المقالة السادسة ، الفصل الثالث عشر .

د - أما أن يكون البدن علة كمالية للنفس ، وهذا أيضا مستحيل إذ أن الامر عكس ذلك . فاذن ليس تعلق النفس بالبدن تعلق معلول بعلة ذاتية .

٢ - ان كان تعلق النفس بالجسم تعلق المتقدم في الوجود ، فاما أن يكون المتقدم مع ذلك زمانيا ، فيستحيل في هذه الحالة أن يتعلق وجود النفس بالجسم ، إذ أنها تكون قد قدمت الجسم في الزمان ، أي وجدت قبل الجسم ، وهذا مستحيل ، وأما أن يكون المتقدم في الذات بمعنى أنه إذا وجدت الذات المتقدمة استفاد عنها الجسم وجوده ، وهذا مستحيل إذ أن البدن لا يبقى ما بقيت النفس ، بل ينحل .

ويخلص ابن سينا الى أن لا تعلق للنفس في الوجود بالبدن ، بل يكون تعلقها في الوجود وفق المباديء الأخر التي لا تستحيل ولا تبطل ، وهي العقول المفارقة والنفس الكلية - فالنفس صادرة عن المثل الضال ، واهب الصور وهو جوهر عقلي أزلي باق ، ويبقى المعلول ببقاء علته (١) .

ولما كانت النفس جوهرًا بسيطًا ، والبسيط لا يتحل ولا ينعدم ، فاذن النفس خالدة ، مصيرها مصير البدن المركب والقابل للانحلال -

مبدع الهويات عند أخوان الصفا :

يعتقد جماعة اخوان الصفا وخلان الوفاء أنه من المفروض

{١} ابن سينا : رسالة في معرفة النفس الناطقة ص ١٢ .

أن يكون المبدع أو الموجد أقدم من المدّاع والموجد لأنه علة
إبداعه ووجوده منذ البدء ، باعتبار كل مصنوع هو حادث
بالنسبة لأزلية الصانع . والناس على اختلاف أهوائهم وتفكيرهم
وتأملهم ، ميالون بالفطرة إلى الإقرار بوجود كائن عظيم ، عاقل
حكيم ، أرفع من جميع الموجودات لأنه علة إيجادها وأصل
خلقها وإبداعها وتنظيمها وترتيبها في حركة دائمة ، لحفظها
وغيرها واستمرارها إلى ما لا نهاية ، وهو المبدع أو الخالق ،
أو الله سبحانه وتعالى .

وهذا المبدع أو الصانع يتمتع بقوة جبارة عظيمة مهما
اختلفت الزوايا التي ينظر منها الإنسان إلى هذه القوة فستظل
القوة الأصلية الثابتة ، والحافظة للعالم في حركة مستمرة ،
ورباط وثيق ، كارتباط المعلول بالعلة ، والمخلوق بالخالق ،
والصنعة بالصانع . لأنه مبدأ ومرجع كل شيء ، ذو كمال متناه
باعتباره الكائن الموجود من ذاته ، أي الوجود الذي يوجد
بمجرد ماهيته ، فلا يحتاج إلى علة خارجية تعطيه الوجود ، لكون
ما لا يوجد من ذاته ، يحتاج في وجوده إلى علة فاعلة تحدّثه ،
ووجود العلة الفاعلة المترتبة بالذات دليل على وجود علة
أولى لها يتعلق بها وجودها ، وهي غير معلولة .

وهذا الوجود الذي أقرت به معظم الأمم والشعوب ، في كل
زمان ومكان ، ووقف أمام قوته وقدرته العقل البشري موقفه
الدهشة والعجز والتواضع ، باعتباره العلة الأولى والغاية
القصوى لكل الموجودات العادّة والغير موجودة من ذاتها ،
أزلي غير متغير في وجوده وقوته ، لا مثيل له ولا شريك ، لا يدم

ولا نهاية له ، ندعوه الله وتقومل اليه في صلواتنا وعباداتنا
الظاهرة والباطنة ، والله سبحانه وتعالى هو علة الملل ، والعلة
الأول للأ معلومة التي يتبعنا ادراك ماهيتها لأننا عاجزين عن
ادراك وجودها ، لأن وجودها هو ذاتها ، والذات والوجود واحد
في الله ، والعقل البشري مهما بلغ من السمو والارتقاء يقف
عاجزا عن ادراك الله بنوره الا ادراكا ناقصا ، وهذا الادراك
لا يكون الا من جهة آثاره ، ولما كانت هذه الآثار غير كاملة
متناهية والله غير متناه ، فقد صبح العجز عن ادراك الماهية
الالهية بتور العقل البشري ، والله تعالى الموجود بذاته ، الذي
يوجد عنه كل ما في الامكان وجوده على أحسن وجه النظام
والكمال ، منزء عن جميع الصفات التي تتصف بها موجوداته ،
وسبغاته ، ومكوناته لا مثال له ، مبدأ كل موجود لاستناد جميع
الموجودات اليه ، ولصدورها عنه .

من هذه المنطلقات العرفانية الماورائية تكون المحور الاساسي
الذي تدور عليه كافة الشرائع والأديان في ايمانها بوجود اله
خالق مبدع نظم الطبيعة وسيرها بقدرته الخالقة ، وقوته
المظيمة ، أمر فكان الليل والنهار وتعاقب الفصول ، وكانت
السماء بكواكبها ، والكواكب بمنازلها وبروجها وأفلاكها ،
والرياح بجرياتها ، والارض وما عليها ، فسبغت له كافة
الموجودات العلوية ، والمخلوقات الجسمانية ، والمبدهات
الروحانية ، ناطقة بمظمته ، ومتبئة من يامر قدرته ، فذلك
العقول خاضعة لنور وحدته .

ولما كانت فلسفة جماعة « الخوان الصفا وغلان الرقاص (١) »

(١) رسائل الخوان الصفاء ج ٢ ص ١٧٩ منشورات مطبع بيروت .

تنطلق من اثبات الخالق المبدع المصور ولزوم عبادته ، وتبحث عن الله تعالى وكمالاته ، وتدعو الى الايمان بوجوده ، وتهدف الى توحيده ، وتجريده ، وتنزيهه ، رأينا أن تقدم بعض آراء هذه الجماعة في المبدع ، لنلاحظ الى أي حد تنسجم مع الفلسفة المرفائية المعروفة في الحياة -

يرى جماعة اخوان الصفا وخلال الوفاء أن الباري تعالى هو مبدع علة الموجودات ، وخالق المخلوقات ومخترعها ، وهو واحد بالعقيدة من جميع الوجوه : لا علم ، أي ذلك الله وإيانا بروح منه ، أن الوجود متقدم على البقاء ، والبقاء متقدم على التمام ، والتمام متقدم على الكمال ، لأن كل كامل تام ، وكل تام باق ، وكل باق موجود *

ولكن ليس كل موجود باقيا ، ، ولا باق تاما ، ولا كل تام كاملا ، وذلك أن الباري ، جلت أسماؤه ، الذي هو علة الموجودات ومبدعها ومبقيها - وتمامها ومكملها ، أول فيض فاض منه الوجود ، ثم البقاء ، ثم التمام ، ثم الكمال - وبالإضافة الى ايمانهم بأن الله تعالى واحد بالعقيدة يؤكدون بأنه علة الموجودات ومبدعها ومبقيها وتمامها ومكملها ، لأن أول فيض فاض منه الوجود ، ثم التمام ثم الكمال ، ثم البقاء وذلك ليدلوا على أن البقاء أفضل وأسمى مرتبة من التمام والكمال ، معتمدين على نظريتهم في خواص العدد التي تثبت الفرق بين التمام والكمال - ويعتبرون بأن علم العدد هو فيض العقل على النفس ، وذلك أثناء عملية الابداع الأول - ولتستمع اليهم

ماذا يقولون في الرسالة الجامعة (١) : « الحمد لله مبدع الوجود ،
الذي لم يكن من قبله موجود يقبل منه فيض الجود ، فسبحان
من موجوده قابل لجوده مقر بوجوده معترف بتوحيده » فهو
مرجد الموجود ، ومفيض الجود على الموجود ، فبدأ كل موجود
يقبل فيض الجود ، مرتب الجد الذي هو مرتب الحدود ، وكل
حد ينتهي الى حد له محدود وأجل محدود (وما منا الا له مقام
معلوم » وانا لنحن الصافون » وانا لنحن المسبحون) * والحمد
له جاعل أول ما أبدعه عرشه المحيط ، وثانيه كرسية الذي
وسع السموات والارض ، فعرشه هو القلم الجاري بأمره ،
فخط في اللوح الكريم سطور المشينة ، وأحرف الارادة ، وقول
الحق ، ووعد الصدق ، وكنيمات التمام ، والامضاء العظام » .

وحول خلق الصورة الانسانية باعتبارها خليفة الله في
أرضه يقولون (٢) : « اعلم أيها الأنخ أيذك الله وإيانا بروح
منه أن البارئ عز اسمه لما خلق هذا العالم على هذه الهيئة
الثريفة والبنية العجيبة ، وجعل صورة الانسان خليفته في
أرضه لتدبير خلقه في المسالم السفلي ليصير عند نقلته زينة
للمالم العلوي ، وجعل نفسه علامة بالقوة فعالة بالطبع ، ولم
يخله من الفوائد العقلية والتأبيدات الالهية ، ليتوصل بذلك
الى معرفة جميع ما في هذا العالم » وكان من الفضل الذي جاد
به عليه والاحسان الذي أسداه اليه ما أقاضه على النفس أولا
من الفكر في الاقرار بالمبدع الحق الاول ، ومعرفة العقل الذي

(١) الرسالة الجامعة : تحقيق الدكتور مصطفى غلب منشورات صادر

ص ٢٥ .

(٢) المصدر نفسه صفحة (٢٥ - ٢٦) .

هو أصل لها وأب ، وأنه ليس هو المستحق للعبادة المحضة وأن له خالقا ومبدعا ، وكان هذا من العقل اقرارا بخالقه ومبدعه ، وتمريفا لمن هو دونه أنه لا يعرف الا هو ، ان ليس هو الا هو ، فمعد ذلك شهد الله أنه لا اله الا هو . -

ويذهب جماعة اخوان الصفا وخلان الوفا الى أن الله تعالى تام الوجود ، كامل الفضائل ، عالما بالكائنات قبل كونها ، قادرا على ايجادها متى شاء ، وهو أول الموجودات ، كما أن الواحد هو قبل كل الأعداد . وكما أن الواحد هو تشوم الأعداد ، كذلك البارئ موجد الموجودات (١) .

وفي رأي اخوان الصفاء أن البارئ هو المشوق الأول ، والفلك انما يدور شوقا اليه ، ومجبة للبقاء والدوام المديد على اتم الحالات ، وأكمل النيات ، وأفضل النهايات . وفي نظرهم أن أجل المعارف ، وأشرف العلوم هي معرفة الله وصفاته اللائقة به . وأن العلماء قد تكلموا في ماهية ذاته ، وأكثروا القيل والقال في حقيقته وصفاته ، وتاء أكثرهم في العجاج عن المنتهاج والعلم ، والملة في ذلك هو من أجل أن هذا المطلوب من أبعد المراسي اشارة . وهو أقرب المذاهب وجدانا (٢) .

ويعتقد جماعة اخوان الصفاء أن الواحد الموصوف بالجلالة والعظمة المشار اليه بالوجود ، وأنه مبدأ كل موجود يقبل فيض الجود ، واليه ينتهي الحدود فهو العقل الاول ، ومبدعه

(١) رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ج ٢ ص ١٩٦ .

(٢) رسالة الجامعة : تحقيق مصطفى قلب ص ٢٨ .

يجل عن صفة الواصفين ونعت الناكتين وإنما يقال هو لا إله إلا هو إيماناً وتسليماً - فهذا القول اثبات التوحيد - ولذلك صار الأصل المتعمد عليه في كل شريعة ودين - وذلك أن المقل نفى عن ذاته الألوهية وأثبتها لمبدعه - فقال : لا إله إلا هو فوجد مبدعه ، فهو عقل بمعنى اثبات الوحدة المحضة وذلك لاتصال التأيد به متواتراً لا يفتر ولا ينقطع يل متصلاً دائماً أبداً - وحتى لا يفوت من فاته وجدانه سبحانه وتعالى من أجل خفاء ذاته ودقة صفاته وكنهاها ، ولكن من شدة ظهوره وجلاله وتوره ، وإنما ذهب على من ذهب معرفة ذاته وحقائق صفاته - من أجل أنهم طلبوه كطلبهم سائر الأشياء الجزئية المحسوسة ، وبحثوا عنه كبحثهم عن سائر الموجودات الكليات المبدعات المخترعات المصنوعات الكائنات ، من الجواهر والاعراض والصفات الموصوفات ، المحتوية عليها الأماكن والأزمان والأكوان والأشخاص والأنواع والأجناس (١) -

وذلك أن كل واحد من هذه الموجودات يطلب فيه ويبحث عنه يتسعة مباحث هي : هل هو ؟ وما هو ؟ وكيف هو ؟ وأي هو ؟ وأين هو ؟ ومتى هو ؟ ولم هو ؟ ومن هو ؟ - ثم اعلم أن مبدع الهويات ، ومهي الماهيات ، وموجد الكميات ، ومكيف الكيفيات ، ومميز الأينيات ، ومرتب الأينيات ، وعلة الالتميات لا يقال له : ما هو ؟ ولا يسأل عنه كيف هو ؟ وكيف هو ؟ وأي هو ؟ ومتى هو ؟ ولم هو ؟ وإنما يجوز ويسوغ فيه وعنه - من هذه المباحث والسؤالات ، اثنان حسب وهما : هل هو ؟ ومن هو ؟ كما يقال : هو الذي فعل كيت وكيت ، وهو الذي وضع كيت وكيت ومن

(١) رسائل أخوان الصفا، وخلا، الوعاء - ج ٢ ص ٥١٢ .

أجل هذا ، أجاب موسى عليه السلام فرعون ، إذ سأله : ما رب العالمين ؟ فلم يجبه موسى عن جواب (ما) بل أجاب عن جواب (من) الذي يليق به ويربو بيته ، فقال : « رب السموات والأرض وما بينهما » - فلم يرضي فرعون الجواب ، فقال لمن حوله من الناس المتكلمين : ألا تستمعون ؟ أسأله ما هو ؟ ويجيبني من هو ؟ وكذا سأل مشركو قريش ومجادلوهم النبي ، عليه السلام ، فقالوا : نعبد أصنامنا وألهتنا ، ونحن نراها ونشاهدها ونعرفها ، فأخبرنا عن الهك الذي تعبد ما هو ؟ فأنزل الله تعالى قوله : « قل هو الله أحد (١) » - فقالوا لا يفهم ولا يعرف أيرون ماهية ذاته ، أجوهر هو أم عرض ؟ أنور أم ظلمة ؟ أجسم هو أم روح ؟ أداخل هو أم خارج ، أقائم هو أم قاعد ؟ أفارغ هو أم مشغول ؟ وما شاكل هذه المباحث والمطالب التي لا تليق بربوبيته ، تعالى الله عما يتوَل الظالمون علوا كبيرا .

هذه الأمور العقلانية الماورائية جعلت اخوان الصفا وخلان الوفاء يتمرضون للخلاف حول الذات والصفات فيقولون : « ثم اعلم أن مسألة الخلاف للذات والصفات هي أيضا من إحدى المسائل الخلافية بين العلماء في الآراء والمذاهب ، وذلك أن كثرة التسام والصبيان والجهال ، ومن لا يعلم شيئا من العلوم الرياضية والطبيعية والعقلية الالهية ، لأنهم إذا اعتقدوا فيه هذا الرأي تيقنوا عند ذلك وجوده ، وتحققوا وعلموا وصاياهم التي جاءت بها الأنبياء عليهم السلام ، من الأوامر والنواهي ، وعلموا علمها وعملوا بها خوفا ورجاء من الوعد والوعيد ، وتجنبوا

(١) سورة الاخلاص اية ١ -

الزور والشرور ، وعملوا الخير والمعروف ، وكان في ذلك صلاح
لهم ولأن يعاملهم ويعاشرهم من الخاص والعالم ، وليس يضر الله
شيئاً مما اعتقدوه .

ومن الناس طائفة أخرى فوق هؤلاء في العلوم والمعارف ترى
بأن هذا الرأي باطل ، ولا ينبغي أن يعتقدوا في الله أنه شخص
يحويه مكان ، بل هو صورة روحانية سمائية في جميع الموجودات ،
حيث ما كان لا يحويه مكان ولا زمان ما ولا يفاله حس ولا تغير
ولا حدثان ، وهو لا يخفى عليه من أمر خلقه ذرة في الأرضين
والسموات ، يعلمها ويراهما ويشاهدها في حال وجودها ، وكان
يعلمها قبل كونها وبعد فنائها . ومن الناس طائفة أخرى فوق
هؤلاء في العلوم والظنون والتخيلات العارضة للفهم ، إذا
تفكرت النفوس في ماهية الله ، وكيفية صفاته اللائقة ، فلا
تهتدي الظنون ولا تقر الأفهام عن الجولان ، ولا تسكن النفوس
إليه ، ولا تطمئن القلوب له ، حتى يعتقد الإنسان رأياً من
الأراء ، وتسكن نفسه إليه ويطمئن قلبه به . فمن الناس من
يرى ويعتقد أن الله تعالى شخص من الأشخاص الفاضلة ، ذو
صفات كثيرة ممدوحة وأفعال كثيرة متغايرة ، لا يشبه أحداً من
خلقته ، ولا يماثله سواء من ربوبيته ، وهو منفرد من جميع
خلقته في مكان دون مكان . وهذا رأي الجمهور من العامة وكثير
من خواص . ومنهم من يرى ويعتقد أنه في السماء فوق رؤوس
الملائك جميعاً . ومنهم من يرى أنه فوق العرش في السموات ،
وهو مطلع على أهل السموات والأرض ، وينظر إليهم ، ويسمع
كلامهم ، ويعلم ما في ضمائرهم ، لا يخفى عليه خافية من

أمرهم (١) *

واعلم أن هذا الرأي والاعتقاد جيد للعامة من المعارف والعقل وتمتدّد أنه ليس يذّي صورة ، لأن الصورة لا تقوم الا في الهيولى ، بل ترى أنه نور بسيط من الانوار الروحانية لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار . ومن الناس ممن فوق هؤلاء في العلوم والمعارف والنظر والمشاهد يرى ويمتدّد أنه ليس بشخص ولا صورة بل هوية وحدانية ، ذو قوة واحدة وأفعال كثيرة وصفات عجيبة ، لا يعلم أحد من خلقه ما هو ، وأين هو ، وكيف هو ، وهو الفاضل منه وجود الموجودات ، وهو المظهر صور الكائنات في الهيولى ، المبدع جميع الكيفيات بلا زمان ولا مكان ، بل قال : كن فكان ، وهو موجود في كل شيء من غير المخالطة ، ومع كل شيء من غير الممازجة ، كوجود الواحد في كل عدد (٢) *

ويحفظ اخوان الصفا في نهاية المطاف على الناس أن يتكلموا في ذات الله سبحانه وتعالى ، ولا في صفاته بالعذر والتخمين ، بل يجب أن لا يجادلوا فيه الا بعد تصفية النفس ، حتى لا يؤدي ذلك الى الشكوك ، والحيرة والضلال ، معتمدين في هذا الرأي على قوله تعالى : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » ثم يصرون على أن الباري لا يوصف بصفات الروحانيين من حيث هم محدثون فاعلون ومثقلون ، ولا بصفة الجسمانيين المدركين بالحواس ، وإنما صفته من حيث أفهامنا أنه قديم أزلي ، معلل الملل ، فاعل غير منفعل ، موجود

(١) رسائل اخوان الصفاء ج ٣ ص ٥١٤ .

(٢) رسائل اخوان الصفاء : ج ٣ ص ٥١٩ .

مبدع مجوهر بيدي ما يشاء ويفعل ما يريد ، كل يوم في شأن
لا يشغله شأن عن شأن .

من هذه الأسس العرفانية التوحيدية صاغ اخوان الصفا
وخلان الوفاء فلسفتهم الالهية ، ودعوا الناس الى توحيد الله
تعالى وتنزيهه وتجريده ، من خلال منطلقاتهم العلمية المنبثقة
من صميم الكتب السماوية المنزلة ، فكانت تعاليمهم المدمكة
الذي شيد عليه مبدأ التاويل الباطني ، والتصوف في الاسلام (١) .

ومن الواضح أن الصور التوحيدية التي رسمها جماعة اخوان
الصفا وخلان الوفاء تنفي كل الفرييات والالتهامات والأصاطير
التي نسجت وصنفت حول مسئلتهم التوحيدي ، فهم كما نلاحظ
ونلمس لا يختلفون ممن خلقوا خالدين في أفاق العرفان الماورائي
وجواهره السرمدية . باعتبارهم أول من حمل لواء فلسفة
التوحيد في الاسلام وخاضوا على ضوئه غمار أكبر صراع
عقلاني عرفه الاسلام في تاريخه القديم والحديث . ولا غرو
فقد أثبتوا مبدع الهويات الذي تفرد بذاته وصفاته عن ذوات
الخلق وصفاتهم ، فلا يشبههم بوجه من الوجوه ، ولا يشبهونه
بشيء من الاشياء ، لأنه مبدع مخترع خالق مكون قادر عليهم
حي موجود مبدع قديم .

الفيض الالهي والابداع عند اخوان الصفا :

الفيض عند جماعة اخوان الصفا يختلف عن الابداع الذي
يقول به بعض الفلاسفة فهم يرون أن كل موجود تام فائمه

(١) رسائل اخوان الصفا : ج ١ ص ١٠٩ و ٢٠٩ .

يفيض منه على ما دونه فيفيض ما ، وأن ذلك الفيض هو من جوهره ، يعني صورته المقومة التي هي ذاته - أما الابداع فهو يعني أن الأمور أبدعت وأخرجت من العدم الى الوجود ، وخاصة الأمور الروحانية الالهية التي هي العقول - ولتستمع اليهم وهم يتحدثون عن الفيض والابداع فيقولون (١) : « ثم اعلم أنه ما دام الفيض من الفاض يكون متواترا متوصلا ، دام ذلك المفاض عليه ، ومتى لم يتواتر متصلا عدم وبطل وجوده ، لأنه يضمحل الاول فالأول - والمثال في ذلك الضوء في الهواء ، اذا تواتر البرق واتصل ، بقي الهواء مضيئا مثل النهار ، لأن الشمس تفيض الفيض منها على الهواء متواترا متصلا ، فاذا حجز بينهما حاجز عدم ذلك الضوء من الهواء ، لأنه يضمحل ساعة ساعة ، ولا يتواتر الفيض عليه - وهكذا الحياة من النفس على الاجسام ما دامت متصلة متواترة ، تدوم الحياة ، فاذا فارقت النفس الجسد بطلت حياة الجسد من ساعته واضمحلت - وهكذا حكم وجود العالم وبقائه من البارئ تعالى ، فسا دام الفيض والوجود والعطاء متواترا متصلا ، دام وجود العالم من الله تعالى » .

ويأتي دور كيفية حدوث العالم وابداعه من لا شيء فيرون أن كل لبيب عاقل اذا فكر في كيفية حدوث العالم وابداع البارئ له ، وخلق اطباق السموات والارض ، وتركيبه أكبر الافلاك ، وتدويره أجرام الكواكب البسيطة والاركان الاربعة ، وتكوينه المولدات الثلاثة منها فلا بد من أن يعتقد فيها أحد الأراء الثلاثة:

(١) رسائل اخوان الصفا : ج ٢ ص ٣٥٠ .

أما أن يظن ويتوهم بأنها أبدعت دفعة واحدة ، وأخرجها الباري تعالى من العدم الى الوجود على ما هي عليه الآن ، أو يظن ويتوهم بأنها أبدعت على تدرّيج ، فأخرجت على ترتيب أولا فأولا الى آخرها على ممر الدهور والأزمان ، أو يقول بعضها دفعة ، وبعضها على التدرّيج الذ ليس في القسمة العقلية غير هذه الثلاثة . فاما من يظن ويقول أنها أبدعت دفعة واحدة بلا زمان ، فلا يجد كما يقول عليه دليلا من المشاهد فيتشكك فيما يقول (١) -

وأما من يقول أنها أبدعت وأخرجت من العدم الى الوجود على تدرّيج ونظام وترتيب فهو يجد على ما يقول شواهد كثيرة من الموجودات باستقراء واحد -

وأما من يقول أن بعضها أبدع وأحدث دفعة واحدة ، وبعضها على التدرّيج ، فهو يحتاج الى أن يبينها ويشرحها ويفصلها -

وهنا ينطلق اخوان الصفا وخلان الوفاء ليفصلوا ويشرحوا فيقولون : « أن الأمور الطبيعية أحدثت وأبدعت على تدرّيج ممر الدهور والأزمان ، وذلك أن الهيولى الكلية ، أعني الجسم المطلق ، قد اتى عليه دهر طويل الى أن تمخض وتميز اللطيف منه من الكثيف ، والى أن قبل الاشكال الفلكية الكروية الشفافة وتركب بعضها في جوف بعض ، والى أن استدارت أجرام الكواكب النيرة ، وركزت مراكزها ، والى أن تميزت الاركان الاربعة ، وترتبت مراتبها وانتظمت نظامها » . والدليل على ذلك قوله تعالى : « وأن يوما عند ربك كآلف سنة مما تعدون » .

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج ٣ ص ٣٥١ -

فأما الأمور الإلهية الروحانية فحدثها دفعة واحدة مرتبة منتظمة بلا زمان ولا مكان ولا هيولى ذات كيان ، بل بقوله :
« كن فيكون » .

والأمور الروحانية الإلهية هي العقل الفعال ، والنفس الكلية ، والهيولى الأولى ، والصورة المجردة ، والعقل هو نور الباري تعالى وفيضه الذي فاض أولا ، والنفس هي نور العقل وفيضه الذي أفاض الباري منه ، والهيولى الأولى هي ظل للنفس وفيها ، والصور المجردة هي النقوش والاصباح والاشكال التي عمتها النفس في الهيولى بأذن الله تعالى وتأييده لها بالعقل ، وهذه الأمور كلها بلا زمان ولا مكان ، بل بقوله : « كن فيكون » . والمثال حدوث البرق ، واشراق نور الشمس في الهواء ، وإضاءة الأبصار ، ورؤية الأشياء دفعة واحدة بلا زمان ، وحتى نتوصل الى معرفة الطرف الأعلى والطرف الأدنى والبرهان عليهما يقولون (١) : « واعلم يا أخي أيدي الله وإيادنا بروح منه ، أن النفس لما كانت عن الحد الأول بالأمر المسابق اليه من قوة الكلمة الأبدامية ، كان منه الأمر الانفعالي بالكلمة المبدعة ، وظهر القول وترتب وجهه وأشرق ، ليكون منه الموجودات ، فارتبط الأول بالأول ارتباطا ذاتيا ، واشتم الأمر بالقوة المحركة ، الصادرة من السكون ، البعيدة منه أوهاج المخلوقات كلها ، نور الله ، المتحد بالتنزيه ، فأسرعت الأنوار بإشراقها ، وبأدرت الى قبول الأمر من أعلاها ، وتسابقت ، فتكونت من

(١) الرسالة الجامعة : تحقيق مصطفى غائب ص (٢٤٨) منشورات دار صادر بيروت .

حركتها مواضعها اللائقة بكل واحد منها ، ثم نعلقت كلها بالسنة التوحيد ، والتجريد ، والتمتيز لمبدعها ، واستقرت لملائحتها في كثائنها اللائقة بها ، الكائنة عنها ومنها ، فصارت الكائنات أماكن وأجسادا ، واللطائف متمكنات وأرواحا فاطلة بتوحيد خالقها ، واتصل بها الجود والافاضة ، فأفيض على كل واحد منها بحسب قوته وطاقته ، وصارت كلها ذوات أماكن وتمكنات وأرواح وأجسام ، وتنزه مبدعها عن صفات ما هي موصوفة به ، وناداه ربهأ فاجابت بأجمعها : « أن لا اله الا أنت » كما قال سبحانه وتعالى حكاية عن السموات والارض لما قال لهما : « اثبتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين » . فكانت الاشخاص السماوية ، وسكان الافلاك العالية أسبق بالاجابة ، وأقرب الى الطامة ولحققت بها الاشخاص الارضية .

ولما ترتب الوجه الثاني ، مما يلي مركز الارض ، ترتب ما دونه ، وصار هو ربا له ، يربيه ، ويسومنه سياسة لطيفة ، فهو دائم في كماله حريص على ما يعود عليه بجماله ، فهو دائم يسري في بروج ، ويمر في منازل ، ويقتبس من أنوار من فوقه ، حتى يعتلي بحسب طاقته ويشرق ويستدير ، ويعاكي ما فوقه الممد له ، ثم ينحصر عن قبول ما ليس في وسعه ، ويؤدي ما فيه ، وتسري روحانياته ، وما يقبله من روحانيات من فوقه ، وتنشط كلها مع ملائكة الله ، وجنود لا يعلمها الا هو ، فتسري الأركان والأنهار فتكون منها غرائب المخلوقات ، وعجائب المصنوعات ، مما هو معاين في الموجودات (١) .

(١) الرسالة الجامعة : تحقيق مصطفى طراب من ٢٤٩ .

ولم تغفل جماعة اخوان الصفا ترتيب عالم الابداع فاعتبروا العقل هو أول موجود أوجده الباري وأبدعه من غير واسطة ، وهو جوهر بسيط نوراني فيه صورة كل شيء ، وهو باق تام . ثم أوجد النفس بواسطة العقل وهي جوهر بسيطة روحانية حية علامة فعالة ، وهي صورة من صور العقل الفعال ، وهي باقية تامة غير كاملة . ثم أوجد الهيولى الأولى جوهر روحاني فاض من النفس وهو باق غير تام ولا كامل : « اعلم أن علة وجود العقل هو وجود الباري ، عز وجل » وفيضه الذي فاض منه . وعلة تمامية العقل هي قبول ذلك الفيض والفضائل علي النفس بما استفادته من الباري عز وجل . فبقام العقل اذا علة لوجود النفس ، وتامة العقل علة لبقام النفس ، وكماله علة لتامة النفس ، وبقام النفس علة لوجود الهيولى ، وتامة النفس علة لبقام الهيولى .

فتمت كلمت النفس تمت الهيولى - وهذا هو الغرض الاقصى من رباط النفس بالهيولى ، ومن أجل هذا دوران الفلك وتكوين الكائنات لتكمل النفس باظهار فضائلها في الهيولى ، وتتم الهيولى يقبول ذلك - ولو لم يكن هذا هكذا لكان دوران الفلك عبثا . واعلم يا أخي أن العقل انما قبل فيض الباري تعالى وفضائله التي هي البقاء والتمام والكمال دفعة واحدة بلا زمان ولا حركة ولا نصب لقربه من الباري ، عز وجل ، وشدة روحانيته . فاما النفس فانه لما كان وجودها من الباري ، جل ثناؤه ، يتوسط العقل ، صارت رتبته دون العقل ، وصارت ناقصة في قبول الفضائل ، ولانها أيضا تارة تتوجه نحو العقل لتستمد منه الخير والفضائل ، وتارة تقبل على الهيولى لتستمد بذلك الخير

والفضائل - فإذا هي توجهت نحو العقل لتستمد منه الخير ،
اشتغلت عن إزادتها الهيولي ذلك الخير • وإذا هي أقبلت على
الهيولي لتمدها بذلك الفيض ، اشتغلت عن العقل وقبول
فضائله (١) -

ولما كانت الهيولي ناقصة المرتبة عن تمام فضائل النفس ،
وغير راغبة في فيضها ، احتاجت النفس أن تقبل عليها أقبالا
شديدا ، وتعنى بإصلاحها عناية تامة ، فتتعبد ويلحقها العناء
والشقاق في ذلك • • • وأما العقل فليس يناله في تأييده النفس
وفيضه عليها فضائله تنب ولا تصب ، لأن النفس جوهرية
روحانية سهلة القبول ، تطلب فضائل العقل ، وترغب في خيراته ،
وهي حية بالذات ، علامة بالقوة ، فعالة بالطبع ، قادرة صانعة
بالعرض • وأما الهيولي ، فليعدها عن الباري ، تعالى ذكره ،
صارت ناقصة المرتبة ، عادمة الفضائل ، غير طالبة لفيض النفس
ولا راغبة في فضائلها ، ولا علامة ولا مفيدة ولا حية ، بل قابلة
حسب ، فمن أجل هذا يلحق النفس التعب والعناء والجهد
والشقاق في تدبيرها الهيولي وتنميتها لها • ولا راحة للنفس إلا
إذا توجهت نحو العقل وتعلقت به واتحدت معه • • •

هذه خلاصة ترتيب الابداع والفيض والاختراع عند جماعة
أخوان الصفا يقابله عوالم ثلاث هم : عالم الأجرام ، وعالم
الأجسام ، وعالم الدين ، وكل عالم من هذه العوالم مشغول
للآخرين •

(١) رسائل اخوان الصفا : ج ٣ ص ١٨٦ .

هبوط النفس عند اخوان الصفا :

لم يهمل الانسان منذ وجوده على هذا الكوكب البحث والاستقصاء حول هبوط النفس من العالم الروحاني العلوي وتعلقها بالأجسام في العالم الارضي ، أي كيفية بدء الخليقة ، لذلك نلاحظ أن لجماعة اخوان الصفا وخلال الرقاء آراء ونظريات تتسجم مع ما ورد في الكتب السماوية من جهة ، وتوافق الآراء الفلسفية التي تتحدث عن هبوط النفس نتيجة خطيئة ارتكبتها في العالم الروحاني من جهة ثانية . لذلك رأينا أن نستعرض الموضوع من كلا الجانبين نظرا للفائدة المتوخاة .

يقول اخوان الصفا (١) : « اعلم يا أخي ، أيديك الله وإيانا بروح منه ، يأن الله جل ثناؤه ، لما أراد أن يجعل في الارض خليفة له من البشر ليكون العالم السفلي الذي هو دون ذلك القمر عامرا بكون الناس فيه ، معلوا من المصنوعات العجيبة على أيديهم ، محفوظا على النظام والترتيب بالسياسات الفاموسية والملكوتية والفلسفية والعامية والخاصية جميعا ، ليكون العالم باقيا على أتم حالاته وأكمل غاياته ، كما ذكر في الصغر الرابع من صحف هرمس وهو أديس النبي ، عليه السلام ، وذكرناه في رسالة الجامعة ، وأشرنا إليه في رسائلنا ، وكما متبين في هذه الرسالة ، فبدأ أولا ربنا تعالى فبنى بخلقته هيكلًا من التراب عجيب البنية ، طريف الخلقة ، مختلف الاعضاء ، كثير القوى ، ثم ركبها وصورها في أحسن صورة من سائر الحيوانات ، ليكون

(١) رسائل اخوان الصفا : ج ١ ص ٢٩٧ .

بها مفضلاً عليها ، مالمكانها ، متصرفاً فيها كيف يشاء ، ثم
 نفخ فيه من روحه ، فقرن ذلك الجسد في نفس روحانية
 من أفضل النفوس الحيوانية وأشرفها ، ليكون بها متحركاً
 حساساً ذراكاً عالماً كاملاً ذاعلاً ما يشاء ، ثم أيد نفسه بقور
 روحانية سائر الكواكب في الضلك ، ليكون متهيأً له بها ، وممكناً
 له قبول جميع سائر الاخلاق ، وتعلم جميع العلوم والآداب
 والرياضيات والمعارف والسياسات ، كما مكنه وهياً له بأعضاء
 بدنه المختلفة الاشكال والهيئات وتعاظمي جميع الصنائع البشرية ،
 والافعال الانسانية ، والاعمال الملكية . وذلك أنه قد جمع في
 بنية هيكله جميع أخلاط الاركان الاربعة ، وكل المزاجات التسعة
 في غاية الاعتدال ، ليكون بها متهيأً وقابلاً لجميع اخلاق
 الحيوانات ، وخواص طباعها ، كل ذلك كيما يسهل عليه ويتهيأ
 له اظهار جميع الافعال ، والصنائع العجيبة ، والاعمال المتقنة
 المختلفة ، والسياسات المحكمة ، اذ كان اظهارها كلها بمضو
 واحد ، وأداة واحدة ، وخلق واحد ، ومزاج واحد يتمدر على
 الانسان ، والنرض من هذه كلها هو أن يتمكن للانسان ويتهيأ
 له التشبه بالله وباريه الذي هو خليفته في أرضه ، وعامر عاله ،
 ومالك ما فيه ، ومانس حيوانها ، ومربي نباتها ، ومستخرج
 معادنها ، ومتحكم ومتسلط على ما فيها ، ليدبرها تدبيرات
 سياسية ، ويسوسها سياسة ربوبية ، كما رسم له الوصايا
 الناموسية والرياضيات الفلسفية ، كل ذلك كيما تصير نفسه
 بهذه العناية والسياسة والتدبير ملكاً من الملائكة المقربين ،
 فينال بذلك الخلود في النعيم أبد الأبد ودهر الداهرين .
 ويعتقد اخوان الصفا أن الله سبحانه وتعالى حين ابتدع واخترع

أدم وكون جسده ، قال : اني خلقت آدم وركبت بدنه من أربعة أشياء ، ثم جعلتها وراثه في ولده وذريته تنشأ في أجسادهم ، وينمون عليها الى يوم القيامة : ركبت جسده من رطب ويابس ، وحار وبارد ، وذلك أني خلقت من تراب ومام ، ثم تفتت فيه نفسا وروحا ، فبيوسه جسده من قبل القراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من النفس ، وبرودته من الروح . ثم جعلت في الجسد بعد هذا أربعة أنواع آخر ، هن ملاك أمور الجسد ، لا يقوم الجسد الا بهن ، ولا تقوم واحدة منهن الا بالأخرى ، فمنهن المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم ، والبلغم ، ثم أسكنت بعضها في بعض ، فجعلت سكن البيوسه في المرة السوداء ، والحرارة في المرة الصفراء ، والرطوبة في الدم ، والبرودة في البلغم . فأيا جسد اعتدلت فيه هذه الاربعة الاخلاط التي جعلتها ملاكه وقوامه ، وكانت كل واحدة منهن ربما لا تزيد ولا تنقص ، كملت صحته واعتدلت نيته ، وان زادت واحدة منهن على أخواتها وقهرتهن ومالت بهن ، دخل السقم على الجسد من ناحيتها ، بقدر ما زادت ، واذا كانت ناقصة ضعفت طاقتها عن مقاومتها فغلبنها ودخل السقم على الجسد من نواحيهن بقدر قلتهن عنهن وضعف طاقتها عن مقاومتها (١) .

ويشعرون الى أن الله سبحانه وتعالى عندما تبين له بأن جسد آدم سيكون معرضا للأمراض والأسقام علمه الطيب وكيفية العلاج حتى يعتدل أمر جسده ، ويستقيم على فطرته ، ثم نفخ

(١) رسائل اخوان الصفا ج ١ ص ٣٠١ .

فيه من روحه نفسا وروحا قرنهما بجسده ، فبالنفس يسمع ابن آدم ويبصر ويشم ويدوق ويلبس ويحس ويأكل ويشرب وينام ويقعد ويضحك ويبكي ويفرح ويحزن ، وبالروح يعقل ويدري ويتعلم ويستحي ويحلم ويحذر ويتقدم ويمنع ويتكرم ويقب ويهجم ، فمن النفس تكون حدته وخفته وشهوته ولهوه وضغفه وسفهه وخداعه ومكره وعنفه وغرقه ، ومن الروح يكون حلمه ورقاره وعفافه وحيأؤه وبهاؤه وفهمه وتكرمه وحذقه وصدقه ورقته وصبره ، فإذا خاف ذو اللب أن يغلب عليه خلق من أخلاق النفس ، قابله بضده من أخلاق الروح ، والزمه إياه فبعد له به ويقومه . . .

وحول قصة آدم وحواء والشجرة المنهى عنها والخطيئة التي من أجلها أهبط آدم من الجنة يقولون (١) : « اعلم أيها الأخ الفاضل الخير الدين العادل ، أعانك على طاعته وجنبك ممصيته وألهمك التأييد بروح القدس ، ويهديك إلى جنته ، ويبعدك عن جهنم دار البوار ، ومحل الأشرار ، أنا لما شرطنا في كتبنا المؤلفة ورسائلنا المصنفة في فنون العلم وغرائب الآداب ، وطرائف الحكم ، وجملة ما يساتين العقول ، ورياضة تقتزى فيها النفوس ، وتتسم بها الأرواح ، أن رسالتنا الجامعة هي الفرض الأقصى ، وأنا نبين فيها البراهين الشافية لجميع ما شرحنا بعضه في رسائلنا بطريق الاقتناع ، وكان هذا الفصل الذي نذكره من العالم غامضا دقيقا ظاهرا علم جليل ، وباطنه سر تبيل مستور خفي لا يصل إليه إلا أهل البصائر المرتاضون بالعلوم العقلية

(١) الرسالة الجامعة : تحقيق مصطفى غالب ص ٦٥ .

المؤيدة بالتأييدات الرباطية مما ألقته إليهم الملائكة وما أيدوا به من روح القدس وما جاء به في الكتب المنزلة ، فإذا أنت أيها الأخ البار الرحيم وقفت على هذا العلم العظيم والبناء الكريم فكان عليه قويا آمينا وكن به ضئيلا ، ولا تكن من المبذرين الذين هم اخوان الشياطين ، ومع هذا فإنه لا يحل لنا ولا يسمنا في شرط حكمتنا أن نجعله بغير حجاب يحجب ، ولا باب يفلق عليه فيستره ، ولكننا فتحنا لك فرد بابا وسهلنا عليك كشف حجاب لتطلع عليه وتقف ان وفقك الله وهداك . . » -

وبعد هذه المقدمة المصيقة السهلة التي بينوا فيها أهمية هذه العلوم الماورائية وضرورة المحافظة على حجبها من غير أهلها يبدأون بذكر آدم وحواء والشجرة المنهى عنها وحيلة إيليس عليهما ووصوله بالمرآة إليهما . فقالوا (١) : « قال الحكيم أن الله سبحانه لما خلق آدم وأسكنه الجنة التي هي دار كرامته ومحل نعمته في جواره الأمين ، وقراره المكين ، ومقر عباده المصطفين ، من الملائكة المقربين ، وعهد إليه أن لا يقرب شجرة عرفه بها ونهاه من أكلها وأعلمه أنها مذخورة الى وقت معلوم وأن بها يكون العود الى البداية وأنها لا تبدو ثمرتها ، ولا يحل أكلها الا عند النهاية ، وأنها بنية دور الكشف الاول فتكون مدة الستر الذي قدر الله سبحانه أن آدم أول المستخلفين فيه ، وأن ثمر تلك الشجرة يكون مستورا في اكمامها ، مغبوا تحت ورقها ، مكمنا في أغصانها ، مستورا مخفيا لا يكاد مخلوق في دور الستر أن يقف عليها ولا يصل إليها ، ولا يتناول شيئا

(١) الرسالة الجامعة ص (٦٦ - ٦٧) .

منه إلا في الوقت الذي قدره والزمان الذي يسره ، إذا بدأ دور السعادة بظهور النفس الزكية في المرض الثاني إذا تجلست النفس الكلية لفصل القضاء فمعد ذلك تبدو شجرة صدر المنتهى وبها تكون النشأة الأخرى وعهد الله إلى آدم وأطلعته على ذلك وأعلمه أنه لا يكون في وقته ولا يتهيأ له في زمانه ، وأباحه ما سوى ذلك من أكل الشجر والتناول من أصناف الثمر ما يكون غذاء له ولمن هو معلم له ، فلما زين له الشيطان سوء عمله ، وحمله على ارتكاب ما نهى عنه ، وأخذ ما لا يحل له ، وتناول ما حظر عليه ، ولم يمكنه ذلك منه إلا بالحيلة عليه ، والملاطفة له ولزوجته ، فكان من حاله أنه جاء في صورة الناصح الأمين الشفيق ، يطلب منه الفائدة بالسؤال والتذلل ، فقال له : انك قد أتاك الله من العلم والحكمة والمعرفة ما لم يعرفه أحدا قبلك ، وقد فضلك الله على جميع الملائكة الذين أمرهم بالسجود لك ، والخضوع بين يديك ، جعلك معلما لهم تعلمهم أسماء ما يكون ، ولم يبق عليك إلا معرفة شيء واحد لو عرفته لكنت من الملائكة العالين الذين لم يؤمروا بالسجود لك ، ولم يدخلوا في طاعتك ، ولهم المقامات العالية ، والدرجات السامية عند الله . فقال له آدم : وما هذا المعلم الذي أخفاء الله عني ، ولم يطلعني عليه ، وقد علم أنني محتاج إليه وغير مستغن عنه ؟

فقال له عدوه ، يريه أنه له من الناصحين : هو علم القيامة ، وكون النشأة الآخرة ، والبروز لفصل القضاء ، وكيفية بروز الصور الروحانية المعراة من الأشخاص الهيولانية في دار البقاء ، ولو علمت هذا العلم أنت وزوجتك ، لكنكما ملكين وكنتما من الخالدين ، على أنهما لو كانا من أهل دور الكشف لكانت

خلقتهم روحانية ولم تكن جسمانية ، اذ كان البقاء والخلود على الحال الأفضل بالنفس أشبه من الجسم . فعند ذلك اشعقت نفس آدم الى ذلك ، وأراد الاطلاع عليه بالاطهار له من حد القوة الى حد الفعل ، ليرى كيف يكون دور الكشف وكيف يكون قبول أهل ذلك الزمان واستجابتهم اليه وكيف تكون منزلة النفس الزكية في ذلك الوقت ، فأبدى شيئا مما نهى عنه الى غير أهله ، وأطلع عليه غير مستحقه ، ووضع منه شيئا في غير موضعه ، فكان بمنزلة الأكل الذي نهى عنه . فلما بدا ذلك منه اضطربت عليه أحواله واستوحشت منه أعماله ، وقبحت أعماله ونفرت منه الوحوش التي كانت قد أنست به وتباعدت منه الطيور التي كانت قد ألقت صورته ونزع عنه لباسه ، وبدت عنه سوائه ، وانكشفت عورته ، وظفر به عدوه ، وأقبل يفرق عنه جموعه ، ويبعد أهل الجنة عنه ويدعوم الى نفسه ، فعند ذلك ناداهما ربهما : « ألم أنهكما عن تلك الشجرة » قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا « بوضعنا ما نهيتنا عنه في غير موضعه ودفعه الى من لا يستحقه ، قال : « اهبطوا منها جميعا يعضكم لبعض عدو » فأهبط من دار الملائكة التي كان فيها ، وأخرج منها اذ كان أهل الجنة قد سُموا موضعه ، واستوحشوا من شخصه ، لما بدت سوائه وانكشفت عورته ورأوه بعين من جاحم بما لا يعرفونه ، وبما يتكروته من المعصية فظفر به عدوه ، وأخرج آدم وزوجته من الجنة سائحين في الارض لا يدريان أين يتوجهان من بلاد الله ، وبهما من الندامة ما جاوز وصف الراسخين ، وكيف لا يكون ذلك كذلك ، وقد زالت الرياسة عنهما وتدبير السياسة التبرية منهما فلما طالت المحنة

بأدم استرجع القول ، وناجى ربه وتوسل اليه بالقائم في ذلك الوقت الذي فيه ظهور الحقائق ، وبأصحاب المقامات العالية في ذلك الزمان الذين هم الكلمات التامات ، والآيات الباهرات ، وأنه لم يعتمد ذلك ، وإنما اشتاق الى تلك المنزلة الجليلة والدرجة الرفيعة بغير انكار لها ولا استكبار عن الاقرار بمفضل صاحبها ، فمعد ذلك تاب الله سبحانه عليهما ، ويسر لهما العيشة . وبعث اليهما ملكا من الملائكة فعلمهما الحرف ، والنسل ، والزرع ، والبذر ، والحصاد ، والفرس ، واللباس ، وما يحتاجان اليه في الحياة الدنيا لقوام الاجساد في محل الكون والفساد ، وتلقى آدم التأييد والالهام والوحي ، وأمر بإقامة الشريعة والسجود لله ، والعمل بالجسم ، وإظهار الصنائع ، وكثر أولاده ، وانتشر نسله ، واتسعت دعوته ، وعمرت داره ، وقر في قواره ، وكان على ذلك مدة ما شاء الله تعالى سبحانه أن يبقى على تلك الحال الى أن استكمل أجله فنقل الى دار كرامته ودار البقاء ، وأراه ما جعل فيه ليراه وهو في محل الاجساد ، فلم يخب سعيه ، ولا أحبط عمله لما تاب وأتاب (١) .

هذه مجمل آراء وأقوال جماعة اخون الصفا وخلان الوفا في بدء الخليقة ووجود الانسان الاول بحشوه وفق ما تحدثت به الكتب السماوية المنزلة ، وكما أشارت اليه بعض الأساطير التي ترويها الأجيال خلف عن سلف من آلاف السنين ، أما رأيهم في الشق الثاني من الموضوع ، أي (المبدأ) من الناحية الروحية الفلسفية ، فهم يرون أن الابتداء كان نتيجة خطيئة ، أو

(١) الرسالة الجامعة : ص ١٧٩ .

بالأخرى مجرد سهو وقع على بعض العالم الروحاني فأوجب الهبوط والتكثف - فقالوا : « اعلم أن الله تعالى لما خلق جسد آدم ، عليه السلام أبي البشر من التراب ، وصوره في أحسن تقويم ، وأحسن صورته ، وأحكم بنيته ، ثم نفخ فيه من روحه ، صار ذلك الجسد الترابي بتلك الروح الشريفة حيا عالما قادرا » ثم فضله بما علمه من الأسماء على بعض الملائكة لا عليهم كلهم ، وأمرهم بالسجود له من أجل الجسد الترابي » وإليس اللعين لما نظر إلى الجسد الترابي ، وعرف ورأى تلك الروح الشريفة الفاضلة العالقة قال : « أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين » إذ النار خير من التراب ، لأن النار جسم مضيء متحرك يطلب العلو ، والتراب جسم مظلم ساكن يطلب السفلى » وكل هذا منه قياسا خطأ ، لأن الإنسان إنما يأكل ويشرب وينام من أجل الجسد ، ويتحرك ويحسن ويتكلم ويعلم بالنفس الشريفة التي من أمر الله (١) » .

وفي حديثهم عن مهنة النفوس وإخراجها من عالم الأرواح لجناية كانت منها يقولون (٢) : « اعلم أيها الأخ أن النفس الجزئية لما أهبطت من عالمها الروحاني ، وأسقطت من مرتبتها العالية للجناية ، وغرقت في بحر الهبوط وغاصت في قعر أمواج الأجسام وقيل لها : « انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ، ففرقت في هياكل الأجسام ، وتفرقت بعد وصلتها وتشتت شملقتها ، كما ذكر الله ، عز وجل اسمه بقوله : « أهبطوا منها جميعا » الآية إلى قوله : « ومنها تخرجون » عرض لها عند ذلك من

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج ٢ ص (١٨ - ١٩) .

(٢) المصدر نفسه : ج ٤ ص (١٨٤ - ١٨٥) .

الدعشة والأهوال والمصائب ، فمن أجل هذه الشدائد والمصائب صارت النفس لا تذكر شيئاً مما كانت فيه من أمر عالمها وببداها ومعادها كما قال الله جل ذكره : « وإذا ذكروا لا يذكرون » -

ويعتقد جماعة اخوان الصفا وخلان الوفاء أنه قد أتى على النفس دهر طويل قبل تعلقها بالبدن ذي الأبعاد ، وكانت هي في عالمها الروحاني ومحلها التوراتي ودارها الحيوانية مقبلة على عتبتها العقل الفعال تقبل منه الفيض والفضائل والخيرات ، وكانت متعمدة متلذذة ، مستريحة ، مسرورة فرحانة • فلما امتلأت من تلك الفضائل والخيرات ، أخذها شبه المغاض ، فأقبلت تطلب ما تنفيض عليه تلك الخيرات والفضائل • وكان الجسم فارغاً قبل ذلك من الأشكال والصور والنقوش ، فأقبلت النفس على الهيولى تميز اللطيف من الكثيف ، وتفيض عليه تلبسك الفضائل والخيرات • فلما رأى الباري تعالى ذلك منها مكنها من الجثث وهيا لها ، فخلق من ذلك الجسم عالم الأفلاك وأطباق السماوات من لدن فلك المحيط الى منتهى مركز الأرض ، وركب الأفلاك بعضها في جوف بعض ، وركز الكواكب مراكزها ، ورتب الأركان مراتبها على أحسن النظام والترتيب بما هي عليه الآن ، لكيما تتمكن النفس من إدارتها وتسيير كواكبها ، ويسهل عليها اظهار أفعالها وفضائلها والخيرات التي قبلتها من العقل الفعال • فهذا الذي كان سبب كون العالم ، أعني عالم الاجسام ، بعد ان لم يكن • • •

اخوان الصفا والنفس :

يعتبر اخوان الصفا وخلان الوفاء ، النفس جوهرية روحانية

سماوية حية بالذات علامة بالقوة ، فعالة بالطبع ، تظل بعد مفارقة الجسد ، أما ملتفة فرحانة ، وأما مفتحة خاسرة - وهذه النفس باعتقادهم جزء من النفس الكلية ، ولكنها غير منفصلة منها ولا هي هي بعينها ، ولنستمع اليهم ماذا يقولون (١) : « وأما الصفات المختصة بالنفس بمجرد ما أنها جوهرية روحانية سماوية نورانية حية بذاتها علامة بالقوة ، فعالة بالطبع ، قابلة للتماليم ، فعالة في الاجسام ومستعملة لها ، ومتعمة للاجسام ومفارقة لها ، راجعة الى عنصرها ومعدنها ومبدئها كما كانت أما بريح وغيطة أو ندامة وحزن وخصران ، كما ذكر الله عز وجل بقوله : « كما بدأكم تعودون ، فريقتا هدى ، وفريقتا حق عليهم الضلالة » - وقال عز وجل : « كما بدأنا أول خلق نبيه » ، وعدا علينا انا كنا فاعلين » - وقال تعالى : « افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم اليها لا ترجعون » .

ويرى اخوان الصفا ان النفوس من حيث النفسية ، جوهر واحد وانما تختلف النفوس بحسب اختلاف قواها ، واختلاف قواها بحسب اختلاف أفعالها ومعارفها وأحلامها ، كما أن اختلاف الاجسام بحسب اختلاف أشكالها ، واختلاف أشكالها بحسب اختلاف أعراضها : « واعلم بأن نفس العالم نفس واحدة ، كما أن جسده جسم واحد بجميع أفلاكه وكواكبه وأركانه ومولداته ، ولكن لما كانت لنفس العالم أفعال كلية بقوى كلية ، وأفعال جنسية بقوى جنسية ، وأفعال نوعية بقوى نوعية ، وأفعال شخصية بقوى شخصية ، وهي حركتها من المشرق

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج ١ ص ٢٦٠ .

الى المغرب وبالعكس ، ومن الشمال الى الجنوب وبالعكس ، ومن فوق الى أسفل وبالعكس ، سميت هذه القوى بأفعالها نفوسا جنسية ونوعية وشخصية ، فتكثرت النفوس بحسب قواها المختلفة ، وتكثرت قواها بحسب أفعالها المتننة ، كما تكثر جسم العالم بحسب اختلاف أعراضه ، فأفعال نفس العالم الكلية هي أدارتها وأفعالها الجنسية ما يختص بكل فلك وكل كوكب من الحركات الست العارضة ، وما يختص بالأركان الأربعة التي تحت فلك القمر من الحركات الطبيعية ، وأفعالها النوعية ما يختص بالكائنات المولدة التي هي الحيوان والنبات والمعادن وأفعالها الشخصية التي تظهر من أشخاص الحيوانات وما يجري على أيدي البشر من الصنائع * .

وعندما أبدع الباري تعالى النفوس واختراعها وأبرز المستكن والمستهجن من الكائنات ، رتبها ونظمها كمراتب الأعداد المفردات ، نذكر طرفا من مراتبها ومقالاتها الجنسية ، إذ كانت الأنواع والأشخاص لا يمكن تعديدها ولا عظمها إلا هو * . « واعلم يا أخي بأن مراتب النفوس ثلاثة أنواع - - فمنها مرتبة الأنفس الانسانية ، ومنها ما هي دونها ، فالتي هي دونها سبع مراتب ، والتي هي فوقها سبع أيضا ، وجعلتها خمس عشرة مرتبة ، والمعلوم من هذه المراتب التي ذكرناها عند العلماء ، ويمكن لكل عاقل أن يعرفها ويحس بها ، خمس ، منها اثنتان فوق رتبة الانسانية وهي رتبة الملكية والقدسية ، ورتبة الملكية هي رتبة الحكيم ، ورتبة القدسية هي رتبة النبوة والناموسية ، واثنتان دونها وهي مرتبة النفس النباتية والحيوانية ، ويعلم صحة ما قلنا وحقيقة ما وصفنا ، الناظرون في علم النفس من

الحكماء والفلاسفة وكثير من الاطليام . وأما الرتبتان اللتان فوق رتبة الانسانية فهي مرتبة الحكمة وفوقها الناموسية ، وأما مرتبة الانسانية فهي التي ذكرها الله تعالى بقوله : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » . وأما التي فوق هذه مما أشار إليه بقوله : « ولما بلغ أشده واستوى » - يعني الانسان - آتيناه حكما وعلمًا . - وقال أيضا : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » - يعني الانسان ، أحيينا نفسه بنور الهداية ، وهذه مرتبة نفوس المؤمنين العارفين والعلماء الراستخين - . وأما التي فوقها فمرتبة النفوس النبوية الواصفين التواميس الالهية ، واليها أشار بقوله جل ثناؤه : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وهذه المرتبة تلي مرتبة القدسية الملكية .

فقد تبين ، ربما ذكرنا المراتب الخمس التي يمكن الانسان أن يعلمها ويحس بها . فأما المراتب التي دون النباتية وفوق القدسية فبعيدة معرفتها على المرتاضين بالعلوم الالهية ، فكيف على غيرهم ؟

وبعد أن عددوا مراتب النفوس الشمس ، وأشاروا الى الفائدة والحكمة من رباطها بالأجسام ، التفتوا الى ما يخص كل نوع منها من المعاونة والتأييد ، وهي القوى الطبيعية ، والاخلاق المركوزة ، والهيكل الجسمانية ، والأدوات الجسدانية ، والشعورات الحسية ، والأوهام الفكرية ، والحركات المكتاتية ، والأفعال الارادية ، والاعمال الاختيارية ، والصنائع الحكيمة ،

والأوضاع الفاموسية ، والسياسات الملكوتية (١) -

ويعتقد اخوان الصفا أن الجسد كالدار ، وأن النفس كالساكن في الدار ، وقد بنيت وأحكم بناؤها ، وقصنت بيوتها ، وملئت خزائنها ، وسقنت سطوحها ، وفشحت أبوابها ، وعلقت ستورها ، وأعد فيها كل ما يحتاج إليه صاحب المنزل في منزله - فيشبهون الجسد ، بالنسبة للنفس ، كدكان الصانع ، وأن جميع أعضاء الجسد للنفس بمنزلة أداة الصانع في دكانه ، وأن النفس بكل عضو من أعضاء الجسد تظهر ضروريا من الأفعال وفنوننا من الأعمال ، كما أن الصانع بكل أداة يعمل ضروريا من الأعمال وفنوننا من الحركات - ولم يغفوا في أمثالهم وتشبيهاتهم عند هذا الحد بل نراهم يشبهون الجسد بالنسبة للنفس بالمدينة التي تفص بالآلاف السكان ، معتبرين حالات الجسد تشبه حالات المدينة ، وتصرفات النفس تشبه تصرفات أهل المدينة فيها (٢) -

• أعلم أن في هذه النفس الساكنة في هذا الجسد قوى طبيعية وأخلاقا غريزية منبثة في أعضاء هذا الجسد تشبه قبائل أهل تلك المدينة وشموبها النازلين في المحال بتلك المدينة ، وأن لتلك القوى وتلك الأخلاق أفعالا وحركات منبثة في أوعية هذا الجسد ، ومجاري مفاصله تشبه أفعال أهل تلك المدينة في منازلهم ، وحركاتهم في طرقاتها ، وأعمالهم في أسواقها - فأما القوى الطبيعية والأخلاق الغريزية التي تشبه القبائل والشعوب فهي ثلاث أجناس : فمنها قوى النفس النباتية ووزعاتها الشهوانية : فضائلها ورذائلها ، ومسكنها الكبد ، وأفعالها تجري مجرى

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج ٢ ص ٢٨٤ .

(٢) رسائل اخوان الصفاء : ج ٢ ص ٢٨٦ .

الأوراد الى سائر أطراف الجسد . ومنها قوى النفس الحيوانية وحرركاتها وأخلاقها وحواسها وفضائلها ورذائلها ، ومسكنها القلب ، وأفعالها تجري مجرى المروق الغوارب الى سائر أطراف الجسد . ومنها قوى النفس الناطقة وتميزاتها ، ومعارفها ، وفضائلها ، ورذائلها ، ومسكنها الدماغ ، وأفعالها تجري مجرى الأعصاب الى سائر أطراف الجسد . ثم اعلم أن هذه النفوس الثلاثة ليست متفرقات متباينات بعضها من بعض ، ولكنها كلها كالفرع من أصل واحد متصلات بذات واحدة كاتصال ثلاثة أقصان من شجرة واحدة ، تنفرع من كل غصن عدة قضبان ، ومن كل قضيب عدة أوراق وثمار . . . فهكذا أمر النفس ، فاتها واحدة بالذات وإنما تقع عليها هذه الاسماء بحسب ما يظهر منها من الافعال . . » .

العلل والمعلولات عند اخوان الصفا :

يرى اخوان الصفا وخلان الوفاء أن لكل واحد من الموجودات أربع علة : علة فاعلة ، وعلة مصورة ، وعلة متممة ، وعلة هيولانية ، فإذا اعتبرت جميع الموجودات كلها لا بد لها من هذه الأربع العلة : مثال ذلك الكرسي ملته الفاعلة النجار ، والهيولانية الخشب ، والصورية الترييع ، والتامة القمود عليه (١) . وأما الجسم المطلق فعلته الهيولانية هي الجوهر البسيط الموضوع فيه قوة القبول ، التي بها قبل الطول والمرض والعيق ، فصار بها جسما ، وعلة الفاعلة هي الباربي جل وعز ،

(١) الرسالة الجامعة : ص ٣٧٤ منشورات دار صادر .

وعلة الصورية العقل ، لأن الطول والعرض والعمق إنما هي صورة عقلية ، وعلة التمامية هي النفس ، لأن الهيولى من أجلها خلقت ، لكيما تفعل فيه ومنه ما يفعل ويصنع لتتم الهيولى وتكمل النفس . وهذا يا أخي هو الغرض الأقصى في رباط النفس بالهيولى . وأما الهيولى الأولى التي هي جوهر بسيط ، ولها ثلاث علل : الفاعلة ، وهي الباري جل وعز ، والصورية وهي العقل الأول ، والتمامية وهي النفس ، وأما النفس فلها علتان وهما الباري سبحانه ، والعقل . فالباري علتها الفاعلة المخترعة لها ، والصورية هي العقل الذي يفيض عليها ما تقبله من الباري تعالى . وأما العقل فله علة واحدة ، وهي الباري عز وجل الذي أفاض عليه الوجود والبقاء والتمام والكمال دفعة واحدة ، بلا زمان . وهو العقل الذي أشار إليه بقوله في كتابه على لسان نبيه محمد (مسلم) فقال : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر » . وإليه أشار بقوله : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . يعني أن الروح الذي راحت الأشياء كلها إليه منصرفة ، فإليه رواحها ومنه عودتها ، منه تبدوها ، وإليه معادها . وقال : « إلا له الخلق والأمر » . هي الجواهر الروحانية ، وكلها لله عز وجل ، وبأمره قامت وبارادته كانت (١) .

ويمتد جماعة اخوان الصفا وخلال الوفاء أن معرفة علل الأشياء ، ومطلقاتها ، علما غامضا صعبا ، لا يكاد يصل إليه ، ولا يطلع عليه ، إلا المرتاضون بالعلوم الإلهية ، والحكمة الربانية ، المأخوذة عن تلامذة الحكماء الإلهيين ، وخلفاء

(١) الرسالة الجامعة : ص ٢٧٥ .

الأنبياء والمرسلين ، تقليدا وإيمانا وتسليما - . وقد ألقينا
 إليك يا أخي أيديك الله وإيانا بروح منه في هذا الفصل ، معرفة
 العلل والمعلولات ، على ما حكته العلماء ، وأخبرت به الحكماء ،
 من أهل الفلسفة الحكمية ، والشرعية الدينية ، المتفنيين في
 جواباتهم في المعاني الحقيقية - فأعظم المطلوبات من الوقوف
 على العلل والمعلولات ، هو كيفية الوقوف على معرفة علة العالم
 التي حدث عنها ، وكانت سبب وجوده عنها ، وكيف كان هذا
 الوجود عن العلة الأولى وظهور الأشياء بعضها من بعض (١) .
 وأعلم يا أخي بأن كثيرا ممن ينظرون في مبادئ الأمور ،
 يظنون ويتوهمون بأن صور المعلومات في علم الباري جل ثناؤه
 لم تزل مثل صور المصنوعات في أنفس الصانع قبل إخراجها
 لها ، ووصفها في الهيولى المعروفة في صنائعهم ، وأمثلة صور
 المعقولات في أنفس العقلاء ، وتصورهم لها ، وليس الأمر كما
 ظنوا وتوهموا - وأما الحق في القول في هذا المعنى ، فهو قول
 من قال : إنما ذلك ككون العدد في الواحد ، لأن صور المصنوعات
 حصلت في أنفس الصانع ، بعد النظر منهم في مصنوعات من
 تقدمهم وسبقهم إلى وصفها ، وعلمها - والسابقون لهم ،
 المخترعون ، فأنما أخذوا ذلك يدكهم تفوسهم ، ولطافة أذهانهم
 من مفعولات الطبيعة ، ويدائع صنعة النفس الكلية ، بالتأمل
 والتفكير فيها ، وهكذا حكم صور المعقولات ، في أنفس العقلاء ،
 حصلت فيها بعد نظرهم إلى المحسوسات ، وتأملهم لها ، فتصور
 في عقولهم صور الاكتساب ، بالنظر إلى موجودات تقدمت
 لاكتسابهم إياها ، والباري سبحانه يتنزه عن هذا القياس ،

(١) الرسالة الجامعة : ص ٤٧٩ .

ويتعالى عن هذا المثال ، بل علمه من ذاته ، كما أن العدد من ذات الواحد ، والمثال ينبغي أن يكون مطابقةً لما يشتمل به في أكثر المعاني وأعمها ، لا أقلها ولا أنقصها ، فخصه سبحانه (الواحد ، والميروقات كالأعداد - وهذا المثال أكثر مطابقة للحق من غيره من المثالات - واعلم أن كل موجود تام هو علة لما دونه ، وذلك أن كل موجود تام ، فإنه يفيض عنه على ما دونه فيضاً تاماً ، وأن ذلك الفيض من جوهره ، أعني صورته المقدمة التي هي ذاته ، والمثال في ذلك النار وما يفيض منها على ما حولها ، من الحرارة ، والتسخين للأجسام القريبة منها ، قرب الحاجة إليها ، وهكذا أيضاً يفيض من الماء للترطيب ، والببل ، على الأجسام القريبة منه قرب الحاجة إليه ، والمجاورة له ، والرطوبة هي جوهرية الماء ، وهي صورته المقومة لها ، ومثل ما يفيض عن الشمس ، من النور والضياء ، وهو صورتها ، المقومة لذاتها ، وهكذا تفيض من النفس الحياة على الأجسام ، لأن الحياة جوهرية لها ، وهي الصورة المقومة لها .

واعلم أنه ما دام الفيض على المفاض عليه ، متواتراً متصلاً ، فإنه باق على ما هو به ، فإن قصر عنه بكل وجوده ، كذلك وجود الأشياء ، عن موجدتها متواترة ، خارجة من العدم ، إلى الوجود بجموده وفضله ، فلو قبض ذلك الجود لبطل الوجود . والمثال في ذلك تواتر اتصال الأنواء بالهواء ، ما دام متصلاً به ، متواتر القدوم عليه ، يضيء ويشرق ، وإذا انقبض النور والضياء عنه ، أظلم كما يمنع ضوء الشمس الغمام الذي يحول بينها وبين الهواء ، فيعدم النور ، وتحل الظلمة بغيبوبة الشمس ، كذلك فيض العقل على النفس ، وفيض النفس على الأجسام ، والمادة

متصلة بالأول ، فالأول من البارئ سبحانه . وكما أن النفس إذا فارتقت الجسد ، عدم الحياة ، ووقع به الموت ، وبطلت حركته ، كذلك الأشياء كلها ، لو عدمت فيض بارئها عليها ، ونظيره اليها ، نظرة الارادة الملكوئية المكونة لها ، على ما هي كائنة ، جارية على مراده ، ومشيئته ، وقدرته ، سبحانه لا شريك له لبطل وجودها ، وهوت في هاوية العدم (١) .

ويعتبر اخوان الصفا العلل والمعلولات التي هي بعرفهم الأصول يتقدم بعضها على بعض ، كتقدم الواحد على الاثنين ، والاثنان متقدم الوجود على الثلاثة ، كتقدم النفس على الهيولى ، والثلاثة متقدم الوجود على الاربعة ، كتقدم الهيولى على الطبيعة ، والأربعة متقدم الوجود على الخمسة ، كتقدم الطبيعة على الصورة ، وكون اللطائف البسيطة عن البارئ سبحانه دفعة واحدة ، بلا زمان ، ولا مكان ، وشرف بعضها على بعض ، بقرب النسبة اليه والقرب منه . فالبارئ سبحانه ، علة العقل ، والعقل علة النفس ، والنفس علة الهيولى ، والهيولى علة الصورة المجردة .

وفي مجال البحث عن العلل والمعلولات نلاحظ أن اخوان الصفا ينفردون فصلا خاصا في رسائلهم للسؤال عنها ، وينفس الوقت يتولون الاجابة بأنفسهم على كل سؤال من الأسئلة التي طرحوها فيقولون : « في ما العلة ؟ هي السبب الموجب لكون شيء آخر » (٢) .

(١) الرسالة الجامعة : ص ١ (٨٠) — (٨١) .

(٢) رسائل اخوان الصفا : ج ٣ ص ٢٥٨ .

ما العلول ؟ هو الذي لكونه سبب من الاسباب ، كم العلل ؟
 أربعة أنواع : فاعلية ، وهيولانية ، وصورية ، وتمامية - كم
 العلول ؟ أربعة أنواع وهي : المصنوعات كلها ، فمنها بمستويات
 بشرية حيوانية ، ومنها طبيعية وهي : المعادن ، والنبات ،
 والحيوان ، ومنها نفسانية بسيطة وهي الأفلاك ، والكواكب ،
 والأركان ، ومنها الروحانية الالهية وهي الهيولى والصورة
 المجردة والنفس والعقل - ما الصنعة ؟ هي اخراج الصانع ما في
 نفسه من الصور ونقشها في الهيولى ، وكل صانع حكيم فله في
 صنعته غرض ، والغرض هو غاية تسبق في علم العالم أو فكر
 الصانع ، ومن أجله يفعل ما يفعله ، فإذا بلغ اليه قطع العمل
 وأمسك عن العمل -

وبأسلوب علمي عرفاني دقيق يكشف اخوان الصفا عن العلل
 والمعلولات ، مستخدمين الأمثال ، ومقدمين الأدلة والبراهين التي
 تثبت نظرياتهم وآرائهم المتعلقة بتنظيم العالم العلوي والعالم
 السفلي * ولا يغرب عن بالهم أن يطبقوا تفاعلات وحركات
 العالم العلوي بما فيه من أفلاك وكواكب وأجرام على ما يجري
 في العالم السفلي من الأفعال والتأثيرات على الانسان والحيوان
 والنبات * ولنستمع اليهم وهم يتحدثون عن علل الاشياء
 فيقولون : * وكل هذه الأقاويل قالوها في طلبهم الحكمة والعلة ،
 وإنما لم يقتفوا عليها ، لأن نظرتهم كان جزئية ، وبحثهم عن
 علل الاشياء خصوصيا ، وليس يعلم علل الاشياء الكلليات بالفطر
 الجزئي ، لأن أفعال الباري إنما الغرض منها النفع الكلي
 والمصالح العمومي ، وان كان قد نقص من ذلك ضرر جزئي
 ومكافئه خصوصيه ، وليس يعلم علل الاشياء الكلليات أحيانا *

والمثال في ذلك أحكام الشريعة التبوية وحدوده فيها ، وذلك لحكم القصاص في القتل • قال تعالى : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » وان كان موتا وألما للذي يقتص منه ، وكذلك قطع يد السارق منه نفع عمومي وصلاح الكل ، وان كان يناله حزن وألم • وكذلك غروب الشمس وطلوعها ، والأمطار كان النفع منها عموما والصلاح كليا ، وان كان قد يمرض لبعض الناس والحيوان والنبات من ذلك ضرر جزئي •

وهكذا أيضا قد ينال الانبياء والصالحين واتباعهم شدائد وجهد وآلام في اظهار الدين وإفاضة سن الشريعة في أول الأمر • ولكن لما كان البارئ تعالى غرضه في اظهار الدين وسنة الشريعة هو النفع العام وصلاح الكل من الذين يعيشون من بعدهم الى يوم القيامة ، لا يحصى عددهم ونفهم وصلاتهم ، سهل في جنب ذلك وصفر ما تال النبي من أذية المشركين ، وجهاد الأعداء المخالفين ، وما لاقوه من الحروب في القتال في الغزوات ، وتعب الأسفار ، وقيام الليل وصيام النهار ، وآداء الفرائض ، وما فيها من الجهد على النفوس ، والتعب على الأبدان •

ولما كان نزول الأمر في المنقلب الى الصلاح العمومي والنفع الكلي ، كانت الشدائد والجهد والبلوى في حيته أمرا صغيرا جزئيا • فعلى هذا المثال والقياس ينبغي أن يعتبر من يريد أن يعترض ما العلة ، وما وجه الحكمة في أكل الحيوانات بعضها بعضا ، ليتبين له الحق والصواب • • • • •

الله عند الكرمانى :

يعتبر حجة المراقين الداعي أحمد حميد الدين الكرمانى من

كبار فلاسفة أهل الحق الذين عالجوا فلسفيا القضايا الماورائية فكتبوا الكثير عنها ، ومما قاله في هذا الموضوع (١) :
 ان من القوائين أنه لا وجود لمعلول الا بما يوجب وجوده من علته
 التي وجوده بها يتعلق ، واليهما في وجوده يستند ، ولولاها لما
 وجد ، كالحرارة مثلا التي لا وجود لها الا بما يوجب وجودها من
 علتها التي وجودها بها يتعلق ، واليهما في وجودها تستند ، وهي
 الحركة التي لولاها لما وجدت ، وكالحركة التي لا وجود لها
 الا بموجب وجودها من علتها التي بها يتعلق وجودها واليهما في
 الوجود تشتد وهي الحرك الذي لولاها لما وجدت ، وكالمركبات
 الجسمانيات من المواليد التي لا وجود لها الا بوجود الاستقصات
 التي بها يتعلق وجودها واليهما تستند في وجودها ولولاها لما
 وجدت ، وكاستقصات التي لولا وجود ما تستند اليه في وجودها
 من المادة والصورة اللتين لولاها لما كانت ولا وجدت ، وكالمادة
 والصورة اللتين لولا وجود ما تستند اليه في وجودهما من الاسباب
 التي من شأنها أن يوجد عنها من الاجسام المعالية السماوية
 والصور المتعالية الخارجة لما وجدنا .

ولما كانت الموجودات بعضها في وجوده مستند الى بعض ،
 وكان لو كان ذلك البعض الذي يستند هذا البعض في وجوده
 اليه وبه يتعلق وجوده غير ثابت في الوجود ، ولا موجودا ، لكان
 وجود هذا البعض محالا ، فلما ثبت أنه لا وجود لهذا الا بذاته ،
 كان منه العلم بأن الذي تنتهي اليه الموجودات التي به توجد
 واليه تستند ومنه توجد هو الله الذي لا اله الا هو محال

(١) راحة العقل : المشرع الاول من ١٢٩ تحقيق الدكتور مصطفى غالب .

ليسيته ، باطل لا هويته ، اذ لو كان ليسا ، لكانت الموجودات أيضا ليسا - فلما كانت الموجودات موجودة كانت ليسيته باطلة ، ثم لما كان من شأن الأضداد أن لا يكون لها وجود الا بفقد اضدادها وكانت الموجودات متضادة وأعيانها مختلفة متنافرة ، وهي على ما هي عليه من تضادها موجودة لا يفقد شيء منها بوجود ضده ، وكلها تحت الوجود محفوظة ، كان من ذلك العلم بأن الذي بطلت طبيعة الضد في الخروج من خير الوجود بوجود ضده ، وانحفظ الضد عن ضده الذي هو الله الذي لا اله الا هو الذي ليسيته محال ، اذ لو كان ليسا لكان وجود المتضادات ليسا ، ولما كانت المتضادات موجودة أعيانها كانت ليسيته باستناد وجودها الى سياسة باطلة فسبحان الذي به انحفظ وجود الاشياء على تضاد أعيانها ، واختلاف صورها به ، ولا اله الا هو الله اله خرس الألسن عند نهوض الأنفس لتتناوله بصفة النطق فوقفت متيقنة بالعجز متعيرة ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم (١) -

في القلم الذي هو الموجود الأول :

في اثبات المبدع الذي هو الموجود الأول « وأن وجوده لا من ذاته » وأنه علة تنتهي اليها الموجودات ، وأنه لا جسم ولا قوة في جسم ، وأنه خارج عن عالم الروح ، لما كان الله تعالى في

(١) بحلول الكرماني في هذا الموضع ان يؤكد فلسفيا بأن الله لا يمكن ان يكون معنويا اذ لو كان ذلك كفلك لكانت الموجودات ايضا معدومة . ولما كانت الموجودات موجودة كانت عدمية الله باطلة . وهنا يؤكد وجود الله من طريق ابطال ليسيته ، لضرورة استناد الموجودات واحتياجها الى موجد - راحة العقل ص : ١٥٥ .

علوم عن المراتب كلها كمالات ونقصانات ، ووحدة وكثرة ، وما
 يكون لحرف « لا » سلوك في نفيه من الصفات والموصوفات
 اللازمة اياها سمة لاختراع ورام ما تهتدي العقول اليه بضيائها
 والافكار بخطراتها على ما ذكرناه . ووقع اليأس من الظفر بما
 يكون طريقا الى تناوله بصفة ، كان مآدونه هو الموصوف الموجود
 الذي في القدرة التوصل الى الكلام عليه انباء عنه ؟ واذا كان
 ما سواه الذي وجوده باختراعه اياه هو الذي في قدرة العقول
 التوصل الى الكلام عليه ، والانباء عنه بالافوصاف الموجودة في
 الخلقة ، قلنا ان الذي يترتب أولا في الوجود هو المتصور انه
 لم يكن فوجد عن طريق الابداع والاختراع من لا شيء ، ولا
 شيء ، ولا في شيء ، ولا مع شيء الذي هو الشيء الاول ،
 فيكون وجوده من طريق الترتيب وجودا ثابتا ووجودا أولا ،
 بكونه نهاية أولى وعلة أولى بها يتعلق وجود ما سواها من
 الموجودات متوجها فيه نحو النهاية الثانية ، كما يكون الواحد
 في وجود الاعداد مترتبا أولا ثابتا بكونه نهاية أولى وعلة أولى
 بها يتعلق وجود ما سواه من الاعداد متوجها فيه نحو النهاية
 الثانية ، هذا اثباته من جهة ترتيب الموجودات . ومن جهة
 اتجاه الفعل وسدوره الى الوجود ضروريا ، فان الاول ان لم
 يثبت وجوده لم يكن للثاني طريق الى الوجود والثاني ان لم
 يثبت وجوده لم يكن للثالث طريق الى الوجود ، واذا لم يكن
 للثاني والثالث وجود الا بثبوت وجود ما يكون أولا لهما وسببا
 لوجودهما . فمن وجود الثالث والرابع وغيرهما من الموجودات
 قيام الدليل على وجود أول لها ثابت ، وسبب لولاه لما وجد
 سواه ، فقد ثبت للموجودات بوجودها مبدء أول عنه ترتبت في

الوجود ، وذلك المبدأ الأول نسميه المقل الأول والوجود الأول -
الذي وجوده لا بذاته بل بإيداع المتعالي سبحانه آياه .

ثم نقول بالعكس ، لما كانت الموجودات مستندة في وجودها
الى علل سابقة عليها ، وكان كل موجود منها في ذاته فعلا لما
يتقدم عليه منها ، ومفعولا له من مادة ، وقاعلا لفعل ذاته من
مادة ، كان من وجود الموجودات العلم بأنها منتهية الى علة تنتهي
العلل اليها ثابتة ، هي في ذاتها فعل صادر عن لا يستحق أن
يقال أنه فاعل ، وهي مفعولة لا من مادة ، وهي علة قاملة لا في
مادة هي غيرها : وذلك أن وجود الموجود يتعلق بثبوت ما يتقدم
عليه من علته التي لولا ثبوتها لما وجد ، كالنسبة التي هي علة
لوجود العشرة ، ومتى لم يثبت وجودها استحال وجود العشرة -
فلما كانت الموجودات موجودة ثابتة ، ثبت أن العلل ثابتة وأنها
لا تزال ترتفع عن الكثرة عند التوجه نحو الاول منها وتقل الى
أن تنتهي الى شيء واحد ثابت هو علة تنتهي اليها العلل ، مثل
النسبة من الأعداد التي وجودها يدل على وجود الثانية ،
ووجود الثانية يدل على وجود السبعة ، فلا تزال ترتفع عن
الكثرة تحليلا الى ما منه وجدت الى أن تنتهي الى واحد ثابت هو
علة لجميعها وبه قوامها فيكون ذلك الواحد المتقدم الرتبة
وجوده لا بذاته ، بل هو في ذاته فعل عن لا يستحق أن يقال
انه فاعل ، وهو مفعول لا من مادة ، وهو فاعل لا في مادة هي
غيره - وانما قلنا انه هو فعل في ذاته لكونه أول موجود على ما
بيناه فيما بعد عن الذي لا يستحق أن يقال انه فاعل فيكون
بكونه فاعلا فعلا فيقتضي كونه فعلا ما تكون عنه هيئته ويؤدي
ذلك الى ما لا يتناهى على ما بيناه في رسالتنا المعروفة «بالروضة»

يشهد بما قلناه من ثبوت أول به يتعلق ما سواء تحليلنا الموجودات الى غلظها وانتهائها الى واحد وجوده لا بذاته بل عن غيره : وذلك انا وجدنا الانسان الذي هو آخر الموجودات وهو النهاية الثانية لها منحللا الى اشياء كثيرة مفعولة فيها هي كالمادة التي منها فعل وهي كلها دار الطبيعة ، والى اشياء كثيرة فاعلة صارت دار الطبيعة مادة لها بفعل فيها لاخراج ما من شأنه أن يوجد منها الى الوجود مثل الانسان وغيره ، وهي كلها قائمة بالفعل ، وهي الملائكة الموكلة بالعالم ، فهو - أعني الانسان - فاعل في مواد هي غيره عند ايجاده الصورة الصناعية ، ومفعول من دار الطبيعة ، وفعل للملائكة القائمة بالفعل ، وفاعليته يكونه فعلا لغيره الذي قام بفعله أعني ايجاده ، ووجدنا دار الطبيعة والفاعلين فيها منحلة الى اشياء ليست في الكثرة مثل دار الطبيعة بما تجمعهم والفاعلين فيها بل اقل وهي الهيولي والصورة معا ، ولما صارت والصورة مادة له في تكوين الأفلاك والاستقصات من الملائكة ، أعني العنصر القائم بالفعل ، ودار الطبيعة والفاعلون فيها فاعلة للانسان وغيره من أنواع الموجودات ومفعول مما فيه وجدت ، أما دار الطبيعة فمن الهيولي والصورة ، وأما الفاعلون فمن فاعل مثلهم سابق عليهم ، وفعل للملك القائم بالفعل الذي هو سابق للجميع ، وفاعليتها يكونها فعلا للذي قام بفعله اياها ، ووجدنا الهيولي والصورة والفاعل فيهما متحللين الى شيء واحد منه بانتها التحليل الى أول الكثرة بالدوات التي ليس وراء اولها الذي هو اثنان الا الواحد ، واستناع الامر في انحلالهما الى شيئين يجريان منهما مجرى الآباء والأمهات والفاعلين فيها من الانسان والهيولي ، والفاعلين فيها الآباء والأمهات لاتصال الامر

فيه ان لو كان كذلك الى ما لا يتناهى ، يكون سببا للاوجودية
الموجودات ، فقد ثبت بانتهاام التحليل الى واحد به يتعلق وجود
ما سواء ان هذا الواحد هو العلة الثابتة ، وهو فعل في ذاته ،
وفاعل في ذاته ، ومفعول بذاته . ثم نقول : لما كان كل قائم
بالقوة ناقصا ، وكان خروجه الى الفعل الذي هو درجة الكمال
لا يكون الا بالذي يستند اليه في ذلك محن هو قائم بالفعل تام
في ذاته وفعله ، وكانت آنفس البشر في دار الطبيعة قائمة
بالقوة ناقصة ، فخروجها الى الفعل اذن لا يكون الا بالذي هو
قائم بالفعل ، في ذاته ، وفعله ، ولما كان موجودا من آنفس
البشر من خرج الى الفعل مثل الانبياء والاوصياء والأئمة عليهم
السلام وتابعيهم ينيلهم الكمالين ، واستيفائهم السعادتين
ومصيرهم مجمعا للفضائل ، صغرا من الرذائل تاما ، كان القائم
بالفعل التام في ذاته وفعله الذي به كان كمالهم وارتقاؤهم الى
درجة القيام بالفعل وباستنادهم اليه كان وجودهم تامين ولولاء
لما كان لهم خروج الى الفعل موجودا . واذا كان القائم بالفعل
التام في ذاته وأفعاله الذي به ينهض القائم بالقوة للخروج الى
الفعل موجودا ، لم تخل ذاته أن تكون اما جسما أو قوة في جسم .
أو لا جسما ولا قوة في جسم . فيكون خارجا من عالم الجسم
ويطل أن يكون جسما أو قوة في جسم ، لكون ما يشتمل عليه
عالم الجسم من الاجسام والقوى في الاجسام مواد يغفل فيها
قائمة لتقصاتها بقبول الفيض لنيل كمالها . عاجزة عن الفعل
في اعطاء كل شيء ما يليق به غير بالقوة في تبليغه نهاياته التي
هي كمالاته الا بغير فاعل ، وذلك مثل الاجسام العالية التي
لا يحصل منها بمجردا فعل الا بما يقبل فعلها من الاجسام

السفلية المؤثرة فيها ، ومثل الاجسام السفلية التي لا يحصل منها فعل بمجرد الا بالأجسام العالية المؤثرة فيها ، وهي بجملة ما حازة مؤثرها والمؤثر فيه منها بكونها من قبيل ما يكون مفعولا فيه ناقصا في الفعل عن تكوين كثير من الاشياء الا بمعاونة الغير فاعل وبمعالجته وتديره ، مثل الزجاج الذي عجزت الطبيعة عن اخراجه الى الكون كما اخرجت الذهب وغيره ، وأكثر ما بلغ امكانها اخراج ما يفعل منه فيعالجه الانسان ويجعله زجاجا ، ومثل الحديد الذي قد عجزت عن اخراجه الى الكون اخراج الفضة الى الوجود ووجوده متعلق بتدبير الانسان ومعالجته واخراجه مما اقتضت به الى درجة الوجود ، ومثل النساء اللاتي عجزت عن توليدهن مزيّنات بالعلی والثياب ، والنقش في الخد والغضاب في اليد التي هذه كلها كمال لهن ، وأكثر امكانها اخراجهن ، وما يجعل زينة لهن فيتولى الانسان فعل ذلك وتسميه ومثل أنفس البشر التي عجزت عن اخراجها تامة لا تحتاج في قيامها بالفعل الى غيرها ، ومصرها ما يكون مفعولا فيه محتاجا في اصدار فعله الى غير به يتم فعله ، ناقصا في ذاته وفعله يكون ذاته من شيئين أحدهما غير الآخر ، مثل الانسان الكائن ذاته من شيئين جسم ونفس ، وحاجة كل منهما في وجودهما الاول الى الآخر ، وما يكون ناقصا بتقديم الكامل التام في الذات ، التام في الفعل عليه ، وقد فرضنا أنه تام كامل في ذاته تام في فعله ، واذا كان هو كاملا في ذاته وفي فعله ، فباطل أن يكون ناقصا في ذاته وفعله - واذا بطل أن يكون ناقصا بطل أن يكون جسما أو قوة في جسم لكون الجسم وما في الجسم محتاجا ناقصا ، فهو لا جسم ولا قوة في جسم ، واذا

كان لا جسما ولا قوة في جسم ثبت أنه خارج من عالم الجسم
 قلنا كونه أيضا محتاجا في الفعل الى غير يقوم قابلا لأفعاله ، مثل
 الأنفس التي هي القائمة بقبول فعله فهو هنا للخروج من القوة
 الى الفعل يوجب كونه ناقصا في فعله وان كان تاما في ذاته ،
 والذي يكون ناقصا في فعله تاما في ذاته فهو مسبوق التسام في
 الذات والفعل الذي هو أعلى رتبة منه وأقدم ، فثبت من هذه
 الجهة أن السابق في الوجود الذي يملو برتبته هذا القائم بالفعل
 الذي به يخرج القائم بالقوة الى الفعل هو الموجود الاول الذي
 يكتفي بذاته في فعله ، ويستغنى فيه عن غيره . ولما ثبت ذلك ،
 وكان الكامل السابق الذي هو الموجود الاول هو المكتفي بذاته
 المستغنى في فعله عن غيره ، قلنا : هل يجوز أن يكون هذا الموجود
 الأول هو المتعالي سبحانه عن الصفات المتعلقة به وجود الموجودات ،
 أم لا ؟ بحثا يؤدي أسفاره الى مكونات النفس الى المعتقد في
 ذلك ، فقلنا : لا يجوز أصلا ، فانه لا يخلو أن يكون هذا الموجود
 اما أنه هو الذي ظهر عنه الابداع أو هو المبدع الاول ، وبطل أن
 يكون هو الذي ظهر عنه الابداع بكون الموجود عنه ناقصا في
 فعله ، وقيام الحكم بأنه لو كان هو الذي ظهر عنه الابداع لكان
 الموجود عنه كاملا لا يحتاج في فعله الى غيره . ولما بطل أن يكون
 هو الذي ظهر عنه الابداع ، ثبت أنه هو المبدع الاول والكامل
 في الفعل ، المستغنى فيه عن غيره ، الموجود عنه الناقص المحتاج
 في فعله الى غيره الذي هو الاول في الوجود ، والسابق في الوجود ،
 والتام في الوجود ، والتام في الوجود ، والعقل الاول ، والحد
 الاول ، والمبدع الاول ، والمترتب أولا في الوجود ، وهو المتصور
 أنه لم يكن ، فوجد على طريق الابداع كاملا أزليا ، ذلك هو

الملك المقرب والاسم الاعظم ، لا اله الا من أبدعه ، يصحح جميع ما قلناه من ذلك من التحليل والانتهاج الى شيء ثابت تنتهي اليه الاشياء كلها ، ما كان منه الاستنباط من صنعته عالم الوضع الذي هو الصنعة النبوية ، وشهادتها لنا بالوصاية متوازنة وتطابقه للصنعة الالهية ، وذلك اثنا خلقنا ما به من كمال النفس الانسانية وحياتها وقيامها بالفعل الى ما منه كان وجود ، فوجدناه متحلا الى اشياء كثيرة يجمعها شيان : أحدهما الشريعة الجامعة لأركانها التي هي مراسم العبادتين بالعلم والعمل اللذين في أحدهما تصوير النفس ، وفي الآخر تقويمها الجارية من كمال نفس الانسان مجرى المسالم الكبير الجامع للأفلاك والاستقصات والكواكب وقواها الطبيعية من جسم الانسان ونفسه التي هي اشياء كثيرة ، وهي موازنة للصنعة النبوية ومطابقة لها ، والآخر الامام الجامع للحدود القائمين بحفظ الشريعة وبسط معالمها ، ونشر اعلامها والدعوة الى العلم والعمل بها الذين يسمونهم وتعليمهم وجود الانسان انسانا ، الجارين من كمال نفس الانسان بتأثيرهم فيها تعليمها وهداية ، وبلوغها بها درجة الكمال ، ومنزلة المقول مجرى الملائكة الموكلين بالعالم ، القائمين بالفعل من العالم تأثيرا في اجسامه وقواه الطبيعية لاجراء ما من شأنه أن يوجد منه من حيوان ونبات ومعدن الى الوجود ، اللذين وجودهم في الصنعة الالهية موازن لوجودهم في الصنعة النبوية ومطابق : فكما أن الاستقصاء وقواها بمجرد لا يصح فيها فعل في اخراج موليدها الا بالاشياء الفاعلة فيها ، ولا من الاشياء الفاعلة بمجرد الا بالاستقصاء وقواها المؤثرة فيها ، فكذلك علوم الشريعة وأركانها لا تنبسط الا بالحدود القائمين ببسط علومها

واظهار المكنون فيها منها ولا من الحدود يصح فعل في نفس بمجردا الا بسنن الشريعة ووضائعها وعلومها ، وذلك من التوازن والتطابق بين - ثم حللنا الشريعة الجامعة لأركانها وسماها والحدود القاشمين بها الى ما منه وجد الكل ، لتكون شهادة صادقة بما حللنا اليه العالم والفاعل فيه ، فوجدناها منحلة الى شيئين ليسا بأشياء كثيرة مثل أركان الشريعة وعلومها وأعمالها ، بل قل أحدهما الكتاب بما عليه صيغته من الاعجاز فوازن ذلك ما انحل اليه العالم بأركانه وأفلاكه وكواكبه من الهيولى التي هي وصورتها شيء واحد ومطابقه * والآخر الأساس الفقائم بحفظ الكتاب الذي منه كانت الشريعة وهو كالمادة له يعمل فيه ويستخرج مكنون علمه ويبسطه ويؤيد الشريعة وينصرها - فوازن ذلك الملك الذي يفضل في الهيولى والصورة التي منها كان عالم الجسم والطبيعة ومطابقه * وحللنا الكتاب والأساس الى ما منه وجد ، فوجدنا وجودهما من الناطق (١) الذي هو شيء واحد بانتهاء عالم الوضع الى النهاية التي لا يكون وراءها ما يكون من جنسه فطابق ذلك ما انحل اليه الهيولى والصورة والفاعل فيها وهو شيء واحد بانتهاء الموجودات الى النهاية التي ليس وراءها الا ما هو لا من جنس الموجودات ووازته ، ولم يجز أن يكون وجود الأساس (٢) والكتساب من شيئين الا من واحد ، اذ لا واسطة بين الناطق وبين الأساس والكتاب الذي هو أصل الشريعة وقوامها ، كما لم يجز أن تنحل الهيولى والصورة والفاعل فيها الى شيئين بانتهاء التحليل الى أول

(١) يعني النبي محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام .

(٢) يقصد الامم مؤسس الدور الذي يلي الناطق ، واكتسب القرآن .

الموجودات التي ان لم يتأحد أدى الى ما لا نهاية له ، وما لا نهاية له أولا فوجوده محال ، ووجدنا المتعلمين في عالم الشرع الذين لا يكون ارتقاؤهم الى درجة العلم وبلوغ منزلة الكمال الا بوجود معلم هاد (١) قد أقيم لهم مقام من يقوم بالتعليم والتأثير فيهم هداية وتقويما وذلك مطابق لما حكمنا به من وجوب وجود من يستند اليه القائم بالقوة في خروجه الى الفعل وموازن ، ووجدنا حدود الدين الذين يقومون بالتعليم والهداية فاضلهم ومفضلهم كلهم عاجزين عن استخراج العلوم واصطيادها بذواتهم محتاجين لهم ، وذلك مطابق لما حكمنا به من عجز موجودات العالم مؤثرها والمؤثر فيه منها عن اخراج الاشياء في وجوداتها الى نهايتها وموازن ، ووجدنا من يعجز عن استخراج العلوم بذاته ناقصا في ذاته وفعله ، أما في الذات فيكونها غير مقومة بأحكام الشريعة ، وأما في الفعل فيكونه غير متصور للمعارف الدينية الالهية ، وذلك مطابق لما حكمنا به من مصير من يكون مفعولا فيه ومحتاجا في فعله الى غيره ناقصا في ذاته وفعله ، وأما في الذات فيكونها من شيئين أحدهما غير الآخر ، وأما في الفعل فتلحاجة الى الغير وموازن -

ووجدنا من يكون ناقصا في ذاته وفعله قد أقيم له تام في ذاته ناقص في فعله ، مثل الأساس الذي هو تام في ذاته يكون كاملا ، ناقص في فعله يكونه محتاجا فيه الى الكتاب والشريعة

(١) معلم هاد قد أقيم : يعني الامام الذي له الحق بأن يعلم الناس التأويل وأصوله وأحكام ما ورد في القرآن وما حوته الشريعة باعتباره الوحيد الذي له الحق بعد النبي وهو بدوره يفرض حدوده الدينية بأن يقوموا بمقابلته ويحلوا الناس على أحكام الدين .

ليفعل بهما في الانفس ويدعو الى التأويل والعلم بتوازن العوالم
 في الصنعة النبوية ، المصحح للظواهر المقتترن بالعمل ، وذلك
 مطابقا لما حكمنا به من كون الذي يخرج به القائم بالقوة الى
 الفعل الذي هو خارج من عالم الجسم تاما في ذاته كاملا ناقصا في
 فعله لحاجته في اتمام فعله الى القوايل التي هي بمنزلة المادة
 التي يفعل فيها وموازن له - ووجدنا كون الأساس أساسا
 بالنطق التام في الذات والفعل الذي به وجوده واليه معاده ،
 وذلك مطابق لما حكمنا به من وجود سابق على العام في الذات ،
 الناقص في الفعل ، الذي به يخرج القائم بالقوة الى الفعل تام
 في الذات والفعل جميعا ، هو الاول من جميع الموجودات والنهاية
 الاولى من الموجودات ، وموازن له - ووجدنا الناطق في عالم
 الشرع والوضع أصلا اليه ينتهي الكل من الحدود ، وليس فوقه
 الا من أناله تلك المرتبة العالية وهو تام في ذاته ينيله الكمال ،
 تام في فعله بكونه غير محتاج فيما شرعه وبينه وأتى به من
 الكتاب المبين الى غير يستعين به الا ما به قوامه وتعامه ممن هو
 فوقه ، وذلك مطابق لما حكمنا به من وجود الموجود الاول أصلا
 اليه ينتهي كل موجود ، وأنه ليس فوقه الا من أبدعه سبحانه ،
 وأنه تام في ذاته ، تام في فعله وموازن له - فمن مصير الناطق
 علة تنتهي اليها الاشياء الدينية الوضعية القائم بالقوة منها
 والقائم بالفعل جميعا ، وموازنة الموجودات عنه ما عليه الخلقة
 الالهية قام الدليل على أن الشيء الاول هو علة تنتهي اليه
 العلل ، وكما صار الناطق أصلا أولا وجد عنه الكتاب والاساس
 صار الشيء الاول أصلا أولا وجد عنه الهيولى والصورة المفارقة ،
 وكما صار الناطق وجوده ناطقا لا من جهة من كان من جنسه من

البشر صار الشيء الاول وجوده لا عمن هو من جنسه ، وكما صار الناطق موجدًا عن غير به وجوده ، الاول موجدًا عن غير به وجوده : ذلك تأويل قول الله « شمر دلعة طيبة كشجرة طيبة » مثلاً بمثل .

وقد تبين بما أوردناه ثبوت وجود الموجود الاول ، وأن وجوده لا بذاته ، وأنه فعل وفاعل ومفعول في ذاته ونهاية تنتهي إليها الموجودات ، وأنه لا جسم ولا قوة في جسم ، وأنه خارج عن العالم الجسماني .

الابداع عند الكرمانى (١) :

ولم يهمل الكرمانى قضية الابداع وما يتبعها من مشاكل عقلانية فقد خصص لها الكثير من أبعائه العرفانية فقال : في أن الموجودات عن الابداع الذي هو المبدع الاول بالانبعاث وجودها لا بزمان ، وأن كلها صور معضة الا الهيولى فانها هي واحدة من جهة وكثيرة من جهة أخرى ، وأنها لا تعقل الا ذواتها ، وما تقدم عليها في الوجود ، وأن صورتها صورة الانسنان لا تقعداها ، نافذة أنوارها في الاجسام والانتفس فاعلة فيها وبها يشعق وجود الموجودات ، ولما كانت الافعال تنقسم في وجودها ثلاثة أقسام : أولها الذي هو أشرفها وأكملها ما يكون لا بزمان ويختص ذلك باسم الابداع . وثانيها : الذي هو أوسطها ما يكون مع الزمان ويختص ذلك باسم الانبعاث . وثالثها : الذي هو أدونها وأخصها ما يكون بزمان يختص ذلك باسم الاحداث .

(١) راحة العقل : المشرع السابع ص ٢٥٨ .

وكان ما يكون يزمان هو الفعل الصادر عن علة فاعلة معوقة عن فعلها ، أما من جهة ذاتها بكونها مشوبة بما يعوقها ، أو من جهة المادة التي فيها يفعل باقتناعها عن القبول دفعة واحدة أو كليهما ، وذلك يختص بعالم الكون والفساد مثل الأمور الصناعية • وما يكون مع الزمان هو الفعل الصادر عن علة فاعلة في ذاتها أو غيرها مما هو على غاية القبول ، وذلك يختص بالذوات البرية من الاجسام ، والاجسام العالية بكونها قائمة بالفعل • وما يكون لا يزمان هو الفعل الصادر لا عن علة فاعلة في ذاتها ولا في غيرها ، ولا عن علة معوقة في ذاتها ومادتها ، بل عن المتعالي سبحانه عن ذلك كله ، وكان الموجود في عالم الابداع والانبعاث لا عن علة فاعلة في ذاتها ولا في غيرها ، ولا عن علة معوقة في ذاتها ومادتها ، كان من ذلك الايجاب بأن وجوده بلا زمان ، ثم وجود الاشياء في عالم الكون والفساد شيء بعد شيء من المواليد ، وفي عالم الدين كذلك شيء بعد شيء من قرىضة ، وسنة بعد سنة ، وامام بعد امام ، وانما هو للعوائق التي تعوق العمل الفاعلة من أفعالها ، اما في ذواتها بأن تكون مشوبة بما منه يقع التعويق من المواد التي تتقدمها من الفعل الا يزمان ، أو في موادها التي فيها تفعل بأن تكون غير قابلة دفعة واحدة الا بمدة وزمان كالشمس التي هي علة فاعلة للاسخان ، فاسخانها جسم الحجر المقابل لضغطها الذي لا يكون نفوذ حرارتها فيه لضيق جوهه وتكاثف أجزائه - أعني الحجر - وتداخل بعضها في بعض لا يزمان ، لا كاسخانها جسم الهواء وذلك من جهة الجسم المقابل لا من جهتها • ودار الابداع والانبعاث لا عائق فيهما لخلوها من المواد التي تعوق وتجردها منها ، وكونها مسورا

محضة لا تتعلق بسادة ولا لها مادة فتخرجها عن الفعل . وإذا كان لا عائق فيها فوجود موجوداتها لا بزمان بل دفعة واحدة مثل وجود اشراق بسيط الهواء عن ضوء الشمس لا بزمان ، واضاءة النار البيت المظلم دفعة واحدة بلا زمان ، وكفعل الطبيعة في محاكاتها تلك الافعال المرتفعة عن الزمان فيما تخرجه الى الوجود ، مثل المطلع الذي تخرجه بكفه وحباته وأهذاقه في بدم أمره من الجمار معا على أصفر شيء هيئة من غير أن تقدم شيئا منه على شيء يتعلق بالكمال الاول ، وكالزمان الذي تخرجه من الجطار بحبابه وأقسام باملته وقشوره على أصفر شيء صيغة وأرق شيء جسما من غير أن تخرج منه شيئا بعد شيء بل معا ، ولما كان الامر في وجود تلك الاشياء والمبادئ على هذه الصيغة معا ، وبالنسبة مما عليه وجود الحدود السفلية يكون تلك على غاية الكمال أولا ، وهذه على نهاية النقصان أولا ، استحال أن يكون وجودها بزمان ومدة - ثم كون الابداع الذي هو المبدع الاول ذات الفعل الصادر عن المتعالى سبحانه ، وكونه قائما بالفعل لا قائما بالقوة فيكون بين كونه قائما بالقوة وبين قيامه بالفعل لحاطة منه بذاته التي يتعلق بها وجود كل عقل منبعث تصور مدة وزمان ، يلزم أن يكون وجود الكل بوجود الابداع معا ، وإذا كان ذلك كذلك فلا زمان هناك في وجود الموجودات ووجودها كلها . ثم وجود الانبعاث من الابداع الذي هو المبدع الاول عن احاطته بذاته واعتباطه بها فلم يوجد الابداع الذي هو المبدع الاول ، ولا هو محيط بذاته ولا هو مغتبط بها ، بل وجد وهو كذلك محيط ومغتبط ، وكونه على ذلك يلزم أن تكون الموجودات عنه وجودها لا بزمان بل معا . يدل على ذلك

ويصححه شهادة عالم الدين من اقتران الوصاية بالنبوة والكتاب والوصي - وقول النبي الناطق صلوات الله عليه ، الا انني تارك فيكم الثقليين كتاب الله وعترتي ، جبل محدود من السماء الى الارض طرف منه بيد الله ، وطرف منه بايديكم ، فتمسكوا بهما فانكم لن تضلوا ما ان تمسكتم بهما ، وقد سألت ربي ان يردا علي الحوض كهاتين ، وأشار بالمسبحتين من يديه جميعا ، وقال : « ولا أقول كهاتين » وجمع بين المسبحة والوسطى من بدء الواحدة احدهما تسبق الأخرى ، الذي يدل بكونهما معا على ان شيئا في تلك الدار لم يتقدم وجوده على شيء من العقول القائمة بالفعل ، والعقول القائمة بالقوة ، بل وجد الكل معا ، والساري فيه من العناية الالهية بمطي كل منها ما هو اهل له . ثم ان تلك الموجودات مع كونها في وجودها معا هي شيء واحد من جهة كونها حياة ، وباحاطتها بذواتها عقلا وأشياء كثيرة من جهة رتبها وشرفها وتكثرها على ما عليه حال عالم الجسم في موجوداته ، فاتها كلها شيء واحد من جهة كونه جسما ملويلا عريضا عميقا ، وهي أشياء كثيرة من جهة صورها التي تخصها وتكثرها بأحوالها يشهد بذلك مطابقة المقرر من جهة مراتب الحدود في عالم الدين القانمين بحفظه لذلك ، وذلك ان الأئمة عليهم السلام في الأدوار الصغار ، والنهطاء عليهم الصلاة والسلام ، في الأدوار الكبار ، من جهة كونهم نهطاء وأئمة ، كلهم شيء واحد لا يتفاضل أحد منهم على غيره ، لا ناطق على ناطق ، ولا امام على امام ، يكون كلهم الكمال ودرجة التمام كنفس واحدة ومن جهة أتباعهم والمتصلين بهم من الأنفس كثيرون يتفاضل الواحد منهم على الآخر ، الناطق على الناطق ،

والامام على الامام ، فان من كانت دعوته أصم والفضلاء في زمانه ويط دعوته أكثر فهو أفضل ، اذ هو مجسمهم والوارد بهم على المنهل المورد الذي هو محشرهم ثم أنها - أعني المقول في دار الابداع والانبياء - تعقل ذواتها وذوات ما يتقدم عليها ، وبحسب عقل كل منها ما فوقه في الرتبة تكثره ، كالخامس مثلاً الذي تكثره أكثر من تكثر الرابع ، يكون ما يلزم الخامس عقله من الأمور السابقة عليه في الوجود أكثر مما يلزم الرابع عقله من ذلك ، وكالرابع الذي تكثره بعقله ما فوقه أكثر من تكثر الثالث بما يعقله ما فوقه ، اذ كل من كان الى الواحد أقرب فهو أبسط ، ثم لا يلزمها عقل ما دونها اذ وجودها بوجود السابق عليها في الوجود لا بوجود المترتب دونها من الوجود . يصحح ذلك فاعلية قانون الديانة فيما يلزم الحدود معرفته ، والاقرار به من الحدود المتعالية عليها ، مثل الحجة الذي يلزمه الاقرار بمكان الباب والامام والاساس والناطق ، ومعرفة مقاماتهم ومراتبهم ومراتب الحدود السابقة عليه في الرتب ومراتبهم ، ولا يلزمه الاقرار بدعائمه ومعرفتهم ومن دونه مثل ما يلزمه من ذلك فيما فوقه ، اذ كماله في معرفته ما فوقه لا في معرفة ما دونه ، وكذلك الامام والاساس والناطق ، وعلى ذلك ساق الله تعالى ذكر المؤمنين وفي ايمانه بقوله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل من ربه والمؤمنين كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله الآية (١) » ليكون ذلك دلالة على ما يلزم المؤمن من الايمان والاقرار بما يتقدم عليه من الحدود التي فوقه فبعلم أن تلك المقول تعقل ذواتها وذوات السابقين

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

عليها في الرتبة الى أن ينتهي الى الاول الذي كفايته في احاطة ذاته بذاته ولا تكثر هناك الا بالنسبة والاضافة . ثم أنها - أعني العقول - في دار الابداع والانبعاث مثل الانسان لا تتمدى صورها صورتها ، وذلك أن من القانون والنظم في الحكمة أن تكون النهاية الأولى للأمور تشبه الثانية منها ، والنهاية الثانية مثل النهاية الأولى منها ليكون يكون النهاية الثانية من طبيعة النهاية الأولى للأمور تشبه الثانية منها ، والنهاية الثانية مثل النهاية الأولى منها ليكون يكون النهاية الثانية من طبيعة النهاية الأولى وجود التوافق والنظم والتوازن بين النهايتين منها المؤذن باجتماع شمل الاشياء في وجودها التي متى لا تكون ذلك كذلك يبطل أن يكون للأمور وجود ، اذ من شأن المثل المقاربة والانبساط ، وشأن الضد المباعضة والانقباض ، ولا يجوز أن يكون الاتهام من الشيء الى ما لا يكون من جنسه وقبيله لا النهاية الأولى ولا النهاية الثانية لغروج الامر في الوجود من نظام الحكمة وامتناع الامر فيه ، فإن الاشياء وجودها بالتوافق لا بالتخالف والاول والآخر اللذان هما نهايتان أولى وثانية هما مثلان مهما يجتمع شمل الوجود الذي صارت النهاية الأولى أولا لها ، والنهاية الثانية آخرها له ، وأقرب الاشياء الى الشيء الذي هو النهاية الأولى التي هي الاول ما كان في النهاية الثانية التي هي الآخر بانعكاسه عليه ، وأقرب الاشياء الى الشيء الذي هو النهاية الثانية التي هي الآخر ما كان في النهاية الأولى التي هي أول بانعكاسه عليه ، وليس يكاد يكون الانعطاف والانعكاس الا باللائمة التي متى فقدت بطلت الأولية والآخرية ، واذا بطلت الأولية والآخرية فقد بطل الوجود ، اذ ثبتت النهاية الأولى التي

هي الاول من الشيء في كونها منه ، وما يكون منه فهو مثله ، وكذلك النهاية الثانية التي هي الآخر ، واذا لم يكن منه لم يكن مثله ، واذا لم يكن مثله لم يكن له أول ، واذا لم يكن له أول لم يكن له آخر ، واذا لم يكن له آخر فلا وجود ، ولولا أن النهايات من الاشياء تنتهي الى ما يكون مثلها لما كان يوجد عن شيء مثله ، ولكان لا يوجد في الوجود شيء كان له قبل وجوده ، مثل الوجود بوجودنا أن أمر الموجودات على صيغة واحدة في وجودها لا تزيد ولا تنقص ، وأنه لا يحصل في الوجود ما لم يكن قبل وجوده مثله موجودا قيام الدليل على أن النهايات الأولية انتهؤها في الوجود الى ما يكون مثلها من النهايات الثانية التي هي الأخيرة ، وأن النهايات الثانية التي هي الأخيرة انتهؤها وبالعكس الى ما يكون مثلها من النهايات الأولية وذلك بانعطاف الاوائل على الاواخر وجذبها اليها على ما يكون عليه الحال في أول نقطة من الدائرة بكونها مثل آخر نقطة منها ، ومصير المقطعتين مثلين في باب كونهما نهايتين بهما اجتماع شمل الدائرة ، وان كان للأولى منهما شرف الأولية ، وللأخرى شرف الأخيرة ، واذا كانت النهايتان من الموجود مثلين في باب كونهما نهايتين ، مثل الولد والوالد اللذين كل منهما نهاية للآخر وهما مثلان ، ومثل بذر الحنطة التي حبوبها مثل حبوب السنبل وكل منهما من البذر ، وحب السنبل نهاية للآخر ، وهما مثلان . وكانت النهايتان للموجودات الأولى الثانية هما الابداع الذي هو المبدع الاول والانسان ، فهما مثلان ، واذا كانا مثلين بصورة الاول منهما صورة الآخر ، ولست أريد بقولي الانسان الا من هو بالحقيقة انسان ، مثل اصحاب الأدوار وخاصة صاحب

الدور السابع الجامع للنطقاء والأسس والأتماء وتابيعهم على أمرهم الذين حازوا الفضائل وحووها فصاروا عقولا قائمة بالفعل ، لا من هم أشباه الانسان بمورهم الجسائية وهم وحوش وذئباب وقردة وخنازير وعقارب وكلاب بصورهم النفسائية الذين لاحظ لهم في دار الثواب - ثم ان كل علة فاعلة فانها تعطى معلولها الذي هو نهايتها في صورتها ما به وجوده ، ولما كان دار الابداع الذي هو المبدأ علة لوجود الموجودات ، وكان المعلول الذي انتهى اليه الوجود هو الانسان ، كانت صورته التي عليها وجد هي الصورة التي اختص بها الابداع صورة الانسان ، ثم ان الانسان لما كان ولد العالم الكبير بوجوده منه ، وهو بالموجود فيه الذي هو عنه جملة موازن له مطابق مشابه ، وكان العالم الكبير وجوده عن عالم الابداع وهو مطابق له بالموجود فيه الذي عنه جملة وبه هو عالم متشابه ومشاكل ، فعالم الابداع وما فيه من العقول مثل الانسان ، ولا يجوز ان تتعدى صور تلك العقول صورة الانسان يكونه - اعني الانسان - نهاية ما أوجبه العلة الأولى وما يكون نهاية في الوجود آخر فهو مثل ما يكون نهاية في الوجود أولا ، ثم لو تعدت صورتها صورة الانسان لم يكن الانسان نهاية الموجودات ، ولكان موجودا ما كان به الانسان متقدما في الوجود عليه ، ولما بطل وجود ما يكون به الانسان متقدما عليه في الوجود ، ثبت أنه نهاية للموجودات ثانيا لا يوجد وراءه شيء آخر ، وإذا كان الانسان نهاية للموجودات ثانيا والنهية الثانية مثل النهايات الأولى ، فالعقول التي هي المبادئ والنهية الأولى في دار الابداع صورها صورة الانسان الذي هو النهاية الثانية في عالم النفس ،

يصحح ما قلناه ويعكم به ما ثبت في عالم الدين من الروايات عن الناطق صلوات الله عليه أن الله خلق آدم أبا البشر على مثال صورة نفسه . ثم إن هذه المعتقد في دار الابداع قواها وقوى الابداع الذي هو المبدع الاول - أعني أنوارها - نافذة في دار الطبيعة سارية فيها الى الانفس التي هي النهاية ، وبها يمتلئ وجود الموجودات على ما صورناه ، وهي - أعني الانوار السارية في العالم - تعطي الانفس في بدء وجودها ما به تعرف الخير والشر ، وبه تميل الى الجميل وتؤثره وترهب القبيح وتكرهه ، وأول ذلك قوة الحياة التي هي أول ما يظهر في الصبيان فيستحيون من القبايح ، ومنه يستدل على جواهرهم التي تكاد تكون عقولا قائمة بالفعل باستعمال السنن الالهية ، ومن كان حياؤه أكثر فمقله أوفر ، وهي - أعني العقول في دار الابداع - هي التي تهذب الانفس في عالم الجسم وتصلها اذا تهذبت ذواتها من أمارات الطبيعة وتكسيها الكمال والبهام والهيبة والعلاء وتستلهمها وتشفق عليها شفقة الوالد على ولده ، ولذلك قال عيسى ابن مريم عليه صلوات الله : « أنا ابن من في السماء » . وهذه صورة تعلق الموجودات بالقوة السارية من عالم الابداع واتصالها بها وقد صورناها في موضعها لتعاني - والحمد لله الذي قدر ذلك وقضاه ، وأجرى التدبير فيه على نظام الحكمة فامضاه ، وسبحانه ولا اله الا هو ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . أستغفر الله وأتوب الى الله وأفوض أموري الى الله وأستعين بالله وأتوكل على الله ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، وحسبنا الله ووليه في أرضه ونعم الوكيل ، ونعم الهادي والمشفق والمعين ، ونسأله العصمة وأن يختم لنا بخير ويجعل منقلبنا الى خير أنه جواد كريم ورؤوف رحيم .

في المادة الأولى (١) التي عنها تكون الاجسام :

لما كان الامر في وجود الهيولى على ما تقدم ذكره من انعطاف الذوات المرية من المواد عليها لتجعل منها الاشبه في الحكمة مما يمكن أن يكون ما سبق شرحه ، وكان في الامكان أن يوجد منها ما يكون في حاله وكماله واستغنائه في وجوده عن المواد — مثل المبدأ الاول — أخيراً لما امتنع أن يكون منها أولاً ، جعلت العناية الالهية بالقصد الثاني منها ما يكون مؤدياً وجوده الى وجود ما اوجبت الحكمة وجوده أخيراً ، فأقامت منها أجساماً عالية من أفلاك وكواكب وأعطتها كمالاتها التي تليق بها فيما قصدت ، وركبتها في غاية الاحكام فعل الحكيم الذي يمتني أولاً في فعله باستجادة أدواته التي بها يتم فعله في كل مادة قبل استجادة المهنة التي فيها يعمل لتكون بوجودها موجوداً فعلها في القوابل على غاية الاتقان وغاية النظام ، إذ الآلات والأدوات لذوي الصناعات متى كانت لا على غاية الجودة ولا على حالة يكون منها قبول تام . أدى ذلك الى كثير من النقصان في كمال فعله ، كالتعلم للكاتب العاذق في كتابته وجودة خطه ، وكالكاغد وغير ذلك مما يتم به كتابته الذي متى كان فيه نقصان بعبء فيه ، دخل على كتابته وخطه من النقصان لأجله ما لا يدخل عليها اذا كان صحيحاً سوياً ، ولذلك وجب في الحكمة استجادة الآلات واحكامها ليكون بكمالها الفضل بها تاماً ، ولما أقامت منها الاجسام العالية وأعطتها كمالاتها ولم يكن القصد فيها أن يجعل الكل أفلاكاً وكواكب إلا ما كان ممكناً وجوده أخيراً من موجود يقوم بذاته غير محتاج الى

(١) راحة للعقل : المشرع الاول من ٣٢١ .

مادة يستند اليها في بقائه ، لزوم وجود ما وجد منها واستناع
 الأمر في وجود الافعال الصادرة عن كل موجود انبعاثي قائم
 بالفعل الا فيما يكون قابلا لها من المواد أن يبتنى منها ما يكون
 مادة قابلة يتعاقب عليها الفعل وتتوارد عليها التأثيرات من جهة
 المتحركات التي أقيمت من جنسها ليكون بقبولها الفعل منها
 وجود المقدر في الحكمة أن يوجد بوجودها كذلك ، مثل الحديد
 الذي هو في صناعة الحديدية موضوع قابل لفعل الحديد وهي
 - أعني الحديد - من جنس الآلات والأدوات التي هي المطارق
 والملاة والكلبتان والمبرد وما يجري مجرى ذلك من أدوات التي
 بها يتم فعله وسنه أصلحت ليكون بقبوله آثار الصناعة وجود
 المقدر أن يوجد بوجوده كذلك من أنواع ما يعمل من الحديد ،
 ولما لزم أن يبقى من الهيولى والصورة ما يكون مادة وموضوعا
 تتجه نحوها آثار المؤثرات فتجري منها في الوجود المواليد عنها
 مجرى الأتني من الذكر ، قلنا ان هذا الذي منه يبقى لهذا الباقي
 الذي هو الهيولى في وجودها وانبعاثها عن الموجود الاول ذات
 صورة رافدة اياها الوجود كما أنها لها بها الوجود ، اذ لا وجود
 لاحدا مما الا بوجود الأخرى ، ولا لهما وجود الا بما يكون
 وجودهما عن نسبة هي في ذاتها زوج معرب عنها بالمبدع الذي
 يقتضي ابداعا ، وما بالابداع هو مبدع ، فلا الهيولى سابقة في
 وجودها على الصورة ، ولا الصورة سابقة في وجودها على
 الهيولى ، بل هما ذات واحدة ، هي في ذاتها جزآن بهما ذات
 الجسم جسم على كون الصورة أشرف من المادة لتعلق الفعل
 بها ، وعلى كون كل منهما - أعني الهيولى والصورة - في ذاته
 غير جسم - فلا الهيولى بمجرد جسم ولا الصورة بمجرد جسم

جسم أيضا ، لكنها باعتضاد كل منهما في الوجود بالآخر على أمر ينافي ذاتيهما إذ كانتا في حالهما الأولى لا كهما في حالهما الثانية عند البحث ، إذ هما في الأولى خاليان معا صار لهما في الثانية من الطول والمرض والعمق من الكمية التي سبيل حدوثها لها كالسبيل في حدوث كيفية الشواد عند الجمع بين المفص والزاج اللذين لا سواد في ذاتيهما وهما بجملتهما ذات قابلة للمصور المتضادة قائمة بالقوة كما تصير بقبولها صورته قائمة بالفعل مثل الخشب للسيرير ، وإذا كان ذلك كذلك فاللزام بقاءه من جملة الهيولى والصورة بعد ما جعل أجساما عالية مرتبة في مراكزها كالألات ، وإن كان لا قبل ولا بعد ولا تقدم لشيء منها على شيء إلا عند ترتيب الكلام عليه بكونه هيولى وصورة ، هو كالأجسام العالية الكائنة من الهيولى والصورة ، إلا أنه بكونه دونها قائما لقبول أثارها كالمادة لذوي الصناعات التي تقبل الآثار ، بل كالأنثى القائمة لقبول قور الذكر ، وأشعة الأجسام العالية متوجها إليها ، وهي التي تكسبها الكيفيات فصارت بهذه الأمور ممتازة عنها وإن كان الكل من طبيعة واحدة وذوي أقطار ، فتلك أجسام عالية مؤثرة بحركاتها ثابتة بأعيانها غير مستحيلة في ذواتها حافظة صورها وموادها ، وموادها بكمالها صورها ، وهذه أجسام ساقطة قابلة آثار المتحركات عليها بذاتها زائلة في طباعها مستحيلة في كيفياتها مهيئات للانفعال ، فاعل بعضها في بعض ، فاعلة في الموجودات عنها ، متوجهة موجوداتها في القبول إلى ما لها أن تقبل من الأعراض التي فيها كما لها المقصود بهذا الترتيب المحكم والنظم الحسن ، وذلك كالحديد الذي هو دون الآلات المعمولة قائم بقبول الصور زيادة على ما كان عليه موجودا في ذاته من

الصورة التي بها وجود جسما ، وان كان الكل من جهة كونهما جديدا شيئا واحدا لا يتقدم أحدهما الآخر فيكتسب بالوارد عليه من تأثيرات الآلات من جهة الصانع الذي هو أحد الآلات أيضا صوراً كثيرة بها يبلغ ما له أن يبلغه ، فكانت الآلات التي هي الستدات والمطارق وغيرهما بمنزلة الاجسام العالية لا تنفعل في الفعل عن المفعول فيه ، فانها قد تصدر في صنعتها لحالة تبقى معها فاعلة لا تنفعل ، والحديد الذي هو المفعول به بمنزلة المادة التي ذكرناها التي تنفعل في الفعل عن الفاعل ، مثل المسن الذي ينفعل في فعله تعديدا للسكين عن الفاعل فيه الذي هو السكين .

ينزل على صحة هذه الأمور ، معرفة أحوال هذه الأجسام وتأليفها وكونها فاعلة ومنفصلة معيار الخلقة وميزان الديانة ، لكون قواعدها مسلوكة بها في تقريرها وترسيمها من جهة الصنعة النبوية مسلك الصنعة الالهية ؛ وذلك أن الأنفس في عالم الطبيعة لما حصلت في الوجود عن أسبابها المتقدمة عليها في الوجود ، وكانت في التهيؤ للقبول والارتقاء الى موازاة المبدأ الاول ، ونيل درجة العقول في القيام والاستغناء في الوجود عن المواد على ما هي عليه من الحالة التي ليست لشيء تقدم عليها في الوجود من الهيولى والصورة ، عمدت العناية الالهية في جذبها الى هذه المرتبة التي هي غاية القصد فيما أوجبت الحكمة وجودها على حسب ما ذكرناه في باب الهيولى والصورة الى اقامة أسباب بها تنال هذه المرتبة وتتمثل قائمة بالفعل بزية من المواد ، كما اقامت الأسباب أولا في اخراج النفس الى الوجود فجعلت منها انطقاء والأوصياء والأئمة عليهم السلام ، وأعطتهم الكمال أولا كما أعطت الاجسام العالية كمالاتها أولا ، كما ذكرنا في باب

الحروف العلوية ، لأن ينبعث عنها مثلها ، وأيدتهم بالفيض والبركات ليكوتوا أسبأيا في ارقام باقيها الى درجة العفول ، وحفظها من الدثور معلمين لها وموصلين اليها ما به تنال هذه المرتبة ، وبأسطين لها ما تنشأ عليه من رسوم العبادتين ما يكسبها التعلق به الفضيلة والكمال ، فكان كون النفس الموجودة بالأسباب المنصوبة لآخراجها الى الوجود الاول في عالم الطبيعة أصلا في عالم الدين منها يكون النطقاء المرسلون والأوصياء والأئمة الهادون ، وفيها يكون الحجج والدعاة المعلمون ، ومنها يكون المتعلمون القابلون منهم موجبا أن الهيولى والصورة موجودتين بالانبعاث من عالم الابداع وجودا أولا أصل في عالم الطبيعة منها تكون الاجسام العالية والكواكب الكاملة الفاعلة ، وعن جميعها تكون مواليدها -

وكان وقوع العلم بأن الاختيار اذا وقع على بعض الأنفس وخص بالكمال ليكون سببا لكمال باقيها بقي بعضها خاليا من الكمال محتاجا الى الاستفادة ، موجبا للعلم بأن الاختيار والتخصيص بالكمال اذا وقع على بعض الهيولى والصورة فجعل أسبأيا في وجود الموجودات أبقى منها ما هو خال عن الصورة التي بها كماله ، وهو الذي يسمى المادة ، وكان كون النفس الموجودة عن حركات الاجسام العالية واستحالات الاجسام السفلية قبل نشوئها في الملة ، واعتقادها أمرا من أمور الشريعة ، ومصيرها ذات رتبة في عالم الدين خالية من المعالم الدينية عاطلة ، موجبا أن المادة الموجودة دون الاجسام العالية قبل تصورها بصور الاركان ، ومصيرها ذات رتبة في الوجود الحسي في العالم الطبيعي خالية من الصور المقومة عاطلة منها ، وكان كون الانفس

في وجودها دون الناطق والقائمين مقامه ، بأقية لا مرتبة لها في الشرف مثلهم ، لها علتان : علة قريبة هي اختصاص النطق والقائمين مقامهم بالمراتب العالية كاملا وتاما ، وامتيازهم بها منها ، وعلة بعيدة هي النسبة المبدعية الموجودة في الابداع الذي هو في الشرف دون النسبة الابداعية ، موجبا أن المادة المثالية من الصور التي منها الاجسام السفلية في وجودها دون الأفلاك لها علتان : علة قريبة هي اختصاص الافلاك التي هي الاجسام العالية بالكمال ، وامتيازها منها به ، وعلة بعيدة هي النسبة الموجودة الابداعية ، وكان كون الناطق والقائمين مقامه من الحدود في التعليم في عالم الدين مختصين من بين الأنفس بالكمال والتعالم ليكونوا بذلك مؤثرين في باقي الانفس بالهداية والتعليم فتكثر المواليد الروحانية ، موجبا أن الاجسام العالية مختصة من بين الاجسام كلها بالكمال لتكون بكمالها مؤثرة في باقي الاجسام السفلية وتكثر المواليد الطبيعية ، وكان امتناع الأمر في أن تكون الانفس كلها كاملة مثل الناطق ، ومؤيدة غير محتاجة لوقوع الاستثناء بالوجود منهم فيما قصدت الحكمة لانائها الكمال عما سواهم ، موجبا أن امتناع الامر في أن تكون الاجسام كلها كواكب وأفلاك لاكتفاء الحكمة بقدر الموجود منها فيما قصدت الحكمة فيها ، وكان كون الأمر في أن الأنفس كلها لو كانت مرتبة في مرتبة الناطق لكان ، فأبطل في الوجود من المراتب أكثر مما حصل في الوجود منها ، يكونها لو كانت كذلك مرتبة واحدة ، وباقي المراتب في عالم الدين التي بها تستتم الحكمة كان لا وجود لها ، وكان ذلك مؤديا الى وجود النقص في حكمة الحكيم ، موجبا أن الهيولى لو جعلت كلها أجساما عالية من

كواكب وأفلاك ، لكان ما بطل في الوجود من الموجودات أكثر
 مما حصل في الوجود منها بكونها لو كانت كواكب وأفلاكاً فقط
 موجوداً واحداً ، واثنين ، وكانت الأركان وموالبدها على
 أنواعها وأشخاصها ، وعجائب الحكمة فيها التي تستجم الحكمة
 في وجود الأنفس لا وجود لها ، ولكان وجود ذلك على ذلك
 نقصاً في حكمة الحكيم ، وكان كون النفس في وجودها ذاتها
 حياة وقدرة جزأين بهما ذاتها ولا وجود لاحدهما دون الأخرى
 على كون كل منهما في ذاته غير نفس ، موجبا أن الجسم في ذاته
 هو هبولى وصورة جزآن بهما ذاته ووجودهما مما ، وليس ولا
 واحد من جزأيه اللذين بهما جملة جسم ، وكان كون النفس
 دون النطق والأئمة القائمين مقامهم منتقلة عن رتبته ومرتبة
 بآثار العلم والاستفادة إلى ما هو أعلى منها موجبا أن المادة لذات
 الصورة دون الأجسام المالية قابلة آثارها ومنتقلة عن طبائنها
 إلى ما هو أشرف منها باكتساب الصورة ، وكان كون النفس
 دوان الحدود في علم الدين ذات علم أول ، موجبا أن المادة لذات
 الصورة التي هي الجسم المطلق لها علم أول على السبيل الذي
 بيناه فيما تقدم ، فهذا من قضايا موازنة عالم الدين لعيره على
 اختصار وامسك عن بسط الكلام في التنزيل والشرعة وما
 تنطق به دلالتهم في ذلك ، ومن كان له جوهر ملائم لجوهرنا
 استمرت بهذه الطريقة في الاستنباط خواطره ، وامتدت في
 الإدراك بصائره ، فرأى ما تركناه له نصيباً لفكره ، ففكر
 مهذبا به نفسه ممداً إيانا بالدعاء والترحم أوقات خلواته
 بنفسه في مناجاته ، حامداً الله تعالى الذي من علينا وعليه
 بأوليائه مصاييح الظلام الذين أضلوا لنا طريق الهداية .

وعند ذلك نقول لا اله الا الله ولا حول ولا قوة الا بالله
 العلي العظيم سبحانه الله والحمد لله ، الله ، وأفوض
 أمري الى الله ، والصلاة على خاتم الانبياء محمد وعلى عترته
 الطاهرين أمير المؤمنين (١) وآبائه الهادين وحسينا الله ونعم
 الوكيل .

الابداع عند صاحب كنز الولد (٢) :

إذا ما سبرنا أعماق هذا الكتاب المرقاني الحفاني ، كنز
 الولد ، نلاحظ أن مؤلفه الداعي المطلق إبراهيم العامدي قد
 نهج نهج كبار دعاة أهل الحق عندما حالج قضية الابداع
 الروحاني فقال : « في القول على الابداع الذي هو المبدع الاول
 من حيث شرفه وقبله ووجدانيته وسبقه ، ووجوده أولا ، وكماله ،
 وأزليته ، وجلاله ، وعلمه ، وبهائه ، وعقله ، وثنائه ، وعظمته ،
 وكبريائه ، وقدرته ، وحياته ، وانفراده بجميع صفاته » ان
 هذا الباب يمد اثبات توحيد المتعالي سبحانه ، من أشرف الابواب
 المذكورة ، وفيه من الأمرار التي رمزت بها الحدود تلويحا
 لا تصريحاً ، لأنه المبدأ الاول الذي تعرف به الأصول (٣) ،
 والفروع ، والفصول ، والعلل ، والمعلولات ، والاسباب ،
 والكائنات والفقرا بين ذلك ، حتى لا يقع علم الكيفيات

(١) راحة العقل — تحقيق الدكتور مصطفى غالب . والمعنى بأسر المؤمنين :
 الإمام الحاكم بإمر الله ، الخليفة العاطفي .

(٢) كنز الولد ص ٢٢ — تحقيق الدكتور مصطفى غالب .

(٣) أول ما يطلب من الأسبغيني كمبدأ مرقاني التوحيد والتفريد والفردية
 ومن عرف المستجب بذلك وأقر به تسهل عليه معرفة الأصول الأربعة
 وبقية الحدود والفروع والعلل والمعلولات .

والسليات ، في أيدي الجهلة الغفلة من فسقة الجن والانس ، لأنه العلم المكثون ، المستور المصون ، ولا يظهرون شيئا من ذلك ، الا وحيا من لسان الى أذن ، بعد قبض العهود المؤكدة ، وتغليظ المواثيق المشددة ، والامتناع بدفع النجاوى والزكاة والشرಾಯى ، والفطر ، والصدقات .

وقد وثقت بك في حفظ مجموع من الحكم التي شرحتها في صدور قبله (١) ، وتحملت فيه الأمانة التي هي عهد الله وميثاقه الذي أخذ على الملائكة المقربين ، والانبياء والمرسلين ، والأوصياء الطاهرين ، والأئمة المنتخبين ، والحدود التابعين ، انك لتصونه غاية العناية ، ولتراعي فيه الامانة ، ولتتجنب الغيابة ، وتجمله لخلص صورتك ، وانارة بصيرتك ، والله على ما نقول وكيل .

نعود الى ما كنا فيه : فجميع أهل الشرائع من الأولين وقرى الآخرين ينتحلون في ذلك انتحالات ويرجمون أقوالا . فمنهم من يقول : ان الله سبحانه أبدع العقل الاول وحيدا فريدا لا ثانيا له ، وأن النفس الكلية انبعثت عنه على سبيل وجود الضوء من الضوء . ووجد عن النفس الكلية : الجسد والفتح والخيال ثم الهيولى والصورة ، ثم الافلاك والبروج ، والاملاك والطبائع ، والأمهات والمواليد المتأخرات . وهؤلاء أهل التأويل المحض ، وينحرف نحوهم من الفلاسفة ، وغيرهم من أهل الشرائع

(١) كنز الوداد — يظهر ان المؤلف أصدر عدة نبحاث بطلانية قبل هذا الكتاب وقد تحمل الاتباع الامانة في الكتاب .

الظاهرة يقولون بالقلم ، واللوح ، وإسرافيل ، وميكائيل ،
وجبرائيل ، وذلك حدهم من العلم .

ومن أهل المقالة من يرى أن في الابتداء عطية وقعت على
بعض العالم الروحاني مثل الشخص القاصد صاحب الرسائل
نضر الله وجهه ، وأن تلك العطية أوجبت الهبوط والتكثف ،
وفرقة تنفي الخطيئة ، وتقول التكثف من سبب نقصان النفس
عن مرتبة العقل ، وبعد الهبوط والصورة عن مرتبة النفس
والعقل ، وجاء في ذلك بمثل ما جاء به أهل الظاهر ، باعتقادهم
أن الله تعالى خلق آدم من طين على ما جاء في التنزيل ، ولا مخلوق
سواه ، وخلق زوجته من ضلعه ، ثم تزوج وأولد ذكورا
وإناثا ، وزوج بينهم باختلاف البطون ، فأوقفوا على قدرة
الله تعالى العجز والمقصور في جميع الأمور ، باعتقادهم أنه قدر
على خلق واحد من البشر ، فما المانع الذي منعه أن لا يخلق ما
قد أراد منه ؟ فكان اعتقادهم ذلك خداجا شايء بالجور
والفساد ، فضلوا وأزالوا وأضلوا ، ببعدهم عن الطريق وميلهم
عن أهل الحق والتحقيق ، لقوله : (فاستلوا أهل الذكر إن كنتم
لا تعلمون (١)) . وقوله : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم
لا تعلمون شيئا (٢)) . وقوله لرسوله الكريم : (وما كنت
تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك (٣)) . وقوله :
(وعلمك ما لم تكن تعلم (٤)) . وقوله : (علمه شديد

(١) سورة النحل الآية ٤٣ وسورة الانبياء الآية ٧ .

(٢) سورة النحل الآية ٧٨ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٨ .

(٤) سورة النساء الآية ١١٣ .

القوى (١) * وقوله : (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين (٢)) *

فإذا كان الرسول الغاضل متعلما وله معلم ، وبينه وبين خالقه وسائط ، فمن أي جهة يقع المنذر لأهل العمى والجهل عن العلم والتعليم والالتزام بالوسائط التي نصبها الرسول ، ودل عليها بقوله ، *

اني تارك فيكم الثقلين ما ان تسكتكم بهما لن تنضلوا من بعدي ، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، انه نياني المليم الخير أتهما لن يفترقا حتى يردها علي^٤ الحوض كهاتين ، وأشار بأصبعيه المسبحتين -

فأهل التأويل يمتازون عن أهل الظاهر بحقيقة ذلك بما أخذوه عن أهل بيت النبوة ، وكذلك أهل الحقائق يمتازون بمعرفة المبدأ الاول الروحاني عن أهل التأويل الذين تأسبوا أهل الظاهر في تأويل ما يحتقدونه في المبدع الاول ووحدانيته ، وادخال العجز على قدرة الخالق سبحانه في اقرارهم بأنه أيده لا من شيء ، فما المانع الذي حجز قدرته من أن يوجد ما قد شاء ايجاده ؟ فهذا بذلك أشبه ، ولا فرق بين العقول القاصرة ، والألياب الحدة ، يبعدهم عن العلم الصادق ، وقلة وقسوة يصائرهم على الحقائق ، أفلم يتدبروا قول من يقول العقل القائم بالفعل ، وان كل اسم واقع على تسمى ، فما هو اذا الفعل الذي قام به ؟ *

(١) سورة النجم الآية ٥٣ .

(٢) سورة الشعراء الايتان ١٩٢ ، ١٩٤ .

قال سيدنا حميد الدين ق، س : فكان العقل ذا نصبتين :
نسبة أشرف ، ونسبة أدون - فأما النسبة الأشرف فإضافته الى
مبدعه ، وأما النسبة الأدون فنسبته الى ذاته ، فوجب بكون ذلك
أن يوجد عنه اثنان : أحدهما قائم بالفعل عن النسبة الأشرف ،
وأحدهما قائم بالقوة عن النسبة الأدون * ، فبذلك وجب لما
قام هذا المنبث الثاني بالقوة ، أن يكون عن المبدع الاول
والمنبث الاول عقول سبعة مجردة ، واحد عن واحد الى المنبث
الاول ، وذلك قوله - ونقول : ان الموجود عن العقل الاول
اثنان : وأن أحدهما أشرف من الآخر كشرى الوصي القائم
بالفعل ، القيم بجميع ما جاء به على ما تركه ، ومن كون تمامية
دوره بتمام سبعة ، وقيام كل منهم ينص من تقدمه صاعدا الى
الأساس (١) * وفعل كل منهم في ركن من أركان الدين ، ودعائم
الاسلام التي جاء بها الناطق لظهور الحكم والمعارف المضمنة
تحتة ، على أن الموجود عن العقل الاول ، والمنبث الاول عقول
سبعة ، كل واحد منهم عن الآخر صاعدا الى المنبث الاول ، وأن
نور كل منهم ساطع سار فيما وجد عن الاول ، من الهيولى
والصورة *

فقد أوجب في هذا الفصل أن كل عقل من هذه المقبول
المنبثة ، واحدا بعد واحد ، الى المنبث الاول -

ثم في الكتاب بعينه بفصل يتالي فيه هذا الفصل ، اذ لم يكن
هناك معنى يؤيد القول عليهما ، ويصحح كل واحد منهما بحقيقته

(١) يقصد أساس الدور الجديد الذي يلي الاسلام الذي اتم الدور السابق
ونصب أساس الدور للآحق .

على جهته • والا كانت الفائدة ضائعة ، وحاشا لذلك الحد الشريف أن يقول بما ليس له معنى يشده ويمضده ، وهو قوله نضر الله وجهه : ودار الابداع والانبعاث لا عائق فيها ، لخلوها من المواد التي تعوقها وتجرد عنها ، وكونها صورة محضة لا تتعلق بمادة ، ولا بها مادة فتعجزها عن الفعل (١) . وإذا كان لا عائق فيها ، فوجود موجوداتها لا بزمان بل دفعة واحدة مثل وجود اشراق بسيط الهواء عن ضوء الشمس لا بزمان ، وانما هو النار للبيت المظلم ، دفعة واحدة بلا زمان ، وكفصل الطبيعة في حركاتها تلك الافعال المرتفعة عن الزمان فيما تخرجه الى الوجود مثل الطلع الذي تخرجه بكفه وحياته وأهلاقه ، في يده أمره من الجمار مما على أصغر شيء هيئته من غير أن تقدم شيئا منه على شيء مما يتعلق بالكمال الاول ، وكالزمان الذي تخرجه من الجنار بحياته وأقسام باطنه ، وقشوره على أصغر شيء صافه ، وأرق شيء جسما من غير أن تخرج شيئا منه بعد شيء بل معا •

وقال أيضا : ثم يكون الابداع الذي هو المبدع الاول ذات الفعل الصادر عن المتعالي سبحانه وكونه قائما بالفعل ، لا قائما بالقوة ، فيكون بين كونه قائما بالقوة ، وبين قيامه بالفعل ، إحاطته منه بذاته التي يتعلق بها وجود كل عقل منبعث تصور مدة وزمان يلزم أن يكون وجود الكل بوجود الابداع معا • وإذا كان ذلك كذلك فوجودها بوجوده معا ، لا بزمان • فهذه

(١) لأنها مجردة بصورها النورانية المحضنة لا كثافة لهما ولا تحميم ، ولا تحويها مكان ولا احتاج مبدعها الى زمان .

الفصول ينتقض بعضها كما ذكرنا اذ لم يكن لكل فصل معنى يشته ويؤيد معناه ويشده ، ويمرهن ارادته ، والا لم يكن لقارئه كتابه معصول فائدة ينتفع بها ، وهو نضر الله وجهه ما وضع كل فصل في موضعه الا لمعنى من المعاني ، وقد اوجب في هذين الفصلين الآخرين أن وجود عالم الابداع معا - ونحن نسين حقيقة ذلك ، وحقيقة الفصل الاول - فحقيقته ان وجود عالم الابداع ظهر دفعة واحدة عن المبدع الحق تعالى لا من شيء ، أي لا من مادة تقدمت عليه ، ولا بشيء ، أي لا بألة استعان بها عليه ، ولا في شيء ، أي لا في مكان طبيعي فيكون لها مستقرا ، ولا مع شيء ، أي لا مع غيره يشاكله ويساويه ، ولا مثل شيء ، أي لا مثل معلوم كان له نظير فيه ، أي لا حاجة في زيادة ولا نقصان في ملكه ومشينته فكان وجود الكل كما رمز به الحكماء ، ولوح به العظام عنه تعالى بحرف الكاف والنون (١) ، فكان ما كان بلا معين ، ولا مشير ولا قرين ، لم يسبق اوله آخره ، ولا آخره اوله ، قدرة قدير ، لا يعجز عن الأمور والتقدير - فكان في حد واحد لا يفصل بفضه بعضا ، ولا يزيد بعضه على بعض ، بل متساوي ومتكافئ لا تغير فيه ، ولا تزايل ، ولا تباین (٢) .

(١) في العرفان الاسماعيلي « كن » هي الكلمة القسبة التي ابدع الله تعالى فيها كافة الحدود وقالوا ان الكتاب دليلا على السابق واللاحق اشارة الى تاليه ، اي الى التالي . ويقال لهما الاصلان العلويان يتقابلهما في عالم الدين الناطق والاساس .

(٢) لانه هو اللتام ، وهو التام على الحقيقة ، ويستحق ان يكون تاما لامتناع الوجود من نوع وجوده ، فان الشيء التام هو ما لا يوجد له خارجا عن مثل فوميته ، لانه سرمدى الذات يستحق اسم الواحدية . والتبيين : الضلوت لان الضلوت يلزم النقصان بالذوات الطبيعية التي تظهر عند اصابة بعضها الى بعض .

وذلك يميزان المعدل ، وموجب الحكمة دفعة واحدة ، اشرافه وظهوره مثل حب التين الذي يلفه غشاوة ، وظهوره مما كما ذكر ذلك حميد الدين ، وضرب بحب الرمان والجمار من النخل المثل دفعة واحدة ، من غير تقدم لبعضه على بعض .

وقال في ذلك الشخص الفاضل صاحب الرسائل (١) : ان الأمور أوجدت دفعة واحدة ، لأن الله تعالى قدر أمر خلقه لما بدا بالقوة في دفعة واحدة ، وبالفعل بالتدريج حتى تكون نهايته تامة كاملة ، وبلوغه الى الحال الافضل ، والامر الاكمل . وهذا هو الحق بأن ذلك العالم لما أوجد كان وجوده جميعه بالقوة التي هي الكمال الاول في درجة التساوي ، لا اله الا الذي لا يوصل الا بحدوده الى معرفة توحيده ، وأهل الزيغ يتناهون في تشبيهه وتحيده ، وقال أيضا : اللهم يا من جل عن حلة المعداد وعلا عن ذكره الموجود وخفي في وجوده وظهر في حدوده دل بما ظهر من الموجود في مبدعاته على توحيده .

وقال في بعض خطبه : « وأشهد أن لا اله الا الذي من الحب في التساوي » في الحياة والعلم والتدرة التي فطروا عليها ، وأوجدوا على التشاكل فيها ، ولا يصح لأحد منهم الا الكمال الثاني بالفعل المؤدي الى ذلك .

وقد صورنا لك هذا الضرب في كيفية وجوده مما متساويا في الكمال الاول بالقوة ، ثم ظهور من ظهر منهم الى الفعل الذي هو الكمال الثاني ، يلوح له الحق المبين فلا يدخل على من تجلت

(١) انظر رسائله اخوان الصفا « الرسالة الرابعة في العقل والعقول » .

قدرته في عدله الجور في اختيار شخص على شخص بغير علم ولا عمل ، وفي الخلقة الجسمانية ما يدل على المبدع الاول ، وذلك أن الشخص البشري يولد الكل منهم أطفالا جهالا لا علم لأحد منهم يفضل به على من سواه الا كما قال الله تعالى : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا (١)) الآية .

فذلك العالم كان متساويا متكافئا من طريق العدل بالقوة في كمالهم الاول من حياة وعلم وقدرة .

وهذه الصورة مثلا مشروها يهتدي بها ، هذا التصوير ، وقد جعلناه تقريرا لفهم في معرفة الابتداء ، لكونه الأصل الذي تنفرع منه العلوم كما قال مولانا القائم صلوات الله عليه (٢) :

معرفة الابتداء والانتها ، العلمان الجليلان اللذين تفرعت منهما العلوم ، والبناء لا يكون الا على الاساس الصحيح . وذلك أن عالم الابداع الذي صورنا كون ظهوره معا دفعة واحدة لم يسبق أوله آخره ، ولا آخره أوله ، متساويين متكافئين بميزان العدل ، وموجب الحكمة في الكمال الاول بالقوة ، في الحياة والعلم والقدرة ، بلا تفاضل ولا تباين ولا تغاير ولا تفارق . اذ لو كان ذلك كان بالنقصان في القدرة ، وأما المعجز في المشيئة ، وأما الجور في الخيرة ، وجميع ذلك منفي عن جدت قدرته ، وعظمت مشيئته ، فكان وجودهم معا على سبيل النقط التي

(١) سورة النحل الآية ٧٨ .

(٢) يريد الامام التاطلي القائم بأمر الله الخليفة الثاني في المغرب (٢٨٠ - ٣٣٦ هـ) .

جعلناها في الوسط على سبيل ما ذكرت الحكماء ، ومثلته بحب
 التين المجتمع في كل حبة منه ما لا يعصى - فلما كانوا على ذلك
 تحرك منهم واحدا من ذاته بذاته ، حركة فكرة وتميز وفطنة
 في كون ذلك العالم المروحاني النير الكامل في ذاته وظهورهم معا ،
 ولا ادراك له في كيفية وجودهم ، فهجعت به فكرته ، وقررت
 عنده فطنته ، ان لذلك العالم مبدعا ابدعه ، وموجدا أوجده
 بمشيئته وقدرته ، وأنه لا يدرك ، ولا يحاط به ، ولا يشبه
 شيئا من صنعته ، وأنه يعجز عن ادراكه ومعرفة ، الا بوجود ما
 أوجده من عدم لا أصل له فنفي عن الجميع من عالمه الالهي ،
 وأثبتها للتمتعالي سبحانه المحقق الذي لا شبه له ولا ند ولا ضد ،
 ولا مثل ولا مثيل ، ولا شكل - فنطق بالهادية مفسحا ، وأعلن
 بها مصرا ، كما جاء في الذكر الحكيم في قوله : (شهد الله أنه
 لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو
 العزيز الحكيم (١) - فشهد له بالالهية ، والعزة ، والحكمة -

وقد جاء عن الشخص الفاضل صاحب الرسائل في الرسالة
 الجامعة قال : وأما الواحد الموصوف بالجلالة والعظمة المشار
 اليه بالوجود - وأنه مبدأ كل موجود - يقبل فيض الجود واليه
 تنتهي الحدود ، فهو العقل الاول ومبدعه يجعل عن صفة
 الواسفين ، ونعت الناعتين ، وإنما يقال : هو لا اله الا هو
 إيمانا وتسليما - فهو القول في اثبات التوحيد ، ولذلك صار
 الأصل المتعمد عليه في كل شريعة ودين ، وذلك أن العقل الاول
 نفى عن ذاته الالهية ، وأثبتها لمبدعه فقال : لا اله الا هو ، فوجد

(١) سورة آل عمران الآية ١٨ .

مبدعه وهو عقل ، بمعنى اثبات الوحدة المحضة بذلك ، لأن اتصال التأييد به متواترا لا يقني ولا يزول ، بل متصل دائم وأبدا ، وذلك بسببه ، ولذلك قال : (ما حدثكم ينفذ وما حدث الله باق (١)) - فهذا ما جاء عن الامام الفاضل أصدق كل قائل .

وكذلك جاء عن سيدنا جعفر بن منصور اليماني (٢) في مثل ذلك بقوله : الحمد لله مؤيد الحق ونصيره ، ومظهر الخلق بتقديره وتدبيره ، ومقسم الأرزاق بتقديره ، ومدهض الباطل ومبيده ، ومجري الفلك بتدبيره ، ومضيء النهار بسنانه نوره ، والدال على توحيده ببراهينه ، ومستعيد جميع عباده بحدوده الذين جعلهم بينه وبين خلقه سببا متصلا لا ينفصل ، وأعجزهم عن معرفته ، إلا من سببه ، واحتجب بعجاب عظمته عن بريته ، ودل على نفسه بنفسه ، وتعمد بعظيم ربوبيته عن أن يدرك بحس ، ولا يعلم بلمس ، ولا يحيط بكنهه جن ولا انس ، ولا يشرك في ملكه أحد ، أبدع قبل أن خلق ، فتعالى عن التشبيه بما أبدعه ، بل أفاض عظمته وجلاله وسنانه توره وبهاء قدرته ، على ما أبدعه ، الذي نفى عن هويته الالهية ، وأقر لمبدعه بالوحدانية ، ولو لم يوقع النفي بذاته في ابتداء نطقه لما كان لأحد الى معرفة مبدعه سبيل ، ولا ثبت الاقرار ، فكان النفي تشبيها يقولك : إلا الله - فدل أن ثمة اله مبدعا للمبدع ،

(١) سورة النحل الآية ٦٦ .

(٢) جعفر بن منصور اليماني من كبار علماء الاسماعيليه وصاحب المؤلفات العديدة في علم التلويح وعلم الحقيقة ولد سنة ٣٢٧ هـ ، عاش ثمانية من الخلفاء الفاطميين وتوفي في خلافة المعز لدين الله في التصورية سنة ٣٤٧ هـ وصل الى أعلى مرتبه من مراتب الدعوة الاسماعيليه .

فكان في نفي المبدع الالهية عن ذاته اثباتا لمبدعه ، وكمان في اثبات الالهية بعد النفي سبب ظهور الخلق .

فكان المبدع خالقا تنزيها للمبدع وتعظيما لقدرته ، فكان الابداع من ليس ، والخلق من ايس ، تباركت قدرته ، وجلت عظلمته ، فلا يعلم الا من حجابيه ، ولا يؤتى الا من بابه ، ولا يطاع الا من اسبابه ، فهذا ما جاء عنه - فحجابيه هو المبدع الأول ، وبابه النهاية الثابتة في عالم الدين ، واسبابه القدعة اليه في كل عصر وزمان .

وهذه البراهين الأربعة (١) : الاول منها عن حميد الدين الكرمانى ، والثاني منها ما جاء به التنزيل المبين ، والثالث منها عن الشخص الفاضل صاحب الرسائل ، والرابع عن الداعي المؤتمن جعفر بن منصور اليمن نضر الله وجوههم جميعا ، ورزقنا شفاعتهم . وذلك انه لما فطن ذلك الحد الجليل لما هنالك في الابداء الاول ، وشهد لمبدعه بالالهية ، كان ذلك أصل التوحيد ، وحقيقة التجريد ومعنى التنزيه ، وأس العبادة في التقديس والتسبيح والتمجيد ، وهو الفعل الذي أشير اليه بقيامه به (٢) ورسم به وأضيف خاصا اليه ، وهو أيضا كماله

(١) يريد القول. التي استقناها من أربعة نصوص لها تحسيتها .

(٢) كل اراء علماء ونلاسفة الاسمايلية في كلمة المصور متفقة على ان المبدع سبحانه وتعالى لا قبل له ، فلا يتعلق بتوحيد الموحدين ، ولا بتجريد المجريدين ، بل يخرج من ان يكون لا مثل له اذا لم يوجد الموحدين ، او من نموت مبدعاته ، اذا لم يجرد المجريدين ، بل هو تعالى وتكبر وحد الموجد او لم يوجد ، وجرد المجرد او لم يجرد — لا مثل له — اذ لو كان لكنا اثنين .

الثاني ، الذي رمز به حميد الدين ، وهو الوحدة بذاته الأولى العاملة ، وهو في ذاته فرد محض ، ومزدوج بالكمالين ، وكان المتكثر بذلك ، بالأسماء والصفات المتناهية بالشرف والجلال وبذلك ، ثبت أن فعله هذا عن ذاته بذاته ، في ذاته ، لا يقصد عن مبدعه بقضية العدل وموجب الحكمة ، لا الاختصاص بغير علم ولا عمل ، ولا سابقة استحقاق جور ، فلما تم فعله ، وقبلت شهادته ، التي لم يسبقه بها أحد من أبناء جنسه ووقع حينئذ به الاختصاص والاتحاد ، فأشرق ثوره وبان ظهوره ، وترادف مروره ، ووقع عليه اسم الالهية من حيث ولله في مبدعه ، وحيرته في كيفية ابداعه ، وأيضا بوله من دونه في جلالاته ، فوجب له اسم الصبق بسبقه الى التوحيد المحض ، واستحق اسم الأحدية والواحدية ، بتوحيده بالأولية ، وسمي بالكلمة (١) ، لنطقه بكلمة الاخلاص من دون غيره ، ووجب له اسم الامر ، لما تم وكمل في عبادة مبدعه ، فصار بذلك أمره الأول ووجب أن يكون مشيئته وقدرته ، وإرادة في ذاته بذاته ، لما تقرر وقدر ، وفكر واقتر بالحق الأنور ، وسمي حقا باستحقاقه للفضل والعطاء والجزل ، وسمي موجودا يتصوره لما يبقيه ويؤزله ، وسمي كاملا وتاما ، بكلامه وتاما بكماله ، بما هو حياة العالم ، وكمالهم وتامهم بسببه ، وسمي عاقلا وعقلا

(١) الكلمة تعني بالمرمان الاسماعيليين أمر الله الذي عبر عنه بالحرفين اكن) ليحلم انه ملة جميع من يوجد فيه قيام الزوجية ، غييس شيء ، الا والزوجية فيه موجودة ، لذلك غلا شيء خارج من أن يكون الامر علقه . وهذه الكلمة من جهة الأشخاص الطبيعية بلغت الى الاساسيين الذين احدهما صاحب التكليف والحركة ، والاخر صاحب التلويل والسكون أي الناطق والاسم .

ومعقولا ، لمقله ذاته عن فكرة سابقة الى غير ما فكر فيه ،
وفعلن به ، وعالما لعلمه بما هو العلم كله ، والعمل كله ، ووجب
له اسم الحياة فكان هو الحي والحياة ، الأولية التي اوجد بها
صنعتة ، فعليه الاسماء والصفات وقفت وحصرت ، وبأشرف ،
وبه شرفت ، وهو مركزها وعليه دارت .

فهذا حقيقة فعله وقيامه به ، واستحقاقه لجميع ما استحقه
بسببه ، والا ضاعت الفائدة وجور « مبدعه ودخل عليه العجز
لو لم يكن ذلك كذلك » ، وبذلك استحق اسم الابداع لا من شيء
أي لا من معلم ، ولا ملهم ، ولا مشير ، بل من ذاته بذاته .

وقد أوضح ذلك سيدنا المؤيد في بعض خطبه بقوله :
فهو الساكن من حيث أنه استوى على مرشه في الكمال والتمام
المحرك ، شكرا لما وصل اليه من مبدعه من الانعام ، أحمده ،
اذ حمده مكون الاكوان المنبعث منه مخترع الزمان والمكان ،
حمدا ضرورة عجز العبودية تحسنه ، وان كانت حركة الوهم
تهجنه ، فقد أشار الى حركة الوهم ، وهو الحمد الذي عنه
تكوين الاكوان ، والذي انبعث عنه المنبعث الثاني القائم بالقوة
الذي اخترع الزمان والمكان ، بما نبينه في موضعه ان شاء الله
تعالى .

قال حميد الدين ق س : وهو ذو نسبتين : نسبة اشرف
باضافته الى ما عنه وجوده ، ونسبة ادون باضافته الى ذاته ،
ولم يفصل المعنى في ذلك ، وأوجب أن يوجد عنه اثنان بسبب

هاتين النسبتين ، وليس ينسب الى ذلك الحد الجليل دثناء
 بتشريف الله له وتمظيمه بما استحقه من الفضائل بسبقه ،
 وانما معنى النسبة الاشرف من النسبتين هو تسميته ، وتقديسه ،
 وتوحيده ، وتمجيده ، للمتمالي عليه سبحانه ، وهو الاضافة له
 اليه هذه العبادة العلمية والعملية - فالعلمية ما هيجم عليه من
 الهية مبدعه ، والعملية شهادة بما شهد به أول عمل مقبول بما
 هو أصل التوحيد والعبادة ، كما قال تعالى : « الا من شهد بالحق
 وهم يعلمون (١) » وقال : « هل يستوي الذين يعلمون والذين
 لا يعلمون (٢) » وقال : « والسابقون السابقون أولئك
 المقربون (٣) » - فهذه هي النسبة الاشرف للمبدع الاول
 المخصوص بالالهية ، المعروف اليه تأييد العالم وتكوينه
 وتصويره (٤) .

ذكر الله عز وجل في محكم كتابه بتسميته في آية واحدة
 بأربعة أسماء تدل على عظمته ، بقوله : « هو الخالق البري »
 المصور له الأسماء الحسنى (٥) ، الآية « .

وأما النسبة الأدون المضافة الى ذاته ، فذلك انه لما فكر
 أولا فيما قد ذكرناه ، وفطن بالهية مبدعه فشهد بما شهد به ،

(١) سورة الزخرف الآية ٨٦ .

(٢) سورة الزمر الآية ٩ .

(٣) سورة الواقعة الايتان ١٠ ، ١١ .

(٤) يريد تصويره عقليا في المستفيد ليستند من رحيقه العرفاني الحقيقي
 المبرهني الذي ينفله من حد القوة الى حد الفعل .

(٥) سورة الحشر الآية ٢٤ .

واستمر بصدق نيته ، وحسن طويته ، في التقديس والتسبيح
 والتمظيم ، بفرح وسرور ، وجدل وحبور ، وغبطة بما حصل
 له من ذاته بذاته في ذاته ، بما هو عين كماله وتماه ، وبعد
 عنده من التأييد والبركة والنور بفعله ، خطر في باله عجباً زاده
 رفعة وشرفاً من ابنام جنسه ، اذا لم يفتنوا بما قطن به ، ولم
 يسارعوا الى ما وقع عليه ، فعلم أنه بذلك يشرف عليهم ،
 ويفضلهم مفتخراً به معجبا ، وهو ما ضربه حميد الدين في
 المسرة ، فكان هذا الوهم الثاني هو النسبة الأدون ، ولم يقع
 عليها اسم الأدون الا بسبب أنها صورة حدثت مع تلك الصورة
 الشريفة ، ومن ذلك أن كثيراً ممن ينتحل العلم والعكسة
 يعتقدون أنه سها أو غفل ، أو ادعى ، وهو يجل من ذلك ويتكبر ،
 بل هو وهم يزيد في شرفه ، ولكن قد اشتركا في هاتين الصورتين ،
 فهذه « هي الصورة النسبة الأدون » المنسوبة الى ذاته ، وانما
 مثل ذلك مثل رجل حضر وقت الصلاة الى مسجد فيه جماعة من
 المصلين وهو افضلهم واعلمهم واقومهم ، فتوجه في صلاته ،
 ولم يقم أحد منهم لقيامه ، فاستمر في صلاته ، وفي توجهه
 وتكبيره ، وقراءته وركوعه وسجوده ، فلحقه في وهمه وضيقه
 المعجب منهم ، ومن تخلفهم عن الصلاة في وقتها ، ومن قلّة
 اتباعهم له ، اذ لم يقتدوا به ، فخالطوا ما ليس بخطأ - بل قد
 صارت الصورة صورتين : فصورة هي الصلاة ، وهي أشرفها ،
 وهي المقبولة ، والثانية ما خطر بباله ما ليس هو ملتزم به ،
 قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم
 من ضل إذا اهتديتم (١) » ، فهذا هو المعنى في القسبتين ، وهو

(١) سورة المائدة الآية ١٠٥ .

الحد الفاضل ، الكامل ، الاول ، التقديم بتقديمه الأزلي بتأزله
 إليه الفعل فيما دونه ، ولما فعل في ذاته ما به وعلا . قال
 الذكر الحكيم في صفته ، وصفة تابعيه من بعده ، بما تذكره في
 موضعه : « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز
 الحكيم ، له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل
 شيء قدير (١) » . « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو
 بكل شيء عليم (٢) » . « هو الذي خلق السموات والأرض في
 ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما
 يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين
 ما كنتم والله بما تعملون بصير (٣) » . « له ملك السموات
 والأرض وإلى الله ترجع الأمور (٤) » . فهذه الآيات تختص به
 دون ما سواه .

قال سيدنا حميد الدين ق س : ان الاشياء لا تزال
 ترتفع عن الكثرة تحليلا الى ما منه وجدت ، الى أن تنتهي
 الى واحد ثابت هو علة لجميعها ، وبه قوامها ، فيكون ذلك
 الواحد المتقدم الرتبة وجوده لا بذاته ، بل هو في ذاته فعل عن
 لا يستحق أن يقال انه فاعل ، وهو مفعول لا من مادة ، وهو فاعل
 لا في مادة هي غيره . وانما قلنا انه فعل في ذاته ، لكونه أول
 موجود ، فقد يبين أنه فعل في ذاته لا من مادة ، وهو ما ذكرناه ،
 وفاعل لا في مادة هي غيره ، وهو ما يصور به تابعيه على ما

-
- (١) سورة الحديد الايتان ١ ، ٢ .
 (٢) سورة الحديد الآية ٣ .
 (٣) سورة الحديد الآية ٤ .
 (٤) سورة الحديد الآية ٥ .

تبيينه في موضعه * وقال في فصل ثان : فالموجود الاول اصل اليه ينتهي كل موجود - فقد بين ان علة لغيره ، وانه تام في فعله ، وكما صار الناطق وجوده تاماً لا من جهة من كان من جنسه من البشر ، صار الموجود الاول لا عمن هو من جنسه ، فقد صرح انه من عالم مثل ما الناطق من جنس البشر (١) . وقال أيضاً : فان الصفات والمعاني ، تلحقه بالاضافات ، مثل الحاليتين الأولتين بهما الكمال الاول الذي به يتعلق وجود الذات التي هي الموصوف ، والكمال الثاني الذي به يتعلق وجود شرف الذات التي هي الصفة - فالكمال الاول مثله كالكامل ، والكمال الثاني كالمحمول بيانه ، وهما من تلك الذات كالفردين اللذين بهما وجود الواحد الذي يجمع وحدة ، وما بها صاراً واحداً جميعاً ، وهما فردان ، ذلك بأن يكون جامعا للوحدة والكثرة على نظام يبرأ من أية التغاير الموجب وجوده كون ما عنه وجوده على امرين * صار كل منهما لوجود كل منهما سبباً ، فيصير كونه على ذلك موجبا ما يتأول عليه ، برينا من آيات توجب رتبة وراءه ، وهو واحد بالذات ، كثير بالاضافات (٢) ، مثل كونه ابداعاً اذا اضيف الى ما عنه وجوده ، وكونه مبدعاً اذا اضيف الى ذاته ، من غير أن تكون هذه الاضافات داخلة على ذاته بالتغاير ، والكمالان اللذان هما له كالفردين من ذات المبدع

(١) نجد ان المؤلف هنا يبعد الى تطبيق نظرية المثل والمثول والظاهر والباطن مبتدأ في بحثه على ما ورد في كتاب راحة العقل للكرماني في المشرع الثالث من الصور الثلاث فيذهب الى ان الناطق في التنزيل أي الرسول النبي ماله مثل الموجود الاول او العقل الاول او السابق في علم الابداع .
(٢) لانه هو مذهب فرد ، وكونه ليس هو نرد لامتناع وجود مظهر لانه واحد بالذات . وذاته مزدوجة بفردين .

مبدعان ، يستحق كل منهما من حظ الابداعية ما يستحقه الآخر ، وذلك أن الكمال الاول الذي يجري مجرى الكامل مبدع ، كما أن الكمال الثاني مبدع ، وهما من جهة الابداع يكونهما ابداعا فردا واحدا ، ومن جهة ذات المبدع فردان يكونتهما مبدعين كمالا أولا ، وكمالا ثانيا .

فهو نضر الله وجهه قد بين في هذا الفصل الكمال الاول الذي هو ذات الابداع المشار اليه بالحياة ، والكمال الثاني هو فعله الذي تصوره من شهادته لمبدعه ، فصارت ذاته الأثرة التي هي الكمال الاول حاملة ، والصورة التي هي كماله الثاني محمولة ، وهما فردان مزدوجان ، وهما من جهة كونه مبدعا فردا ، ومن جهة كونه ابداعا فردا ، فقد لاح حقيقة العامل والمحمول ، والكمال الاول والكمال الثاني ، فالكمال الثاني فعله الذي حدث من ذاته بذاته ، بغير قصد من موجد .

وبرهان ذلك أن الانسان بحياته التي هي أصل وجوته المنمية لجسده هو الكمال الاول . فاذا اتصل بالعلم والحكمة ، من قبل أولياء الله الذي هو له صورة ، كان له كمالا ثانيا ، وحياة قديمة محيية لتلك الحياة الطبيعية ، فهما فردان من جهة انهما مخلوقان ، وفرد من جهة انهما قد صارا شيئا واحدا .

وكذلك سئل سيدنا حميد الدين : هل عالم الابداع تكليف ؟ فقال : التكليف على وجهتين : تكليف مطلق ، وهو تكليف الاجرام والافلاك على جرياتها - وتكليف غير مطلق ، هو عبادة البشر ، ليصير من جهنة ونقصه الى غاية الشرف ، وعبادة العقل الاول لمبدعه ، هو نفي الالهية عن ذاته ، واثباتها لمبدعه ، من جهة الاقرار به ، والخضوع له ، والابتغال اليه والتسبيح

والتقديس لا من جهة الإدراك ، فهو قبلة القليل وميزان العدل في التوحيد ، وامتداده لما دونه دائما ، فلو انقطع لحظة ، لفسدت السموات والأرض ، ولبطل التوحيد ، وعطلت الحدود ، ولصار أمر العالم إلى الفناء ، وليس إلافادة عنه عمل توره ، وضيأؤه الثواب للمؤمنين ، وناره العذاب للجاحدين • وقال أيضا : والابداع الذي هو المبدع بكونه عين الكمال متجائل عن أن يكون ناقصا فيرجع إلى ذاته نقصانه ، أو إلى من وجد عنه ، فإذا كان متجاللا فهو دائم لا يستحيل (١) •

ثم إن الابداع الذي هو المبدع الأول لا يجوز أن يكون له مثل في الوجود بنوعيه فيكونا اثنين ، إذ ذلك يوجب انقسام ما وجد عنه بضرب من الانقسام ، حتى وجد عن كل قسم ما أوجبه نسبتته •

فقد بين أن لا يكون ناقصا فيرجع نقصانه إلى ذاته ، ولا له مثل في الوجود ، يعني في التصور الذي تصوره ، والفعل الذي قام به وسبق إليه ، فسمي بذلك قديما ، بتقدمه على أبنام جنسه ، إلى ذلك • وأزلي الغاية بوجوب البقاء السرمد ، والحياة أبدي الأبديين بتوحيده لمبدعه ، وإقراره بالالهية بلا واسطة ، ولا مادة ، ولا وحي ، ولا إفاة ، وبذلك أيضا أوجب الله تعالى لمن وحد ما وحده ذلك الحد الجليل ، ولم يشرك به ، عرف شرف هذا الحد الجليل بحقيقة معرفته ، وتوجه به إلى من جلسته قدرته ، وعرف الحدود ، ونزل كل حد في حد الأزلية والبقاء

(١) ولا يتشبه به في النوام والفسرمد والتأزل ، لأن الاستعالة ضرب من الفساد لنقصاته ، المشرع الرابع من السور الثالث من راحة العقل •

والسرمد ، وكانت نسبته الى موجدته ومصوره ، وكان في تصوره كعين ما تصوره (١) . وذلك الحد الجليل ذاته ذات أمور عشرة : اولها أن يكون حقا أولا بوجوده عن المتعالي غاية تنتهي اليها الموجودات في وجودها ، يعني في تصورها ما تصوره ، وهو حق بما جرى له من ذاته ، من الفطنة الحقيقية - والثاني ، أن يكون موجودا أولا . والثالث أن يكون واحدا يتوحد ، بما توحد به من التوحيد ، فاشتق له من توحيده اسم الواحدية . والرابع ، أن يكون تاما بتمام صورته . والخامس ، أن يكون كاملا يكمله هذا الثاني . والسادس ، أن يكون أزليا ، بما وجب له من البقاء بفعله المقبول . والسابع ، أن يكون عاقلا ، بما عقل به أنه مبدع مخترع . والثامن : أن يكون عالما ، بعلمه من ذاته بذاته ، أن المبدع الحق حق لا يشبه بشيء من مخترعاته ، وأنه يتعالى عن صفات موجوداته . والتاسع : أن يكون قادرا بما خصه مبدعه من القدرة على فعل ما دونه في جميع حالاته . والعاشر : أن يكون حيا ، والحياة صفته بتوحيده أولا بالكمال الثاني الذي هو المحيي للعالم بأسره ، وذلك يصححه قوله : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم (٢) » . فهذا الخطاب الى المؤمنين أحياء ، وذلك أنهم آمنوا بالله وأطاعوا رسوله فكانوا بذلك مسلمين مؤمنين بالاسلام ،

(١) كل هذه المناقشة للثبوت بأن الناطق الذي هو من عالم الدين مبدع لدوره ، به يتعلق وجوده من سواء وأنه ثابت كليل على ما به اعطى كميلا بطابق ذلك في عالم الابداع في كونه كاملا أزليا لا يستحيل مما عليه وجد ، وكونه واحدا لا يشركه في رتبته غيره ولا بمثلته في رتبته سواء .

(٢) سورة الانفال الآية ٢٤

أي مصدقين ، فلما خوطبوا بأجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما يحييهم حياة حقيقية محيية لاسلامهم ولأنفسهم ، وذلك إشارة إلى دعاء الرسول لهم إلى طاعة وصيه (١) والقبول عنه عند النص عليه . مصداق ذلك لقوله تعالى يوم النص : « اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً (٢) » . فكان من أطاعه إلى ما دعا إليه ، وبلى عليه ، حياً وفاقلاً ، وقائماً بالفعل ، وبشراً وانساناً بالحقيقة ، وكاملاً ، وتاماً ، وقادراً ، وعالماً وفاقلاً ، وأزلياً ، وموجوداً ، وموحداً ، وحقاً - ومن تكبر وعصى وعصا ، كان بالفسد من ذلك - والنتظام والأوصياء والأئمة هم النهاية الثانية يستحقون بصفاء جوهرهم ، وإنارة بصائر ذواتهم ، ولطف صفاتهم وما تستحقه الذوات الإبداعية ، وكل حد من ذلك العالم مقابل لحد من حدود الدين ، ولهؤلاء الحدود الثلاثة كمال أول هو ظهورهم بالقامة الإلنية ، والكمال الثاني قبولهم لما اتصل بهم من المواد الإلهية ، والتأييدات القدساتية .

قال سيدنا حميد الدين ق س في صفة الأول :
فهو الحق وهو الحقيقة وهو الوجود الأول والموجود الأول وهو الوحدة ، وهو الواحد ، وهو الأزلي وهو الأزلي ، وهو المثل الأول ، وهو المقول الأول ، وهو العلم ، وهو العالم الأول ، وهو القدرة ، وهو القادر الأول وهو الحياة ،

(١) يريد بذلك أن الرسول اللهم عندما أومس بأن يقوم مقامه بخلافة المسلمين الدينية والدنيوية وصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب تسبها وإشارة ورماً في عدة مناسبات أو عدة بيعات لم يتقبلوا ذلك وانتكروا كل رمز يشير إلى صاحب الحق الشرعي ، بموجب النص من الله تعالى .
(٢) سورة المائدة الآية ٣ .

وهو الحي الاول ، ذات واحدة تلحقها هذه الصفات ، وهذا الفصل بيان ما شرحناه ، وأولناه ، وفصلناه .

وقال : ثم ان الحياة هي الثابتة لما يليق بها بحسب مراتبها في الوجود في كمالاتها ، فان كان وجودها وجودا أولا كالايداع ، فكماها الثاني تابع وجوده وجودها معا ، اذ ليس يتقدم عليها شيء . فيكون وجودها كمالاتها أولا ، واحاطتها بالذي تقدم عليها كمالاتها ثانيا . بل ذاتها اقدم من كل قديم وهو في بهائه ، وكماله ، وجماله ، ومسرته بذاته اعظم من ان ينال بوصف ، وانه معتنع احاطته بما هو خارج عنه ، الذي عنه وجوده ، وانه مشتاق الى ذلك مقهر فيه ، وانه الاسم الاعظم ، والمسمى الاعظم .

ولما كانت الهيبة والبهاء والقدره والكبرياء ، والعظمة ، والسماء ، والمجد ، والعلام ، والبهجة والضياء ، والنبطة والمسرة ، للاشياء كلها ، في كمالاتها الثاني ، وكان القيام الثاني للاشياء اما بجوهرها ، واما بأعراضها ، وكان كمال ما يكون كماله في أعراضه مثل كمال الملوك بما هو لهم في سالكهم الذي هو في رجالهم وعسكرهم ، واموالهم وزينتهم ، وجمالهم ومباستهم ، ومسرتهم وغبطتهم ، بهذه المتزلة على الفايات التي تبهر الانفس ، وكان اليه المجد والمسرة والاعتباط للذي يكون كماله الثاني بجوهره اعظم من ذلك ، ولما كان المبدع الاول الذي هو الموجود الاول كماله الثاني بجوهره لا بشيء هو غيره ، كانت جلالته وعظمته وقدرته وكبرياؤه ومجده ، وغبطته ومسرته بذاته على حالة يقتصر الوصف عنها ، وتنفوق المسرات التي عندنا ، وذلك بان الاشياء المتناهية في العرف في دار

الابداع ، المفارقة للأجسام هي مجاميع الغايات ، والاقتساض
 والمسرات . الى قوله : ثم ان المبدع الذي هو الموجود الاول لو لم
 يكن علة لوجود ما سواه لما كان للموجودات وجود . فمراده بآيته
 علة لهم بتصويرهم وتأييده لهم ، وامداده اياهم بكونه بذلك
 خالقا وباريا (١) . ومصورا بالكمال الثاني لعالم الابداع ،
 ولعالم الخلق جميعا بالكمالين جميعا . وبرهان ذلك قول من
 جللت قدرته مخاطبا لواحد من اصحاب رسوله الكريم : « يا ايها
 الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك - في
 اي صورة ما شاء ركبك (٢) » .

وهذه الاشارة بالربوبية من قبل التربية الى الرسول ،
 وبالخلق والتعديل للصورة العلمية ، فذلك كذلك . وقال
 سيدنا حميد الدين ق س (٣) : ولما كان لا عائق للمبدع الاول
 عن العقل بتمام قدرته لا من خارج بشيء تقدمه ، ولا من ذاته
 بمادة تموقه ، كان المبدع الاول الذي هو الابداع علة لوجود
 الموجودات ، الى قوله : ولما كان المبدع الاول هو الحي الاول ،
 ولا يكون حيا ما لا ينمى ، كان المبدع فاعلا - واذا كان فاعلا
 والفاعل علة لوجود منمولى ، فالمبدع الاول علة لوجود ما سواه .
 فهو المحرك الاول والعلة الاولى .

وهذا الفصل قد اوضح ان له فعلا اوليا يستحق به ما

(١) جاء قول الكريماني في المشرع السابع من السور الثلاث هكذا : ثم ان
 الابداع الذي هو المبدع السابق على كل شيء في كل شيء لو لم يكن علة
 لوجود ما سواه ، لما كانت للموجودات وجود .

(٢) سورة الانطار الايات ٦ ، ٧ ، ٨ .

(٣) انظر السور الثلاث المشرع السابع من كتاب راحة العقل .

وصفناه • وفعلنا آخر فيما دونه بقوله : المحرك الاول ، وذلك بدعائه لهم • مثل الرسول لما طرقه التأييد كان فاعلا من دونه محركا لهم بدعوته الى توحيد الله تعالى وعبادته • وقد أوضح سيدنا حميد الدين ق س حقيقة ذلك بقوله : فالأول محرك لجميع المتحركات الى ما يكون فيه القيام بتسبيح خالقها (١) ، وإن الكمال الذي هو له ، هو السبب في تحريك غيره بكونه المتقدم في الحركة من ذاته بذاته الى ما وصل اليه ، واتصل به ، فهو القديم دون غيره بذلك • كما جاء عن سيدنا حميد الدين ق س : « من الزاهرة في الفصل الثاني في عين المسائل » فإذا كنت تريد بقولك أن القديم هو الله الباري تعالى فخير مسلم لك هذا القانون ، للفساد الذي يتضمنه هذا القول ، لأن القديم من الاسماء التي يسميها العلماء المضاف ، وهو اسم واقع على شيء مقترن بشيء آخر هو متقدم عليه ، وذلك متأخر عنه ، ولولاه لما استحق أن يقال عليه قديم ، والباري • كان ولا شيء • وإذا كان ولا شيء فلا يستحق أن يقال عليه القديم الذي يفيد بمعنى من المعاني شيئا ينجر في الوجود معه شيء آخر فيكونا معا • ثم إن القديم اسم ، وهو دال على شيء متقدم على شيء ، ولا يخلو هذا الشيء الذي تقدم على الاشياء أما أنه هو الباري تعالى كبرياؤه عن ذلك ، أو هو غيره ، فإن كان غيره فاسم الغير المفيد من المعنى أنه ليس بآله اطلاقه على الآله الحق من المحال ،

(١) لانه الوجود الاول والمحرك الاول والعلّة الاولى لا يحتاج في اصدار الانفعال الى غيره لكماله اذ لمعه في ذاته ، وذاته لذاته مادة فيها يفعل • وذاته صورة بها يعمل ، وما يكون وجوده هذا الوجود فلا يحتاج الى غيره في الفعل .

وان كان هو الله تعالى فوجود اشياء هي غير الله يلزم أن من الشيء ما هو الله ، ومنه ما هو غير الله . وإذا لزم ذلك أن يتقدمها ما يجري منهما مجرى الجنس ، وكون الله تعالى المخبر عنه بأنه متقدم على الاشياء في تعاليه عن سمة العقليات وصفة الحسيات بخلاف ما يوجب نص الخبر ، دليل على أن الخبر الذي يؤدي أنه قديم كذب وباطل ، وإذا كان باطلا وكذبا ، بطل أن يكون شيئا ، وإذا بطل أن يكون شيئا ، بطل أن يكون قديما ، أو محدثا . وان أردت غير ذلك ، فنقول : ان القديم شيء ، والمحدث شيء ، والاشياء في وجودها على ضربين ثلاثة : منها ما يكون سابقا في الوجود ، فهو متقدم لا يتأخر كالعقل عليه أنه قديم (١) . ومنها ما هو متأخر في الوجود فهو متأخر لا يتقدم كالطبيعة المقول عليها أنها محدثة . ومنها ما يكون تارة بالاضافة الى ما فوقه متأخرا ، أو تارة بالاضافة الى ما هو دونه قديما كالعقل الثاني . وتقدم هذه الاشياء وتأخرها لا تقدم زمني (٢) - بل في الرتبة ، وكلها واقعة تحت اختراع الذي لا تلحقه الأوهام ، ولا تنبئ عنه الأقلام ، تعالى الله ، وتكبر

(١) يريد بقدمه أي وجوده الأزلي لوقوعه من جهة الإبداع الثاني وكونه متلا ، وإذا كان أزليا لمحال انتقله عما وجد عليه أولا ، والمعقول في دار الطبيعة بنسبة انبعاثا ثانيا .

(٢) من المحال حسب المفهوم العرفاني الاسماعيلي ان يتقدم الثاني في الشرف على الاول والذي اشار اليه المؤلف ، من صفات ما يكون متأخر الوجود الذي يحتاج في خروجه الى الفعل ، والى ما هو قائم بالفعل ، فالعقل الاول عقل قائم بالفعل ، وكذلك الثاني ، وما يشع ما هو مغارق للمواد من المعقول ، ولا يجوز اعتقاد ما يلزم موجودا من دار الطبيعة ، ويختص بها نيبا هو خارج عنها من الحدود المعالية .

عما يقول الظالمون علوا كبيرا * وهذا الفصل بين ان اسم القدم ، واقع على هذا الاول ، لكونه موجودا وشيئا تقدمه ، فاستحق اسم القدم بتقدمه على هذا الشيء الذي تأخر عما تقدم اليه هذا المتقدم ، ونفى عن الله تعالى الباري اسم القدم ، اذ كان ولا شيء ، فقد أسفر معنى الكلام فيما ذكرناه .

وقال أيضا مصرحا مفصحا في بعض رسائله : فلا يقال على المعنالي ما يقال على الأمر الذي هو أول موجود عنه أنه فاعل ، ولا أمر مبدع ، بل نقول على سبيل الافهام وهو أدق ما في امكان العقل اثباته في انية غير موصوفة خارجة * عن ذاته هو فقط اذا كان لفظ هو منه دالا على ما كان خارجا عن ذاته ولفظ هو وان كان واقعا على المبدعات بإشارة بعضها به الى بعض مما هو خارج عنه من أسباب وجوده أو غيره فليس * للنطاق بد عند النطق من استعماده واستعماله ، فهو الذي يوجد عنه الفاعل ، والأمر ، والعال ، والمبدع سبحانه حتى يكون ذلك الفاعل والأمر والعال والمبدع الذي هو العقل يكونه علة ومعلولا ، وجوده في ذاته ليس الا عنه الذي هو خارج عن ذاته تعالى وتكبر ، وبذلك نطق الكتاب * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (١) * وقوله حيث يقول جل من قال : * شهد الله أنه لا اله الا هو (٢) * - يعني أن الله الذي قد اله فيما هو خارج عنه ، عن وجوده ومبدعه تعالى ، فتصير ووله اليه ، فاشتاق الذي هو العقل الاول لأن يسدرك

(١) سورة مصلح الآية ٤٢ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨ .

الاشياء كلها ، ويحصلها بما هيته وهويتها ، وعلى ما هي به ، ويتصورها فلا ياله فيها ولا ياله اليها ، ولا يتحير ، ولا تغرب عنه ، ولا يلحقه من ادراكها عجز ولا قصور ، الا فيما اشار بقوله : « الا هو الذي خارج عنه ، وعنه وجوده تعالى الله وتكبر » أي أقر العقل عند الألوهية والتحير ، والوله والشوق ، الذي له الى مبدعه ، وهو قوله : « شهد الله أنه لا اله الا أي لاوله ، ولا الهانية » ، وهو قوله : « أنه لا اله الا فيما هو أي خارج عنه وهو قوله « الا هو ، فلا اله الا هو سبحانه وتكبر عما يقول الظالمون ، علوا كبيرا » .

فالأمر الاول الذي هو كونه كالمج البصر ، وهو المأمور الاول الذي لا يتغير ولا يستحيل عما هو ذاته ، والمعلول الاول الذي وجوده من ذات العلة التي هي هو ، فتصير العلة من جهة (١) ذاتها معلولة ، ومن جهة ما هو عنه وجودها علة ، ومن جهة ما يوجد عنه عللا - فالأمر هو علة البدم ، فهو من جهة ما وجد عنه أمر ، ومن جهة ما عليه كان وجوده من الامتناع عن الاستحالة والتغير مأمور - ومن جهة ما يظهر منه دونه أمر ، من غير أن يكون الأمر في ذاته غير المأمور ولا المأمور في ذاته غير

(١) للكون ما وجوده من الله سبحانه وجودا أولا ذاته غير ذي غير يكونها عين الفعل الذي هو اول وجوده عنه تعالى ، وذات الفعل الذي واحد لا ذاتين ، وإذا لم يكن وجوده وجودا أولا وجب أن يتقدم عليه شيء الوجود غيره ، فكان لو كان العقل جسما لتتسم عليه في الوجود غيره ، وبطل أن يكون شيء يتقدم في وجوده على العقل الاول إذ هو ذات الفعل الذي هو العلة والابداع وليس وراءه الا الله المبدع الذي عنه وجوده .

الأمر • بل ذاك هذا وهذا ذاك ، إذ ليس هنا كثرة بالذات ، بل بالمعاني ، وذلك عبارة عن العقل الأول •

فالعقل الأول وجوده أول ، ولا يجوز أن يكون في الوجود مثله ، أو في مكان توهم أن يكون وجوده عن الله تعالى بوجود شيء آخر شاركه في الوجود معه بكونه فعلا له تعالى ، وكون الفعل عنه صدوره عن الفاعل ذاتا واحدة • وفي هذا الفصل يبين فيه شهادة العقل لباريه بالالهية ووقوع اسم الالهية على هذا الشاهد المذكور في الآية على ما ذكرناه وبيناه •

وقال أيضا في راحة العقل : ولما كانت الموجودات موجودة ثبت أنها مستعندة في وجودها الى ما يبين الموجودات ، فلا يناسبها في شيء مما لها ، لا في كثرة بالذات ، ولا بالمعاني ، ولا في قلة ، ولا في شيء من الاشياء المقولة على الجواهر والأعراض الذي بيناه أنه إن لم يكن كذلك استحال وجود الموجودات • وإذا كانت الموجودات وجودها عن لا يعتمد على قلة ولا كثرة ، ولا صفة من الصفات ، وكان الموجود الأول غير متكرر بالذات ، ولا جائز أن يكون كذلك ، وجب أن يكون شيئا لا يكون من ذاته ما لا يشبه شيئا منها ، بل محضا كلا فردا واحدا أحدا من جهة وجوده عن المتعالي سبحانه •

ولما كان الموجود الأول فردا أحدا على ما تقدم الكلام عليه لم يجوز أن يكون الموجود عن هذا الفرد الأحد الموجود أولا فردا واحدا يكون هذا الموجود الأول شاغلا مرتبة الواحدية فسبقه في الوجود إليها ، وكونها له حقا • ولما لم يجوز كان الموجود عن الفرد الأحد الواحد زوجا الذي هو مرتبة ما يوجد بعد الفرد

مقابلا لما عليه ذاته من النسبة التي لها بالاضافات لا بالذات على ما بينا فيما سبق ، فبذلك يصح بأن العلة في وجودها ما وجد عن المبدع الذي هو الموجود الاول لا من جنس واحد سبحانه المتعالي سبحانه عن مرتبة الواحدية والاحدية التي هي آية اختراعه ، وخلصها للموجود الاول بالابداع الذي يوجب بكونه بأن يكون ما يوجد عنه لا من جنس واحد فيكون واحدا ، بل من جنسين متغايران بالذات ليكون اثنين بحسب النسبتين اللتين هما يختصان بملتهما على ما قدمنا القول والكلام في يابه (١) .

ولو كان الموجود عن المبدع الذي هو الموجود الاول واحدا ، لاقتضى أن يكون ما وجد عنه الذي هو الموجود الاول هو المتعالي من الواحدية والاحدية والاولية ، الذي يكون الموجود عنه واحدا احدا أولا . فلما لم يكن كذلك كان زوجا ، فلما كان زوجا وجب أن يكون لكل من الضدين اللذين بهما ذات الزوج ما يباين به صاحبه ويخايره لتثبت الاثنينية والا فلا فرق ، فسبحانية من له الابداع والأمر عن أن يكون مترتبا في مرتبة يستحقها ما وجد بايداعه ، وخلص المرتبة الاولى في الموجود للابداع الذي هو المبدع علة لكون وجود ما وجد عن المبدع الاول لا من جنس واحد .

ثم كون الموجود عن الموجد الاول في المرتبة الثانية من الوجود علة لكونه من جنس واحد اذ تلك المرتبة مرتبة الاثنينية ، والاثنينية لا من هذا الموجود الاول شاعلا مرتبة الواحدية بسبقه

(١) في النص المفقول عن راحة العقل بابها .

في الوجود اليها ، وكونها له حقا جنس واحد ، ثم كون المبدع الذي هو الوجود الاول جامعا لتسببتين : احدهما كونه باضافته الى ما عنه وجد ابداعا • وثانيهما كونه باضافته الى ذاته مبدا ، يوجب بكونه علة للموجودات أن يكون الوجود عنه اثنين ، والاثنيتية لا تثبت الا بوجود التفاضل ، فكون المبدع على ذلك علة لأن يكون ما يوجد عنه لا من جنس واحد • الى قوله : ان أولية المبدع من الموجودات ، وسلامة هذه المرتبة التي هي الأحادية والوحدانية له ، يتعالى من له الابداع والامر عنها ، وتكثره بالنسب هي العلة في أن يكون ما يوجد عنه لا شيئا واحدا ، ولا جنسا واحدا بل من جنسين : عقول قائمة بالفعل ، وعقول قائمة بالقوة • فقد تبين بما أوردنا الحال في العلة التي لأجلها كان ما وجد عن المبدع الاول لا من جنس واحد •

فهذا ما أوضحه نصر الله وجهه في آخر المشرع الرابع من الصور الرابع : أن وجود الموجودات عنه من جنسين عقول قائمة بالفعل ، وعقول قائمة بالقوة • وأوجب كثرة انقسمت على وجهين بأفعالها وتباينها من ذاتها في ذاتها ، لا بفعل فاعل فعل بها • وقد قدمنا الكلام بأن وجود ذلك العالم دفعة واحدة متساويين متكافئين في الكمال الاول في الحياة بالقوة الى أن تحرك هذا الاول من ذاته يداته في ذاته حركة وهمية فكرية تمييزية في كيفية الوجود والموجد ، فمجز عن ادراك هذين المعنيين ، فهجم بغطنة زكية ، وصورة جليلة ، ثم ان مبدا تعالي أن يدرك بمقدورهم أو ضمير ، فنفى عن ذاته الالهية وشهد لمبدعه بالوحدانية ، فامتاز بذلك وسبق الى ما هنالك ، فاختص بالرتبة المسنية ، وشق له اسم الالهية والوحدانية بتوحيده وولاه •

وقد قربنا للمرتاد تقريبا يهتدي به في ذلك صورة الكيفية ،
 وجعلنا ذلك الشكل مقدمة في المعرفة في الابتداء ، وجعلنا
 رتبته (١) التي بها علا بسبقه وفعله ، مفردة متوحدة بذاتها ،
 ثم صورنا صورتين من دون مرتبة مفردتين بذاتهما وسموهما
 على أبناء جنسهما ، فذات اليمين أحدهما وهي رتبة المنبعث
 الاول القائم بالفضل ولان تلاه ، وذات الشمال مرتبة لمن تخلف
 عن المنبعث الثاني القائم بالقوة ، وذكرنا أن المبدع الاول لما
 شهد بالهية مبدعه وسبحه وقده بخصوع وخشوع ، وإقرار
 بنية صادقة ، وعلوية محضّة وأعلن بذلك بنطق فصيح ، وكلام
 مسموع معقول صحيح ، فقطن له في نطقه ، من جميع الجميع
 هذان المنبعثان ، فاستبقا كفرسي رهان ، فسبق أحدهما
 الثاني ، فسبح للسابق الاول ، وهو المبدع الاول ، وقده ،
 وعظمه ، وشرفه ، وعظم المتعالي المبدع الحق بتعظيم السابق
 الى ما سبق اليه ، فقام بالفعل ، وكان شرفه كشرف الوصي ،
 فكان أول عالم الأثر على ما صورناه .

ثم سبج المنبعث الثاني المبدع الاول ، وقده اقتداء بالمنبعث
 الاول ، ولم يعترف بسبقه له ، وفضله عليه بفعله ، فكان ذلك
 سبب نقصاته ، وقيامه بالقوة ، دون الفعل ، وكان أول عالم
 الخلق الذين تغلفوا عن الاجابة وتكثفوا ، وجميع ذلك أسرع
 من لمح البصر لقوله عز وجل : • وما أمرنا الا واحدة كلمح
 بالبصر (٢) •

{١} يريد رتبة التسلق في عالم الدين وسلامة هذه المرتبة التي هي الواحدة
 له .

{٢} سورة القمر الآية ٥ .

الابداع الجسماني عند العاملي :

وينتقل الداعي العاملي الى الابداع الجسماني باعتباره من المواليد الثلاثة فيقول : « ان العالم الثالث الجسماني الذي هو المواليد الثلاثة » . ثم قال في ذلك علي بن حسن منصور اليمن في بعض أوضاعه (١) اذ قال : ان بدء الجثة الابداعية ، والفطرة التي عند الحكماء اليونانيين ، ابداعا ثالثا من غير جماع ، ولا توسط نقطة ، ولا اغتذاء برحم ، وانما في يطن أنثى ولا لم . بل ابتداء ذلك لما كانت الكواكب في بيوت اشرفها في درجات الشرف ، كل كوكب في درجة شرفه ، حتى ذكر أن عطارد كان في درجة شرفه ، وليس يمكن ذلك في عطارد خاصته . وكان الطالع السرطان . فدارت الافلاك ودهبرت المدهبرات ، وتدافع الهواء ، وامتزجت الأمهات ، فاتمصر البخار بذلك السحاب ، بتدافع جرم الهواء الذي يقال له : الريح ، فأمطرت مطرا نظير المنى ، فأخرجته الارض الجثة لجميع الحيوان حالا بعد حال ، وظهرت جثة الانسان والطالع المذرام بقوة تأثير الاصلين (٢) اللذين كانا سببا لوجود آدم الروحاني وزوجه في الروحانيين ، وسبب وجود الطين ، فخلق من ذلك جميع الموجودات في الارضين والسموات . قال الله تعالى : « والله أنبتكم من الارض نباتا (٣) » الآية .

(١) لعل المقصود هو ابو القاسم الحسن بن عرج بن حوشب بن زاذان الكوفي (منصور اليمن) مؤسس الدولة الفاطمية في اليمن ، وربما كان على هذا جند منصور اليمن أي ابن ولده حسن السدي خرج على الدعوة في اليمن بعد وفاة منصور اليمن .

(٢) يتصد السابق والذلي .

(٣) سورة نوح الآية ١٧ .

وروي عن مولانا جعفر بن محمد ، الصادق ، (صلح) أنه قال : ان ظهور الجثة من غير نطفة ، ولا ازدواج بالقوة الالهية المكنونة بالآلة المعتدلة الشريفة السعيدة المظلمية ، وقوة العوالم ، والفلك هو معلول علة الملل الواحد الذي ليس كمثله شيء ، فالإنسان نتيجة الفلك ، ثم كان من بعد ذلك الازدواج ، والتنافس من الذكر والأنثى ، من كل زوج ليبقى الجنس الى الوقت المعلوم ، الذي في مثله يكون فتور الافلاك ، وسكون الجنس باجتماع الكواكب في الحمل ، وهلاك سائر الحيوان - وقد ضربنا لذلك مثلا بسير الشمس واصلاحها ، وافسادها عند معادها في رؤوس البروج المتقلبة - لأنها في رأس الحمل اظهرت الأشجار ثمارها ، وفي رأس السرطان يتم تضرعها ، وفي رأس الميزان يبدو ثمرها واندثارها ، وفي الجدي فسادها وحصادها ، ثم يبدو صلاحها ، وكذلك اذا عادت الكواكب بعد اختراقها من اجتماعها ، وحلت بيوت شرفها كما تقدم لينشوء العالم نشوءا جديدا ، كما ترجع الصور التي لها في الفلك صوراً روحانية ، وتبقى على ما كان في الدور الماضي ، وهو ستة وثلاثين ألف سنة الى أن يكمل عشر دورات للكواكب الثابتة من ستة وثلاثين ألف سنة ، فيتم ثلاثمائة ألف سنة وستين ألف سنة ، وفيها بلا نقصان .

وقد ذكر أن الجن خلقوا من قبل هذه الجثة ، من الحرارة واليبس التي هي النار ، وأسكنوا الأرض فأقاموا ثلاثمائة ألف سنة وستين ألف سنة ، ثم كان الإنسان والحيوان - فالإنسان من الأرض ، والطباع ، وسينقرض ذلك بعد تمام الكور ، ويبدو خلق جديد ، والله أعلم بغيبه .

كذلك جاء عن الفيلسوف الالهى بأن الكواكب المديرت لعالم الكون والفساد ، سبعة أفلاك يتجاسدها حدوث القراتات ، فباجتماعها في الحمل جميعا وجوب الكور الاعظم ، الذي هو ثلاثمائة ألف سنة وستون ألف سنة • ثم قران يسمى القران الاكبر • وهو خمسون ألف سنة دور الكشف ، ثم قران ، يسمى القران الاصغر ، وهو سبعة آلاف سنة دور السر ، من قيام آدم والنطقاء من بعده الى القائم سلام الله عليه • فكل دور ناطق تسميائية - ويتلو هذه القراتات الثلاثة القران المتردد وهو باقتران الكوكبين العلويين بحكم المثلثات - وذلك مائتان واربعون سنة ، وقران زحل والمريخ في برج لثلاثين سنة - وقران دون ذلك ، وهو قران زحل والمشتري في كل عشرين سنة كرة واحدة • ثم قران اصغر • هو اجتماع النيرين قبل دخول الشمس اول دقيقة من الحمل لكل سنة شمسية ، ودونه قران ، وهو مجاسدتهما في كل شهر عربي كرة - فلما كان ذلك كذلك ، وجب أن يكون لكل كوكب من السبعة الافلاك خمسون ألف سنة ، من جملة الكور الاعظم ، والابتداء منها لزحل ، وكل كوكب منها يرافده ألف سنة الى أن يفي العدد سبعة آلاف الى القمر فيبدأ العدد في مبةة أخرى كذلك الى القمر - وعلى ذلك الى أن يفي دوره خمسين ألف سنة • وكذلك للمشتري خمسين • والمريخ خمسين ، وعلى ذلك الى خمسين للقمر فيوفي الكور - وابتداء دور زحل يجري التبديل والتحويل ، فيعود البر بحرًا ، والبحر برا ، ويستحيل ما على وجه الارض من مواليد ، ونحن نبين كيفية ذلك •

فلما كان الدور الاول الخمسين لزحل ، وكان على ما ذكرنا

الحد من السبعة الأولى بألف منها ، وذلك بسبب استحجار الأرض من جميع نواحيها على ما قدمنا ذكره وصلابتها - فعمدت العناية الإلهية بقصد العقول الإبداعية تأييد العاشر (١) ومرافدته على ترتيب الفلك على ما بينا ، وجعلت زحل أعلى الكواكب ، إذ كان على وجه الأرض ومن فوقها عكسا لاثبات ما يراد اثباته ، وهو من تحت الأرض من أسفل الكواكب ، بعكس ما يراد عكسه ، وذلك لبرودته (٢) وييسره ونحسه - وهو متولي كرة الأرض لأنها من جنسه ، فأحدث زحل في ألفه الذي اتعد به البرد المفرط ، واليبس والثلج المتراكم المغني ، وتكاثر البخار والدخان ، ونشأت الغيوم والضباب ، وأظلم الجو ، وصار الفعل فعل التزمهرير ، ونبتت المياه من الأرض ، وغزرت الأمطار ، وجرت الانهار ، وغمر الطوفان الأرض على وجهها البسيط الأعلى ، وتلاطمت الأمواج ، وتدفقت إلى كل جانب ، فتقلقت الجبال وتصدعت ، وتحللت واستتربت ، وتصدع وجه الأرض وتشقق وخشن الشيء بعد الشيء ، فتمعدنت واستتربت وجهها لأنه كان في حال انمادها ، فعمدت العناية الإلهية أن جعلتها من جميع نواحيها صلدة متحجرة ، وجعلت وجهها حجرا خشنة ، متحشمة ، متمعدنة بالأكلاس والرمل ، فقلبت فعل ما يراد بها

(١) يريد المبحث الثاني الذي هبط فتنظم عاشر من العقول الانبعاثية ومقابلته في عالم الدين الدامي المكاسر المكلف بجلب الانفس المستجيبة الى دعوة الحق الهادية .

(٢) لان الأرض نجس البرودة واليبوسة ، والبرودة جليلة للساء والأرض ، ومثل ذلك من العقود الحجة الذي يجع الولاية والمياسة والدعوة ، والدعوة البطنة الجليلة للحجيج والدعاة :

من التصدع ، والتشقق ، والتمددن ، حتى اكتسى وجهها تراباً ، وصارت أودية وسهولاً وجبالاً وحزونا .

وكان ذلك سبب اقتران الكواكب جميعاً في برج الحمل الذي هو أول البروج المتقلبة ، وشرف الشمس . وأول البروج وخروجها منه إلى بيوت أشرافها ، فكانت الشمس حينئذ في سبع عشرة درجة من الحمل ، والقمر في ثلاث درجات من الشور ، وصار هذان البرجان بشرف النيرين ، لكونهما في خط الاعتدال ، وكان زحل في إحدى وعشرين درجة من الميزان ، والمشتري في خمس عشرة درجة من السرطان ، وهو ، أعني السرطان ، طالع العالم بأسره ، وهو بيت القمر ، والمريخ في ثنائي وعشرين درجة من الجدي ، والزهرة في سبع وعشرين درجة من الحوت ، وعطارد في خمس عشرة درجة من السنبلة ، التي هي المذراء .

فلما كان ذلك كذلك ، واتحد زحل بالألف الأولى ، وحدث ما ذكرناه إلى وفاء الألف الذي أقسد ما على وجه الأرض من الاحجار - ثم دخل الألف الثاني الذي يرافقه فيه المشتري لزحل ، فقل المطر دون ما كان في الألف الأول ، وبقيت الأرض مغمورة مغمورة ، وحللت فزاد في قوة زحل بباطنه البارد اليابس ، وأكسب الأرض سخونة بظاهره الحار اللين ، ووقع بينهما الاعتدال ببواطنتهما وظواهرهما ، ثم دخل الألف الثالث الذي يرافقه فيه المريخ زحل ، والمريخ بظاهره حار يابس ، وباطنه بارد رطب . فاتفق برد ظاهر زحل وييسه ، وبرد باطن المشتري وييسه ، وييس ظاهر المريخ ، فتولد من هذه الخمس قوى (١)

(١) ويقصد بذلك القوى الروحانية الحساسة الحقيقية الطبيعية وهي : -

في الألف الثالث باجتماع قوى التحسين مع باطن المشتري :
 الفصاع الضارية على عدة أجناسها وأنواعها ، وأشخاصها
 وأصنافها ، وذوات الانياب والمخالب ، والهوام ذوات السموم
 على حدتها في أصنافها ، وذوات الجوارح من الطير والهوام في
 البحار ، وبسات وردان (١) والجراد ، وذلك المزاج المحتزج
 الفاسد الذي بعد عن العلة ، وهو في رسوم الهبوط ، وذلك
 حكمة بالغة ان قرئت هذه الأجناس في الأصفاة ، فأعيجت
 وأبعدت باللمن اقصاص لها عن الفساد . ثم بدأ الألف
 الرابع بمرافدة الشمس لزحل ، وظاهرها حار يابس ، وباطنها
 بارد لين ، وهي مركز الحياة ومعدنها - فحدث انقشاع الغيوم ،
 وانحلال البرد وليفه ، وبدأت سخونة قريبة مع برد معتدل
 باللين ، فحدث ظهور أجناس صغار من الحيوان ، مثل الفأر
 وما شاكله في البر والبحر مما هو يشي على أربع مما صغر
 خلقه ، وما كبر أيضا مثل الجواميس والفيلة ، ويقر الوحش
 وحصر الفراء ، وما كان في البحر من القروش وأشكالها . ثم بدأ
 الألف الخامس الذي يرافد الزهرة فيه زحل ، وظاهرها برودة
 ورطوبة ، وباطنها حرارة ويبوسة - فابتدأت الأمطار معتدلة
 غير دائمة ، بل على أنواع موقته باعتدال . لأن المياه قد كانت
 تضجت من على وجه الأرض بحرارة المشتري في ألفه شيئا ،
 وبحرارة المريخ ، وبحرارة الشمس كان انقضاؤه ، وجفاف

١ الباهرة ، السابعة ، الذائقة ، الشامية ، اللبسة ، وهي تسمية
 الكواكب الخمسة الجارية في السماء ، المريخ ، المشتري ، عطارد ،
 زهرة ، زحل .

(١) نوع من العشرات المشابهة للجراد .

الارض في آخر الفها . وهبت الريح الغازية في ألف الزهرة مع برودة معتدلة ، فنبتت الاشجار طيبة الروائح من جميع الرياحين ، وما شاكلها من العود والصندل وأمثاله ، وكذلك الفواكه اللذيذة ، والأزهار والأنهار من النجم والمرعي ، ودودة القز والنحل ، ودواب المسك والزياد . ثم الحيوان القريبة المحللة مثل : الابل ، والبقر ، والاعنام ، والخيول ، والحمير ، وجميع ما ينتفع به الانسان ، مما هي للاعتدال به ، والاستخدام بالطاعة والخشوع والخضوع ، والانقياد لقربه من النهاية الثانية ، ومناسبته في بعض طبائعه اذ هو جزء منه لأنه معاده ، واليه رجوعه ، ومآبه ، ومنه اصداره وإيراده . ثم تكون العاثر على أنواعه ، وانتشر على الارض ، وأكل من الثمار ، وحبوب النباتات ، من النجم والاشجار . ثم انقضى هذا الدور بالسعادة المشوبة بضدها . ثم ابتداء الألف السادس ، المرافد فيه عطارد لزحل ، وهو سادس الافلاك قد جمع قوى الجميع . وكان فعل زحل كالسلالة في الخلقة ، وفعل المشتري كالنطفة ، وفعل المريخ كالملقة ، وفعل الشمس كالضنة ، وفعل الزهرة كالعظام ، وفعل عطارد كاللحم الذي هو التمام . وكثر هبوب الرياح في أول الألف السادس المعينة ، والغازية ، الملحقة للنبات والشجر . فكثرت فيه الحبوب المغذية للبشر ، وكملت الأثمار والبذور والفواكه ، مقدمة لجميع الحيوان أغذية بقصد الناظر المدبر لذلك . ثم ابتداء زحل وعطارد ، في تكوين الانسان في ابتداء خلق البشر وهو ابتداء بعيد ، أصل للقريب ، على ما حكاه الكتاب الكريم بقوله : « سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم وما لا

يملكون (١) * - فاصل المواليذ الثلاثة ظهورها من الماء والعين *

فلما كملت قوى الكواكب الخمسة من زحل الى الزهرة في خمسة آلاف سنة ، فكانت أربعة جذور من بواطنها وظواهرها من كل جنس خمس قوى وذلك أن باطن زحل جار ، وحرارة ظاهر المشتري ، وحرارة المريخ ظاهر ، وحرارة ظاهر الشمس ، وحرارة باطن الزهرة * فهذه خمس قوى حارة والجذر الثاني برودة ظاهر زحل ، وبرودة باطن المشتري ، وبرودة باطن المريخ ، وحرارة باطن الشمس ، وبرودة ظاهر الزهرة * والجذر الثالث رطوبة باطن زحل ، رطوبة ظاهر الزهرة ، ورطوبة باطن المريخ ، ورطوبة باطن الشمس ، ورطوبة ظاهر الزهرة ، والجذر الرابع يبوسة ظاهر زحل ، ويبوسة باطن المشتري ، ويبوسة ظاهر المريخ ، ويبوسة ظاهر الشمس ، ويبوسة باطن الزهرة ، فحصلت الجذور الاربعة من قوى الخمسة والكواكب العشرون مجتمعة كائنة في ندوة الارض في قمرها -

فلما كان عطارد السادس في الالف السادس ، وهو ممتزج باعتدال ، حتى أنه اذا قارن كوكبا ، ناسب في فعله ، ولم يخالفه في طبيعه ، وكان كل كوكب يتولى اقليما يكون طبيعه ، وحكمه ولونه ، وفعل خاصته ظاهرا كان أو باطنا * وكان في كل اقليم وجزيرة مغارات وكهوف لجميع الحيوانات حلى قدر جنسه ، واستحقاقه لما يراود به * فالانسان المحمود المقصود بالنظر جثة من ألعف الماء وأعدبه وأصفاه وأعدله *

والماء من المطر المتبدل من البخار والدخان ، الذي هو نظير

(١) سورة يس الآية ٣٦ *

نطفة الرجل ، وطبعه لطبعه ، في الحر واليبس ، ومن الانهار التي نظير نطفة المرأة باردة رطبة . وذلك أن الماء لما اجتمع في المخارات والكهوف ، والشمس حينئذ في أول برج الدلو ، لأنه يرج على صورة الانسان . وعطارد في اثنين وعشرون درجة منه مغرباً ، وبرج الدلو هوام بيت زحل ، ومثله عطارد ، واعتدال الطريقة للشمس ، وزحل في أول برج الدلو ، يناظر المشتري من تسديس ، وهو في أول الحوت ، وكان الطالع برج الجوزاء ، والضر في قران عطارد في برج الدلو . وكان نزول ذلك المطر واجتماعه بماء الأنهار بهبوب ربيع الجنوب على أرض نقيصة التربة ، سليمة من كل طعم يخالف المذوبة ، مثل الحدة والمرارة والملوحة ، وهي سحيقة التراب متخلخلة ، فحدث في تلك الأغوار ما ذكرناه من ماء المطر الذي يشبه مني الرجل ، ومن ماء الأرض ما هو يجانس نطفة (١) المرأة ، ومن النداءة المتقدمة من الثلوج والأمطار ، المتجمعة من الطوفان ماء نظير دم الطمث ، الذي يجمع بين النطفتين ، وهو كالشبه المتقدم لما يراد به الصبيغ ، وذلك بعد نقاوة الأرض مما كان غشاهاً ، كما أن المرأة تحمل وتقبل النطفة ، بعد نقاوتها من دم الطمث .

فلما حصل الماء في قرار الأغوار القريبة ، وظهرت قوى

(١) يذهب الاسماعيلية الى ان الله تعالى حرك الفلك فسمحت للبشرات العافية من صفو المهن والتهنات والحيوان نصارت حيواناً ثم اتهمت على وجه الأرض امطاراً مائية محتلة ، وحدثت الأرض خدداً غير مبيعة ، وقد صفا ذلك الماء في صفتها ثم يخلوا على اشرف والطف وامسأ من الاول ، فاقبل مطراً كثيراً نظير مني الرجل فوقع في تلك المخارات والخذ التي هي شبيهة بلرحام النساء ، فمزج الماء لكائن فيها المشكل لماء المرأة ، فصارت شيئاً واحداً .

حرارة الارض المكمنة فيها من الحرارة التي ذكرناها ، لأن
 ذلك الزمان الذي تكون فيه الشمس في برج الدلو ، يكون باطن
 الارض حاميا ، وكانت سخونة الارض في تلك المواضع الفائرة
 لينة معتدلة غير مطيرة للرطوبة ، ولا منقبة لها . فتتموج ذلك
 الماء صاعدا . وانحدر هابطا ، فلحقه في أول تموجه سخونة ،
 وسكونة ، وبرودة ، بثقل اكتسبه في انحداره من البرد وهو
 يتردد في تموجه من طرف الى طرف ، صاعدا وهابطا بهيسوب
 الرياح من ناحية الى أخرى ، تارة بعد تارة ، حتى يزول عنه
 أكثر مائيته ويلطف . وضمتته الحرارة حتى صار دهنا سيالا
 من فعل القوى المستجثة . وجذبها اليه بما لطف من زيابق
 المعدن وكباريته ، فصار الماء دهنيا سيالا مستحيلا من لون
 الماء وطبعه ، مع ما خالطه من خواص المعادن والنبات
 حتى يكون لا ماء خالصا ، ولا دهنا غليظا ، بل
 معتدلا لطيفا بطبعه طبع النطفة المتكونة في الرحم . فلما
 بلغت الشمس الى برج الجوزاء ، وسخن الهواء ، وهبت رياح
 البوارج ، وحسي ظاهر الارض ، فجف شيئا بعد شيء . وابتدأ
 الدهن ينمقد بانضاج الحرارة ، لأن في الارض مسام ينفذ منه
 التسييم اليه ، فيلحقه ويكسبه القبول لما يراد به القاحا . ويسير
 البنا وحرارة ظاهر الارض تزيد في كل يوم حتى يبلغ الدهن
 الى حد الانمقاد بالصلابة اليسيرة في حد المضفة . والدهن بحاله
 كدم الحيض في الرحم ، وانما تكون فيه أشياء لكل شخص
 مشيمة على سبيل الامعاء ، وقد يوجد ذلك في الماء سلام يتكون
 فيه الضفادع ، وهي أجنة . كل واحد منها غشاء لصورة كالسلام
 لتتهي الصور البشرية من الحر والبرد ، وتندفع متافذه أن

ينشأها الماء الذي هي فيه - فيبقى نسيجها على ما تكون الأجنة
 في الأرحام فلما تخطط كل صورة في غشاوة هي لها ، كما شاء
 المصور لها جل وعلا - وأحدث كل كوكب فيها شيئا ما تولى جزء
 من جسده ، وأكسبه قوة من قواه ، والمتولي لنقش الصورة
 عطارده بشراكه الشمس ، وزحل ، والقمر - فأول ما انفصل
 بقوة الشمس ، ثم الرجلان بقوة زحل - ثم الرأس بقوة القمر ،
 وعطارده يزيد في كل قوة ، وهو يرسم التصوير ، والزهرة تتولى
 التذكير والتأنيث - فلما كملت كل صورة في غشاوتها ، وفي
 سرته من تلك الغشاوة جزء منها هو كالاسماء ، وقد التصق فمه
 بفمها ، يمتص به مما لطف من ذلك الدهن غذاء لها - كما أن
 الجنين في الرحم يجتذب من سرته مما هو انعصر من دم الطمث
 وتلطف بحرارة الجسد حتى يصير كالدهن ، فيكون بقدره الله
 تعالى غذاء لتلك الجملة . لا كما تظن العامة أن غذاءها بدم
 الطمث ، فذلك كذلك ، والأمطار ساكنة ، والرياحات معتدلة -
 فلما حدث في الجهة الطول والعرض ، والعمق ، وكملت آلاته
 انتشرت الأغشية عنها ، بعد أن نضبت المخارات ، ولم يبق إلا
 المخلوقات ، وارتفع عن مضجعه بتمديد الجسم ، وقد اتفق أنه
 يكون قاعدا على اليث ، وذقنه على ركبتيه ، وقد ضم ذراعيه
 على ما يليهما من جسده ، وهو مجتمع على ما وصفناه - وذلك
 أنه ، لما كملت صورته ، وتخلط رأسه ووجهه ، انبعث فيه
 الروح من الحرارة التي كونته ، ثم استجنت في بدنه ، وأعطاه
 القمر قوة الحياة الإلهية المحيية ، التي يحيي بها ما استكن فيه ،
 من حرارة الشمس وقوتها ، وفي ياطنه من حرارة الشمس جزء
 لطيف معتدل ، يحيي مادته من الشمس إلى ياطن القمر كما

ذكرنا - فلما نفخ فيه الروح ، ودارت في جميع أعضائه ، ومادتها من قلبه ، تنفس من متخريه وقبه ، وتنسم النسيم العار المعتدل من جنس حرارة الهواء وليته ، المتفرد بطبيعته ، فيجمل التنفس يزيد به اتساعا وحركا ، وحسابا بالتنسيم الذي يستمد من خارجه الذي هو من سطوع أشعة الأفلاك والأماك الذين كان منه أجرامها أولا ، ووقوعه على بسيط الأرض ، ثم لم يجد متفذا فيها ، فترجع الأشعة صاعدة ، فتمتدحج ، وتعتدل ، فيصير على غير طبائع الأمهات ، لأنه من أشعة الأفلاك ، ومن قوى الأمهات . وقد صار جنسه غير جنس الكل ، حياة طبيعية محيية للحيوان ، مبردة على النبات ، ملينة لما خشن ، وهو التنسيم المثار اليه بالبحر السيل ، المحيط بالأرض ، وهو أصل الرطوبات ، المنشف من الأرض الدخان ، ومن البحر البخار ، الكائن منه المزاج والمتمزج ، وهو الذي يكف أذى الأثير والزمهرير ، في كثير من الاوقات بقوة اعتداله ، وتوسط حاله ، فكان ذلك كذلك .

فلما تحرك الانسان بالحياة المتعلقة به ، التي دخلت عليه عند كماله من قوى الأفلاك ، التي هي نفس الحس ، فيتنفس ورجلاه تجذبان رطوبة ذلك الدهن ، ويستمد منه مادة الغذاء ، وهو يتمرغ في الموضع الذي نشأ فيه ، وهو يجتذب بيدته تلك الرطوبات وخواصها ، كما يجتذب حجر المغناطيس الحديد ، بالمشاكلة والمناسبة ، يسريان العناية الالهية اليه . وهو يتقلب بينة ويسرة ، وقد انعمت سرته ، وهو ينمو بذلك ، وتزداد قوته بعد اقامته فيما بين الماء والطين تسعة أشهر ، مائتين وسبعين يوما ، فلما صارت الشمس في برج العقرب ، وتقوى

الإنسان البشري ، وفتح فاه ، وطلب الغذاء من فمه المهيأ له ، وسار لسته أشهر من يوم خلق المشيمة التي كانت تلتفه ، وهو في هذه السنة الأشهر يرضع ابهامي يديه إذا ولد يتملق باصبعيه ويرضعهما على سبيل الفطرة الأولى ، فسار وهو في الخلق والقوة كمولود أربع سنين لقوة الأيويين وعظمتها ، والتسعة التي كان فيها في المغارات - وليس صغر جثته مولود النطف ، إلا من ضيق مكانه ، فتأزت الأرحام على قدره .

فأول ما يأكل التين ، والمنب ، والفواكه ، مما لطف من الثمار بقوة الاسنان ، فهذا شرح بدء (١) المواليد الثلاثة وظهور الجنس البشري الذي هو أول الفكرة وآخر العمل .

قال الشخص القاضل صاحب الرسائل نصر الله وجهه في رسالة الحيوان : اعلم يا أخي أن الحيوانات الثمانية المخلقة العظيمة الصورة ، كلها كونت في بدء الخلق ذكرانا وإناثا من الطين والماء تحت خط الاستواء حيث يكون الليل والنهار هنالك متساويين ، والحر والبرد معتدلين ، والمواضع الكثيفة (٢) من تصاريح الرياح موجودة والمواد كثيرة متهيئة لقبول الصورة ، ولما لم يكن في الأرض مواضع موجودة بهذه الأوصاف ، جعلت أرحام أئاث هذه الحيوانات على هذه الأوصاف من اعتدال

(١) يريد بالمواليد الثلاثة المعدن والنبات والحيوان ولا وجود لنوع من أنواعها إلا عن المزاج الحادث من الأركان الأربعة بمعاملة كيميائياتها الأربعة التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليومية بعضها في بعض بالاضافة الى تأثير المؤثرات من فوقها .

(٢) بالحرف الاسماعيلي لمواضع الكثيفة أي المواضع المظلمة السفلية ، لأن من هبط من عالم السماء يهبط نتيجة الكثافة التي تصيبه ، لأن من شمل كل كثيف الهبوط ومن شأن اللطيف الصعود والعلو .

الطباع ، فكيفما اذا انتشرت في الارض تناسلت وتوالدت حيث
 كانوا . واكثر الناس يتمتعون من كون الحيوانات من العطين ،
 ولا يتمتعون من كونها في الرحم من ماء مهين ، وهي أعجب
 وأعظم في القدرة . ونحن الآن نعود الى تمام قول الحكيم قال :
 ثم يكون الالف السابع الذي يرافقه القمر زحل ، وهو ألف
 سعادة وعبادة ، مثال الخلق الآخر . وانتهى دور السبعة الأولى
 من السبعة الآلاف التي هي دوره ، فيكون في هذا الالف السابع
 الأمور العجيبة ، والشخص السعيدة ، والقراءات المحمودة ،
 في الملك والسلطان ، والعدل والاحسان ، وتجريد التوحيد
 والأديان ، وابتداء دور الكشف في هذا الأوان .

فلما وفت السبعة الآلاف التي تولى أمرها زحل ، ابتداء
 دور المشتري من الخمسين الذي هو لزحل ، فتولى منها سبعة
 الآلاف سنة ، وكذلك المريخ ولجميع الأفلاك السبعة الى ما يكون
 التمام بدور القمر ، ولكل دور منها حكم وتقدير وتدبير ، من
 السميع البصير ، الى وفاء تسعة وأربعين ألف سنة . وكمل دور
 زحل . ثم ابتداء دور المشتري خمسين ألفا ، واغتص منها
 بسبعة آلاف سنة ، ورافده كل كوكب على ما بينا الى وفاء خمسين
 ألف سنة ، الى ما يكون المنتهى سبعة آلاف زحل ، ثم كان للمريخ
 خمسون ألفا الى ما يكون المنتهى دور المشتري ، وكذلك للشمس
 خمسون ألفا الى ما يكون منها دور المريخ ، وللزهرة خمسون
 ألفا وينتهي ذلك الى الشمس ، ولعطارد خمسون ألفا ينتهى دور
 الزهرة . وللقمر خمسون ألفا الى منتهى دور عطارد .

ثم وفاء الكور وابتداء دور زحل على ما ذكرناه في اول
 الكلام ، وفسدت الخلقة ، وتراكمت الغيوم والثلوج ، وغشى

الطوفان ، فيكون الأمر على حالة الاول بعد وفاء سبعة أيام ، لأن كل كوكب يوم ، وله خمسون ألفا من الكور ، فذلك كذلك أبدا سرمداً فسيحان من هذه القدرة قدرته ، وهذه الحكمة مشيئته ، ولا اله الا هو استغفره وأؤمن به ، واتوكل عليه ، وأستجير به من الحور بعد الكور ، وهو رجوع الكواكب من افتراقها الى موضع اقترانها أولاً فيه - ولكل دور من هذه الكواكب حكم وتدير وتقدير ، من ظهور وبطون ، وكشف وستر ، وقمل وانفعال ، والأمهات تستحيل بجزيئاتها ، والمواليد بكلياتها ، والعناية الالهية تديرها وتديرها ، وتكورها وتدورها ، وتحزرها لغلاصها ، ولا خلاص لها من القامة الالفية ، لأنها الصراط بين الجنة والنار -

ونحن الآن نرجع القول على ظهور أهل المخارات الذين تقدم القول عليهم وظهور الفاضل بالنور الكامل وكيفية الارتقاء ، والمعاد ، والقول على الحجب النورانية في عالم الدين وعلى المحتجب الحق الذي لا يغيب طرفه عين *

بده نشوم الشخص البشري عند العاملي :

« في القول على ظهور الشخص البشري أولاً ، وفي كل ظهور بعد وفاء الكور ، ان البرهان الظاهر للعيان بما نشاهده في كل جنس من أجناس المواليد التي لها غاية ، كالباقوت الاحمر الذي لا سلطان للنار عليه ، وزوجه الزمرد ، وانهما غاية الأحجار في الشرف والمقدار ، وكالنخل في الثبات وزوجه العود في المقدار والشرف ، وكالفرس في الحيوان وزوجه الفيل في الشرف والمقدار ، كذلك الطير وغيره مما ينصبه صاحب رسالة

الحيوان (١) ، فبذلك وجب أن يكون العالم البشري والجان غاية لكونها نهاية النهايات وغايتها ، وهو الطريق الى الصمود الى الملائكة الكرام . فالإنسان البشري منتهى زبدة الطبيعة بأسرها ونهايتها الثانية ، وهو حد فعلها بما قصدته العقول البرية التي أظهرت الرئيس رئيسا ، والخسيس خسيسا - فأول ما قصده الماء الذي تحيز في المغارات بقوى الآلة المحركة التي هي الافلاك ، فجذبت الى غور من تلك الأغوار (٢) ، التي هي مسافته لخط الاستواء ، من مرنديب من اللطف الماء وأعذبه وأشفه ، وأقربه ما تكون منه ثمانية وعشرون شخصا ذكرا ، وفيما يليه غور فيه ثمانى وعشرون شخصا اثنا ، وكان سبب ذلك بعدد منازل ثمانى وعشرين منزلة ، وعلى عدد حروف المعجم ، ولحظتها العقول البرية بمناظرات الكواكب السعيدة ، واعتدال الزمان بقوة أوله . وقد خرجت ماء ذكر الغور ، كما ذكرنا ، بغواص أشياء من المعادن مثل الزئبق والكبريت ، حتى امتزج بماء الغور وطينه ، وعنتيت بفعله وتدرجه على سبيل الفعل بالسلالة من حالة الى حالة ، حتى تكون الماء هنا ، فتكون فيه أجنة من الاغشية التي كل واحد منها مشيمة لشخص منها وجميعها من الآثار الطيبة ، من حيوب وشمار وفواكه وأشجار ورياحين ، ومن ماء الأنهار التي قد استقرت تلك الآثار ، وجذبتها الأمطار الى الأغوار ، فصار ذلك هو الطين المزاج للماء القابل للانفعال ، حتى انها من الكافور والعنبر والمسك

(١) بمعنى رسالة الحيوان من رسائل اخوان الصفا .

(٢) بمعنى علماء الاسماعيلية يسكنونها الغاور والبعض الآخر الكهوف أو الجود .

الأذفر ، جذبه العناية الالهية باستحقاق ، كما يجذب حجر
 المتناميس العديد ، وذلك مما كان من أهل الاقرار بالحد
 الأمظم ، فكانت أجسامهم من ذلك الحال الاشرف الذي ميز
 من الخبيث ، وكانت أجسامهم شفاقة جوهرية ، صافية زكية ،
 طاهرة نقية ، مضيئة نيرة نامية حسية ، على ما رمز به الشخص
 الفاضل صاحب الرسائل حيث قال (١) : وقد قيل انه متى كان
 الكبريت صافيا والزئبق نقيا ، والزمان معتدلا ، والتدبير على
 ما ينبغي في الوقت من اعتدال الزمان باستقامة وأشكال الفلك ،
 والشمس في سعادتها ، وكان التدبير موافقا لها بمساعدتها فرقي
 الى العلو بالصعود بالنار اللينة عن النسبة الفاضلة أولا ، ثم
 أهبط الى السفلى ، فجعل ذلك مثل الماء بالرفق ، في أكمل مثل ما
 كان أول مرة ، ثم أخذ ، ثم رقي بالطف تدبير من الأول ،
 وقدر على علوه أحسن تقدير ، على النسبة الفاضلة ، والقسمة
 المعتدلة ، والمعرفة الكاملة ، ثم أهبط ، ثم أعيد الى حالته
 الأولى بأكمل ، يفعل به كذلك ما دامت الشمس في سعادتها وحسن
 مساعدتها ، فان بلغ به التدبير الى نهاية وتسام غاية كان شمسا
 طالعة سامطة أنوارها ، ونعمة سابقة ، وبركة نافعة ، يدب
 نورها في الاجساد ، اذا اشرقت على الكواكب يرى نورها فيها
 وصيغتها فجعلتها شمساً طالعة ، وأنواراً سامطة .

فهذا فصل عن الصادق الأمين (٢) اوضح ما شرحناه في أول
 الكلام وبيناه ، وهو أيضا ينتظم الصعود الى المعاد . وقال

(١) الرسالة الجامعة : الورقة ٩٧ .

(٢) يعني الإمام اللوحي أحمد صاحب رسائل الخوان الصفاء .

أيضاً : وإن قصد التدبير بفساد التقدير عن درجة الأولى بدرجة كان دون الغاية ، لأنه لم يبلغ النهاية ، فيكون ما يتولد عنه ويبدو منه ، إذا كان القمر امتلاً نوره ، وسعاده في ظهوره ، نتيجة ذلك التدبير قمراً (١) تستمد الكواكب من نوره ، ويسري فيها وينزل بها ، وإذا نزل بها ، صارت هي كهو في المشال ، فهذا قوله . ونقول : إن شرف تلك الاجسام الجومرية المضيئة على سائر اجسام أهل الجوائر ، وكذلك نفوسهم أشرف من نفوس أهل المغارات التي في الجوائر ، على اختلاف الألوان والأشكال والطباع .

فنفس هؤلاء الفضلاء من أزكى النفوس وأجلها وألطفها ، وهي من غير من امتزج بالماء والطين ومما لم يتموج به الطوفان ، ولا اختلط بالتجيب في المزاج والامتزج ، الذي حدث التبرين لأنهما من سكان السموات العليا في عالم الأجرام ، وذلك أقرب من أقر بالحد الأعظم الذي هو المبدع الأول ، وشهد له وسبحه وقدمه ، وتخلف عن اجابة المنبث الأول عند الدعوة به ، ومن اجابة العاشر لما دعا به ، بعد توبته وعودته ، فكان جميع من تصور ذلك سعي صورة ، بسبب أنه لم يتصور غير هذه الصورة ، وسعي نفساً حسية ، وحياة هيولانية ، يملوه على من أمر من فعل شيء مما جاء به ، فتكون كما ذكرنا آلة مؤثرة في عالم الاستحالة للكون والفساد ، وسخرت وجبرت وأمجت عن التعلق والبراية .

وفي حدل باري البرية أن يخلصها بالثزامها بذلك الحد

(١) برمز هنا إلى الشخص المفضل الإلهام الهادي صاحب الدعوة .

الجليل ، وبخدمتها وسميها بالتقديس والتهليل ، لا خلاص لها
من الصراط المستقيم ، النهاية الثانية التي هي جنة النعيم •

فكانت البروج الاثنا عشر في السبع الاول الذي هو على وقام
ستين سنة ، عند وقام الستين ينقل من البقار والدخان ،
اللطيف والشريف ، الذي يكون أصله مما يتخلل من الأجسام
الطاهرة ، والاجساد الفابرة ، التي هي لا تجانس شيئاً من
الأمهات فتختلط به لكونها قد أشرقت وعلت من مجانستها ،
فيتردد ذلك المزاج الذي تصاعد منها ، ثم يتكون كوكب على
سبيل ما نشاهده من النيازك التي تصعد الى فلك الفار ، فيتكوكب
ثم لا يجد منفذا كما قال تعالى : « ملئت حرصاً شديداً
وشها (١) » فتخر وتسقط ، وهي منظورة معانية ، مشاهدة
تلك النيازك ، فتلك تنعمل كذلك ، وتتكون بتدبير المقدر لها ،
على عدد نجوم كل برج قد استحق أن يقوم مقامه من تخلفه ،
وهو يتدرج الى القامة الالفية لخلاصه ، فإذا صعدت تلك
الجملة تكوكت في فلك الأثير ، وكانت البداية للحمل ، فسكنت
في موضعه ، وهبط الحمل الاول الى الارض واختلط بما يمانله
ويشاكله من المعادن ، وصعد الى شيء من النبات المحمود ، من
الفواكه الطيبة ، ثم يتناوله مستحقه فيفتدي به ، فتظهر تلك
الأغذية بالتدريج في أعضاء المفتدي بها ، الى ما تصير نطقها
مائزة عن شيء يختلط بها • وتصل الى الكمال الاول
البشري • ثم تطلب الخلاص وتسعى في ملازمة أهل الاختصاص ،
« فتتعليم وتعلم » وتكون في الكمال الثاني في الحد الذي تستحقه

(١) سورة الجن الآية ٨ •

من أفلاك الدين ، لا يعوقها عائق ، ولا يردعها رادع ، وتقبل جميع ما يلقى عليها من الاصباح والأكاسير ، وذلك كذلك -
 فإذا وفي ستين سنة ، تكون مما انحل من أجساد ثمانية الدخان والبخار ، وانعقد في الأثير (١) ، كواكب عديدة على مدة برج الثور ، وصعدت فلزمت مكانه ، وهبط البرج الأول على سما ذكرناه ، وكان تكونه على ما وصفنا إلى وفاء ستين سنة ، وصعد مثل ذلك ، وكان خليفة لبرج الجوزاء ، وهبط وتكون على ما ذكرنا ، فذلك كذلك ، يصعد لكل برج من يخلفه بالعدة إلى وفاء برج الحوت وعاود الصعود إلى الحمل كما ذكرنا ، ويكون ذلك الحال والانعقال من برج الحمل إلى برج الحوت في سبع مائة سنة وعشرين سنة ، وعلى ذلك -

وقد ذكرت الحكماء أن الأفلاك تتراخي بارتباطها عند اجتماعها في برج الحمل على وفاء الكور الأعظم ، ويجري التحويل والتبديل ، حتى أنهم ذكروا أن الفلك يعود أرضاً والأرض أفلاكاً ، وهذا لا يمكن زوال الكل معاً - وإنما على ما قد بينا وأوضحنا ، وكذلك أيضاً إذا عاود التدبير لزحل بعد وفاء الكور الأعظم ، ثم استحال ما على وجه الأرض من المواليد الثلاثة ، وطحنت الطبيعة ما تحتها ، وذلك كالعلاخونة إذا أدبرت على ذر وكر ، طحنت ، فتجذب العناية الإلهية باقي فضلات أجسام الظاهرين الموحدين ، ثم تتصاعد فينعقد منها شمس وقمر وكواكب ، مثل زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد ، وفي وقت ما ينضب ما على وجه الأرض من ماء الطوفان ، ثم

(١) كنز الولد صفحة ١٥٢ الحادي .

ترثيث الصاعدة في مواضع الأولى . ونهبط تلك الأولى فتكون هي أهل المقارات السعيدة الثمانية والمشرين شخصا ، وتدعو الي توحيد بارئها بلا واسطة ولا الهام ، كحال ما فعله المبدع الأول ، وعلى ذلك أبد الأبدن ، عدلا ورحمة ، لخلاص من اجاب ورجع وأتاب .

رمز بذلك سيدنا حميد الدين حيث قال في راحة العقل (١) : ولخلو الطبيعة التي هي النفس من هذا العلم الثاني قال الله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا (٢) » . أي لا تعلمون شيئا من الكمال الثاني الذي هو العلم الثاني الذي يتعلق بالأديان والاعتقادات التي بها تكمل النفس وتصور عقلا ، وهو يستفاد من جهة الأئمة الهداة من أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين .

ولما كان ذلك كذلك كان سبيل هذا العلم الثاني لا كسبيل ذلك العلم الأول . يكون ذلك العلم الأول موجودا بكل نفس من أول وجودها من الحيوان وغيرها ، إلا آحاد تمتاز وتختص لمطل موجبة تزول بعد حين فتلحق بغيرها ، فهذه الآحاد هي ما تجوهر من آثار الصالحين في الجواهر الثمينة ، وبقيت في الأرض ما تعود إلى السحيق ، ثم إلى القامة الألفية ، ثم تلحق بعد حين بغيرها بعد زوالها مما كانت متصورة له من الجواهر .

(١) نقلت هذه العبارات من المشرح الثالث من السور الخامس من كتاب راحة العقل .

(٢) سورة الفحل الآية ٧٨ .

ثم قال الشخص الفاضل صاحب الرسائل رمزا : واعلم يا
 اخي أيديك الله وأيانا بروح منه ، أن القوى النفسانية أول ما
 بدت ومرت لما هبطت الى الاجسام من أعلى سطح الفلك المحيط ،
 الى نحو مركز الارض مرت أولا بالكواكب والافلاك والاجرام ،
 وبلغت مركز الارض الذي هو أقصى شأياتها في هبوطها ،
 ومنتهى نهاياتها في حضيضها ، فمنها ما ثابت وأنابت ، وتذكرت
 ورجعت من قريب ، فأتحدث بالكواكب النيرة ، والأجرام الصافية
 ولذلك قيل لها : « النفس المطمئنة الراجعة » من قريب ولم
 يطل بها الأمد في جهالتها وطينائها ثم كانت لذلك تتفرق وتتحد
 الشيء بعد الشيء على قدر الصفاء والرجوع الى الاقرار
 والاعتراف بالخطا والاقتراب « الى فلك » القمر آخر أبواب
 العالم العلوي . ثم هبطت المتخلفة عن الاجابة نحو المركز
 واتحدت بعالم الأمهات ، وسرت قواها في المعادن والنبات والحيوان
 والانسان ، وعظمت عليها النفوس الناجية المتحدة بالكواكب
 وحنن عليها ورحمتها كما ذكر ذلك في كتابه الكريم « والملائكة
 يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض (١) » فبالبرهان
 الصادق ان كل شيء يحن على جنسه ، ويرمم بعضه بعضا .
 فدارت الافلاك وسارت الكواكب النيرات وترتبت الأمهات
 وظهرت الاشخاص من المعادن والنبات والحيوان ، وبرزت صورة
 الانسان فامتلا العالم من الاشخاص ، ونزلت النفس القدسية
 بالروح من أمر ربها على من يشاء من عباده بالدهام اليه ،
 والدلالة عليه . فمن أجاب لحق بعالمه ، ومن أبى واستكبر

(١) سورة الشورى الآية ٥ .

وخالف وأصر نزل في هوانه وهذا فضل عن الثقة الآمين من
الرمز الخفي والبرهان المضيء -

ونحن نعود بعد بيان شرف النفوس الزكية « والأجسام
الصائبة » من أهل المغارات السعيدة الملحوظة ما نهضت من أهل
المغارات السعيدة الملحوظة * ما نهضت من أهل المغارات لطلب
المعاش « مما يليها » من الفواكه والأشجار الا بقوة في أجسامها
قرية ، وفطنة في حواسها زكية ، وهي تهيش في صقمها ذلك
وتعيش وتأوي مما تحت الأشجار وتشرب من الأنهار ، ثم بلغت
في سبع سنين رتبة الاحتلام ، ولها على سائر المغارات من التمام
والكمال أصنافا مضاعفة ، ثم لحظتها العقول بـسريان أنوارها
بوساطة المتولي لذلك من أدناها رتبة الموكول اليه أمر ما دونه
من عالم الهيولى ، فصفت لطائفها ، وعلت صورتها ، وترتبت في
السبق الى التوحيد والافرار كترتيب العقول الخارجة عن
الأجسام ، الاول فالأول على النظام -

الانسان القاضل من تحت خط الاعتدال عند العاملي :

ان أهل هذه المغارات التي طابت عناصرها ، وصفت جواهرها
في نفوسها وأجسامها ، لما تحركت الى منافعها من مآكلها ومشاربها
تحرك من جملة شخص واحد فيه من الفطنة والذكاء والتمييز
في جميع بقصد العقول ، ووحى وإلهام ، وتفضل وانعام ، الى
ذاته بذاته بتأييدات ربانية ، ومواد الهية قدسية علوية « ففكر
ودبر وتفطن ، وأبصر فأقر أن لهذه الصنعة صانعا حكيما ،
وشهد لباري البرايا بالالهية ، وجرده عن الصفات الاختراعية ،
وكانت شهادته كمال الشهادات الثلاث في الآية بقوله محققا

ذلك : « شهد الله أنه لا اله الا هو (١) » فهذه شهادة المبدع الأول الواقع عليه اسم الالهية . ثم قال : « والملائكة » الذين شهدوا بمثل ذلك ، المنبعث الاول ، والعقول الانبيائية ، والماسر ، ثم قال : « وأولوا العلم قائما بانفسك لا اله الا هو العزيز الحكيم » الآية . وهذه الشهادة الثالثة لأهل المغارات الذين وسعهم بالعلم ، فوجد الشخص المذكور وجرده وتزه وسيع وقدس ، فطرقة التأييد بروح القدس والتصعيد ، فكان في سبقه وشرفه بفضله ، كسبق المبدع الاول وشرفه ، وكسبق المنبعث الاول اليه ، فظهر بالفعل في العلم والحكمة ، وظهرت به المعجزات ، ونطق بالأسماء والصفات ، لاستحقاقه لذلك ، وسبقه الى ما هنالك ، اذ هو زبدة العوالم أجمع ، وبسببه تعركت المتحركات ، وتمكنت المتكينات وتزمنت المتزمنتات ، وكان نهاية النهايات وعناية جميع الغايات مما في الارض والسعوات ، فكان سبقه مما لا يترجم عنه « عقل طيني ولا لسان توحيدي » وكان امام الأئمة ، وقبلة كل قبلة ، كمال الأمر ، ورأس المشيئة ، سبق السبق ، وكان في نفس الرقيق أول الخلق ، ثم جرى به الظهور والاتحاد ، واختصه النهاية الأولية بذلك ، وكان أول الاتحاد والأفراد ، في عالم الكون والفساد ، الهادي الى دار المعاد ، فنطق بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وتشعشت صورته : وأنارت بصيرته ، وكان قيامه ابتداء دور الكشف ، وعلم الاشخاص الذين ظهروا معه علم الكيفيات والكميات ، بعد اخذ عليهم عهد الله المؤكد ، وميثاقه المفظ المشدد ، والوحي متصل به غير متفصل .

(١) سورة آل عمران الآية ١٨

والعلم لديه بالفعل ، معرفتهم المخلقة بأمرها ، ودلهم على أسمائها وصفاتها ، وحركاتها ومكنايتها ، وابتدا انفعالها ، من أول كرة من المكان ، وحركات الأفلاك التي جرت بها الأزمان . وهذبهم في العلوم الأربعة التي هي : علم اللسان ، ثم علم الأزمان ، وعلم الأبدان ، وعلم الأديان ، بعادة الواحد المثان ، اختصه بعلم جميع ذلك لكونه قائم الابتداء في العالم الجسماني ، وأول عالم في الجنس الانساني بقوة ظهور الاتحاد ، تلات أنواره بالاشراق ، وأظهر العلوم وأنبأنا بالمعلن منه والمكتوم . ودعا بلسان التوحيد الى المتمد به ، الاول في البداية ، غاية كل غاية ، وجه الله الكريم ، واسمه العظيم . ثم أمر من تلك الاشخاص أحد عشر شخصا الى الجزائر النائية عن جزيرته ، ورتب كل واحد منهم في جزيرة من الجزائر . وأقام الثاني عشر في جزيرته التي هو فيها . وأقام أيضا اثني عشر حجة يحضرته وأمر بتعليم المخلق في الجزائر وتهذيبهم ، وتسييد أمورهم وتاديبهم ، فاستجاب كثير من المخلق بقبول وطاعة ، وصفاء خالص ، وولاء مخلص من جميع من له سابقه ونية بتشريف ذلك الحد الاعظم ، أو بحد من الحدود دون الآخر لقوله تعالى لأهل الطاعة : « قل أمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم واسماعيل ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (١) » .

وكان أيضا في كل جزيرة مغارة فيها من الوحوش المائلة بالقامة الألفية التي هي من ظلمة الجهالة وكدر الخلقة تكونت

(١) سورة آل عمران الآية ٨٤

من المياه الأجنة الفاسدة الوسخة ، مثل القرد والذئبة
والنسايس والقولة والمديرة وما شاكلها ابعادا ولعننا واقصام
لها ، حتى لا يظهر عنها شيء مما هو في خواطرها من الفساد وقلة
الرشاد . وكذلك من أجناس العجم ما هو يماثل هذه الخلقة
المسوخة ، مثل الزنج وما شاكلهم من السودان ، وغيرهم من
الاشخاص والانواع ، لكونهم في البعد من النهايات ، فكان ذلك
كذلك .

واقام الشخص في الدار ، يأمر وينهي ، فأحل النكاح وحرم
السفاح ، وهدى الى جميع الحلال ، ونهى عن الحرام ، وحذر
وبصر ، وأتذر وبشر ، وقدر كل خير ونفع وضرر ، لأن دوره
روحاني عقلي نوراني مضيء ، وعمر طويلا حتى استخرج من
دعوته ، وأرواح صورته ، ولطائف أهل طاعته ، أعضاء اجتمعت
وتواردت شيئا بعد شيء الى بابه الأقرب ، وخاصته المهذب ،
شخصا نورانيا كملت أعضاؤه ، مجردا روحانيا ، صورة محضة ،
خالصة مخلصه ، قائمة بالفضل . فأسلمها الى الشخص الفاضل
عند وفاء الأجل المحتوم . فكانت المشار اليها بالولد الثام ، الذي
يقوم مقامه ، وينوب منابه ، فنص عند أوانه ذلك عليه ،
وأشار بالامامة اليه . وخس هو عن الدار ، الى دار القرار ،
لجوار الملك المقرب ، الموكول اليه أمر العالم المكنى عنه بجنة
المأوى عند صدر المنتهى ، بحفيرة القدس ، صفحة السموات
العلا ، عند باب حجاب الحجاب ، الموقوف للأنبياء والأوصياء
والأئمة النجباء ، في دائرته جيلا بعد جيل الى قيام القائم الذي
يقوم مقامه ، وينوب منابه ، في تدبير العالم السفلي عند الانتهاء
والانصاف ، وكمال الختام . فاذا صعد الى تلك العاشر المكنى عنه

يتنفس الكل ، صعد وسكن هو عما كان فيه ، ورفي الى رتبته
 شخص ملكي انبعاثي ، وصعد ذلك أيضا بصموده ، على ذلك
 التراجع في العلو والسفل أبدا سرمدًا وهذه خاصة للإمام الظاهر
 من المفارقات الذي قام في عالم الدين مقام الاول في العقول
 المجردة ، اذا صعد الى رتبة العاشر ، صعد العاشر بصموده
 وخلافته له ، لأن ذلك الامام كان ظهوره بعد السبعة الآلاف ،
 التي ذكرتها . فكان عقلا قائما بالفعل ، أعضاؤه كاملة في
 المفارقة من عالم الافلاك ، والصعود اليه الى ما يقوم القائم
 فيصعد بصموده (١) . وكذلك يجري الأمر في ذرية الشخص
 الفاضل واحدا بعد واحد ، والصعود الى المراتب المذكورة في
 اعلى عالم الطبيعة ، صفحة السموات ، كما أوضحه سيدنا حميد
 الدين الذي هو باب الحجاب ، وذلك كذلك الى وقام دور الكشف
 خمسين ألف سنة ، ووقام دور زحل ، وبدء دور الستر خمسين
 ألف سنة ، وأيضا كذلك ، وكل قائم يصعد الى فلك العاشر
 يقوم بالفعل عقلا محضًا مجردا ، « ودير عالم الطبيعة وأمر
 ونهى وحرك المتحركات » ودير المديرات ، وقدر الازمنة
 والأوقات .

قال سيدنا المؤيد في الدين في تصحيح ذلك : اذا انتقل
 القائم (ع م) من هذا العالم الى العالم الروحاني بعد استقرار
 ما يقرره ، وتدير ما يديره ، أمر ونهى من أمور ما يحتاج اليه

(١) يذهب الاسماعيلية الى ان القائم هو آخر امام من أئمة دور محمد (ص)
 فينصل به جميع المنتقلين من الأئمة من اسم الى وقت قيامه ، وتكون
 نفسه حاملة لهم ، ويصيرون آباء صورة نورانية قلبية .

كيف يشام ، لأن كوره ودوره طويل ، وليس لصفته سبيل ، ولا يجوز أن تذكر ما كان يمدد الا رمزا وإشارة دون التصريح ، وفي هذا المقدار كفاية لمن عنده علم الكتاب ، فإذا انتقل الى العالم الروحاني يكون كلا من دونه ، وتعلق النفس بمنزلة الأولى ، وفي هذا كفاية لمن عنده علم من الابتداء ، فهذا قوله يبين ما ذكرناه ، وذلك أن يكون في كل عشرة آلاف سنة قيام صورة كما قال مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وآله في كل عشرة آلاف سنة تكمل صورته ، وكذلك يكون دور الكشف في كل عشرة آلاف سنة قيام صورة تكون قائما بالفعل ، إذا كملت الصورة التي هي الاعضاء الروحانية عند البرزخ ، كانت عند الوفاء ذلك القائم الذي يقوم ويصعد ويخلف صاحب المرتبة العاشرة ، فيكون من دور الكشف خمس صور الى وفاء سبعة وأربعين ألف سنة ، وقام العلم بالقوة ، وظهر الجهل بالفعل ، واندرس العلم الحقيقي واضمححل ، وتغلب واستقر في الثلاثة الآلاف من الخمسين ، وكان العلم طبيعيا فلسفيا ، وعطلت الحدود ، وأشرك في توحيد المعبود ، ثم حدث دور الستر سبعة آلاف سنة ، وقام قائم الستر بالكشف على ما ذكرنا ووصفنا من الصعود الى أدوار النطاق الستة (١) الى البرزخ وتواردتهم اليه ، ووقوفهم عنده ، وهم من صفو صفاء العالم ، قد صنعتهم الامتحانات ، وصقلهم الأضداد بالمداد ، وهذبهم اللازمة بالشرور الكائنات ، من أهل العمى والجهالات ، فهم أصفى والطف وأعلى وأشرف ، ممن لم يمتحن بمحنة ، ولا يختبر

(١) يعنى الأنبياء الستة الذين هم : آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (ص) .

بغمة • وعلى ما وصفنا أن ولد الامام المنصوص عليه يقوم بدعوة آبيه ، وتكون الدعوة على سبيل الخلقة من جد السلالة الى الخلق الآخر ، ودعوة الآخر أظهر وأشرف من دعوة الاول ، واتصال الامام بالامام عند التسليم في آخر دقيقة منها عند الاول وأول دقيقة منها عند الثاني ، والمتحد الذي لا يغيب طرفه عين ، هو المسلم المتسلم ، على مرور العصور ، والأدوار والدهور ، فالنمي للأجسام البشرية ، والقوالب الالفية ، للحدود المحتوية ، والفاعل لها المتولي لأمرها ، الشمس ، والزهرة ، والقمر ، بالاستحقاق والاتفاق ، وموجب العدل والحكمة •

ابتداء الانسان عند السجستاني :

عندما تحاول أن تقرأ آراء الفيلسوف الحقاني أبو يعقوب السجستاني التي وزعها في مؤلفاته العديدة ، تلاحظ أنه قد عالج المواضيع الماورائية بأسلوب مختصر مفيد يشتم منه راحة ما يكتنز في مخيلته من علوم حقانية ومعارف ربانية تدل على طول بآعه في هذه المواضيع العقلانية ولتستمع اليه وهو يقول عندما يتحدث عن كيفية ابتداء الانسان في الينبوع الثاني والعشرون من كتابه « الينابيع (١) » (ان من المتفق ان قوى العالم قوى غير منقطعة ولا زائلة - فلا ترى شيئاً يظهر في العالم بقوة من قوى الطبيعة الا ومثله يظهر في الزمان المستقبل) - ولا تعدم قوة من قوى العالم يمد ، فيتعدم بعدمها المظهر بها •

(١) كتاب الينابيع للذاهي أبو يعقوب السجستاني تقديم وتحقيق مصطفى غالب ص رقم ١٢٠ •

فمن أية قوة من قوى الطبائع والأجرام السماوية ظهر الانسان على غير الجهة التي يظهر الآن بها ؟ ومتى عدمت القوة من الطبيعة والأجرام السماوية (١) وليس يقدم قوتها بوجه البتة ، فإذا ظهر الانسان لا من هذه الجهة محال ممتنع - فقد ثبت أن الانسان في جميع الازمنة على نسق واحد وجهة واحدة - فقد نطق القرآن في آيتين وهما قوله : « فلينظر الانسان مم خلق - خلق من مالم دافق (٢) » وقوله : « انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج (٣) » والعجب ممن لا يستعجب ظهور العالم الطبيعي من سماواته وأرضه ونجومه وبروجه دفعة واحدة ، ثم يستعجب ظهور المتولدات الطبيعية معه دفعة واحدة ، ليستريح من طلب ما لا سبيل له في دركه ، وينجو من الوقوع في الشكوك المهلكة المؤذية ، بل من الواجب على الفاضل والاديب أن لا يطلب من الشيء الا الممكن الدرك -

فأما الذي قد اختص به السابق من الاحاطة ، فيذره ولا يطلبه دركه والاحاطة به ليظهر شرف المحيط بالانسان العاجز عن جميع الدركات (٤) -

(١) الاجرام السماوية : الاملاك والكواكب والابرار .

(٢) سورة الطارق الايات ٥ ، ٦ .

(٣) سورة الانسان الآية ٢ .

(٤) لما كان السابق علة العطل عادي بجوهره بيد كائنة الحدود الروحانية التي هي من دونه لا اصل لجميع المتحركات في عالمي الجسم والعقل - ولما كان العقل محيط بجوهره العالم الطبيعي باعتباره مركزا لمعظم الاجسام الذبقة الى الاجسام المستحيلة المسماة عالم الكون والفساد . لذلك فان السابق قد اختص بالاشياء لا يطلب ادراكها بل تركها ليظهر شرف العقل المحيط بالاستثنى الذي يفتر الى جميع الدركات .

وقد جعل الله تبارك وتعالى في نفسه ، أعني نفس الانسان الدلالات على أن طلب ابتداء كون الانسان غير ممكن ، ولا يصير معلوما اليقينة ، وذلك إن الشخص الواحد من الانسان لا يعلم من أين مبدأ حركته حيث كان جنينا في بطن أمه ، من قلبه ، أو من دماغه ، أم من كبده ، أم من طحال له ، أم من مرارته ، أم من كليته ؟ فإذا كانت الاحاطة بابتداء الانسان المرسل (١) أخرى وأولى أن لا يكون ما يكون ذلك ممكنا * فان قال قائل به (انا قد نرى في الشواهد ممكنا أن يتولد من انسان واحد الى ألف انسان على التناسل ، حتى يملأ العالم من ذريته ، ويهلك نشوء ويخلف غيره ، فلا يبقى له ذكر ، فيجب أن يكون جميع الناس من رجل واحد ، كما ينتهي أمر جميع الناس الى رجل واحد مثلا) * فيكون الواحد من الكثير ، كما كان الكثير من الواحد ، فأما أن يكون واحدا لم يتقدمه كثير ، فلا يمكن أن يكون منه كثير هو متقدمه ، فان كان الانسان الذي يملأ العالم من نسله ، فقد سبقه الخلق الكثير من نوعين فيمكن أن يتأخر الكثير من نسله ونوعه *

العالم لا صورة له عند المبدع قبل الابداع :

واذا أردنا أن نتمسك أكثر في دراسة افكار السجستاني الحقائقية نرى أنه يعالج قضية الابداع وصورة العالم عند المبدع قبل هذا الابداع بدقة فيقول : « ان الباري جل وعز أبداع هذا

(١) الانسان المرسل : المراد به الامن الاول ، اي سبينا ادم ابو البشر عليه الصلاة والسلام الذي يعتبر بلنه النوع الاول من الانسان ،

العالم (١) وصورته كانت معلومة عنده قبل الابداع ، اذا زعم أنه ان لم تكن الصورة (٢) عنده معلومة فقد ابداع ما لم يعلمه ، لم يعط القياس حقه - وذلك أن الصورة المعلومة عند الصانعين قبل اظهارهم الصنعة ، انما تكون من أجل عجزهم عن اختراع صناعاتهم لا من شيء (٣) فلما كانت صناعتهم في شيء ما ، جاز أن تكون صورها معلومة عندهم ، موجودة بذاتها في أشياء أخرى غير مصنوعاتهم . فأما المبدع الذي يبدع الأشياء لا من شيء ، فلا يحتاج الى علم ما يبدعه ، إذ لا شيء موجود يكون لأنية الصورة فيه بما دون علم المبدع .

فمن ههنا قلنا : اذا ابداع هذا العالم ، فلا صورة له عنده معلومة قبل ابداعه هذا العالم لا من شيء ، وان كانت صورة العالم معلومة قبل ابداعه ، لا يخلو من أن تكون تلك الصورة شيئاً أو لا شيئاً ، فان كانت لا شيء ، فكيف يتصور الأشياء لأنية شيء ما دون شيء آخر ؟ وان كانت شيئاً ، فلا يخلو من أن تكون أزلية معه أو غير أزلية - وان كانت أزلية معه ، فقد ابداعها قبل أن ابداع أنية العالم - واذا ابداعها ولم تكن لتلك الصورة ، صورة معلومة عنده ، فهلا قلتم أنه ابداع العالم من صورته حين ابداعه ، ولا صورة العالم عنده معلومة ، ليصح هذا القول أنه ابداع العالم لا من شيء وهو الحق الواضح ؟

(١) هذا العالم : يعني العالم الروحاني - النبوع الثالث والثلاثون من كتاب التناييس .

(٢) الصورة : المراد بالصورة هنا - العقل والنفس والهيولي والصورة .

(٣) لا من شيء : أي من العدم .

وان اكتساب العالم للصورة المتصورة في المصنوعات آية هجر الصانع عن اظهار شيء لم يتقدم عليه صورته - فالما المبدع الحق الذي أمره ابداع ، فلا يحتاج أن يكون صورة ما يبدعه معلومة عنده ، لتكون حكمته وقدرته في خاية الكمال والهيبة - .
 ألم تر أن أدنى المبدعات في الكلية - وهي الطبيعة (١) - كيف تظهر الاشياء الطبيعية بقوتها الموهوبة (٢) لها من علتها من غير تصوير لها صورة علمية ؟ بل قوتها الموهوبة لها تضع كل شيء موضعه وتنزله منزلته - كذلك نقول : ان المبدع الذي هو كان ولا شيء معه ، أمره ابداع محض ، وحق محض ، وعلم محض ، وكلمة محضة ، مبدع العالمين بما فيهما ولا تكون صورهما معلومة عنده .

وايضا فان صورة العالم وان كانت معلومة عند المبدع قبل ابداعه ، وصورة مختلفة متضادة ، كان الاختلاف والتضاد اذا موجودين في علم المبدع ، ونحن ننزه المبدع الاول - الذي هو السابق - عن التضاد والاختلاف ، فضلا عن الابداع المحض الذي هو علة المبدع المنزه عن كل الاختلاف والتضاد - وقد رتب الحكماء العالمين بعضهما تحت بعض فقالوا : ان العالم المركب (٣) وهو في أفق الطبيعة (٤) ، والطبيعة في أفق النفس ، والنفس في أفق العقل ، والعقل لا في أفق شيء ، بل هو

(١) الطبيعة : المقصود بها هنا قوة من قوى النفس الكلية ، وهي تلك
 فيه حس ونفس .

(٢) بقوتها الموهوبة : أي القوة التي استحدثها من علتها .

(٣) العالم المركب : العقل والنفس واليهولي والصورة .

(٤) الطبيعة : المراد بالطبيعة هنا اليهولي .

والإبداع شيء واحد بعيد الإبداع ، وقبل الإبداع لا شيء موجود *

فإذا استمظم الحكماء أن يستحقوا وضع العالم المركب في أفق النفس ، فضلا عن أفق العقل ، فكيف يمكن أن تقول أن صورة العالم في أفق المبدع ، لأن القول بأن صورته كانت معلومة عنده ، هو القول بأن العالم في أفقه ؟ حاشا الله عن ذلك وتعالى عنه علوا كبيرا *

ويقال لهم : قلتم أن صورة العالم كانت معلومة عند المبدع من أجل امتناع إبداعه العالم إن لم يكن علم صورته عنده ، أو أمكنه إبداع العالم صورة من غير علم متقدم عنده لصورته ، فإن قلتم أنه ممتنع إبداعه العالم إلا يتقدم علم صورته عنده ، ولا يمتنع عليه إبداعه العالم لا من شيء ، فقد أعطيتكم لإبداعه القدرة على ما لم يخطر ببالكم وهو تأسيس الأسيات لا من شيء (١) * ثم نفيتم عنه ما دونه من القدرة ، وهو اختراع بما لا علم عنده لصورته - وإن قلتم أنه يمكن إبداع العالم صورة من غير علم متقدم عنده ، فإذا وجود صورة العالم قبل إبداعه عند المبدع فضل ، والله أجل وأعز من أن يكون عنده فضل ما لا يحتاج إليه تعالى علوا كبيرا -

السجستاني وصاحب القيامة :

وبالإضافة إلى الأمور التي عالجها السجستاني ، وقد تحدث

(١) لا من شيء : أي لا من ليس ، يعني صورة من غير علم متقدم . إلى من العدم *

من ترتيب الطبيعة في اخراج الاشخاص غير المتجزئة من المعادن
والنبات ، والحيوان ، من الأمهات الأربع عن طريق افاضة
النفس عليها ثم يقول : « لا نجد في الأمهات التي هي أصول
الأشياء ، مما نجده في الفروع التي هي متولدة من المبرق
والاعصاب واللحم والدم والمغز ، وهي بافاضة النفس عليها ،
علمت أن النفس أقدر على اخراج الطبيعة ، التي غايتها
الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ، من الهوى
والصورة . بافاضة العقل عليها مع فقدان الطبائع الأربع
والهوى والصورة . وهذه حجة من حجج الله تعالى تلزم من
عباده الاقرار بكون الأشياء لا يوجد في أصولها التي منها تكونت
ما يوجد في المكون ، ليكون تمتية كلمته تعالى وتقدس ، قائمة
في أن بها ابداع العقل التام لا من شيء ، وليس يوجد في الليس
قبل الابداع شيء من أيصية المبدع الاول .

وهكذا بهذه المثولة تظهر فضيلة الرسل وشرفهم ، لأنهم
جمعوا من كلمات معروفة مشهورة بين أقوامهم ، خالية من تلك
الحكم التي أدبت مع الجمع . فجمعوا بين الكلمات والفوا تاليفا
يتوفيق النفس اياهم واحتوت على جميع ما حكاه العالمان من
الاقسام والحدود (١) ، فسبحان الله ، لو يشاء لهدى الناس
جميعا (٢) ، ولكن أكثرهم للحق كارهون (٣) . ومن هذا

(١) ما مكن العالمان من الاتسام والحدود : يعني ما انطوى عليه العالم
الجبسائي والعالم الروحاني من الاتسام والحدود الروحانية ، وبمولانها
من الاتسام والحدود الجسمانية الدينية .

(٢) سورة الرعد الآية ١٢ .

(٣) سورة الزخرف الآية ٧٨ .

المعنى يصح في انية القيامة التي دعا اليها المرسلون ، من أنها يوم عظيم تبعث الانفس البسيطة اللطيفة ، وتبرز الصور الخفية بظهور القائم عليه السلام ، لأن النطقاء الذين مضوا قبله النوا شرائعهم والقوا بين ظهراني اقوامهم ، لم يكن في شيء من شرائعهم ما يكون فيه بحث النفوس ، وبروز الصور ، الى ما أعده الله من الثواب الجزيل ، فلما بلغ الأمر منتهاه (١) ، وبلغ القائم الى منزلته التي أعدها (٢) الله له ، برز من الصور قادر على قبول الفوائد العقلية بلا تأليف ، ولا ترتيب الا أن الانسان يكون غافلا عما بين يديه من مظلة ذلك اليوم (٣) وسمو درجته ، صاحبا عنه .

وان نظرت في أحواله ، التي جرت عليه منذ أول كونه الى غايته التي يبلغها ، لتقرر أنه مبعوث لا محالة ، منتقل من حال الى حالة أخرى ، أشرف من حالاته التي هو عليها ، لأنه في أول كونه في صلب أبيه نطفة ذرية ، غير قابلة للنماء ، وان كان قبولها للنماء ، في حال آخر موهوما عند من أحاط به ، فلما اتصل الى بطن أمه ، اتصل النماء به ، وتصرفت به الاحوال ، حالا بعد حال ، حتى استوت أعضاؤه ، وأصلحت هيأته ودرجته الطبيعية التي تصلح للعالم الحسي ، غير حاس في بطن أمه ، ولا واقف على كيفية اشتباك الحس به ، وان كان قبوله الحس عند وقت خروجه من بطن الأم موهوما ، متصورا عند من أحاط

(١) منتهاه : يعني عندما تقوم القيامة .

(٢) منزلته التي أعدها : أي عند ظهور القائم عليه السلام .

(٣) مظلة ذلك اليوم : أي يوم قيام القائم .

به ، فلما انتقل من يطن أمه الى جوف الفلك ، اتصل بالحسية ،
وتصرفت به الاحوال ، حالا بعد حال ، الى أن استعمل حواسه
في ادراك المحسوسات ، ونطق لسانه ما أدركه من المصورات ،
والمسموعات ، والمشمومات ، والملموسات (١) .

فان مساعدته السمادة يطلب حقائق الاشياء الى الوقوف عليها ،
بسبب الانتقال من العالم الطبيعي الى العالم الروحاني ، انتقل
مقبولاً مثاباً ، قادراً على نيل فوائده من الاغتذاء من نيمه ،
والالتذاذ ب لذاته (٢) الا أن رؤيته للعالم الروحاني وقت اتحاد
روحه بجسده ، غير ممكنة ولا جائزة ، وان كان به قبوله ،
ورؤيته الى العالم الروحاني عند مفارقة روحه جسده ، اتصل
بالعالم الروحاني بفترة بلا زمان ، وتراه متأسفاً ، متلهفاً على
ما سبق منه من التضييق ، والتقصير . وان رؤية الانسان لما
ذكرنا من انتقاله من هذا العالم الجسداني الى العالم الروحاني
دليل واضح ، وهو اننا نراه لا يعلم شيئاً ، ولا يهتدي لشيء ،
فلما فتح له من هذه الجهة التعليم بارقة من العلم ، نراه كأنه
منتقل من حالته الى حالة أخرى ، فكيف اذا اتصل به نور
التأييد ، من جهة صاحب القيامة التي اليها دعا المرسلون ؟

فترى الناس على طيقتين : طيقة ممن آمنوا به وصدقوه
وانتظروا ظهوره (٣) فهم بذلك النور مقتبسون ، متنعمون

(١) هذه الاشياء المصنوعة تحرك بواسطة الحواس التالية : البصر
والسمع والشم واللمس .

(٢) المراد بها اللذات الروحية السمائية .

(٣) انتظروا ظهوره : المراد بظهوره اي ظهور القائم .

مستبشرون ، وعلبة ممن كذبوا به وغفلوا عن حده (١) ، فهم
يذلك النور أيضا متعرقون ، معاقبون (٢) .

ومما يلفت النظر أن السجستاني قد بحث في اليتبوع السابع
والثلاثون من كتابه « الينايع » حول توهم الكثرة من علة
واحدة وقال : « لقد أوجبت الحكمة أن يكون من الوالد المحض
الكثير ، لأنه إن كان من الواحد الواحد ، ولا يكون الشيء علة
نفسه . قلنا : إن من الواحد ظهر الواحد ، والواحد ليس
غير الواحد ، فهو إذا الواحد ، وما كان شيء غير نفسه ، كان
الشيء إذا علة نفسه ، والشيء لا يكون علة لنفسه . فإذا الواحد
علة ظهور الكثرة . وأيضا فإن علتها ، إن لم يكرر الواحد علتها ،
فلا بد أن تكون الكثرة علتها وسببها التي ظهورها بظهورها ،
فإن كانت الكثرة علة ظهور الكثرة ، والكثرة أظهرتها الكثرة ،
فإن الشيء أظهر نفسه ، وقد نرى خلاف ذلك . إن كل كثرة
مضمومة إلى شيء هو أشد توحدا منها ، أعني الكثرة المضمومة
إليه ، وذلك الذي أضيفت إليه الكثرة هو أيضا كثرة ، لاشتراك
أشباه له معه في الصورة والجنس . ويتهيا أضافتها جميعا إلى
شيء هو أشد توحيدا مما قبله إلى أن ينتهي إلى واحد غير منقسم
ولا متجزئ ، فيقف هناك . وعلى هذا دليل كثير من العالم ومن
الاشخاص . وذلك أن السموات ، والكواكب كلها مضافة إلى
تحريك النفس الكلية ، ثم السماوات ، والكواكب ، ذوات طبع

(١) فقلوا عن حده : أي لم يؤمنوا بحدود القائم من الائمة والابواب والحجج
والدعاة .

(٢) كتاب الينايع : السجستاني ص ١٦٢ - ١٦٣ .

واحد من جهة حركاتها ، تتولد منها صور كثيرة من المواليهد
والمعادن والنبات والحيوان المختلفة بطبائنها ، وخواصها -
وكذلك ترى الشجرة شيئا واحدا برأي العين ، تتولد منها صور
الاشجار ذوات الاغصان والفواكه الكثيرة اللذيذة وكذلك النطفة
شيء يتولد منها شخص واحد ، وأعضاء مختلفة ، وأمشاج ،
ومزاجات متباينة (١) -

فكل كثرة ذات أجزاء وجدناها تنتهي الى شيء واحد هو
علتها ، فمن هذا الوجه قلنا : ان جميع المكونات ، والمبدعات ،
علتها أم الله جل جلاله المتعالي عن جميع الاضافات الجسمانية
والروحانية -

ويختتم السجستاني أبحاثه العقلانية ، فيفسر معنى
الكلمة للنبدع حيث يقول : « انما سميت العلة الأولى
- وهي الوحدة - كلمة الله جل جلاله ، وهي أعني كلمة - أربعة
أحرف غنوا بها ان حوامل الوحدة أربعة ، وهم الأصولان ،
والأسمان - وال (كاف) منها نظير العقل ، اذ هو أصل
الأيديت معدن الجواهر العلوية والسفلية ، وفيه بروز الصور
الروحانية والجسمانية ، كما قيل ان جميع الخلائق ظهرت
ب (كن) قبل ان تظهر ال (نون) - وهو الكفاية لمن دونه ،
وليس وراءه شيء ، بل هو الكافي ، والكامل ، والتام ، الذي
لا نقصان فيه ، وهو كيل الله الذي به يكيل للخلائق حظهم من
وحدته هلي مقدار مراتبهم - وهو كلام الله بالحقيقة ، وهو

١١ مزاجات متباينة : اي مزاجات مختلفة وهي أربعة : الحرارة والرطوبة
واليبوسة والبرودة ، ونشأ عنها الاخلط الأربعة وهي الصفراء والسوداء
والبلغم والنم

المهدي قيل في القرآن (كلام الله) عني بذلك أن الأساس هو الذي اتحد بالسابق من جهة التأويل - وال (لام) نظير التالي ، إذ بالنفس لزم اللسمة التي هي أصل المخاطبة ، وبه تلمع أنوار المقتل في العالم الجسماني ، وفي الأشخاص المتجزئة ، وعليها يلزم اللوم أن خالفت العقل كما قال الله تعالى ذكره : « لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة (١) » وهو لوح الله جل جلاله الذي يلوح في أنفس النطقاء على مقدار درجاتهم - وال (ميم) نظير الناطق عليه السلام الذي ملك الجسماني ، يقلبه كيف يشاء ، ويدبر أمر عباد الله بوحى الله كيف يريد ، وبه تصاب معرفة الله جل جلاله ، وهو المهدي بالحقيقة حقا ، إذ المهدي أحد النطقاء السبعة ، وهو « المسجد الأقصى » الذي فيه يعبد الله جل جلاله ، وال (هام) نظير الأساس الذي هو المهدي ، وهو هدية الناطق إلى أمته .

وهذان الحرفان - أعني الميم والهام - مضمومان ، والكاف واللام مفتوحان ، على أن السابق والتالي ، روحانيان ، والناطق والأساس ، جسمانيان - وإن اللام الثاني والهام من كلمة (الله) متفقان ، والكاف والميم مختلفان على الألف واللام الأول من كلمة (الله) ، على أن التركيب والتأويل (٢) لا اختلاف فيهما ، والتأويل والتفصيل مختلفان من جهة النطقاء ، فإن كل ناطق يحمل التأييد على قدر صفوته ، ويؤلف الشريعة على مقدار زمانه ودوره ، وأما التركيب فإنه في وقت على نسق واحد

(١) سورة القيامة الآية ١ ، ٢ .

(٢) التركيب والتأويل : يعني تركيب العالم الجسماني ، والتأويل كل من

جهة النفس الكلية .

وترتيب واحد . كذلك التأويل . وإنما صفة الاشياء المؤلفة
بالتأليف الشرعي لا تختلف باختلاف الشرائع . بل هو علم محض
لا يشوبه الاختلاف والتنازع . وإنما الاختلاف والتنازع في
الظاهر وحده دون الخفي (١) .

وان جملة حروف (كلمة الله) من جهة العدد خمسة
وتسمون ، على أن الذين ظهروا من كلمة الله جل جلاله إنما
هي الخمسة العلوية (٢) ، الأصولان والمجد والفتح والخيال ،
والثلاثة السفلية من الاساسين والاتمام السبعة . وهكذا وقع
بأزاء حروف (كلمة الله) وجود الاشياء (٣) في الأربع معان ،
وهي الذوات والهموم والقول والكتابة ، يوازيها التأييد ،
والتركيب ، والتأليف ، والتأويل .

أما التأييد ، فإنه يوازي ذوات الاشياء ، إذ للمؤيد (٤) في
كل شيء مما له ذات ، دلالة وأعمال لما يدركه بالتأييد ، وان
التأييد من حيز العقل ، كذلك الاشياء ذوات المعاني مما قد
أخرجها العقل . وأما الهموم ، فإنه يسوازي التركيب ، إذ
الترتيب من حيز التالي ، وأما القول فهو يوازي التأليف الذي
ألفه الناطق بقوته . إذ يوازي التأليف للأصوات التي تكون

(١) دون الخفي : أي دون النطق .

(٢) الخمسة العلوية : السابق والتالي والجذ والفتح والخيال .

(٣) الاشياء : الرواحنية والجسمانية ، فالؤلف قد ادخل الكل في هذه
المعاني بالذات .

(٤) للمؤيد : أي للنبي والوصي والاساس والامام وكل مؤيد . ولا بد من
الاشارة الى ان التأييد اسمى مرتبة من الفوائد لان صاحب التأييد هو
السابق وصاحب الفوائد هو التالي . (كتاب البنابيع ص ١٢٠) .

بالقوة ، وهو حيز الناطق عليه السلام - وأما الكتابة فأنها توازي التأويل ، إذ التأويل إنما هو البيان ونقش الصور العقلية في قلوب المرتادين * وليس في العالم شيء إلا وهو يقبل الكتابة ، من الخشب والمدر والأنواع والمعادن والحيوان ، على أن التأويل يستخرج من كل شيء ويستبدل بكل شيء * وأما القول فإنه لا يوجد إلا في المتكلم ، ويتكلم المتكلم بما لا يفهمه المخاطب ولا يعلمه ، على أن من قبل تأليف الناطق أكثرهم لا يعلمون ولا يفقهون *

وفي القول يقع الصدق والكذب ، على أن في حيز الناطق يقع مرتبتان : مرتبة الايمان وهو الصدق * ومرتبة النفاق - وهو الكذب - وهكذا يسمى الخلائق بأربعة أسماءهم : الملائكة والجن والشياطين والانس * فالملائكة على التأييد المتصل بالانقطاع عن السابق - والجن على ما يتصل بالانقطاع ، من فوائد التالي وقواء المستجبة عن الخلائق * والشياطين على الذين مكفروا على ظاهر الانقطاع دون الوقوف على حقائقها فبعدوا بها عن الحق ، فضلوا وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل * والانس على أهل الحق الذين أنسوا التأويل ، ونجوا من الشكوك والشبهات ، وصار التأويل كهفهم وملجأهم *

الرسالة الجامعة وعمل الموجودات :

ذكرنا في غير هذا المكان أن جماعة اخوان الصفا وخلان الوفاء قد بحثوا الأمور العقلانية وما يتعلق منها ببدء الخليقة ونشوء الانسان الاول وتكلموا عن النفس وماهيتها (١) ، بحثا مستفيضا

(١) الرسالة الجامعة تحقيق الدكتور مصطفى غالب صفحة رقم ٢٧٤ .

حتى ظهرت رسالة الجامعة التي تعتبر تاج الرسائل هذه الجامعة فوجدت هذه العلوم بشكل موجز ومختصر مفيد ولم يغفلوا العلة والمعلولات التي كانت المسبب الرئيسي لوجود كافة الموجودات العلوية والسفلية فتكلموا عنها وقالوا : « اعلم يا أخي أيديك الله وإيانا بروح منه أن لكل واحد من الموجودات أربع علة : علة فاعلة ، علة مصورة ، علة متممة ، وعلة هيولانية ، فإذا اعتبرت جميع الموجودات كلها لا يد لها من هذه الأربع العلة : مثال ذلك الكرسي علقه الفاعلة النجار ، والهيولانية الخشب ، والصورة الترييع ، والتمامية القصور عليه ، وأما الجسم المطلق فعلة الهيولانية هي الجوهر البسيط الموضوع فيه قوة القبول ، التي بها قبل الطول والعرض والعمق ، فنصار بها جسما ، وعلة الفاعلة هي الباربي جل وعز ، وعلة التصورية العقل ، لأن الطول والعرض والعمق ، إنما هي صورة عقلية ، وعلة التمامية هي النفس ، لأن الهيولى من أجلها خلقت ، لكيما تفعل فيه ومنه ما يفعل ويصنع لتتم الهيولى وتكمل النفس .

وهذا يا أخي الغرض الأقصى في رباط النفس بالهيولى ، وأما الهيولى الأولى التي هي جوهر بسيط ، ولها ثلاث علة : الفاعلة ، وهي الباربي جل وعز ، والتصورية وهي العقل الأول ، والتمامية وهي النفس - وأما النفس فلها علتان ، وهما الباربي سبحانه ، والعقل - فالباربي علة الفاعلة المخترعة لها ، والتصورية هي العقل الذي يقضي عليها ما تقبله من الباربي تعالى . وأما العقل فله علة واحدة ، وهي الباربي عز وجل الذي أفاض عليه الوجود والبقاء والتمام والكمال

دفعة واحدة ، بلا زمان . وهو العقل الذي أشار إليه بقوله في كتابه على لسان نبيه محمد (ص) فقال : « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر (١) » ، « بل هو أقرب » ، وإليه أشار بقوله : « ويسألك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا (٢) » . يعني ان الروح الذي راحت الأشياء كلها إليه منصرفة ، فإليه رواحها ومنه عودتها ، ومنه مبدؤها ، وإليه معادها . وقال : « الا له الخلق والأمر (٣) » . هي الجواهر الروحانية ، وكلها لله عز وجل وبأمره قامت وبارادته كانت .

ويبدو أن مؤلف الرسالة الجامعة قد شاء أن يتعرض لقصة آدم وحواء والشجرة المنهي عنها والخطيئة التي من أجلها أهبط آدم من الجنة (٤) فقال : « اعلم أيها الأخ الفاضل الدين العادل ، أعانك الله على طاعته وجنبك معصيته وألهيك التأييد بروح القدس ، ويهديك الى جنته ، ويبعدك عن جهنم دار البوار ، ومحل الأشرار ، انا لما شرعنا في كتبنا المؤلفة ورسائلنا المصنفة في فنون العلوم وغرائب الآداب ، وطرائف الحكم ، وجعلناها بساتين العقول ، ورياضا تتنزه فيها النفوس ، وتتنسم بها الأرواح ، أن رسالتنا الجامعة هي الغرض الاقصى ، وانا نبين فيها بالبراهين الشافية جميع ما شرحنا بمضه في رسائلنا بطريق الاقتناع . وكان هذا الفصل الذي تذكره من العلم غامضا دقيقا ظاهره علم جليل ، وباطنه سر نبيل مستور خفي لا يصل إليه

(١) سورة النور الآية ٥٠ .

(٢) سورة الاسراء الآية ٨٥ .

(٣) سورة الاعراف الآية ٥٤ .

(٤) الرسالة الجامعة ص ٦٥ .

الا أهل البصائر المرتاضون بالمعلوم العقلية المؤيدة بالتأييدات الربانية مما ألقته إليهم الملائكة وما أيدوا به من روح القدس وما جاء به في الكتب المنزلة ، فإذا أنت أيها الأخ البار الرحيم وقفت على هذا العلم العظيم والبناء الكريم فكان عليه قويا آمينا وكن به ضئيلا ، ولا تكن من الميزرين الذين هم اخوان الشياطين ، ومع هذا فإنه لا يحل لنا ولا يسعنا في شرط حكمتنا أن نجعله بغير حجاب يحجب ، ولا باب يغلق عليه فيستره ، ولكنا فتحنا لك فرد بابه وسهلنا عليك كشف حجابيه لتطلع عليه وتقف ان وفقك الله وهداك ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

تقول في ذكر آدم وحواء والشجرة المنهي عنها وحيلة ابليس عليهما ووصوله بالكر اليهما : قال الحكيم : ان الله سبحانه لما خلق آدم وأسكنه الجنة التي هي دار كرامته ومحل نعمته في جواره الأمين ، وقراره المكين ، ومقر عباده المصطفين ، من الملائكة المقربين ، وعهد اليه أن لا يقرب شجرة عرفه بها ونهاه عن أكلها وأعلمه أنها منخورة الى وقت معلوم ، وأن بها يكون العود الى البداية وأنها لا تبدو ثمرتها ، ولا يحل أكلها الا عند النهاية ، وأنها بقية دور الكشف الاولى فتكون مدة دور الستر الذي قدر الله سبحانه أن آدم أول المستخلفين فيه ، وأن ثمر تلك الشجرة يكون مستورا في أكمامها ، مخبوءا تحت ورقها ، مكنيا في أغصانها ، مستورا مغنيا لا يكاد مخلوق في دور الستر ان يقف عليها ولا يصل اليه ، ولا يتناول شيئا منه الا في الوقت الذي قدره والزمان الذي يسره ، اذا بدا دور السعادة يظهر النفس الزكية في يوم العرض الثاني اذا تجلت النفس الكلية لفصل القضاء فمند ذلك تبدو شجرة سدرة المنتهى وبها تكون

النبشاة الأخرى وعهد الله الى آدم وأطعمه على ذلك وأعلمه أنه لا يكون في وقته ولا يتهيأ له في زماته وأباحه ما سوى ذلك من أكل الشجر والتناول من أصناف الشر ما يكون غذاء له ولمن هو معلم له ، فلما زين له الشيطان سوء عمله ، وجعله على ارتكاب ما نهى عنه ، وأخذ ما لا يحل له ، وتناول ما حظر عليه ، ولم يمكنه ذلك منه الا بالحيلة عليه ، وللاطعة له ولزوجته ، فكان من حاله أنه جاءه في صورة الناصح الأمين الشفيق ، يطلب منه الفائدة بالسؤال والتدليل ، فقال له : أتاك قد أتاك الله من العلم والحكمة والمعرفة ما لم يعرفه أحدا قبلك ، وقد فضلك الله على جميع الملائكة الذين أمرهم بالسجود لك ، والخضوع بين يديك ، وجعلك معلما لهم تعليمهم أسماء ما يكون ، ولم يبق عليك الا معرفة شيء واحد لو عرفته لكنت من الملائكة العالين الذين لم يؤمروا بالسجود لك ، ولم يدخلوا في طاعتك ، ولهم المقامات العالية ، والدرجات السامية عند الله ، فقال له آدم : وما هذا العلم الذي أخفاه ولم يطلعني عليه ، وقد علم اني محتاج اليه وغير مستغن عنه ؟ فقال له عدوه ، يريه أنه من الناصحين : هو علم القيامة ، وكون النبشاة الآخرة ، والبروز لفصل القضاء ، وكيفية بروز الصور الروحانية المعراة من الأشخاص الهيولانية في دار البقاء ، ولو علمت هذا العلم أنت وزوجتك لكنتما ملكين وكنتما من الخالدين ، على أنهما لو كانا من أهل دور الكشف لكنت خلقتكما روحانية ولسم تكن جسمانية ، اذ كان البقاء والخلود على الحال الأفضل بالنفس اشبه من الجسم ، فعند ذلك اشتاقت نفس آدم الى ذلك ، وأراد الاطلاع عليه بالاعطار له من حد القوة الى حد الغمل ، ليري

كيف يكون دور الكشف وكيف يكون قبول أهل ذلك الزمان واستجابتهم اليه وكيف تكون منزلة النفس الزكية في ذلك الوقت ، فأبدى شيئاً مما نهى عنه إلى غير أهله ، وأطلع عليه غير مستحقه ، ووضع منه شيئاً في غير موضعه فكان بمنزلة الأكل الذي نهى عنه فلما بدا ذلك منه اضطربت عليه أحواله واستوحشت منه عماله ، وقبحت أعماله ونفرت منه الوحوش التي كانت قد أنست به وتباعدت عنه الطيور التي كانت قد ألقت صورته ونزع عنه لباسه ، وبدت عنه سوائه ، وانكشفت عورته ، وظفر به عدوه ، وأقبل يفرق عنه جموعه ، ويبعد أهل الجنة ويدعوهم إلى نفسه ، فعند ذلك ناداهما ربهما : « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة - قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا (١) » بوضعنا ما نهيتنا عنه في غير موضعه ودفعه إلى من لا يستحقه ، قال : « اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو (٢) » فأهبط من دار الملائكة التي كان فيها وأخرج منها إذ كان أهل الجنة قد سئموا موضعه ، واستوحشوا من شخصه ، لما بدت سوائه وانكشفت عورته ورأوه بعين من جاءهم بما لا يعرفونه ، ربما ينكرونه من المعصية فظفر به عدوه ، وأخرج آدم وزوجته من الجنة مبائعين في الأرض لا يدريان أين يتوجهان من بلاد الله ، وبهما من الندامة ما جاوز وصف الواصفين ، وكيف لا يكون ذلك كذلك ، وقد زالت الرياسة عنهما وتدبير السياسة النبوية منهما فلما طالت المحنة بآدم امتزج القول ، وناجى ربه وتوسل إليه بالقائم في ذلك الوقت الذي فيه ظهور

[١] سورة الاعراف الآية ٢٣ .

[٢] سورة البقرة الآية ٣٨ .

الحقائق ، وباصحاب المقامات العالية في ذلك الزمان الذين هم
الكلمات الثامات ، والآيات الباعرات ، وأنه لم يقصد ذلك وإنما
اشتاق الى تلك المنزلة الجليلة والدرجة الرفيعة بنفي انكار لها
ولا استكبار عن الاقرار بفضل صاحبها ، فمعد ذلك ثاب الله
سبحانه عليهما ، ويسر لهما العيشة ، وبعث اليهما ملكا من
الملائكة فعلمهما الحرث ، والفسل ، والزرع ، والبذر ، والحصاد ،
والغرس ، واللباس والرياش وما يحتاجان اليه في الحياة الدنيا
لقوام الاجساد في محل الكون والفساد ، وتلقى آدم التأييد
والالهام والوحى ، وأمر بإقامة الشريعة والسجود لله ، والعمل
بالجسم ، واظهار الصنائع ، وكثر أولاده ، واثتشر نسله ،
واتسعت دعوته ، وعمرت داره ، وقر في قراره ، وكان على
ذلك مدة ما شام الله تعالى سبحانه أن يبقى على تلك الحال الى
أن استكمل أجله فنقل الى دار كرامته ودار البقاء ، وأراه ما
عجل فيه ليراه وهو في محل الاجساد ، فلم يغيب سعيه ، ولا
أحبط عمله لما ثاب وأتاب . فخذ ما أتيناك من هذا العلم الجليل
• وكن من الشاكرين (١) • • واعبد ربك حتى ياتيك
اليقين (٢) • • واعبد كما أمرتك به الأنبياء والمرسلون عليهم
السلام من اقامة الصلاة وإيتاء الزكاة واسباغ الطهارات ،
والسعي الى البقاع الطاهرة ، والمساجد العامرة التي • أذن الله
أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والاقصا رجال
لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء

(١) سورة الاعراف الآية ١٤٣ .

(٢) سورة الحجر الآية ٩٩ .

الزكاة (١) « الى ان ياتيكَ اليقين الذي هو محض الدين اذا
 نزع في الصور » وحصل ما في الصدور - ان ربهم بهم يومئذ
 لخبير (٢) « فلا تغرتكم الحياة الدنيا ولا يغرتكم بالله
 الغرور (٣) » ولا تكن ممن قال الله سبحانه فيهم : « وقد منا الى
 ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (٤) » وقال : « وهم
 يحسبون أنهم يحسنون صنعا (٥) » وقال : « وجوء يومئذ
 خاشعة - عاملة ناصبة - تصلي نارا حامية (٦) » « اعاذك الله
 وايانا من أهل النار وجنبتنا واياك مرافقة الأشرار بعنه وكرمه »
 انه ولي الاجابة برحمته *

الرسالة الجامعة والخلق الروحاني :

ولم يكتف مؤلف الرسالة الجامعة باستعراض قصة آدم
 وحواء ، بل نراه يتوجه الى الناحية الروحية الكامنة وراء خلق
 الاشياء دفعة واحدة ، بالقوة عندما جرت عملية الابداع الأول
 والخلق الاكمل ، ثم أخرجها المبدع من القوة الى الفعل الشيء
 بعد الشيء ، فكانت حسب اعتقاده البداية في العالم الروحاني
 العلوي ، ولا بد لنا من الاستماع الى رأيه حيث يقول : « العالي
 بأفضلها الذي هو أولها (٧) » وسبب وجودهما بوجوده عن

-
- (١) سورة النور الايتان ٢٦ ، ٢٧ .
 (٢) سورة العاديات الايتان ١٠ ، ١١ .
 (٣) سورة لقمان الآية ٢٣ .
 (٤) سورة الفرقان الآية ٢٣ .
 (٥) سورة الكهف الآية ١٠٤ .
 (٦) سورة الغاشية الايات ٢ ، ٣ ، ٤ .
 (٧) الرسالة الجامعة تحتبقي الدكتور مصطفى غالب صفحة ١٢٢ .

موجدته ، فهو بدوامه يبقى فلذلك هو مبدأ الوجود وقابل الوجود ،
 مستكمل الفضائل والخيرات ، تام الأنوار والبركات ، بجميع
 الفضائل والسعادات ، معزى من الشوائب والتفثيرات ، مبرا
 من النقص الواقع من جهة العلبيات المختلفة ، والهياولات
 المركبات والصور المختلفة ، فهو يرتب كل موجود في مرتبته ،
 وينزله في منزلته ، ويوفيه قسطه ، ويعطيه بقدر سته ومطاقته
 في لزوم النظام ، والبلوغ الى درجة الكمال والتمام ، ولذلك
 جعل فيه القوة الحافظة لسائر الموجودات وجوداتها العاقلة ،
 لتتم ذواتها الخاصة بواحد واحد منها مما تستحقه أو يليق بها ،
 فلذلك يشار الى ذاتها الخاصة باسم الفعل الصادر عنها بالفعل ،
 اذ فعله ذاته وصورته تأثيراته ، فهذا هو السابق اليادي ، ثم
 يليه اللاحق التالي - وهو النفس الكلية المنبعثة منه ، المخترعة
 بواسطته ، المبدعة بها الذوات ، من سائر الموجودات ، وأفضل
 أحوالها الوجود الذي هو الحياة وهذه النفس هي التي بها وصلت
 الأجسام الى أفضل أحوالها ، وأجل أعمالها وأفضل صورها ،
 وأتم وجودها ، ولما تصورت الأجسام ، وتركبت على ما تركبت
 عليه منها ، وانطبعت فيها ، حصلت لها بها قوة تتعلق بها
 الأجسام الطبيعية ، والآلات الحسية ، على قدر قواها المجمولة
 لها على اختلاف صور الأجسام ، ومواد أغذيتها فجعلت صورة
 كل واحد منها مخالفة لصورة الآخر ، وهي الطبيعة الباقية في
 الأجسام فحصل بها التخلق ، والتعلق ، والتفكر ، ويحصل
 التصور ، والشكل بالصور الخاصة لواحد واحد منها ، كما
 شاء باريها ومبدعها ، ومصورها لا اله الا هو جل اسمه وتعالى
 ذكره . وذلك أنه جلت آلاؤه وتقدس أسماؤه وضعها في الجسم ،

وجعل قوامه بوجودها فيه ، وصيره بقوتها يتحرك الى تمام ما هو معد له ، وغاية قدر بلوغه اليها . ووقوفه عندها ، الا ان يعوقه بعض العوائق من خارجه فيمتنع من حركته الى ان ينقطع ذلك العائق ، ويزول ذلك المانع ، فيعود الى حركته الخاصة ، ثم الهيولى التي هي ذات بالقوة ، لا موجودة بالفعل ، تخرج الى الوجود بقبول الصورة التي بها يصير الشيء هو ما هو ، ويفارقه لون العدم ، والعدم لا موجود بالفعل ولا موجود بالذات ، موجود بالعرض ، وسبحان خالق الوجود ، مفيض الجود على كل موجود ، فهو معدن الجود منه بدأ واليه يعود * فلذلك قلنا في ترتيب الخلقة الروحانية من الجواهر البسيطة العالية التي هي اصول العالم الجسماني ، والخلق التركيبي ، ان العقل الاول سابق ، والنفس الكلية المنبعثة منه لاحقة ، والهيولى مشتاقة ، والطبيعة سابقة ، فالهيولى مشتاقة الى حصول الصورة فيها ، والطبيعة سابقة للنفس الى طلب الوجود بها ، اذا نزلت عليها ، فافهم يا اخي ارشدك الله هذا القول الصحيح ، وتصفح هذا العلم الجليل ، فانه يرشدك الى الله تعالى وجنته بعنه ورحمته *

ثم ينتقل صاحب الرسالة الجامعة (١) الى الخلق الجسماني ، فيرى ان ترتيب الخلق الجسماني ، أي لما تركبت الأفلاك العالية ، ودارت بالقوة الحركية المحكمة المنبعثة من النفس الكلية ، وسرت في الجسم المطلق القوي الباعثة للأشياء من حال القوة الى حال الفعل ، بالهيولى الاولى ابتدأت الاشياء تبدو من الطبيعة لما تم المركز ، واستقرت عليه الطبائع المختلفة ، وامتزجت الأمهات

{١} الرسالة الجامعة صفحة ١٢٤ تحقيق الدكتور مصطفى غالب .

بالحركة الفلكية الدورية ، وأشرقت الكواكب النورانية ، ورمت
 بأنوارها الى المركز ، ودارت الأفلاك ، فكانت الدورة الأولى
 دورة نفسانية متحركة بحركة ادارية تتركب بها الفلك المحيط ،
 وهو أول ما تتركب من القوة النفسانية ، فصار مبدأ الحركة
 الجسمانية ، فارتبطت به النفس الكلية ، ودارت بالشوق الى
 باريها سبحانه ، تطلب اللحق بدرجة الابداع الاول الذي هو
 علتها ، والوصول الى درجة الكمال ، والبقاء على أشرف
 الأحوال ، ثم دار الفلك المحيط وتركب ما دونه فتركب منه ما
 دونه كذلك حتى كان فلك القمر ، ثم وقف الدوران الفلكي
 عن أن يكون فلك دون فلك القمر الا ما دونه ، فكانت دائرة
 المركز وما هو محيط بها وماسك لأجزائها من الدوائر ، مثل
 الهواء ، والماء ، والأثير ، والزمهرير ، واتحدت القوى الطبيعية
 بالمركز ، وامتزجت بالدوران ، وأشرق عليها النيران الاعظماء
 الشمس والقمر ، ومطارح شمعاعات الكواكب ، فقبل المركز
 التأثير العلوي فكان أول شيء بدأ من الارض المعدن ، ثم صورة
 النبات ، وكان صورة الاشياء الحيوانية كلها فيه بالقوة لما قدر
 الله سبحانه فيه من أنه غذاء لكل حيوان ، الكائن بعد كون
 النبات ، وجعل النبات متقدما الوجود على الحيوان لحاجة
 الحيوان اليه وأنه لا غنى به عنه ، فكانت صورة النبات متقدما
 الوجود على الحيوان لحاجة الحيوان اليه وأنه لا غنى به عنه ،
 فكانت صورة النبات مجموعة فيها صورة الحيوان وتركب منه
 الأدون ، والاقبل بما هو آلة مستخدمة لمن يأتي بعده ، وهو موهوب
 له ، فكانت البداية في الخلق الاول بالأفضل الأعلى ، اذ كان عالم
 الجواهر النورانية التي لا تركيب فيها ، ولا مخالفة ، ولا تقاير ،

ولا تباين الا بشرف السبق في الرتبة ، والقرب من الباري جل جلاله ، وذلك لأتباعه خارجة عن الزمان ، ومستغنية عن المكان • ولما كان الخلق الجسماني والعالم الطبيعي يقبل الكون ، والفساد ، والتغير والاستحالة ، ويتكون في الزمان ، ويحتاج الى المكان ، ويقتضى ، كانت البداية في الأدون حتى تكون النهاية بالأفضل • فلذلك كان ظهور الانسان بعد كون المعادن ، والنبات ، والحيوان ، لما له فيها من المنفعة والمصلحة : بوجوده له على غاية قد بلغها وانتهى اليها ، ولو كانت البداية في الخلقة الجسمانية بالانسان قبل المعادن ، والنبات والحيوان ، لكان خلقه عبثا ، لأنه لم يكن يقدر على البقاء ، ولا يتيسر له العيش ، اذ كان لا يجد الغذاء ولا مأ يترفق به ، مما وجد به يكون النبات والحيوان قبله فلذلك كان بالعناية الربانية الحكمة الالهية تقدم كون المعادن ، والنبات والحيوان على كون الانسان ، اذ كان محتاجا مضطرا الى الغذاء والمادة التي بها قوام جسده ، وسبب حياته ، ودوامه • فلذلك كانت الخلقة الجسمانية بالمعكس من حال الخلقة الروحانية ، اذ كانت البداية في تلك بالأفضل ، ثم بالأدون ، وفي هذه بالأدون ثم بالأفضل ، وكذلك فعلت الحكام فيما وضعت من العلوم واستخرجته من الصنائع ، وبسطته من الكتب ، أنها ابتدأت بأشياء جعلتها مقدمات لما يأتي بعدها ، وان صورة المتقدم جامعة لما تقدمته بالقوة ، مشيرة اليه ودالة عليه وكذلك فعلت الانبياء في موضوعات شرائعهم وأحكامهم ، وفرائضهم ، وسنتهم ، وما تصبوه من أمر العبادات والطاعات ، فان أمر الشريعة مبني في ظاهرها على ترتيب الخلقة الجسمانية ، وفي باطنها على ترتيب الخلقة الروحانية • وذلك ان واضع

الناموس أول ما دعا الخلق اليه ودلهم عليه ، وجاهد من خالفه
 فيه الى الشهادتين : الأولى لله بالوحدانية ، والثانية بالرسالة
 فكانت بقية الشريعة موجودة في هذه الفريضة الأولى بالقوة ،
 مجبوعة كلها فيها - ولذلك قال رسول الله (ص) : من قال
 شهادة لا اله الا الله (محمد رسول الله) حقن بها ماله ودمه ،
 وإن الرسول (ص) كان يجاهد المشركين حتى يقولوها ، ثم قال :
 من قالها مخلصا دخل الجنة ، فقليل له : ما خلاصها يا رسول الله ؟
 قال : معرفة حدودها وإداء حقوقها ، فأشار بذلك الى أنه لا
 يستحق دخول الجنة الا من كملت له المعرفة بحدود الشريعة ،
 وإقامة فروعها وأحكامها ، ولذلك كان الأمر في تنزيل الكتب
 النبوية والآيات الملوية ، الابتداء بالسور القصار المجموع فيها
 معاني ما جاء بعدها في السور الكبار والطول ، وذلك لطف من
 الله سبحانه بخلقه وسعة رحمته ، وفضله لما علم أن الخلق
 يعجزون عن قبول العلوم الالهية ، والحكمة الربانية دفعة
 واحدة ، بل على التدريج ، بالشيء بعد الشيء وقبول القوة
 أولا بما جعله في وسعهم وجبلهم عليه ، فإذا جاءتهم الاشياء
 بالقوة ، وتصورها - جاءتهم الاشياء التي توجب اظهار ما حصل
 في نفوسهم بالقوة الى الفضل ، من العبادة ، والطاعة ، والاعمال :
 مثل الطهارة ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، والجهاد ،
 وسائر مفروضات الشرائع ، وسنن الديانات - فكل هذه الأفعال
 تقدمتها علومها ، وسبقتها معرفتها فلما كملت لهم معرفتها ،
 روقفوا على عملها وقبلوا تعليمها ، أمروا بفعلها والقيام
 بعملها ، وكذلك ترتبت الاشياء كلها من الموجودات التي دون
 فلك القمر ، ولما كان ذلك كذلك ، قدمت الحكماء والفلاسفة

العلماء العلم الرياضي التعليمي على غيره من العلوم آخرتها
وجعلتها في العلم الرياضي بالقوة . فمن ارتاض بالعلوم
الرياضية التعليمية وتهذبت نفسه بها ، وداوم على قراءتها
وجب للحكيم أن ينقله الى غيرها ، ولا يزال حتى يبلغه الى نهاية
ما تعلمه ، فيوقفه عندما وقف عنده ، ويأمره بالعمل ، ولم
ينفعه علمه ، ومن عمل ولم يعلم ، كان كالثقلين قال الله تعالى
فيهم : « عاتلة ناصية - تصلى نارا حامية (١) » - وقال :
« وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا (٢) » ولا يقبل الله سبحانه
العمل الا من العالم العارف ، فلما كانت هذه سنة الله سبحانه
في خلقه ، وسنة الحكماء من عباده ، والمصطفين من أوليائه
وأنبياؤه وجب علينا أن نسير بسيرتهم ، ونتخلق بأخلاقهم ،
ويكون لنا بهم أسوة حسنة ، فجعلنا ما قدمناه من الرسائل
الابتداء بالعلوم الرياضية التعليمية ، ليرتاض بها الطالبون
للعلم الشريفة ، والحكم الجليلة فإذا تهذبت نفوسهم بها ،
وتمهروا فيها وعرفوا معانيها ، ووقفوا على أمرارها ، لاحت
لهم العلوم وصارت في نفوسهم بالقوة ، فإذا جاءتهم عرفوها ،
وأسرعوا الى قبولها ، وترك الانكار لها ، والجهل بشيء منها ،
وكذلك يجب على من وقفت في يده هذه الرسائل أن يبتدأ بما
قدمناه منها لما ذكرنا في رسائلنا أن هذه الرسالة مجمع الأغراض،
والمعاني ، والمبراهين ، والفوائد ، وأنها تقوم بذاتها مقام
الرسائل كلها والعلوم التي فيها بأجمعها ، إذ كانت هي الخاتمة،
وفيها بيان ما تقدم مما ضمنناه فيها ، وجعلناه بين يديها ، دلائل

(١) سورة الفاشية الايتان ٢ ، ٤ ، ٦ .

(٢) سورة الكهف الآية ١٠٤ .

عليها ، ومنبهات لمن نظر فيها من رعدة الجهالة ونومة الغفلة ،
ليرقى الى العالم الأعلى ، ويشاهد ويرى ملكوت السموات ، وقد
أثبتنا فيما قدمناه من هذه الرسالة الجامعة ، بالحجج القاطعة ،
والبراهين اللامعة ببيان ما قصدنا اليه ، وجعلناه مستودعا في
فصول الرسائل المتقدمة الرياضية التعليمية وفتحنا أبوابها ،
وسهلنا على الراغبين فيها مطالبتها ، وبيننا أغراض الحكماء
الأوليين ، والعلماء الربانيين في وصفها ونعنها ، وترتيبها على
ما هي مرتبة عليه ، وبيننا أن الفلسفة هي التشبيه بالاله بحسب
الطاقة الانسانية ، وأن تقدم الاشياء بالقوة أولا يوجب اظهارها
فيما تأخر بالفعل ، وفيما قدمنا ما قدمناه مما ذكرناه ووصفناه
وبيناه ، بموجب من اللفظ بغير اسهاب ، ولا تطويل ، بمعنى
يقرب حفظه ، ويسهل ماخذ ، ويقف المتعلمون عليه ، فإذا
تصفحته وتبينته ، علمت أنا انما قصدنا في وصفنا له التقرب
الى الله سبحانه بالدعام اليه والدلالة على وحدانيته والزلزلي
لديه ومعرفته جل اسمه بما تعرف به الى خلقه وأمرهم أن
يعرفوه به من الطريق القويم ، والصراط المستقيم ، فيزول
الشك والتعطيل ، والتشبيه ، والالحاد في أسمائه ، وليكون من
وقف على ما ذكرناه مجاثبا لصفة اللذين قال الله فيهم ، وذمهم
بما ارتكبوه من الشرك بالله والالحاد فقال : « ذلكم بأنه اذا دعى
الله وحده كفرتم وأن يشرك به تؤمنوا (١) » ، وذلك بما
تعدوا معرفة الله سبحانه وكفروا وأشركوا به ، والحدوا في
أسمائه ، واتخذوا من دونه آلهة لا تعرفهم ، فقال
جل اسمه : « ان هي الا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل

(١) سورة غافر الآية ١٢ .

الله بها من سلطان (١) ، « فمن لا يتفكر في خلق السموات والأرض ، وما في الأفلاك والانفس من الآيات الباهرات ، والدلالات الشاعرات على توحيد الله سبحانه ووجوده بوجود موجوداته الدالة عليه ، الداعية الى توحده ، وبازدواجها على تفرده ، وعلى دوامه بانتقالها ، وعلى بقائه بزوالها ، وعلى قدرته بمجزئها ، وعلى قوته بضعفها ، وعلى إحاطته بأحاطة بعضها ببعض ، وما كتبه من كتابه المبين مسطرا ، وخطه في لوحه الكريم مخبرا ، فقال : « سفيهم آياتنا في الأفلاك وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق (٢) » وقال : « وكل شيء احصيناه في امام مبين (٣) » فكل العلوم الحقيقية ، والمعارف اللغوية ، على تباين اختلاف سنتها ، وتغاير اشخاصها وافتراق انبيائها وأشكال كلياتها ، ناطقة بتوحيد مبدعها ، ومقرة بأشياء خالقها ، وذلك موجود في جبلتها فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وانما وقع الاختلاف والتباين بما اتحدت به النفوس من شوائب التكدير ، وأوساخ التغيير ، وميل النفوس الالهية ، والأرواح الساهية ، في الأمور المحسوسة والاشخاص المنكوسة ، فخرجت من التكليف الشرعي والمنهاج الناموسي الى القول بقدوم العالم ، وانكار الوجود ، والتخلي عن عبادة السيد المعبود ، والاستكبار على الحدود ، وشبه إبليس اللعين ومن اتبعه من الشياطين ، لتصح له الشركة فيما يتسبب اليه من الولادة الخبيثة ، وهي النفوس النجسة ، والأرواح الرجسة .

(١) سورة النجم ٢٢ .

(٢) سورة فصلت ٥٢ .

(٣) سورة يس ١٢ .

المتخلفة عن الاجابة في وقت النداء ، اذ قال لهم : « الست هريكم قالوا بلى (١) » فوقفوا عن الاجابة ، والاذعان بالطاعة لمستوجبها ، والعبادة لمستحقها فشوه خلقتهم ، وعكس صورهم ، ومسح اشخاصهم ، فهم في سكرتهم يعمهون ، فقال سبحانه : « وجعل منهم قردة خاسئين (٢) » - وقال : « كونوا حجارة او حديداء (٣) » وكذلك قال لابلوس لما اباحه القدرة لمعيهم اذ كانوا من حزيه : « واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الاموال والاولاد وعندهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا (٤) » ولم يعبه ذلك منهم ، ويحثه على الاحتواء عليهم الا لما انحرفوا عن الطاعة ، ووقفوا عن الاجابة كبيرا وعلوا ، وهم اصحاب الفتن ، الموقدون نار الفتنة ، قتلة الانبياء والمرسلين والائمة ، اتباع الشيطان وذرية ابليس اللعين ، وهم الاشرار من الأمم الطاغية والاحزاب الباغية الذين لا يزدادون الا ضلالة وعمى ، فهم في طغيانهم يعمهون ، وفي جهالتهم يترددون ، لا يؤمنون ولا يذكرون فهم الذين قال الله سبحانه فيهم : « وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشىناهم فهم لا يبصرون (٥) » وقال لما ضرب ابن مريم مثلا للذين نهاهم عن مثل حالهم ، وان يمسكوا مثل اعمالهم : « مثلهم كمثل الذين استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون -

(١) سورة الاعراف الاية ١٧٢ .

(٢) سورة البقرة الاية ٦٥ .

(٣) سورة الاسراء الاية ٥٠ .

(٤) سورة الاسراء الاية ٦٤ .

(٥) سورة يس الاية ٩ .

صم بكم عمي فهم لا يرجعون (١) « الى الذكرى اذا ذكروا ، ولا يتفكرون ، فلهم قلوب لا يعقلون بها ، وآذان لا يسمعون بها ، وأعين لا يبصرون بها ، أف لهم ولما يعبدون من دون الله « أولئك أصحاب النار (٢) « ولا يخفف عنهم العذاب (٣) « وما هم منها بمخرجين (٤) « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب (٥) « بالكون والفساد ، في الاشخاص المظلمة ، والاجساد المشوهة ، فلا يزال ذلك دأبهم وأنبياء الله تذمهم ، ورسله تلعنهم ، وكتبهم المنزلة بأقبح الصفات تصفهم ، ما دام دور الستر جاريا على سيقه ، متعاديا على عادته فإذا أن زواله وتغيره ، وانتقاله أذهب الله سبحانه بالصور المظلمة ، والنفوس الظالة الخالية من نور الحكمة ، المغملة في جهود باريها ، وهي النفوس العاصية التي بدت منها النزلة الأولى ، التي من أجلها كان هبوط آدم الى الارض ، وكون دور الستر ، الى جهنم الكبرى الغالدة »

ويستمر مؤلف الرسالة الجامعة (٦) بالتحدث عن الهبوط فيقول : « اعلم يا أخي أيديك الله وإيماناً بروح منه أن القوى السارية النفسانية أول ما بدت وسرت لما أهبطت الى الاجسام ، من أعلى سلعك الفلك المحيط الى نحو مركز الارض ، مرت

(١) سورة البقرة الآية ١٨ .

(٢) سورة يونس الآية ٢٧ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٦٢ .

(٤) سورة الحجر الآية ٤٨ .

(٥) سورة النساء الآية ٦٥ .

(٦) الرسالة الجامعة تحقيق الدكتور مصطفى غالب صفحة ١٧٥ .

أولا بالكواكب والافلاك والاجرام ، والاركان والامهات وبلغت
 الى آخر مركز الارض الذي هو أقصى مدى غاياتها في هبوطها
 ومنتهى نهاياتها في حقيقتها - فمنها ما ثابت وأثبت ، وتذكرت ،
 فرجعت من قريب ، واتحدت بالكواكب النيرة والأجرام الصافية ،
 ولذلك قيل لها النفس المطمئنة الراجعة عن قريب ، ولم يطل
 بها الأمد في جهالتها وطفانها ، ثم كانت كذلك تتفرق وتتعد
 بالشيء بعد الشيء على التدريج على قدر الصفاء والرجوع
 الى الاقرار ، والاعتراف بالخطأ الى أن بلغت الى فلك القمر
 آخر أبواب العالم العلوي ، ثم هبطت المتخلفة عن الاجابة نحو
 المركز - واتحدت بعالم الامهات ، وسرت قواها في المعادن ،
 والنبات ، والحيوان ، والانسان ، وعطفت عليها النفوس
 الناجية المقعدة بالكواكب وحنّت عليها ورحمتها ، فلذلك أخبر
 الله سبحانه عن أهل السماوات ، الحافين من حول العرش انهم
 يستغفرون لمن في الارض - فقد صبح بالبرهان الصادق أن كل
 شيء يحن الى جنسه ، ويرحم بعضه بعضا فدارت الافلاك وسارت
 الكواكب القترات ، وترتبت الامهات ، وظهرت الاشخاص من
 المعادن ، والنبات والحيوان ، وبرزت صورة الانسان ، وامتلأ
 العالم من الاشخاص ، ونزلت النفس القدسية بالروح من أمر
 ربها على من يشاء من عباده بالدعاء اليه والدلالة عليه ، فمن
 أجاب لحق بعالمه ، ومن أبى واستكبر وخالف وترك في هواه ،
 فانظر الآن يا أخي كيف يكون انصرافك ورواحك من هذا العالم
 الى هنالك ، فان نفسك هي إحدى تلك النفوس الهابطة المنبثة
 من النفس الكلية السارية في العالم ، وانك قد بلغت الى المركز ،
 وانصرفت ، ونجوت من الكون في المعادن ، والنبات ، والحيوان ،

وقد جاوزت الصراط المنكوس ، والصراط المموج ، والصراط المقدم ، وأنت الآن على صراط مستقيم ، منتصب بين الجنة والنار ، وهي صورة الانسانية ، فإن جاوزت وسلت من هذه دخلت الجنة من أحد أبوابها ، وهي الصورة الملكية التي تكتسبها بأعمالك الصالحة ، والمتاجر الراحية ، وأخلاقك الجميلة ، وآرائك الصحيحة ، ومعارفك الحقيقية .

فاجتهد يا أخي قبل فوات الأمل ، وحلول الأجل ، واركب مع اخوانك في سفينة النجاة ، كما ركبوا لتصل الى ما وصلوا ، وتنزل حيث نزلوا ، ولا تكن من المفرقين الذين هم اخوان الشياطين ، ولا تأوي الى جبل يعصمك من الماء ، فانه لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم .

ويستمر مؤلف الرسالة الجامعة في بحثه وإثباتاته عن هبوط النفس من العالم العلوي الى العالم السفلي : ولما كان المقدر بوجوب الحكمة الالهية ، والعناية الربانية ، مكث الجنين في الرحم تسعة أشهر ، وتقلب حالاته في تلك المدة حالا بعد حال ، في شهر يمد شهر ، كما قال الله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين » ثم جعلناه نطفة في قرار مكين - ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا المعلقة مضغة فخلقنا المضمرة عظاما فكسونا العظام لحما (١) « ثم كان مقدار مكث الجنين بحسب ما ينبغي في احكام الجسد من المزاج والتركيب بأفعال روحانيات الكواكب أربعة أشهر بقدر مسير الشمس ثلث القللك ، واستيفائها طبائع

(١) سورة المؤمنون الايات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

البروج من النارية ، والترابية ، والهوائية ، والمائية ، ثم كيفية تأثيراتها ، وأفعالها في أحكام النفوس أربعة أشهر آخر ، وما ينطبع فيها من التهيؤ والاستعداد الذي هو الصورة الأولى بالقوة ، لتصير صورة بالفعل عند التهيؤ لقبول الاخلاق ، والعلوم ، والاعمال ، والآداب ، والحكمة ، والآراء ، في مستقبل الزمان ، ومستأنف العمر بعد الولادة ، وفي الشهر التاسع ، عند دخول الشمس بيت التاسع من موضعها يوم مسقط النطفة ، بيت الحركة والسفر ، والنقلة ، والتصوير ، والعلم ، والقطنة ، يكون الوضع - والذي حدثنا على وضع هذه الرسالة في مسقط النطفة هو تنبيه نفوس الفاعلين الساهين اللاهين عما أُرشدوا اليه ، ودلوا بالحكمة الالهية عليه ، لينتبهوا من نوم الغفلة ، وليصحووا من سكرة الجهالة ، ويعلموا علما يقينا ، ويتحققوا تحقيقا صادقا ، انهم غير مخلدين في هذه الدار الفانية ، ولا دائمين في صحبة هذه الاجسام البالية ، وان كل نفس وردت الى هذا العالم فمقلبة الى ما اعد لها من عملها ، واكتسبته بفعلها ، كما قال الله تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها أمدا يعيددا ويحذركم الله نفسه (١) » - وان الاعمال والافعال التي تكتسبها النفوس في هذا العالم انما هي أمكنة ومساكن ، لها غرف من فوقها ، شرف في جنات النعيم ، والمملك القديم ، في عالم الافلاك ومحل السموات ، وهي مساكن تسكن اليها نفوس العارفين ، وقانس بها ارواح المؤمنين ، مبنية بالحكمة الالهية ، فيها من

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠ .

كل الشررات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت (١)، وكذلك الأفعال القبيحة ، والاخلاق السيئة هي أيضا مساكن وحشة ، وبيوت مظلمة ، وجهالة متراكمة ، وظلمات من فوقها ظلمات ، ومن تحتها بحر مظلمة أمواجه ، ومن فوقها قطع من النار ، وهم فيها مبلسون ، وفي عذابها مشركون ، لا يخفف عنهم العذاب ، وما هم بمخرجين (٢) ، ذلك جزاؤهم بما اكتسبوا ، انهم كانوا لا يذكرون .

ويرى مؤلف الرسالة الجامعة أن الغرض الاقصى هو الاخبار عن حال الانفس البسيطة قبل تشخصها واتصالها بالأجسام الجزئية ، المحصورة ، المحدودة ، بواسطة الألوان والاشكال ، والاعراض الأخر ، وأن المكث في الرحم هذه المدة لتتميم البنية ، وتكميل الصورة ، وهو الكمال الجسماني الاول لاستكمال الآلة ، واستعمال الأدوات ، وتمكينها من الجملة ، لتحصل كامل الآلة ، مستعدة لقبول ما يلقي اليها ، ويتصل بها من العلوم العقلية ، فاذا كان في الشهر الرابع من مسقط النطفة وصار التدبير للشمس ، واستولت على المضة قوى روحانياتها نفخت فيها روح الحياة ، وسرت فيها النفس الحيوانية . وذلك لأن الشمس رئيسة الكواكب في الفلك ، ونفسها هي روح العالم بأسره ، وهي المسئولة على الكائنات التي دون فلك القمر وخاصة على مواليد الاثس ، وذلك أن جرمها بمنزلة جرم القلب في البدن ، وسائر أجرام الكواكب والأفلاك بمنزلة أعضاء البدن ومفاصل

(١) الرسالة الجامعة — اخوان الصفاء صفحة ٣٢٢ تحقيق الدكتور مصطفى غالب .

(٢) سورة الحجر الآية ٤٨ .

الجسد ومريان قوى روحانياتها في العالم كسريان حرارته
الفريزية ، المتبينة من القلب ، السارية في جميع الاعضاء ، وأما
سائر قوى روحانيات الكوكب منتهى لها كالجنود ، والأعوان ،
والخدم ، وكل ذلك تقدير العزيز العليم ، فتبارك الله أحسن
المخالقين -

واعلم يا اخي أنها بمسيرها في حدود الكواكب والبروج ،
وشدة اشراق نورها ، ومريان قوى روحانياتها تحط من الفلك
الى عالم الكون والفساد الذي تحت فلك القمر ، من قوى
روحانيات الكواكب والأفلاك والبروج ، في كل يوم وساعة ،
وفي كل درجة ودقيقة ، ألوانا من التداير ، غير ما في يوم آخر
وساعة أخرى لا يبلغ منهم البشر كنه معرفتها ، الا من أطلعه
الله عليها من رسله وأنبيائه ، وملائكته ، أولي العزم القائمين
لله بالمقسط -

الابداع الروحاني عند علي بن الوليد (١) :

بعد كل الآراء والأفكار التي استعرضناها حول بدم الغليظة
أو بالأحرى تكوين الانسان الاول لا بد لنا من التعرض الى آراء
الفيلسوف الحقاني الكبير الذي ساهم مساهمة فعالة في جلاء
بعض الغوامض التي تحيط بنشوء الانسان الاول معتمدا على
آراء وأفكار جديدة لا نلاحظها عند غيره من الفلاسفة والعلماء ،
فهو يرى أن غيب الغيوب أبدع عالم الابداع دفعة واحدة بلا
مكان ولا زمان صورا نورية كثيرة لا يحصيها العدد ، متساوين

(١) كتاب المبدأ والمعاد للداعي الحقاني علي بن الوليد - مخطوطة في مكتبة
الدكتور مصطفى غلب الخاصة رقم ١١٥ .

في الكمال الاول والوجود الاول ، الذي هو الحياة والقادرة والقوة ، وكان ذلك بموجب عدله تعالى أن جعلهم سواء لا فضل لأحد منهم على الآخر . وكانوا في الكثرة على حال لا يحصى عددها دليلا على أن العقول لا تحيط بمبلغ فضله وجوده تعالى . فهم يسمون « عالم الابداع » و « العالم الروحاني » لكونهم أرواحا نورانية لا كثافة فيها ولا تجسيم ، ولا يحويها مكان ولا احتاج مبدعها الى زمان . ودليل ذلك أنا نجد نفوسنا وهي من ذلك كالجزم الحقيق من الكل العظيم الخطير ، تقطع مسافة الشرق والغرب بجولان الخواطر في أقل من لح البصر ، وتقدر على تصور ما غاب عنها وإدراكه من غير أن يحويها عن ذلك مكان ، أو تحتاج فيه الى زمان . بل تحصر في فكرتها الجهات البعيدة ، بل السماوات والأرض وما بينهما في أقل من لحظة . فإذا كان ذلك منا مع عجزنا وقصورنا وكون نفوسنا مرتبطة بأجسامنا ، فكيف بمن هو كامل متجرد عن الاتعاد بالأجسام ؟ فهي اذا — أعني صور عالم الابداع — على حالة من الجلالة والشرف والفضل والكمال تعجز عقول البشر عن إدراك مبدعها ، بل هو متعال عن ذلك علوا كبيرا . ثم أن صورة من تلك الصور المبدعة نظر الى ذاته وإلى أبناء جنسه وتفكر فيهم ، فهجم بفكرته من ذاته بغير معلم ولا ملهم ، وعلم أن له ولهم مبدعا هو بخلافهم يمجز عن إدراكه ، فنفى الالهية عنه وعن أبناء جنسه وشهد بها لمبدعه ، واستحق بهذا الفعل أن يسمى « أولا » و « ما بقا » وهو المسمى بـ « العقل الاول » و « المبدع الاول » و « القلم » .

ثم طرقت من مبدعه جل وعلا مادة خصته دون سائر أبناء جنسه مجازاة له على ما كان من توحيدِهِ وتسميته واعترافه

بالإلهية لمبدعه ، اطلع بتلك المادة على علم ما كان وما سيكون ،
وامتاز بالشرف بها والجلالة والمظمنة على جميع عالم الابداع ،
واستحق بذلك أن يقع عليه اسم الإلهية لوجهين : أحدهما أنه
« وآله » ونحير في ادراك مبدعه وعجز عن ذلك ، والوجه الثاني
أن جميع عالم الابداع « ولهوا » فيه ، وتعبروا في جلالاته
وعظمته التي خص بها لما كان من فعله ، ويسمى أيضا بالإلهية
لـ « الهانيتها » واشتياقه الى ادراك جلالة مبدعه والمعجز عن
ذلك يرده - فجميع ما ذكرناه وقع عليه اسم الإلهية ، وهو أزلي
الغاية لا أزلي الاول ، ثم انه فطن لما فعلن له هذا الحد العظيم
صورتان من تلك الصور ، فنظر كتنظره ونفيا الإلهية من ذاتهما
وعن أبناء جنسهما واعترفا بها لمبدعهما ، وشهدا له بذلك ،
واعترفا للسابق عليهما بالفضل وشرف السبق ، وسمي بفعلهما
ذلك « منبئين » لأنهما انبئنا مقتدين بالأول وفعله .

وكان أحدهما اسبق من الآخر الى ذلك التسبيح والتقديس
والتوحيد ، واستحق تسبقه أن اخذ المقل الاول السابق له
بابا وحجابا يخاطب منه من دونه ، وأمد من المادة التي طرقت
من مبدعه ، بما شرف به على المنبئ الثاني وعلى كافة أبناء
جنسه ، وعلم بذلك ما كان وما سيكون ، وهو المسمى بـ « النفس
الكلية » وبـ « الانبعاث الأول » وبـ « اللوح » - ولم يعترف
المنبئ الثاني بفضل السبق للمنبئ الاول ، وتوهم أنه مساو
له - فكان ذلك التوهم خطأ أكسبه تأخرا عن مرتبته وانحطاطا
عن منزلته ، ثم ان العقل الاول الذي قد صار حجابا له وبابا ،
فأجاب من تلك الصور المبدعة سبعة عقول كل واحد منهم بعد
الثاني ، وفي ضمن كل عقل منهم من تلك الصور المبدعة عالم

لا يحصيها العدد ، هو لهم - ذلك العقل - كالرئيس والاسام
والقدوة لسبقه عليهم ، وهم له كالأتباع والمقتدين به - فصارت
مراتب عالم الابداع تسمة : العقل الاول والانبياء الاول
والسبعة العقول المحيية للدعوة - ثم ان المنبث الثاني لما سقط
عن مرتبته بما كان من توهمه وسبقه العقول باجابتها واعتراف
كل مسبوق منهم بفضل سابقه ، لاذ المنبث الثاني بآخر تلك
المقول - وهو التاسع - مستخيرا له عن حالته وما الذي حمله
عن رتبته - فاعلمه أن الذي حمله عن رتبته هو توهمه المساواة
لسابقه - فتشفع به الى من هو فوقه ، وشفع له من فوقه الى من
فوقه ، حتى انتهت الشفاعة الى العقل الثاني الذي هو المنبث
الاول - فعلم أن المنبث الثاني قد ندم على ما سبق منه ، وان
لم يعتمد ذلك ولا أصر - فتأب عليه من زلته وغفر له خطئه ،
وأمد من فيض المادة الأزلية التي اتصلت به من سابقه ، التي
أمد بها جميع تلك العقول عند اجابتها - فزالت به عن المنبث
الثاني تلك الظلمة الحادثة عن ذلك الوهم الفاسد وفارقت -
وعلم بتلك المادة ما كان وما سيكون ، وترتب في المرتبة العاشرة ،
فصار بعد أن كان ثانيا في الانبياء ثالثا في العدد ، مباشرا في
الرتبة - وحصل له بتلك المادة ولجميع العقول السابقة عليه
الكمال الثاني والوجود الثاني الذي به تازلوا وعصوا وأمنوا
من الاستعالة والغناء -

وكان قد بقي من تلك الصور الابداعية عالم لا يحصيهم
العدد تأخروا عن الاجابة للدعوة مع تلك العقول ، وتخلفوا
مقتدين في تخلفهم بالماثر - فلما تاب واتصلت به المادة كما
قلنا بشفاعة تلك العقول - وهي الكلمات التي تلقاها آدم من

ربه - لأنه آدم الروحاني الذي قال الله فيه « فقلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه أنه هو التواب الرحيم (١) » . قيل له حينئذ : « اقبل على المقتدين بك في التخلّف ، فادعهم وخلصهم عما وقعوا فيه ، فإنه من كسر عظما ، فعليه جبره » . فمطّف على أولئك المتخلفين وقال لهم : « انا قد زللنا وأخطأنا في تركنا الاعتراف بفضل السابق علينا » وقد ثبت مما سلف مني فتوبوا انتم تسعدوا وتفوزوا ، فقالوا بأجسهم « لا فضل لهم علينا ولا لك ، لأننا كلنا ابداع المبدع تعالى ، أيدعنا سواء » - فلما قالوا ذلك ، أظلمت ذواتهم بمد انارتها . فلما نظروا الى ما أصابهم من الظلمة ، أنكروها واستوحشوا منها ، والناس بعضهم الى بعض ، وهم المكنى عنهم بـ « الهيولي الأولى - » .

فتحركوا بما حركة يريدون بها التلافي مما وقعوا فيه . فحدث من حركتهم تلك في ذواتهم الطول الاول - فأنكروا واستوحشوا منه أعظم مما سلفه ، فتحركوا حركة ثالثة حدث منها العرض الاول ، فصاروا جسما واحدا محتزجا بعضه ببعض ، فكانت تلك الحركات من حكمة العاشر المتولي لتدبيرهم ، لأنه علم بما ظهر له منهم من العصيان ، أنه لا خلاص لهم في عالم الصفاء لأنه عالم منزّه عن المخالفة والعصيان . فحركهم حتى صاروا جسما كلياً ليجعل منه لهم ادارات وآلات يستخلصهم بها ، ودعوة يقيمها للنجاة من يقبل منهم أولا قالوا ، كما سنبينه بعد ذلك ان شاء الله . وذلك أنهم كانوا في عصيانهم للعاشر متفاوتين في الضمائر فمنهم النادم المستغفر ، ومنهم الشاك المتحير ، ومنهم المصير المستكبر ، فلما صار الكل جسما

(١) سورة البقرة الآية ٢٧ .

واحدًا وهبط عن عالم الصفاء للكثافة التي أصابته ، لأنه من شأن كل كثيف الهبوط ومن شأن اللطيف الارتفاع والعلو ، فجعل الحكيم المدير أصفى الهايط أفلاكًا وكواكب ، وأوسطه أمهات ، وأكثفه صخرة تسمى المركز ، وهي بأسفل الأرض ، وكان ذلك من العدل والحكمة أن جعل كل فريق حيث يستعقبه لسابق نيته وضميره - فلما هوت الكثافة ساقطة ، وقد كان عند تلك الحركات الأولى من المتحرك أوتاد الفلك وهي الطالع - وهو الذي يكون في أفق المشرق - والغارب - وهو البرج الذي يكون في أفق المغرب - والعاشر - وهو البرج الذي يكون تحت الأرض - فلما هوت تلك الكثافة ، وتجاذبتها تلك الأوتاد من جهاتها ، وقطبا الفلك من جهة الشمال والجنوب ، فرققت في وسط الفلك وصار الفلك المحيط بها من جميع جهاتها ، والأرض وما عليها واقفة في وسطه كمثل مع البيضة الأصفر المحيط به البياض والقشر من جميع جهاته -

ثم انفتق الجو وترتبت الأفلاك تسعة أفلاك ، كل فلك منها في ضمن الآخر - والفلك المحيط يحيط بالجميع ، ويحرك جميع الأفلاك في كل يوم وليلة حركة كلية الهية بقوة المدير ومادته من المشرق إلى المغرب - وترتبت الأفلاك السبعة السيارة كل كوكب منها في فلك - وصارت جميع النجوم في الفلك الثامن المسمى « فلك الفروع » مقسمة اثني عشرة قسما ، كل قسم منها برج ، وصار الفلك التاسع خاليا لا شيء فيه من البروج والكواكب للطافته وشرفه - فلما تحرك الفلك الحركة الأولى ، رمت الكواكب بأشعتها نحو الأرض ، وقد كان بقي على وجهها شيء من جنس الفلك ، فجذبت الكواكب إلى ذواتها ، وصيرت

لها أصدافاً مشرقة وهو النور الذي يدركه البصر من النجوم ،
والأفهي كانت قبل وهمية كالأفلاك لا تراها الابصار ، فجعل
المدير تلك الأصداف يحكمته لانارة العالم الظلماني الجسماني
ولأن تدرك حواس البشر ذلك ، فيحق عندهم قدرة المدير تعالى
من أقدره • وصحة وجود العالم الفلكي - ولما تحرك الفلك ،
صار ما يليه من الجو المنفتح - الذي في ضمن فلك القمر - في
نهاية الحرارة واليبس ، وذلك طبع النار ، فسمي • الأثير •
وهو احدى الأمهات الاربع وأولها ، وهو مركز النار ومعدنها ،
الا أنها فيه غير مرئية بالابصار ، ولو ظهر ضوءها لمنع الابصار
عن ادراك عالم الأفلاك • فكان احتجاب ضوءها حكمة من المدير
تعالى من أقدره لذلك • ثم صار ما يلي الأثير من الجو حاراً رطباً
ليبعده عن الحركة الفلكية فاعتدل ، فسمي الهواء الذي هو ثاني
الأمهات الاربع • ثم صار ما يلي ذلك من الجو بارداً رطباً سيالاً ،
هو مركز الماء وهو ثالث الأمهات الاربع - ثم كانت الارض وما
يليهها من الجو في نهاية البرد واليبس لشدة بعدهما عن الفلك ،
وهو رابع الأمهات - فلما أراد المدير أن يجعل الارض مقراً
لظهور ما يظهره من المواليد - التي هي المعدن والنبات والحيوان -
وكانت وما يليها من الجو - في نهاية الافراط في البرد واليبس ،
فحرك الفلك ، فرمت الكواكب بأشعتها نحو الارض ، وقد كانت
صخرة صلبة لشدة بردها ويبسها • فلم تجد الأشعة فيها منفذاً
لعبابها ، فرجعت منعكسة ، فسخت وجه الارض وما يليها من
الهواء ، وصيرته معتدلاً ، بين الحر والبرد واليبوسة والرطوبة ،
وسمي ذلك • كرة النسيم • وهو بالحقيقة مركز الماء الذي عنه
يحدث ، كما سنذكره فيما بعد ، ان شاء الله • وكان انعكاس

الأشعة الى حد ما سخن من الهواء ، وبقي ذلك الهواء الذي لم تبلفه أشعة الكواكب راجعة على طبعه الاول باردا يابسا ، وهو اعلى مركز التنسيم ، ويسمى « الزمهرير » ثم ان المدير تعالى من قدره • صرف تدبير العالم الى زحل بعداته في تحريكه الفلك ، فدير العالم ألف سنة • فامتزجت الطبائع المذكورة بعضها ببعض ، وحدثت البخارات والضباب والأمطار المتواترة الغير النافعة ، وصارت الارض بحرا مواجا ، وتمخر في ذلك الألف ما يشاكل طبع زحل من الحديد والاحجار ، وصارت الارض مغمورة بالمياه ، وميز كل جنس من الاشياء الى جنسه ، وخمر خمائر السودان والوزاع وأهل الشقاء والنكال أجمع •

ثم ان المشتري رافد زحل في التدبير ألف سنة ثانية • فجفف بحرارته أكثر الرطوبات ، وميز ما يشاكل طبعه من الاشياء المعمدة عما مازجها من النجوم ، وخمر الخمائر التي تشاكل طبيعته الشريفة من أهل المدين والعفاف ، ونبت في دوره أول النبات ، ودهب الديب ، وحدث الثمل والوزع وبنات وردان •

ثم ان المريخ رافد زحل في التدبير ألف سنة ثالثة • وهما نحسا الفلك - أعني زحل والمريخ - فجفف المريخ بحرارته أكثر تلك الرطوبات ونشفها ، وفنت الجبال المنعقدة في ألف زحل وصبرها رملا ، وظهر في وقته صغار الحيوانات الشريرة كالغار والسناير وما يشاكل ذلك من السباع والهوام وفوات السموم ، وخمر خمائر القواد والأجتاس والشجعان ، ومن المعدن والنبات وما يشاكل طبعهما • ثم ان الشمس رافدت زحل في التدبير ألف سنة رابعة • فازالت تلك الظلم والضباب من وجه الارض ، وعدلت الأمطار بعض الاعتدال وخمرت خمائر الملوك والمظمام

وما يجانسها من الاشياء الشريفة كالياقوت والذهب وما يجانسها من الحيوانات ، واعتدل الجو بمضى الاعتدال . ثم ان الزهرة رافدت زحل ألف سنة خامسة . فتمرت خسائر العرب والنسائم وأهل اللهو والطرب ، ونيمت العيون العذبة ، فتزلت الامطار معتدلة ، وظهر في تدبيرها الاشجار المثمرة الطيبة الروائح ، وظهرت الطير وانتشرت في الهواء ، وتكونت الحيوانات المعتدلة النافعة وكل ذلك مقدمة لظهور الشخص البشري . ثم ان عطارد رافد زحل في التدبير ألف سنة سادسة ، فزادت الامطار اعتدالا والطبائع تهديبا ، فتمرت خمائر الكتاب والوزراء والحساب ، وكثرت في ألح النباتات المعتدلة المغذية والحيوانات المحللة ، ثم كان في آخر تدبيره ، وأول تدبير القمر ظهور الشخص البشري نباتا من الارض كما قال الله . والله أنبتكم من الارض نباتا (١) .

بدء الخلق الجسماني عند علي بن الوليد :

ونرى المؤلف يصف ما دبره المدير تعالى في الخلق الجسماني فيقول : « ان المدير تعالى حرك الفلك ، فمسدت البخارات الحادثة من صفو المعدن والنبات والحيوان ، فصارت غيوما ، ثم انهضت على وجه الارض امطارا صافية معتدلة ، وخذدت الارض خددا غير عميقة . وقد صفا ذلك الماء في عمقها . ثم بنحرا على اللطف وأشرف وأصفي من الاول ، فانهمل مطرا كثيرا نظير منى الرجل . فوقع في تلك المنارات والمخدد التي

(١) سورة نوح الآية ١٧ .

شبيهة بأرحام النساء ، فمناجج الماء الكائن فيها المشاكل للم
المرأة ، فصار شيئا واحدا .

ثم أسخنته حرارة الأرض فصعد هاربا من الحر ، فلققه برد
النسيم من خارج الخدد - فهبط منه هاربا . ثم لم يزل يهبط
تارة يصعد تارة ، وهو يقتصر ويتلطف وينعقد ويتكون في
مراتب الخلقة مدة تسعة أشهر بتدبير المدير ، وتأثير قوى
الكواكب والأفلاك فيه الى أن كملت له المدة . ثم قمع عينه
وحواشيه ، واستنشق النسيم ، وانصلت به الحياة المحيية الحسية
بواسطة النسيم ، فتمدد تارة وقعد تارة ، وجعل يتمرغ بيدنه
في ذلك الماء الذي تكون منه ، ويجتذبه بمصام يدنه وقد صار
دهنا - ثم طلب الغذاء من فمه ، وقد كان أولا يغتذي من صفو
ذلك الدهن ، فجعل يعتصم أصبعه الإبهام ، فأجرى الله له فيها
لينا خالصا سائغا للشاربين ، فاغتذى به ، فجعل ينام تارة ويقعد
تارة الى أن كمل له سنة . ثم قام وهو يومئذ في كبر جثته كمثلي
ابن أربع سنين - وذلك لكبر الأيوين اللذين هما السمسم
والأرض - فمشي وتناول بما قرب من التين والعنب والفواكه
التي قد كان قدمها له المدير سبحانه وكان هذا النشوء الحادث
في جميع جزائر الأرض الاثنتا عشرة - وتكون من فضلات تلك
المياه اثاث ، وكان النشوء الاول كلهم ذكورا ، وكان المدير
تعالى قد ميز من تلك المياه أحسنها وأشرفها وأفضلها ، وساقه
الى أشرف البقاع في أول الكون ، وهي جزيرة (سرنديب) لأنها
موضع الاعتدال من الأرض يومئذ ، في تلك الخدد . وفي تلك
الخدود ثمانية وعشرون شخصا هم في الشرف والفضل على سائر
البشر بمنزلة الباقوت الأحمر في شرقه على الاحجار ، وفيهم

... أعني الثمانية والعشرون شخصاً - شخص واحد عليهم من الشرف والفضل ما للياقوت الأحمر على الاحجار وهو زبدة العالم وصفوته وخلاصه * وهذا الشرف الحاصل لهذه الثمانية والعشرين شخصاً على سائر البشر * وللواحد على السبعة والعشرين ، هو من أجل صفاء النية وكثرة التدم على الخطيئة عند دعوة الماشر لهم ، فكان هذا الوجود من صفوة العالم وزيدته وخلاصته وأشرفه * فلما ظهر من تلك الخند كظهور أبناء جنسه ، نظر من ذاته بذاته من غير معلم ولا ملهم الى العالم * فرأى سماء مبنية وأرضاً مدججة وأصنافاً من الخلائق مختلفة ، فعلم بفكرته وهجم بذاته على الحق * فعلم أن له ولأبناء جنسه وللعالم كافة مبدعاً هو بخلافهم * فنفى الالهية عنه وعنهم وأقر بها لمبدعهم وشهد بها لخالفهم * فقام في العالم الداني مقام السابق الاول في العالم الروحاني - فاتصل به قسطه من المادة والتأييد عن السابق الاول بواسطة سائر العقول الابداعية بواسطة هذه الموجد له المستخرج من عالم الطبيعة ، الذي هو الماشر مدير عالم الطبيعة * فشرف بتلك المادة التي واصلته على أبناء جنسه ، وعلم بها ما كان وما سيكون - ثم أقبل على السبعة والعشرين من الشخص الذين كانوا معه ، فدعاهم الى الاقرار لله بالوحدانية والاعتراف له تعالى بالالهية ونفيها عنهم جميعاً - فأجابوا الى ذلك ؟ فكان جميع ذلك حقيقة قول الله وشهد الله أن لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط وله الا هو العزيز الحكيم (١) ، فكان اسم الله واقماً على العقل الاول السابق في عالم الابداع ، والملائكة تلك العقول المبادرة

(١) سورة آل عمران الآية ١٨

الى الاجابة للدعوة الشاهدة بما شهد به . وكان اولوا العلم هو هذا الشخص الفاضل صاحب الجنة الابداعية وحدوده السبعة والعشرون المجيبون لدعوته الشاهدون بما شهد به . وكنتي عنهم باولي العلم . لأنهم محل التأييد والمادة التي هو العلم الحقيقي الذي أمد به واحدهم وأمتهم به على قدر مراتبهم في الصفاء والاجابة . فاعلم ذلك . ثم ان القصر رافد زحل في التدبير ألف سنة ، وهي ألف السعادة وقيام الدعوة الشريفة واجتماع قوى الكواكب جميعا . ثم ان هذا الشخص الفاضل فرق من السبعة والعشرين اثني عشر في جزائر الارض الاثنتا عشرة يدعوهم الى عبادة الله وطاعته ، ويعلمونهم علم المعاش والمعاد . وعلم كل واحد منهم لغة أرسل اليهم ، لأن لأهل كل جزيرة لغة . وهو معنى قوله « ما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه (١) » . ولولا الوحي والتأييد المتصل بذلك الشخص الفاضل وأحلامه به على كل ما في العالم مما كان وما سيكون ، ما قدر أحد من البشر أن يعلم من تلقاء نفسه خواص المعادن والنبات والحيوان ومنافع ذلك ومضاره وأدويته النافعة ، وسمومه القاتلة ، وهذا تحقيق ما أخبر به بقوله تعالى « علم آدم الاسماء كلها (٢) » . لأن هذا الشخص الفاضل هو آدم الاول وهو أبو البشر من حيث أنه معلمهم أو معاشهم وأمر معادهم ، فهو سبب حياتهم في الدنيا والآخرة .

فلولا فضل الله عليهم بامدادهم بما أمد به مما استحقبه

(١) سورة : ابراهيم الآية ٤ .

(٢) سورة : البقرة الآية ٣١ .

لتسبيحه وتقديسه له تعالى ، لهلكوا - فتقدم كل داع الى
جزيرته - فعلمهم أولا كيف يتخذون من الشجرة الثياب ، وكيف
يتناولون منها ومن المعادن والحيوان الغذاء ، وعلمهم طريق
النجاة بحبادة الله وطاعته وطاعة وليه المصطفى في أرضه سلوات
الله عليه -

وأقام هذا الشخص الفاضل بحضرته اثني عشر شخصا
(حجج الليل) وهم أفضل السبعة والعشرين ، منهم أربعة
يسمون (الحرم) هم أفضل من الثمانية - ومن الأربعة واحد
هو أفضلهم ، وهو الباب لذلك المقام الكريم ، ونصب مع داعيه
في جزيرته مكاسرا ومأذونا مطلقا وداعيا محصورا ، وهذه
المراتب محفوظة لا تنقطع مع كل تامل في دوره ووصفي في
عصره وامام في زمانه . ثم ان كل داع أمر أهل جزيرته بأن
يتزوج كل واحد منهم بالأنثى التي تكونت في مفارته غيره ،
ولا يتزوج بالأنثى التي تكونت معه في مفارته وظهرت منها عن
فضلة مامه ؟ فهي له كالأخت لا يحل له نكاحها ، فهذه طريقة
أهل الحق الطاهرة المنزه عليها ، (لا ما يعتقده الجهلة من أهل
الظاهر من أن آدم زوج أولاده البطن الاول بالبطن الثاني فيكون
أهل النسوة سفاهة) ، نموذ بالله من ذلك ، وانما سمعوا ما لم
يعلموا حقيقته - والصحيح ما قد ذكرناه . والحمد لله الذي
هو أنا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . وكانت هذه
الولادة من الارض تلك الدفعة الواحدة الأولى لا غير ، ورجعت
من التناسل بين الرجال والنساء الى الآن - ثم جرت الدعوة الى
أن استخرج ذلك الشخص الفاضل ولده الكريم الذي يتخلفه في
مقامه من حدوده وأهل دعوته .

فهذه حقيقة الابتداء مصرحة بغير رمز ولا إشارة فخذ ما آتيناك وكن من الشاكرين لموالينا على ما أنعموا به علينا ، كافاهم الله بالحسنى ، والحمد لله رب العالمين -

رأينا في مجمل الأفكار التي استعرضناها

نحن وتطورية داروين :

الأفكار والآراء التي استعرضناها حول بدء الإنسان الأول ونشوء الحياة في هذا الكون المترامي الأطراف ، لا يد لنا من مناقشتها وابتداء الرأي في منطلقاتها ليشغى لنا اظهار الحقيقة الجوهرية الناصعة التي تنسجم مع ما يتفاعل في أعماقنا ووجداننا من ايمان عميق في الأديان السماوية كلها ، باعتبارها طرقات وان تفرعت مسالكها فهي توصل بما لا شك فيه الى القدرة الالهية السرمدية التي أبدعت هذا الكون بحدوده العلوية والسفلية - وأول رأي قد استعرضناه كان نظرية التطور التي أوجدها « تشارلز داروين » الذي يلخص نظريته القائلة بأن جميع أشكال الحياة المتمثلة في الانواع المتعددة الموجودة فعلا ، تعود الى أصل واحد أو اصول متعددة - ذلك لأنه يرى أن الاصل الواحد هو الذي تطورت منه هذه الأنواع خلال ملايين السنين الى أن اتخذت أشكالها التي نراها عليها الآن - ولربما دار في مخيلتنا السؤال عن كيفية امكان تفسير هذا التنوع والاختلاف مع وجود وحدة الأصل ، ولكن داروين يرى أن تفسير ذلك يكون بقانون أساسي سماه « قانون تنازع البقاء » ولم يقف داروين في تحليله لهذه الأمور عند حد اظهار هذا القانون ، بل أوجد نظرية أخرى تعرف بالملائمة بين الحي والبيئة الخارجية ،

بالإضافة الى قانون استعمال الاعضاء أو عدم استعمالها تحت تأثير هذه البيئة ، كما قال بقانون الوراثة ، وفي ضوء هذه المنطلقات الداروينية التي نعلن عن شجبتها واستهجانها للأسباب التالية :

١ - ان دعوته التشابه بين نوع ونوع آخر في سلسلة من الانواع قد كشفت عنه مراحل تطور الجنس البشري والحيوانات وعلم التشريح ، والتحليلات المخبرية ، فليس من المعقول بعد هذه الاكتشافات أن نوافق داروين رأيه في وجود أصل مشترك بين الانواع المختلفة ، لأن مجرد التوافق في الشكل بين بعض أعضاء الجسم الانساني ، وبعض أنواع القردة لا يمكن أن يكون دليلاً بيننا على أن الانسان يمت بأية صلة لتلك الانواع ، أو بالأحرى أن تلك الانواع أصل لتلك الانسان - فداروين برأينا لا يمسك بالأدلة المباشرة التي تدعم ما ذهب اليه ، لأن الاشكال الموجودة فعلاً قد طرأت عليها تعديلات متعددة منذ وجودها حتى وصلت الى الحالة التي نراها عليها الآن ، فهذا الأمر من الصعب اثبات حدوثه ، وخاصة التعديلات التي حدثت عليه ، اذ كيف نؤمن بتعديلات طرأت على نوع من الانواع دون أن نلمس حدوث هذا التعديل في أي شكل من أشكال الحياة - أما الفوارق والمزايا التي قد توجد في فرد من أفراد النوع ولا توجد في آخر فيها ، كقابلية الوراثة ليس بعقدور أي عالم أن يقدم الدليل الواضح لوجود مثل هذه الفوارق والتنوعات بين أفراد نوع واحد - نحن لا نفكر أن هناك ثغرات واسعة في سلسلة النمر التدريجي المزعوم ، فلو أخذنا مثلاً الانسان الذي يحاول هؤلاء أن يؤكدوا صلة القرابة بينه وبين القرد باعتباره النوع الأدنى

في سلسلة نوع هذا الحيوان المتدرج ، ولكثنا ليس بمقدورنا أن نلمس هذا الانسجام بين سلسلة كاملة من الاشكال التي تبدأ من أحسن الاشكال في المخلوقات حتى تصل الى الانسان الذي يعتبر أرقاها لأننا سندخل في دوامة معقدة لا تمكثنا من اثبات أي تغيير بوجود مثل هذه الثغرات - فإذا كان الانسان قد وجد كما يزعمون نتيجة تعديل ثم على مراحل في أشكال سابقة من القردة ، فلا ندري كيف تحول القرد في مرحلته الأخيرة ، من حيوان الى انسان ولا أدري اذا كان بمقدور أصحاب التطور أن يفسروا لنا هذه النقطة - ولو فرضنا أن قانون التطور والارتقاء صحيحا كما قال به داروين لوجب أن تكون الحيوانات البحرية الدنيا المعروفة في زمننا مختلفة تماما عنها في العصور القديمة مع أن العلم أثبت أنها بقيت محتفظة بأشكالها وخصائصها التي كانت عليها منذ أول تكوینها - وراينا الأخير أن الانسان باعتباره خليفة الله في أرضه ، له ميزات ومناقب سامية يتميز بها عن غيره من المخلوقات وليس من المعقول مهما حللنا وذهبتا بعيدا في مناقشاتنا لهذه الأمور ، أن يجعل الله القرد انسانا أو الانسان قردا ، لأنه عندما أوجد موجوداته نوعها وخصص لكل نوع خصائص يمتاز بها عن الأخرى -

فنظرية التطور اذا مرفوضة بالنسبة اليها على ضوء ما ورد في الأديان السماوية ، فهي لا تعد أن تكون سخافة لا يؤيدها المنطق ولا العلم - فالانسان سيظل أبدا ذلك الانسان الكائن المقفرد من بين موجودات الله سبحانه وتعالى يتربع منذ أول وجوده على القمة باعتباره خليفة الخالق على الارض ، يطور الأفكار ويطورها متزودا بالمعارف العقلية التي توفر له السعادة والكمال المطلق -

رأينا في المذاهب القديمة :

مما لا شك فيه ان آراء حكماء المذاهب القديمة على مختلف أنواعها قد تطرقت عند معالجتها للأفكار النشئية المتصلة بوجود الانسان الاول ، أو بالأحرى وجود الموجودات قد ربطوا تأثير الكواكب واشتراكها بعضها مع بعض في أسباب العلة الأولى التي نشأت بموجبها الكائنات الحية على كوكبا الارضين معتبرين أن هذه الكائنات قد وجدت عن طريق تفاعل الكواكب السيارة مع عناصر الارض ، لتستمر الحياة فيها - ومن هؤلاء الحكماء ، حكماء بابل وأشور ومصر - والجدير بالملاحظة أن هؤلاء لم ينفصلوا عن رسم هذه التفاعلات ومزجها بالمعجزة الالهية التي كان لها الفضل في خلق الانسان مع المادة التي صنع منها باعتبارها نفثة الباري التي نفثها في الانسان ، ولما كملت عملية النفخ هذه في رأيهم ، أثرت الطبيعة في تلك المادة فتقلبت في أطوار النشوء حتى بلغت في النهاية الصورة البشرية انطلاقا من هذه الافكار التي قد تكون بالنسبة للعصور التي وجدت فيها والتي كانت مليئة بالأساطير والخرافات والمعجزات ، قريبة نوعا ما من الافكار العقلانية التي بلورت في عملية النشوء بشكلها المعروف لدى حكماء اليونان وبعض فلاسفة المسلمين ، الا أننا قبل أن نقر تأثير الكواكب السيارة في عملية النشوء ، لا بد لنا من التطلع الى عملية الابداع الروحانية ومدى تأثير هذه العملية على الكواكب وبنفس الوقت على الكرة الارضية وما عليها من موجودات .

ونحن لا ننكر أن المبدع الذي ابدع كافة الموجودات العلوية

والسلفية وحتى الفلكية ، قد أبدع من ذاته عقولا نورانية
وصورا روحانية لتتحكم في كافة موجوداته وفق نظام دقيق
يشرف على تنظيمها وترتيبها وتفاعلاتها * وعن طريق عملية
الابداع وجدت الصورة والهيول التي تشكل منها الإنسان
الأول ، وازداد عدده عن طريق التفاضل *

ماذا يقول المسيحية :

يبدو أن المسيحية قد تأثروا بما ورد في التوراة حول عملية
نشوء الخليقة ، ولكنهم يردون نشوء الجنس البشري الى الخطيئة
التي ارتكبت وأدت الى هبوط آدم وحواء الى العالم الارضي ،
حيث تزوجا وأنجبا البنين والبنات * ولما كنا تؤمن بما ورد في
الكتب المقدسة ، لا بد لنا من أن نتساءل عن ماهية تلك الخطيئة
التي ارتكبت ؟ ومن هو الذي ارتكبها ؟ لأن الأراء المسيحية
لا تساعدنا على الرد على كل هذه التساؤلات * وماخذنا الوحيد
على الولادة الجسمانية التي ذكروها ، أي أن آدم وحواء هما
أساس الصورة البشرية * ففضية الجنس البشري من ذكر واحد
وامرأة واحدة مشكوك فيه ، ولا نعتقد بأن الله سبحانه وتعالى
يشبه مربّي الأغنام حتى يغفلوا عن عملية التكاثر من ذكر واحد
وأنثى واحدة - ولا تدري ما هو المانع اذا كانت عملية الخلق
قد تمت بواسطة مجموعة من المذكور والاثاث عن طريق
التفاضل ١١٩ *

النشوء الاسلامي :

ان المسلمين يرون بدء تشوم الخلق كما يرى اصحاب الأديان

السماوية الأخرى بأن الله سبحانه وتعالى قد خلق آدم وأسكنه الجنة وعهد إليه أن لا يقرب شجرة عرفه بها ونهاه عن أكلها ، ثم خلق من ضلله حواء - فصول لهما الشيطان أن يأكلا من أثمار تلك الشجرة التي نهيا عن أكلها - فهبطا الى العالم الارضي جزاء ما اقترقت أيديهما من مخالفة صريعة لأوامره تعالى ، فتزوجا وأنجبا اليئين والبنات مستدلين على الآيات القرآنية التالية : « قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا » . أما تفسيرهم لكيفية وجود الانسان الاول فيعتمد على قوله تعالى « انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج » و « فلينظر الانسان مما خلق » خلق من ماء دافق » - وإذا كنا لسنا في مجال نقد الآراء الدينية باعتبارها مقدسة وهذه القدسية تحول بيننا وبين الاقتراب منها ولكننا لا بد لنا من الاستفسار عن كيفية ظهور العالم الطبيعي بما فيه من مساوات وأرض ونجوم وبروج دفعة واحدة ، وكيف لا تظهر المتولدات الطبيعية معه دفعة واحدة أيضا حتى لا تتعرض هذه الآراء المقدسة الى الوقوع في الشك ؟ - وإذا ذهبنا مع أصحاب الآراء السماوية المقدسة وأقربنا بإمكانية وجود البشرية من ذكر واحد وأنثى واحدة عن طريق التناسل نكون قد وصفنا الخالق سبحانه وتعالى في مركز المعجز ، وقد يرى البعض أننا ربما نلاحظ فيما نشاهده أنه بالإمكان أن يتولد من انسان واحد الى ألف انسان على التناسل حتى يملأ العالم من ذريته ، ويهلك نشوئه ويخلف غيره ، فلا يبقى له ذكر فيجب أن يكون حسب هذا الرأي جميع الناس من رجل واحد ، كما ينهي أمر جميع الناس الى رجل واحد مثلا ، فيكون الواحد من الكثير ، كما كان الكثير من الواحد ، فاما أن يكون واحد

لم يتقدمه كثير ، فلا يمكن أن يكون منه كثير هو مقدمه ، ولا بد لنا هنا أيضا من التساؤل إذا كان الإنسان الذي يملأ العالم من نسله قد سبقه الخلق الكثير من نوعين ، فيمكن أن يتأخر الكثير من نسله ونوعه - والنوع باعتقادنا هنا لا يساوي الجنس المطلق عليه حركات الوحدانية ، لأن النوع أشد توحيدا من الشخص ، والجنس أشد توحيدا من النوع - ولما كان الشخص لا يساوي النوع ، والنوع أشد توحيدا من الشخص قلنا أن أمر تنوع الإنسان قد يقع على شخص واحد لا نظير له ، فقد وقع التساوي بين هذا الشخص وبين نوعه ، ثم يبطل النوع عن الفعل إذا قام الشخص مقامه • ولكن عندما تكثرت الأشخاص وجب نوع مبني على الكثرة • فإذا الأشخاص المنطقية إذ ليس الشخص بمقدم على النوع ، وليس النوع بمقدم على الجنس - وفي رأينا أن من يقول أن الله سبحانه وتعالى خلق أول إنسان واحدا ، وخلق منه الخلق على التناسل ، فقد جعل منزلة الله ، منزلة مربي الماشية ، إذ تعتمد مثلا إلى شراء حيوانا ، فإذا أتى على هذا الحيوان سنون كثيرة حصل منه حيوانات كثيرة من ذلك النوع ، وبذلك يكون قد خدش قدرة الخالق ووصفها بالعجز ، فالله سبحانه وتعالى له القدرة على خلق الكثير دفعة واحدة ، كما خلق السموات والكواكب والأفلاك 115 -

افكار التشو الهندي :

نلاحظ ونحن نطالع الافكار الهندية حول خلق العالم المتنوع من الروح الواحدة أنها متطلقة على الضال من الاساطير والخرافات التي تفشت بين الشعوب الهندية منذ القدم • وليست

هذه الأفكار رغم أنها تعبر عن فلسفة خاصة بهم تنسجم مع
 المعتقدات المعروفة لدى الأديان السماوية . وإذا أردنا تحليلها
 عقلانيا وعرفانيا لاستغرق منا ذلك مجالا أوسع من مجال هذا
 الكتاب . لذلك نرى أن هذه الأفكار قد لاقت بعض الاستحسان في
 ظروف معينة ، وفي بيئات محددة ، وهي برأينا تختلف عن مجمل
 الآراء العرفانية المعروفة لدى كبار العلماء والفلاسفة الذين
 لا يؤمنون بالخرافات والأساطير ، بل يتمسكون بالحكمة الواقعية
 التي يتقبلها العقل والمنطق السليم . وعلى العموم يمكننا أن
 نستخلص من الأفكار الهندسية بعض الحكم الهادفة الى غير
 الانسان وحده على تجنب كل ما يسيء اليه من مساوئ وشرور .

الروح الاغريقية والرومانية :

مما لا شك فيه بأن علماء الاغريق وحكام الرومان قد
 اهتموا بأصل الانواع ووجودها في عالم الكون ، معتمدين على
 العوالم الماورائية والروحانية وما تتضمنه هذه العوالم من
 الأسرار والخفايا التي يردونها الى عدد كبير من الآلهة ، وزعموا
 اختصاصاتهم على نواحي متعددة من العوالم المؤثرة في عالم
 الكون والفساد . ولم يغفل بعض الفلاسفة الاغريقيين من
 التحدث عن الوجود النفسي وتعلق الجسد بالنفس والموت
 والحياة . ونلاحظ بأن سقراط كان من الحكماء الذين رسموا
 صورة واضحة لعالم الأرواح ، وذهب الى أن الجسد ليس سوى
 قيصا تصبغ فيه الروح ، ولن يتيسر لهذه الروح الانطلاق من
 سجنها الا بعد أن تتزود بالفضائل والاعمال الخيرة التي تفيد
 مجتمعا . وفي عرفنا أن الآراء التي قال بها أرسطو وكانت

أساساً ومنطلقاً للفلسفة اليونانية بكاملها بالإضافة إلى أنها أصبحت فيما بعد من مرتكزات الفلسفة الإسلامية التي طورت بعض العقول وشمخت بها إلى عالم المعرفة الحققة ، لذلك نرى من الحكمة أن نقر بعض الآراء الفلسفية الرومانية والاضريقية المتعلقة بالخبرات والشؤون ونستهجن بعض ما تخلطها من خرافات وأساطير لا تمت إلى الحقيقة بصلة نظراً لتمدّد الآلهة وتنوع أفعالها ، وفي بعض الأحيان تعارض مصالح الآلهة بعضها مع بعض وحدوث الاقتتال والحروب لتعارض المهات والمصالح الخاصة بكل إله من هذه الآلهة - وليست الروح عند الفراعنة في بيئتها ونشورها وثوابها وعقابها وحياتها سوى نموذج من نماذج الخرافات والأساطير التي عرفت عند قدماء الهند والفرس وغيرهم من الشعوب القديمة مبنية على الوهم والخيال بدون أن يشتم منها أي منطلق عقلائي عرفاني واضح -

نحن والفلاسفة :

الآراء والأفكار الفلسفية التي قدمناها في هذا الكتاب لا بد لنا من مناقشة بعضها وإبداء الرأي فيه علناً نتّمكن من القيام ضوء على المسالك المرقانية والدروب العقلانية التي سلكوها لايعبأنا حسب وجهات نظر كل منهم إلى الطريق الصحيح - فلسفة « باسكال » التي تنطلق من نظرتة إلى حركات الكواكب والظهور في الهوام للتأكد على وجود الله ، غير أنه يضمها في مكان المعجز عن إزالة الأفكار الاسامية لوجود الله ، ومع ذلك فمحاولة باسكال الفلسفية قد تتسلل إلى عقول بعض الملحدين المبتدئين عن حقيقة الدين فتورق قلوبهم بالإيمان كون أفكاره

ليست سوى منطلقات يشع منها الايمان العميق بوجود الله وقدرته على الخلق والابداع فنحن مع باسكال في آرائه الايمانية ولكننا نقف موقف الممارض تجاه منطلقاته التعليلية لبعض القدرات الالهية .

أما ما يراه الفيلسوف « فيشته » من فروقات بين العلم والايمان مبني على تمايز حقيقي واقعي قائم على القلب للمقل، فراه قريبا من الحقيقة ومؤسس على الضمير الاخلاقي وكل ما يتفاهل في ذلك الضمير من احساسات وانفعالات عقلية .

ولا نخالف الآراء التي قال بها الفيلسوف « سينسر » الذي حاول التوفيق بين العلم والدين لما تتفتح به أفكاره من جدية للتوفيق بين هاتين الهاميتين بالنسبة للانسان العارف المؤمن وخاصة ما يتعلق منها بانتقاده لبعض الخرافات والطقوس التي لا تنسجم مع العلم ، أو من ناحية انتقاده للمادية على أساس أنها قضية مسلمة بها . فالمقل والمادة ظواهر تسببية براهيه وهما معلول مزدوج لعلة نهائية ينبغي أن تظل طبيعية مجهولة . أما ما يذهب اليه الفيلسوف « جورج مانتيانا » من فدلكات وتبريرات لمذهب الطبيعيين فلا نقول عنه الا أنه في طبيعة أولئك الملحددين الذين يبدون آرائهم انطلاقا من الشك والتردد بين الانتكار والايمان . ولما حول آراء الفيلسوف « راسل » موقف يختلف عن مواقفنا من الفلاسفة الآخرين وخاصة أولئك الذين وقفوا فلسفتهم على التنكر للأديان ومحاولة طمس معالمها باعتبارها ليست سوى مخدرات لأبناء البشر .

وليست نظرتنا والحاحه أن تكون الفلسفة علمية المنهج بحيث

تقلع عما تعودته من ضرب في التأملات التي تركز على الخيال
والوهم تنطبق مع الحقيقة والواقع ، لأن الفلسفة بمفهومها
الديني الحقيقي بعيدة تمام البعد عن الخيال والتأملات الوهمية
لأنها تنطلق من العقل وتفحص في جوهر النفس والروح فلا
مجال للوهم والخيال في جوهرها العرفاني . أما ما يذهب إليه
راسل في فلسفته من أن الانسان لم يعد لا روح ولا مادة ، لأن
ليس هناك ما يدل على الروح وما يدل على مادة الانسان أو
بالأحرى شكله المادي ، فمحض انحراف عن القواعد الدينية
والعقلانية وانكار لوجود الخالق الذي أبدع الروح والمادة ،
فالتفريعات الوهمية التي بنى عليها راسل فلسفته المنطقية
الذرية لن يتسع هذا المقام لمناقشتها مع اعترافتنا بأنه ربما
كانت هناك بعض جوانب المصدق المرتكزة على معادلات المادة
والطاقة -

والذي يجنبنا في قول الفيلسوف د ديكارت « أن الله هو
القدرة الفاعلة في الوجود والموجودات أن هذا الرأي يفسج مع
تطلعاتنا الحقة التي ترى أن الله المبدع هو الذي أوجد
الموجودات العلوية والسفلية وحرك الكواكب والأفلاك فتدل
بحركتها وانفعالاتها على قدرته السامية المقدسة . وليس شريفا
من ديكارت الذي شك أنه في جسم أو في وجود عالم مادي يمشي
فيه ولكنه مع هذا الشك ظل محترفا بوجود الله الذي يمد
الانسان بالغير والسعادة والهناء باعتباره الكائن الكامل
اللامتناهي علة لوجود كافة المخلوقات ، ولا نستغرب بمد أن
يثبت د ديكارت « أن الله موجود علما يقينا أنه هو موجود أيضا
بمعنى أن له نفس متميزة عن بدنه وهي قادرة أن تبقى بدونه

كونها خالدة لا تموت • ومالما أن الله موجود يكماله وعظمته فلا بد أن يضمن هذا الكامل التام ، وجود العالم الخارجي ، غير أن ديكارت يلاحظ أن حواسنا التي أمكننا عن طريقها إثبات وجود هذا الموجود ليست سوى أفكار غامضة مبهمة لا تؤدي إلى اليقين ، واليقين برأيه يأتي عن طريق معرفتنا لأنفسنا وما يتفاعل فيها من خلجات عرفانية ووهي مباشر بالوجود الزمني وهذه هي ظاهرة الوجود الزمني النفساني التي تؤكد وجود الله • ومن هنا كانت نظريته في الخلق المستمر التي شرحها ووسطها ومطابقها على كافة المخلوقات ، فجاءت منسجمة مع الاقرار بوجود صانع مبدع لهذا العالم بخلقه في أية لحظة من الامتداد والحركة الهندسية •

كيف تفهم فلسفة أرسطو :

إيماننا بأراء أرسطو العرفانية ينطلق من أفكاره الميتية على ضرورة معرفة جوهر النفس الانسانية وذاتها ، والاقرار بوجود علة محركة لهذه النفس نحو الانفصالات الخيرة ، والاستجابات الذاتية التي تؤهلها للانتقال من حد القوة إلى حد الفعل حيث التمام والكمال والسعادة •

وربما التقينا معه أيضا في أفكاره المتصلة بتحديد العلة الأولى وساميتها باعتبارها الحركة الأولى النسبية لوجود كافة الموجودات العلوية والسفلية ، وأن هذه العلة قديمة قدم الوجود وانفعالاته وحركاته • وفي رأينا أن ما ذهب إليه أرسطو في تحديد العلة الأولى يدل على إيمانه العميق بوجود المبدع علة الملل وموجد الموجودات ، وهذا اسمى معاني التوحيد والتجريد

والتنزيه الذي يتسجم مع حقيقة إيماننا وما يشع من أعماقنا
من متعلقات توحيدية حقانية *

ونحن لا ننكر أن آراء أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان قد
أثرت تأثيراً فعالاً في نواحي الفلسفة الإسلامية ، وساعدت على
بلورة بعض المعتقدات التوحيدية وخاصة ما يتعلق منها بالعلل
والمعلولات وعودة هذه العلل إلى العلة الكبرى التي تسببت في
وجودها * أما ما يراه أرسطو حول النفس وإنها صورة الجسد
ومبدأ الحياة فيه وإنها غير خالدة لأن العقل الحاسمي يمكن أن
يتسرد * فنقول : إن النفس التي عرفت ذاتها وسهبت أعماق
الموجودات عن طريق العلم والمعرفة تنتقل إلى الكل الذي انبعثت
منه ، وهذا الكل هو النفس الكلية أو العلة الأولى الأبدية ،
ومالمّا أن هذه النفس الكلية أبدية سرمدية فسيكون الجزء الذي
عاد إليها سرمدياً يبقى ما بقي الكل * وإن كنا ننكر على أرسطو
عدم اعترافه بسرمدية النفس فلا نخالفه فيما ذهب إليه حول
سرمدية العقل باعتباره من العقول الإبداعية التي تعد كافة
الموجودات العلوية والسفلية بالتأييد العقلاني الواصل إليها
إبداعاً أو انبعاثاً أو فيضاً عن طريق المبدع سبحانه وتعالى ،
ومالمّا أن المبدع خالد فمن البديهي أن تكون تلك العقول خالدة
لا تبديد لأنها قائمة بالفعل عارفة بالذات *

موقفنا تجاه الأفلاطون :

إذا قلنا بأن أفلاطون يعتبر شيخ الفلاسفة الذين تسربت
فلسفتهم الروحانية إلى صلب المعتقدات الفلسفية الإسلامية
وخاصة تلك التي يقول بها جماعة أهل الحق ، نكون قد أعطينا

فكرة عن مدى قناعتنا بالأراء الأفلاطونية التي ذكرها حول الوجود والمعرفة المساعدة من المحسوس الى المعقول والتي تخضع الاول للثاني . وليس أعظم من طريقة استخدام أفلاطون للحركة والنظام للأثبات على وجود الله باعتباره روح عاقل محرك جميل خيّر عادل كامل ثابت لا يتغير ، صادق لا يكذب ، وعنايته تشمل الكلّيات والجزئيات بالقدر الذي يتفق مع الكلّيات . وربما اتفقنا مع أفلاطون في نظريته الى تكوين العالم الذي يرى حدوثه من علة ، والعالم حدوثه قد بدأ من طرف أول لأنه محسوس ، وكل ما هو محسوس فهو خاضع للتغيير والحدوث ، وله صانع .

ولما كان الصانع خيرا والخير بطبيعته بريئا من الحسد ، فقد أراد أن تحدث الاشياء شبيهة به على قدر الامكان وهذا القول ينسجم مع ما نذهب اليه لأن الله قد خلق الانسان على صورته . ومع كل هذا فنحن لا نقر الأسلوب الاسطوري الخرافي الذي أوردته وهو يتحدث عن كيفية تركيب العالم وحدثه ، لكوننا على ثقة بأن الله ليس بحاجة الى أخذ النار والتراب والماء والهواء وتركيبهم ليخلق منهم الصور التي ذكرها أفلاطون ، بل له القدرة التامة على ايجاد كافة الموجودات بكلمة (كن) دفعة واحدة . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية لا ندري كيف عرف أفلاطون أن النفوس الانسانية كانت مخزونة في عالم الكواكب قبل أن توضع في الأجساد الحية بعد أن هبطت من علوها . وإذا ما وافقنا على أن النفوس الانسانية قد هبطت من عالم الكواكب لجناية ارتكبتها فيه نكون قد خالفنا أفكارنا الحثائية التي تقول بأن النفوس البشرية ليست سوى أجزاء من النفس الكلية هبطت

الى العالم السفلي نتيجة سهر ارتكبه العقل الثالث عندما لم يعترف للسابق عليه بالأفضلية وهو العقل الثاني . كما وأننا تؤيد ما ذهب اليه أفلاطون حول خلود النفس وأفعالها الثلاثة التي هي الإدراك والفضب والشهوة ، وأنها تنقسم الى جزء ناطق وجزء غير ناطق لما نعسه فينا من صراع بين الشهوة التي تدفع الى موضوعها والعقل الذي ينهي عنه .

لماذا نطرح أفكار نيئتشه :

أشرنا في ما تقدم من فصول هذا الكتاب الى بعض آراء الفيلسوف نيئتشه حول العود الأبدى وما يتصل بهذا العود من أفكار تحركية أكسبها صفة الوجود وعدم الاقرار بالتحول الدائم ، لأن التفسير يرأيه يعود الى ذاته على الدوام لأنه تحول خالد تصطبغ كل مراحله بصفة الأبدية ، ويشتم من فلسفة نيئتشه ونظرياته السخرية من أفكار ونظريات الحكماء الذين غاصروا في أعماق الحكمة الماورائية عبر القرون والأجيال ، وهذا مما لا يتفق مع مكانة نيئتشه الطمية الرقيقة وما يتصل بها من أفكار العادية لا بد من تبذرها وطرحها لأنها تنطلق من عقلية هستيرية أقل ما يقال فيها أنها جنون العظمة وحب الذات والشهوة والنهوغ* والذي يدهشنا في فلسفة نيئتشه رأيه الصريح في أصل المعرفة التي يردّها الى العقل . ثم يستنكر بدوره أنه قد تولد عن العقل خلال الأزمان الماضية سوى الاخطاء وهذا الرأي بعرفنا لا يتفق مع النضوج العرفاني للحياة الروحية وما انبثق عنها من اشعاعات وامراتات وما ابتدعت من مناهج في التفكير العقلاني ، والتأمل ، الذي نما وتطور وواكب سير

الحياة التصاعدي - وأعطى العقل القدرة التامة على العصمة وعدم الوقوع في الأخطاء - وهذا العقل الذي نتحدث عنه ليس العقل الذي يرمي إليه نيتشه من وراء فلسفته الهستيرية كونه عقل ابداعي روحاني علوي يمد كافة الانفس البشرية بالتأييدات العلوية الربانية وليست له أية علاقة بحفظ النوع والمذرية كما يزعم نيتشه -

وعلى ذلك فالمعرفة لا تكون في جوهرها سوى نوع من الانبثاق الفكري بعد أن يتلخّص الفكر عن طريق الاكتساب بالعلوم والمعارف والحكمة ، فالحكيم برأينا هو الانسان الذي يجسد بحكمته ودرايته وخبرته الافعال والأحاسيس العقلانية المنطلقة من عالم الروح قد استمدّها من صفاء ذهنه وتعمقه في الأصول والاحكام الاساسية المنبعثة من الوجود والموجودات ، ونحن لا نفرق بين الروح العلمية والروح الدينية اذا كانتا تقدما للانسانية الخير والكمال المطلق - ولا نرى مع نيتشه أن القوى الكونية متناهية لأن الزمان غير متناهي ولا جد لهذه القوى من أن تظل تمارس أفعالها وانفعالاتها واستجاباتها بلا انقطاع - والحكمة التي سخر منها نيتشه برأينا تفجر ينابيع العلوم والمعارف لتنير البصائر بشمس البراهين الحقائقية وتستقي من نهر الديمومة الذي يشع نوره فيضيء وجوده الحقائق ويشرع بالسعادة القصوى عندما يرتشف من رحيق العشق الالهي حتى تذوب نفسه بالنور العقلاني وتستمد امدادات القيس الرباني الذي يعرفه من صفت نفسه - وذابت ذاته بالتجريد الموحداني والبهائم العرفاني ، فعندما تنغم نفسه الثقة والاطمئنان فتحس بأنها سبحت نحو الافضل والاكمل واجتازت المفارق والمسالك ،

فاضطلعت على مكنون غيبات غيبه، ولحقت بالنفس الكلية وهي
مرتاضة بالعلوم المرفاتية والتجليات الصفاتية تشرق في أرجائها
أشعة الحقيقة يحللها الكمالية الذاتية ، التاهدة الى المثالية
الأحدية • وبذلك يكتمل الانسان في ذاته عن طريق اكتساب
الفضيلة الانسانية ويتنزه عن تعاطي الأوزار والفواحش والمآثم
ويلزم العدل والانصاف • وعندها تسميه حكيما أو فيلسوفا
عرفانيا •

• انتهى •

الفهرس

٥	كلمة لا بد منها
١٠	مقدمة
١٨	ماهية الروح بلا جسد
٢٠	سر الاتحاد
٢٥	هبة وجود الإنسان والتولد الذاتي
٢٢	داروين واصل الأنواع
٢٦	بدء الخليقة عند الإسلام
٤٠	خلق العالم المتنوع من الروح الواحدة عند اليهود
٤٢	استمرار وصف إبراهيم بأنه مصدر العالم
٤٢	شكس إبراهيم
٤٣	الهندوس والروح
٤٧	الغريق والرومان والروح
٤٩	الفرانسة والروح
٥٢	للروح عند الفلاسفة
٥٧	فلسفة بلسكل
٥٩	أراء فيثاغورس
٥٩	أراء سقراط
٦٠	ماذا يقول سقراط
٦١	أراء راسل
٦٧	الإنسان ينظر فيكرت
٧٨	ديكرت ووجود العالم
٨٩	قدم للعالم بمفهوم أرسطو
٩٢	أرسطو والنفوس
١٠٦	أفلاطون والوجود
١١٠	أفلاطون والعالم
١١١	النفوس عند أفلاطون
١١٨	نيتشه والمواد الأبدي
١٢٨	الفلاسفة المسلمون وعالم الأرواح
١٢٩	الفزالي وقدم العلم
١٤١	حقيقة العالم عند الفزالي
١٤٤	الله عامل العالم
١٤٨	قدم العالم وحدونه عند الفزالي
١٥٩	الفيض والإبداع بمفهوم الفزالي
١٦٤	ابن رشد وحدوث العالم

١٦٩	معرفة الله عند ابن رشد
١٧٠	الالهيات عند ابن سينا
١٧٢	الفيض عند ابن سينا
١٧٤	ابن سينا والعقل والنفس
١٨٠	ابن سينا وخلود النفس
١٨٢	مبدع الهويات عند اخوان الصفا
١٩٢	الفيض الالهي والابداع عند اخوان الصفا
١٩٩	هبوط النفس عند اخوان الصفا
٢٠٨	اخوان الصفا والنفس
٢١٣	الحلل والمملولات عند اخوان الصفا
٢١٦	الله عند الكرمانلي
٢٢١	في العلم الذي هو الموجود الاول
٢٣٢	الابداع عند الكرمانلي
٢٤١	في المادة الاولى التي عنها تكون الاجسام
٢٤٨	الابداع عند صاحب كنز الولد
٢٨٠	الابداع الجسماني عند الحليدي
٢٩٤	بدء نشوء الشخص البشري عند الحليدي
٣٠٢	الامتثال الفاضل من تحت خط الاعتدال عند الحليدي
٣٠٨	ابتداء الانسان عند السجستاني
٣١٠	العلم لا صورة له عند المبدع قبل الابداع
٣١٣	السجستاني وساحب التنبية
٣٢١	الرسالة الجامعة ومثل الموجودات
٣٢٨	الرسالة الجامعة والخلق الروحاني
٣٤٢	الابداع الروحاني عند علي ابن الوليد
٣٥١	بدء الخلق الجسماني عند علي بن الوليد
٣٥٦	نحن ونظرية داروين
٣٥٩	رأينا في المذهب النورية
٣٦٠	ملذا يقول المسيحية
٣٦٠	النشوء الاسلامي
٣٦٢	انكار النشوء الهندي
٣٦٣	الروح الاغريقية والرومانية
٣٦٤	نحن والفلاسفة
٣٦٧	كيف نفهم أرسطو
٣٦٨	موقفنا تجاه البلاطون
٣٧٠	لماذا تطرح أفكار نوتش

الكتاب القادم

فلسفة العقول

٢

أصل الإنسان وسر الوجود

